عالم المعرفة

241

الماضي المشترك بين العرب و الغرب

● أصول الآداب الشعبية الغربية

تأليف : أ.ل.رانيلا

ترجمة : د. نبيلة إبراهيم

مراجعة : د. فاطمة موسى

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

VISIT…

LANZAROTE Caliente.com



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

241

الماضي المشترك بين العرب و الغرب

تأليف : أ.ل.رانيلا

ترجمة : د. نبيلة إبراهيم

مراجعة : د. فاطمة موسى



يناير 1999

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر عن رأي كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر عن رأي كاتبها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

تقديم

هذا كتاب مهم، لعل صدوره في سلسلة «عالم المعرفة» يكون فاتحة دراسات موسعة باللغة العربية في الأدب الشعبي المقارن، تستكمل الخريطة الشاملة لمسار القصص والأساطير والحكايات الشعبية العربية في علاقاتها المتشابكة بالفولكلور العالمي.

ولعل مؤلف هذا الكتاب من المؤلفين الغربيين القلائل الذين يعترفون بالأرض المشتركة بين الثقافتين الشعبيتين: الغربية (وهو يركز على الإنجليزية) والعربية، مؤكدا أن «ثقافة العصور الوسطى كانت في الحقيقة إغريقية لاتينية عربية».

وجدير بالذكر أن اكتشاف الأوروبيين لعالم «ألف ليلة وليلة» من خلال ترجمة أنطوان جالاند الفرنسية في مطلع القرن الثامن عشر وما تبعها من ترجمة حكايات فارسية وحكايات تركية، وترجمة كل ذلك إلى لغات أوروبية أخرى تم في الوقت نفسه الذي عكف فيه الباحثون من الهواة على جمع القصص الشعبي والملاحم القديمة والشعر الشعبي وحكايات الخوارق والجنيات. وذهب بعض الكتاب إلى إرجاع أصول القصص عموما إلى مصدر شرقي. وقد اشتهر من بين هؤلاء الكتاب جون دنلوب الذي نشر سنة 1815 أول تاريخ للقصص الخرافي Fiction، وصفه بأنه دراسة نقدية للقصص النثري، وقد حدد منبعه منذ البداية بأنهم

«الفرس وغيرهم من جيرانهم الآسيويين».

ظل تاريخ دنلوب هذا متداولا بين الباحثين زهاء نصف قرن (آخر طبعة في أيدينا بتاريخ 1816) ثم سقط في جب النسيان بسيادة الرأي الذي عمل مؤلفنا على تفنيده بإحياء بعض تفاصيل الماضي المشترك باعتماد الثقافة الشرقية، والعربية بخاصة، مصدرا مهما من مصادر الفولكلور الغربي.

فأهم ما يميز هذه الدراسة هو اعتماد الثقافة الشرقية والعربية بخاصة مصدرا مهما من مصادر الفولكلور الغربي، وقد أثبت في السطور الأولى من المقدمة أن هذه الحقيقة معروفة في الغالب لكثير من الباحثين الأكاديميين، لكنها غائبة عن جمهرة القراء ومن يتخذون الفولكلور مصدرا للإلهام، ولعل هذا ما دعاه إلى أن يفند مقولات سابقة من أن حضارة الغرب اقتصرت جذورها على عناصر كلاسيكية ومسيحية، فيقول: «إن الجانب الأكبر من المعارف الإغريقية التي تضمنت العلم والفلسفة وصلتنا عن طريق البيزنطيين من خلال الترجمة العربية عن الإغريقية».

وقد نمَّى العرب هذه المعارف وانتقلت عنهم في العصور الوسطى إلى اللغة اللاتينية. ففي القرن الثاني عشر كانت مشروعات الترجمة الكبرى في إسبانيا وصقلية جسورا انتقلت عبرها المعارف العلمية من العرب إلى غرب أوروبا التي كانت في مرحلة بدائية.

وقد أفرد المؤلف فصولا لكل من قصة سيدنا يوسف وزوجة بوطيفار (عزيز مصر)، وقصة سليمان وملكة سبأ، وفصلا مطولا عن الإسكندر المقدوني، وما انتشر عنه من قصص وأساطير في الثقافة الكلاسيكية، ثم «رومانس» الإسكندر في أوروبا في العصور الوسطى، وتجليات قصة الإسكندر في الفولكلور الشرقي. ولعل الفصلين الرابع والسادس من أهم فصول الكتاب وأشملها دراسة.

يعالج الفصل الرابع قصة «عنتر وعبلة»، إذ يجد المؤلف في شخصية عنتر السمات المميزة للبطل الشعبي في الآداب الشعبية في كل اللغات، ويؤكد منذ مفتتح الدراسة أن سيرة عنتر أو رومانس عنتر ـ الذي عاش في القرن السادس الميلادي ـ ترتبط بالتراث الغربي من ناحيتين فهي: «أولا إطلالة إلى الوراء إلى عصر البطولة عند الأقدمين، وإلى الأمام إلى عصر البطل الفارس. وهي تمثل النموذج الأصلي لقصص الفروسية في الرومانس

الأوروبي».

وفي الفصل السادس يعالج المؤلف قصص «ألف ليلة وليلة» في علاقتها بالكثير من القصص الشائعة في أوروبا في العصور الوسطى وفي عصر النهضة، ويبدو أنه، كغيره من الباحثين المحدثين، لا يعرف شيئا عن دراسة دنلوب التي ذكرناها، والتي كان لها صدى واسع في القرن التاسع عشر، لكن ندر أن يلتفت لها الباحثون في القرن العشرين. ومما يميز جهد المترجمة في هذا النص العربي التزامها بالأصول العربية عندما يستشهد المؤلف بنصوص من سيرة «عنترة»، أو «ألف ليلة وليلة»، أو من كتب لمؤلفين عرب كالكسائي والجاحظ وغيرهما، إذ رجعت في الترجمة إلى النص العربي وأوردته كما ورد في الأصل، حيث يتضح أحيانا أن الأصل العربي أكثر دلالة من الترجمة الواردة بالإنجليزية في الكتاب المترجم.

وإذا كان لنا أن نقول: «هذه بضاعتنا ردت إلينا»، فأملنا أن تكون حافزا لنشر دراسات عربية أصيلة في مثل هذا الموضع.

د. فاطمة موسى

مقـدمـه

إن فكرة المصادر الثلاثة للثقافة الغربية، التي يعد الجانب العربي مصدرا منها، ربما لا تكون جديدة على الباحثين الأكاديميين، ولكنها مفاجئة لمن عداهم.

وقد تعلمنا أن حضارتنا نشأت عن جذور كلاسيكية ومسيحية، أي يونانية ـ رومانية، ثم مسيحية ـ يهودية، وأن العناصر الكلاسيكية ظلت مفقودة في معظمها، إلى أن أعيد اكتشافها فيما يعرف بعصر النهضة. أما اليوم فبعد أن أصبح العالم أصغر، ووسائل الاتصال فيه أيسر، والمؤسسات الدينية أكثر استرخاء، وتبادل المعلومات العلمية أوسع انتشارا، فإننا قد اعترفنا بالأرض المشتركة بيننا وبين العرب. فثقافة العصور الوسطى كانت في الحقيقة إغريقية ـ لاتينية ـ عربية.

لقد وصل إلينا الأدب الإغريقي من خلال الرومان، أي أنه وصل إلينا باللغة اللاتينية، إلا أن الجانب الأكبر من المعارف الإغريقية التي تضمنت العلم والفلسفة، وصلنا عن طريق البيزنطيين من خلال الترجمة العربية عن الإغريقية. وقد نمّى العرب هذه المعارف، وانتقلت عنهم في العصور الوسطى إلى اللغة اللاتينية، لقد كانت إسبانيا وصقلية جسرين للمشروعات الضخمة للترجمة في القرن الثاني عشر التي انتقلت عبرها المعارف العلمية من العرب إلى غرب أوروبا، التي كانت آنذاك

في مرحلة بدائية.

إن المكوّن اللاتيني يحتل موقعا خاصا بالنسبة إلى أوروبا الغربية والعالم المسيحي، وبقايا الإمبراطورية الرومانية، مع ذلك العدد الهائل من الأمكنة والتواريخ، والاختلافات، والمتغيرات، والقوى، والتداخلات، التي تتضمنها هذه الكلمات، هذا بالإضافة إلى ما تبقى من روما الوثنية. وبناء على ذلك يظل العهدان القديم والجديد، على الرغم من أصلهما العبري وترجماتهما، يظلان يصنّفان بوصفهما نصا لاتينيا، لأن الكنيسة كانت تمتلكه باللغة اللاتينية.

وأهم ما يعنينا ههنا هو ما ورثناه عن العرب لأنه غير مألوف لدينا، وليس هذا بالأمر الهيّن، فالناس الذين سموا في العصور الوسطى بالعرب، أتوا من مجموعات إثنية مختلفة، من بينهم اليونانيون والفرس والهنود والقبط والأتراك والأرمن واليهود. وقد تم استيعاب الحضارة الغنية التي يمثلونها في الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية، ولكن انتشار الإسلام الباهر في القرن السابع فرض عليهم ثقافة جديدة هي ثقافة الغزاة، وقد عبرت عن نفسها في أسلوب عربي جديد في الحياة.

وكانت الحقيقة الجوهرية لهذه الثقافة هي الإسلام: دينها الرسمي، كما أن وسيلتها في التعبير هي اللغة العربية: لغة القرآن الكريم. ومع ذلك ففي الأساس من هذه العوامل الجامعة، هناك التاريخ الفكري المركب الذي يعكسه الأدب العربي في العصور الوسطى، وكان التيار الهائل من القص الشعبي جزءا من هذا الأدب. وكثيرا ما ظهر هذا القص مدونا أولا في الهند أو في بلاد الفرس، ومن ثم صنف بوصفه أدبا إلى جانب أنه فولكلور، إلا أنه كان شفاهيا في المحل الأول، شارك فيه المتحدثون باللغة العربية، ونقلوه معهم إلى أوروبا في أثناء توسعهم. وعلى الرغم من أن العصور الوسطى كانت هي الفترة الخصبة للتأثير العربي، فقد استمرت حركة تلاقي الحضارات بعد ذلك، ثم جاء عصر النهضة، وفي هذا العصر أدخلت المخطوطات الكلاسيكية للأدب الإغريقي إلى دائرة العلم الغربي حيث حلت اللغات العامية محل اللاتينية. ثم جاء العصر الحديث ومعه أشكال لا نهاية لها من المثاقفة. واليوم لا يشتمل مصطلح «الأوروبي»، على نحو ما هو حاصل، على الأزمنة الإغريقية، والمسيحية اللاتينية مجتمعة فحسب، بل

يشتمل كذلك على القوميات الحديثة، ولا يقتصر على القطاعين الإغريقي واللاتيني للتقسيم الثلاثي للعصور الوسطى. فخلال العصور الوسطى كانت هناك ثلاثة عوامل منفصلة، ولكننا بدءا من عصر النهضة، يمكننا الحديث عن عاملين وهما أوروبا والشرق.

وستجرى المقارنة غالبا في كتابنا هذا، الذي يتناول كلا من المدون والفولكلور، بين الإنجليزي والعربي، أو بين أوروبا والشرقين الأدنى والأوسط. فإليكم بعض التراث الأدبي والشعبي الذى نقتسمه مع الثقافة العربية، وهو تراث ربما كنا نظنه خاصا بنا وحدنا.

١ يوسف وزوجة بوطيفار

عبر جون موري ـ ناشر لورد بايرون ـ عن تحرجه من أن يرد اسم قابيل على لسان شخصية مسلمة. ورد بايرون بسخرية ربما غابت عن موري، وقال: «وهل نفترض أنه ليس هناك من يألف أسماء آدم وحواء وقابيل ونوح عدا أهل الجليل(*)؟ وكان يمكنني أن أورد أسماء سليمان وإبراهيم وداود بل حتى موسى. ولن تعتريك الدهشة إذا علمت أن زليخة هي الاسم الفارسي لزوجة بوطيفار».

إن هذا الكلام لابد أن يعاد تأكيده لنا أكثر من مرة، لأنه يدهشنا بحق أننا نتقاسم مع القرآن الكريم شخوص الكتاب المقدس، فالقرآن الكريم يحتوي على قصة يوسف، كما يحتوي على قصص أخرى. وترد قصة يوسف في القرآن مختلفة في تفصيلاتها عنها في كتابنا المقدس، ولكنها هي بعينها في جوهرها. وتمثل حادثة زوجة بوطيفار جانبا من قصة يوسف في القرآن الكريم، ثم أدخلت على هذه الحادثة تغيرات في القصص التي تفرعت عن القصة القرآنية، كما أدخلت عليها إضافات. ومن هذه الحادثة نسج الشاعر جامي قصيدته الطويلة التي تعد نموذجا للأدب الكلاسيكي الفارسي، وهي التي يشير إليها بيرون. وفي عصر محمد عليه

السلام كانت الإشارة الموجزة البسيطة عن زوجة بوطيفار في العهد القديم التي وردت في سفر التكوين(39)، وقد تطورت في الشرق الأدنى عبر مراحل من التفسيرات العبرية، وفي الفولكلور ومن خلال اختلاط كل هذا بأساطير هيبوليتوس فيدرا اليونانية.

ثم أضاف شراح القرآن الكريم بدورهم، وكذلك الكتاب المتأخرون إلى القصة، التعاطف معها، حتى أصبحت قصة يوسف وزليخة أكثر قصص الحب شعبية في الإسلام.

ومن ناحية أخرى تتمتع قصة يوسف في البلاد المسيحية، بالإضافة إلى ما تحمله من تفان غير عادي في حب الله، بجاذبية أساسية لقصة نجاح، وليس لقصة حب. فيوسف هو مركز الاهتمام الوحيد في القصة؛ إنه الابن المميز الذي منح معطفا متعدد الألوان وضُيّع بسبب غيرة إخوته، وبيع في مصر، لكنه فسر حلم السنوات السبع العجاف والأخرى السمان، ومن ثم أصبح الرجل الثاني في حكم فرعون، ثم كان في النهاية المتبرع بالصفح عن إخوته الذين أغرقهم بنعمته، وفي مثل قصة النجاح هذه، لم تكن حادثة زوجة سيده سوى نكسة قصيرة في الطريق الصاعد للبطل، على أن هذه الصيغة الأولية لقصة يوسف وزوجة بوطيفار، بالرغم من تهميشها، هي التي بقيت ثابتة خلال قرون في الغرب، لسبب بسيط هو مكانتها في النص الإنجيلي. فالمواجهة على نحو ما وصفت في سفر التكوين، هي التي جعلت من قصة يوسف موضوعا شعبيا واسع الانتشار، ونعني بذلك المواجهة بين الشاب العفيف وزوجة الأب الشهوانية، وذلك على الرغم من أن هذه الحادثة ليست أقدم رواية مماثلة لهذا الموضوع، بل إنها ليست أكثرها تميزا في التراث اليهودي ـ المسيحي، ولكنها ثبتت بشكلها إلى الأبد بفضل نفوذ الكتاب المقدس، بكلمتها المفتاح «زوجة بوطيفار». وتمثل الآيات من 1 إلى 23 من سفر التكوين الإصحاح 39 الأحداث ذات الصلة بموضوعنا. وترد على النحو التالي: «وأما يوسف فأنزل إلى مصر واشتراه بوطيفار خصي فرعون رئيس الشرطة رجل مصر من أيدي الإسماعيليين الذين أنزلوه إلى هناك. وكان الرب مع يوسف فكان رجلا ناجحا، وكان في بيت سيده المصري. ورأى سيده أن الرب معه وأن كل ما يصنع كان الرب ينجحه بيده، فوجد يوسف نعمة في عينيه وخدمه. فوكله على بيته ودفع إلى يده كل ما كان له.

وكان من حين وكّله على بيته وعلى كلّ ما كان له، أن الرب بارك بيت المصري بسبب يوسف، وكانت بركة الرب على كل ما كان في البيت وفي الحقل. فترك كل ما كان له في يد يوسف، ولم يكن معه يعرف شيئا إلا الخبز الذي يأكل. وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر، وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: اضطجع معي. فأبى وقال لامرأة سيده: هو ذا سيدي لا يعرف ما في البيت وكل ما له قد دفعه إلى يدي. وليس هو في هذا البيت أعظم مني، ولم يمسك عني شيئا غيرك لأنك امرأته، فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله. وكانت إذ كلمت يوسف يوما فيوما أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها. ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت، فأمسكته بثوبه قائلة: اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج. وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج، أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة: انظروا، قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا. دخل إليّ ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم، وكان كلما سمع أني رفعت صوتي وصرخت، أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلى خارج. فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته، فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة: دخل إليّ العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني، وكان كلما رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب إلى خارج. فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك، أن غضبه حمي فأخذ يوسفَ سيده ووضعه في بيت السجن المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه. وكان هناك في بيت السجن، ولكن الرب كان مع يوسف وبسط إليه لطفا وجعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن، فدفع رئيس بيت السجن، إلى يوسف جميع الأسرى الذين في بيت السجن. وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل. ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئا البتة مما في يده، لأن الرب كان معه، ومهما صنع، كان الرب ينجيه[*2].

وفي هذا النص نجد نواة حكايتنا، فيوسف الذي أُحضر إلى مصر عبدا، بيع لبوطيفار الذي كان يعمل ضابطا عند الفرعون. وشاء الله أن تنجح معاملات يوسف في خدمة سيده بوطيفار ومن ثم صار موضع ثقته،

ثم ألحت زوجة بوطيفار بفجور على يوسف أن يضاجعها، وعلى الرغم من أن يوسف صدها لأنه لا يستطيع أن يعصي الله، استمرت المرأة في إلحاحها. وذات يوم عندما كان البيت خاليا إلا منهما، أمسكت المرأة به من جلبابه، فخلعه وتركه في يدها وجرى خارج البيت. فاتهمت الزوجة يوسف لدى زوجها ورجاله، فحكم عليه الزوج بالسجن. ولكن بفضل استمرار رحمة الله عليه أعاد حارس السجن إلى يوسف مركزه، بأن جعله رئيسا على السجانين، ثم أصبح في نهاية الأمر رئيس وزراء فرعون. وتعكس هذه الحكاية فكرة عبرية أساسية، وهي أن الرجل التقي لابد أن ينتصر، وأن من يعمل طيبا فإنما يجني طيبا. وكان يوسف وسيما وجديرا بالثقة وماهرا في إدارة العمل بقدر ما كان عفيفا. أما المرأة فكانت على نقيض ذلك، جريئة وشهوانية. وتضرع يوسف إلى ربه كي يحميه من الغواية، حتى وهو في السجن وكافأه الله. وعلى الرغم من تعيين بعض التفاصيل، على نحو العبارة التي لفظتها «ارقد بجانبي»، ثم تفاصيل الرداء، فإن حادثة زوجة بوطيفار تروى في عجالة وبشكل عام، حتى يتصل خط الحكاية في حركته إلى الفكرة الأساسية وهي النجاح المادي ليوسف وصعوده فوق إخوته. أما حادثة زوجة بوطيفار فلم تكن ذات أهمية إلا أنها تشير إلى طاعة يوسف للّه من ناحية، وأن المرأة وعاء الشر من ناحية أخرى. وقدمت المرأة؛ بوصفها عنصرا للشر على أنه أمر واقع مباشر، ودون تصوير لفجور أو شبقية، وبدلا من ذلك، فإن القصة تركز على الموضوع الذي يستحوذ على الانتباه، وهو استقامة الرجل الذي يكافأ عليها حتما في النهاية.

على أن أقدم رواية عن الشاب العفيف ونموذج الأم الشهوانية، ليست القصة التي ترد في سفر التكوين، وهي كما ترد في الإنجيل جمعت من وثائق مبكرة ترجع إلى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد، بل إن أقدم رواية مدونة، تظهر في حكاية شعبية مصرية في بردية ترجع إلى 1250 ق. م، وتعرف بحكاية «أنوب وباطا» أو حكاية «الأخوين» ولابد أنها أقدم في الحقيقة من رواية البردي. وبوصفها حكاية شعبية شفاهية، كانت متداولة عبر أجيال طويلة قبل أن تدون. والعناصر الشعبية في الحكاية مألوفة، فهي تتضمن الآتي؛ النصيحة من بقر يتكلم، الهروب المعوق، الروح المنفصلة عن الجسد، النبوءة بالشر، وقوع فرعون في الحب إثر رؤيته شعر المرأة

رمز الحياة، فوران الجعة، الحلول المتكرر، بالإضافة إلى موضوع زوجة بوطيفار. وتتمثل شخوص الحكاية الرئيسية في أنوب الأخ الأكبر، وزوجته، وباطا الأخ الأصغر.

كان باطا يعيش مع أخيه آنوب وزوجته التي حاولت إغراءه دون جدوى، فاتهمته بالخيانة لدى أخيه أنوب، وتريث أنوب حتى يقتله. ولكن بقرة تحدثت إلى باطا وحذرته، فهرب عبر النهر المسحور، ولم يستطع أنوب أن يلحق به، ولكن باطا أخبره من الشاطئ الآخر عن سلوك زوجته الشائن، فقتلها أنوب في الحال. ورحل باطا وقام بمغامرات أخرى، تتضمن وقوعه في براثن زوجة خادعة كذلك، وينقذه منها أنوب بعد فترة، ويرقى باطا عرش فرعون، ويستدعي أخاه آنوب ليشاركه الحكم. ويشبه الجزء الأخير من الحكاية القديمة، بشكل لافت، نموذج الحكاية الخرافية الحديثة «حكاية الأخوين». والنقاط الرئيسية هي: أولا أن حكاية أنوب وباطا حكاية شعبية بحق، ويحق لنا أن نفترض دورانها شفاهيا طيلة قرون سابقة على تاريخ التدوين (1250 ق. م). وثانيا إن الحكاية المصرية في مجملها أكثر قابلية لمقارنتها بحكاية يوسف التوراتية بكليتها، من مقارنتها بحادثة الزوجة الشابة الشهوانية، فكل من يوسف وباطا كان يتضرع إلى الإله طالبا العون منه، وكل منهما تزوج بزوجة وعاش في رخاء في رعاية الفرعون، وأصبح فيما بعد مرتبطا بأخ محب، (في حالة يوسف، الأخ بنيامين) وكلاهما يسدي جميلا لهذا الأخ. وهذا التشابه يدعم استنتاج أن هناك أصلا مشتركا للحكايتين. وإذا كان يوسف ـ تاريخيا ـ عاش في القرن السابع عشر قبل الميلاد فربما كانت هناك فرصة لأن تتأثر حكايته بالحكاية المصرية الشائعة، أو أنه حدث العكس، أن انتقلت أسطورة شفاهية عبرية عن يوسف إلى مصر وحورها المصريون. وفيما يختص بموضوع الغواية، فربما كانت هناك أسطورة أو حكاية شعبية لها معروفة في الشرق الأدنى منذ زمن بعيد للغاية. وإذا تغاضينا عن تاريخ النصوص المكتوبة المنقحة، فإننا نفترض أصولا شفاهية، يمكن أن تحدد ظهور حكاية نموذجية قديمة بالفترة من 2000 إلى 2500 ق. م. ومن ناحية أخرى، لابد أنه في مجتمعات تعدد الزوجات المبكرة، كانت هناك وفرة من زوجات الأب. وربما كانت مثل هذه الحكايات تخدم غرضين، فهي من ناحية تحذر الزوجات، ومن ناحية أخرى تكشف

عن وجهة النظر الأبوية في النساء بوصفهن شياطين الإغواء. ومن المعقول كذلك، أن نفترض أن هذا الموضوع الشعبي بالذات قد نشأ مستقلا بين شعوب قديمة مختلفة.

أما تدوين هذا الموضوع على نحو مستقل بين شعوب مختلفة، فهذا ما حدث. وكان أول ظهوره في الأدب الإغريقي في الإلياذة في القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد، حيث نجد إشارتين عابرتين لزوجات الأب الشهوانيات. وتسبق الإلياذة زمنيا كلا من سفر التكوين ومسرحية «هيبوليتوس» ليوريبيدس التي عرضت في القرن الخامس قبل الميلاد، وشكلت إلى حد كبير معالجات الموضوع في المستقبل. وتركز المسرحية على الثلاثي ثيثيوس وفيدرا وهيبوليتس، وهي بدورها مستقاة من الميثولوجيا الإغريقية الأكثر قدما. وقد صور ثيثيوس، على سبيل المثال، في التراث الكريتي المينوطوري[1]، الذي يرجع إلى ما قبل 1500 ق.م. وحيث إنه كانت هناك صلات مصرية ـ كريتية كثيرة، فربما أثرت حكاية أنوب وباطا في كل من حادثة زوجة بوطيفار في العهد القديم وما يوازيها من حكايات في الميثولوجيا الإغريقية. بل إن هذا الموضوع البسيط لزوجة الأب الشهوانية التي تتهم ابن زوجها، ورد كذلك في الهند في الحكايات البوذية المسماة «جاكاتا»، وترجع إلى حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، ومنها وصلت إلى الفرس لتدرج في كتاب السندباد، الذي أصبح من أكثر الكتب تأثيرا في الأدب عموما، عندما ترجم إلى العربية في القرن الثامن الميلادي. ولقد كان انتشاره عن طريق العالم العربي سببا في نقله إلى لغات متعددة بعناوين عدة منها: سندباد نامه، الوزراء السبعة، الوزراء السبعة الحكماء، وجزء من «توتي نامه» وجزء من ألف ليلة وليلة. وكلها تمثل حكايات إطار، وفيها يلزم الأمير البريء نفسه بالصمت، ولكن معلمه أو معلميه السبعة دافعوا عنه بحكايات عن خداع النساء حتى استطاع أن يرد عن نفسه. وكان السندباد أحد أسماء المعلمين أو هو رئيسهم، وسوف نعود كثيرا ـ فيما بعد ـ إلى ذكر كتاب السندباد. وعلى أي حال سجلت الروايات القديمة لهذا الموضوع في هذه الآداب الأربعة المختلفة: الأدب المصري، والهندي، واليوناني، والعبري. أما بالنسبة للحكاية البسيطة عن يوسف وزوجة بوطيفار، (ولا نتحدث عن الحكاية الإطار)، فحيث إن البردية التي أوردت حكاية أنوب وباطا لم

تكتشف إلا في القرن التاسع عشر، فإن الأصول الأدبية المؤكدة التي اعتمدت، هي الإنجيل ومادة هيبوليتس.

على أن حكاية يوسف وزليخة انتشرت في القارة الأوروبية وإنجلترا في العصور الوسطى، نقلا عن النص الإسلامي؛ فقد امتد التأثير العربي من بلاد فارس حتى إسبانيا. ومن المحتمل أن هذه الحكاية كانت الموضوع الفريد الأكثر انتشارا لنصوص العصور الوسطى في هذين البلدين؛ فلقد سُجل من بلاد الفرس ثماني عشرة رواية أدبية منفصلة، كما سُجِّل من إسبانيا عدد لا يحصى لقصائد ومسرحيات وقصص عن يوسف.

كان المصدر المباشر لحكاية يوسف الإسلامية بطبيعة الحال هو القرآن. ونظر الإسلام إلى القادة التاريخيين للديانة اليهودية والمسيحية بما في ذلك المسيح، بوصفهم أنبياء لإله واحد، شأنهم في ذلك شأن النبي محمد (عليه السلام)، ويحكي القرآن، على نحو جديد، حكايات الأنبياء السالفين بأسمائهم ومن بينهم يوسف. وتجمع كثير من سور القرآن في ثناياها تعاليم دينية متعددة، أما سورة يوسف فتعد سورة فريدة من حيث إنها تعالج موضوعا واحدا على مسار السورة؛ فهي قصة متتابعة ونامية ومن الواضح أن مظهر يوسف كان له سحر في المجتمعات المسيحية واليهودية وخارجها على حد السواء. ويصف القرآن الكريم سورة يوسف بأنها «أحسن القصص». على أنه في أثناء القرون التي تفصل بين كتابة سفر التكوين، (الإصحاح 39) ونزول القرآن، تراكمت مادة إضافية ثرية في الشرق الأدنى حول الشخصيات التوراتية، بحيث لم يعد هناك نص سفر التكوين فحسب، بل كذلك التفسير الميدراشي[*3] والهاجاداه[*4] للتوراة إلى جانب كتاب الأبوكريفا[*5] والتراث الفولكلوري. وقد كان للروايات اليونانية الشرقية المتوارثة عن الشاب العفيف ونموذج زوجة الأب الشهوانية تأثيرها السابق في بعض النصوص العبرية. وأهم وثيقة في هذه النصوص العبرية ما يسمى بنقش «عهد البطارقة الاثني عشر» الذي دونه دارسون عبريون في فلسطين حوالي المائة قبل الميلاد، وتزعم هذه الوثيقة أنها تقدم سيرة أبناء يعقوب الاثني عشر، ومن بين هذه السير يقف عهد يوسف مرة أخرى منفردا؛ ففي حين تستمر السير الأخرى في الأسلوب الصارم الناصح والمحذر، الذي هو سمة الكتب المبكرة للتوراة، يستغرق عهد يوسف في تفصيل ذكريات تجربته مع زوجة

بوطيفار. وعلى الرغم من أن العنصر الشهواني، بالنسبة له، مثقل بالخوف من الله، فإنه على الأقل موجود ويمثل، بناء على ذلك، منطلقا جديدا. فهو يُصور، كما هو مألوف، مصليا، باكيا، صائما، ولكنه يصور في هذا العهد ممتلكا كذلك للعواطف الطبيعية البشرية.

وتتمثل النقاط التي يضيفها عهد يوسف إلى النص التوراتي فيما يلي: تصف بعض النصوص شخص بوطيفار بوصفه «أغا فرعون»، الامتداد بتوسلات الزوجة إلى يوسف التي ترد في غير ذلك مختصرة، على نحو ما، بحيث تغطي مساحة من الزمن؛ فهي تهدده وتعده في الوقت نفسه بأنه سيصبح سيدها، وهي تطري سمعته بأنها قناع يحجب الشر، وهي تعري نفسها وتتزين لإغرائه، وهي تقترح قتل زوجها، كما تقترح عليه أن تهتدي بدينه، وهي تتظاهر بالمرض، وهي تهدد بالانتحار، ويحذرها يوسف من أن قتلها لنفسها يسمح لزوجة منافسة بأن تسيء معاملة أبنائها، ولما سجن يوسف بعد أن وجهت إليه التهمة، ظلت تزوره بانتظام.

أما نص «ميدراش راباه» (أي التفسير الأسطوري العظيم للتوراة) الذي يُعتقد أن عزرا بدأه في سنة 444 ق. م واستمرت الإضافة إليه حتى سنة 270م، فله إضافته الخاصة؛ فبالنسبة لافتراض أن بوطيفار كان خصيّا، يضيف تفسيرا لذلك أنه كان عقابا من اللّه، لأنه اشترى يوسف بهدف اللواط، ويصور النص زوجته عاهرة بسبب قولها ليوسف على نحو مباشر، هيا إلى فراشي، والمرأة كانت كذلك قاسية، فقد قيل عنها إنها كانت تستفز يوسف وهو في السجن، وإنها كانت تضع شوكة أسفل ذقنه لترغمه على النظر إليها. أما يوسف فقد صور قابلا للإغراء، وإن كان صارما في مقاومته. ويغلب الظن أن حكاية هجادية مفقودة قدمت منظر مأدبة قطّعت فيها صديقات المرأة أصابعهن عند رؤيتهن يوسف.

وهناك نقطة مسجلة مبكرا عند جوزيفوس الذي دون مؤلفه «الآثار القديمة لليهود» في 93م. ويمدنا هذا المؤلف بتأكيد واحد ولكنه فعال، وهو ملاحظة أن جمال يوسف كان المهيج لعاطفة المرأة.

بالإضافة إلى التراث العبري، كان للتراث الإغريقي تأثيره في قصة يوسف التي انتشرت في العالم الإسلامي، أساسا من خلال حكاية هيبوليتس وفيدرا. وربما كان لحكاية هيبوليتس وفيدرا المناظرة، تأثير في التراث

اليهودي الذي ترك أثره بدوره في التراث العربي. ومن الممكن أن تكون الصيغة الهلينية التي دخلت على قصة يوسف في الشرق، ومن المحتمل كذلك حكاية أنوب وباطا، قد أحدثتا تداخلا ثقافيا متبادلا لم يكن من الممكن تجنبه حتى قبل مجيء الإسلام، فلقد كانت قصة هيبوليتس نفسها معروفة على نطاق واسع في العالم الهليني من خلال الفولكلور والرومانس المدون على حد سواء. وقد حظي يوروبيدس بإعجاب كبير في الشرقين الأدنى والأوسط، كما يتضح من كتاب بلوتارك «حياة كراسوس»، فقد حدث أنه بعد مقتل كراسوس مباشرة وقطع رأسه، أن عُقد حفل خطبة في «بارثيا»، ثم أزيحت مناضد الاحتفال وظهر الممثل الدرامي وهو يغني نشيدا من مأساة عابدات باخوس، حيث كانت أجافي على وشك الظهور حاملة رأس بنثيوس في يدها. وفي هذه اللحظة قُذف برأس كراسوس وسط الجماعة، ثم أمسك الممثل الرأس وأخذ يؤدي دور أجافي. فهذا المشهد يمثل أهل بارثيا (مملكة قديمة في غرب آسيا يرجح أنها أرمينيا) في أثناء حروبهم مع الرومان. وكان البارثيون على صلة حية بالتراث اليوناني وكذلك الرومان ورثة الإغريق. ويبدو أن مسرحية هيبوليتس كانت الأكثر شيوعا من كل مسرحيات يوروبيدس، فهناك لوحات من الفسيفساء في أنطاكية ترجع إلى القرن الثاني تظهر فيها مناظر لفيدرا ومربيتها، مما يشير إلى الانتشار الواسع للمسرحية، مثلما تنتشر بيننا أشهر مسرحيات شكسبير.

وتختلف حكاية هيبوليتس اختلافا لافتا عن حكاية سفر التكوين فيما يلي: دوام حب فيدرا مدة أطول. اشتعال الحب في قلب فيدرا بفعل الآلهة. فيدرا تهزل وتضعف. صداقة نساء طروزون لها. وكان لها كذلك مربية مخلصة حذرتها من أنها لو ماتت سيكون لابن زوجها الأسبقية على أبنائها. انتحار فيدرا نتيجة رفض ابن الزوج لها، إلا أنها تتهم هيبوليتس في خطاب أرسلته له، ولم يستطع الأخير أن يبرئ نفسه بسبب قسم عقده بينه وبين الآلهة. ثيسيوس ينزل به اللعنة، ويُقتل. وتكاد المسرحية تركز على فيدرا تركيزها على هيبوليتس، وتبدو فيدرا في المسرحية ضحية الآلهة أكثر منها هي نفسها شريرة. وهنا نجد أن الآلهة كانت ضد الشاب العفيف بمقدار ما كانت ضد المرأة، بينما نجد في الرواية العبرية أن الإله كان منحازا تماما للذكر.

هكذا تطلعنا المقارنة على العناصر الإنسانية في القصة اليونانية والهلينستية مقابل الهدف التعليمي والمفهوم الأبوي الصارم في الحكاية العبرية. ولكن التغيير الذي طرأ على حكاية زوجة بوطيفار حدث مبكرا، كما رأينا، منذ أن كُتبت «عهود البطارقة الاثني عشر»، حيث نجد أن ملاحقة الزوجة ليوسف استغرقت بعض الوقت، ثم يطرح موضوع تظاهرها بالمرض وتهديدها بالانتحار، وتحذير يوسف لها بأن انتحارها يترك أطفالها في وضع مؤسف، وكل هذه النقاط لها ما يوازيها في حكاية هيبوليتس، إن لم تكن هي مصدرها.

أما عن تهديد زوجة بوطيفار ليوسف بالانتحار، في الوقت الذي تغريه بالسيادة، ثم استخدامها لعفة يوسف قناعا وعرضها عليه أن تقتل زوجها، كل هذا له ما يوازيه في صور أخرى لأسطورة فيدرا وما تسلل من روايات. أما وصف الحكاية العبرية لبوطيفار بأنه خصي، ثم خلع المرأة عنها أرديتها، واحتفالها بالزينة لإغراء يوسف ثم عرضها عليه أن تتحول إلى دينه، وزيارتها له في السجن فضلا عن الإضافات التي أضافها نص «ميدراش إباه» عن ضعف يوسف، فكل هذا يبدو أنه تفاصيل سامية سوف ترد مرة أخرى في روايات العصور التالية. وتعد الإشارة إلى جمال يوسف بوصفه السبب في إلهاب العاطفة - وهو ما ورد ذكره لأول مرة عن جوزيفوس - تعد عنصرا قصصيا آخر نمّاه الكتاب المتأخرون فيما بعد. كما تظهر موتيفات إغريقية من قصة هيبوليتس بعد ذلك منها: تبرئة الزوجة لأن حبها مقدر من الله، ثم ذبولها، ومراقبة صديقاتها لأحوالها وكذلك مربيتها، وكل هذا ليس مجرد عناصر قصصية، بل هي عوامل مهمة تضفي على الحكاية طابعا إنسانيا.

وإذا قرأنا السورة القرآنية (سورة يوسف - 12) في إطار ما سبق من قصص، نلاحظ الأسلوب المخفف في معالجة موضوع المرأة، بينما تحتفظ السورة بمحور يوسف - الله - ثم بالعظة المعتادة في النص العبراني، قال تعالى في سورة يوسف: ﴿**وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه، قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين. وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا. وكذلك مكنا ليوسف**

في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون. ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين. وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال: معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، إنه لا يفلح الظالمون. ولقد همت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين. واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب، قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم، قال هي راودتني عن نفسي. وشهد شاهد من أهلها، إن كان قميصه قُدّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قدَّ من دُبر فكذبت وهو من الصادقين، فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم. يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين. وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، قد شغفها حبا، إنا لنراها في ضلال مبين. فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا، وقالت أخرج عليهن، فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم، قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليُسْجَنَن وليكونن من الصاغرين. قال ربّ السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أَصْبُ إليهن وأكن من الجاهلين، فاستجاب له ربهُ فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم، ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾. (الآيات 19 ـ 35).

ومن الواضح أن النص القرآني نمَّى قصة يوسف. فمن الإضافات اللافتة أن يوسف استجاب لسحر المرأة لولا أنه رأى برهان ربه الذي صرفه عن الإثم. وأن قميصه قُد من الخلف، وبناء على ذلك أعلن الشاهد براءته، وأن النساء اللاتي استضافتهن المرأة أذهلهن جمال يوسف إلى درجة أن قطعن أيديهن، وبناء على ذلك أعفينها من اللوم، وأن الزوجة اعترفت بذنبها على الملأ في نهاية الأمر.

وبهذا أقرت سورة يوسف في القرآن الكريم النموذج المستقبلي لتأليف هذه الرواية في الشرق الأدنى، وهي تلك الروايات التي توسعت بدورها في هذا النموذج، ففيها لم تتخذ المرأة اسما بعد، ولكنها تتوسط مشهد المأدبة

الذي أصبح المشهد الرئيسي المفضل في الروايات الإسلامية المتأخرة، كما أصبحت تتوسط مشهد المحاكمة المنزلية، بقدر ما تتوسط مشهد اعترافها بالذنب على ملأ من الناس. وعلى الرغم من ذلك تظل السورة القرآنية معنية بيوسف في المقام الأول. ومرة أخرى نرى إلى أي حد يكون نفوذ النص الديني، وهو في هذه المرة نفوذ النص الإسلامي الذي أعطى القصة شكلا باقيا، إلى جانب شخصيات أخرى من العهد القديم، على أن النص الشرقي المشروع لم يكن مثل النص الغربي، مانعا دون توليد الروايات التي قبلت على المستوى التفسيري على هامش النص الديني. وإذا شئنا أن نبحث عن الرواية العربية التقليدية لقصة يوسف وزوجة بوطيفار، فعلينا أن نتجاوز سورة يوسف في القرآن الكريم إلى النصوص الموسعة لمفسري القرآن الذين شرحوا وفسروا وملأوا الفجوات من ناحية، وتوسعوا في المختصر منها، من ناحية أخرى، مع الأخذ من الروايات الفولكلورية السابقة على النص القرآني. ومن بين المفسرين، وأكثرهم أهمية الكسائي والثعلبي، وهما من كتاب القرن العاشر الميلادي، وكل منهما كتب كتابا عن «قصص الأنبياء». وفي كلا الكتابين ترد قصة يوسف وزليخة (أو راعيل). وها هي ذي القصة كما وردت عند الكسائي. وسوف نشير إلى المواضع التي تختلف فيها مع الثعلبي.

نص الكسائي (دار الكتب المصرية ـ ليدن 1922).

«قال ابن عباس رضي الله عنه: ثم إن قوطيفر أتى بيوسف إلى قصر زليخا بنت عكاهرة، وقال لها: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا، فتعجبت زليخا من حُسن يوسف وشغفت بحبه. فقالت له: ما أحسن كلامك وأطيب نعمتك. قال وهب: وكان النور يزهر بين عينيه ويظهر من بين جلده ولحمه، كما يزهر المصباح في الزجاجة البيضاء، فقال: يا زليخا، لو رأيتني بعد الموت لأنكرتني، ولم تري أوحش مني. فقالت يا يوسف قد شغفت بحبك، ولابد لي من مراودتك عن نفسك. فقال لا يا زليخا من بعد ما رأيت من الآيات ترتكبين المعصية؟ فقالت زليخا، ما أحسن لغتك غير أني لا أفهمها. «فقال يوسف: إنها لغة جدي إبراهيم، ولولا أنها محرمة على من يشرك بالله لعلمتك إياها. ولكن أكلمك إن شئت بالحورانية. فقال: وإني أحب اللغة الحورانية، فإنها لغة أهل مصر.

(**الثعلبي**)[*6] : لما أرادت امرأة العزيز مراودة يوسف عن نفسه، جعلت تذكر له محاسن نفسه، وتشوفه إلى نفسها، فقالت له: يا يوسف، ما أحسن عينيك! قال: هما أول ما يسيل في الأرض من جسدي: قالت: ما أحسن وجهك! قال التراب يأكله.

(**الكسائي**)[*7] : فلم تنته إلى أن راودته ثانية وذلك أنها بنت لنفسها بيتا حسنا مزينا بكل زينة سمته بيت الفرح والسرور، وزينت نفسها، وقعدت على سريرها، ودعت يوسف وأجلسته على الكرسي وغلّقت الأبواب وأرخت الستور، ثم قالت: يا يوسف هيت لك، معناه، أنا لك، وقد تزينت. فقال: وأين زوجك قوطيفر؟ قالت: ما أصنع به وأنت الحبيب وأنا لك حبيبة. فقال: إني أخشى من هذا البيت أن يكون بيت الحزن وبقعة من بقاع جهنم. فقالت: يا يوسف قلبي يحبك فارفع رأسك وانظرني في حسني وجمالي، فقال لها: صاحبك أحق بذلك مني، قالت: ادن مني يا يوسف. قال: أخاف أن يذهب نصيبي من الجنة. قالت: إني قد سترت أمرى من الناس، فاقرب مني. قال: فمن يسترني من الله رب العالمين.

(**الثعلبي**): قالت، يا يوسف قد أنحلت جسمي بصورة وجهك، قال: الشيطان ينبئك على ذلك. قالت: يا يوسف الجنينه قد التهبت نارا، قم فأطفئها. فقال: إن أطفأتها فمنها احتراقي. قالت: يا يوسف الجنينة قد عطشت قم فاسقها. قال: من كان المفتاح بيده فهو أحق بأن يسقيها مني. قالت: يا يوسف بساط الحرير قد بسط لك فاقض حاجتي. قال: إذن يذهب نصيبي من الجنة، قالت: يا يوسف ادخل معي تحت الستر فأسترك به، قال: ليس شيء يسترني من ربي تعالى إن عصيته. قالت: يا يوسف ضع يدك على صدري تشفني بذلك. قال: سيدي أحق مني بذلك، قالت: أمّا سيدك، فأسقيه كأسا فيه زئبق الذهب فيتناثر لحمه ويتساقط عظمه، ثم ألقيه في الإستبرق وألقيه في القيطون، يعني المخدع، لا يعلم به أحد من الناس، وأوليك ملكه قليله وكثيره. قال: فإن الجزاء يوم الجزاء. قالت: يا يوسف، إني كثيرة الدر والياقوت والزمرد، فأعطيك ذلك كله حتى تنفقه في مرضاة سيدك الذي في السماء، فأبى يوسف. فجرى الشيطان فيما بينهما، فضرب بإحدى يديه إلى جنب يوسف، وباليد الأخرى إلى جنب المرأة حتى جمع بينهما. فبلغ من هم يوسف إلى أن حل الهيمان وجلس منها

مجلس الرجل الخائن.

(**الكسائي**): قالت: إن لم تفعل ذلك قتلت نفسي في ساعتي هذه، وتقتل أنت بسببي، ثم قامت وقربت يدها إلى سكين لتقتل نفسها بها، وكان ذلك خداعا منها ليوسف، فبادر إلى السكين وأخذها من يدها ورماها، فألقت نفسها عليه وهمت به وهم بها، فهبط جبريل وتمثل له في صورة أبيه.

(**الثعلبي**): فضربه بيده على صدره فخرجت شهوته من أنامله. وقال يعقوب يا يوسف لا تواقعها، إنما مثلك، ما لم تواقعها، مثل الطير في جو السماء لا يطاق، ومثلك إن واقعتها، مثله إذا مات ووقع على الأرض لا يقدر أن يدفع عن نفسه. ﴿**ولقد همت به وهم بها**﴾ فإذا بكف قد بدت فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم مكتوب فيها: ﴿**وإن عليكم لحافظين، كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون**﴾.

وقامت امرأة العزيز إلى الصنم، فظللت دونه بثوب، فقال لها يوسف: ما هذا. قالت: أستحي أن يرانا، فقال لها يوسف: أتستحين ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يفقه، ولا أستحي أنا ممن خلق الأشياء كلها وعلمها.

(**الكسائي**): فلما نظر إلى البرهان، بادر نحو الباب، فخرجت زليخا خلفه، وجذبت قميصه من خلفه، فقدته، فألفيا العزيز وهو بتلك الحالة، فقال: ما بالك يا غلام فقال: أيها العزيز: إني رأيت في قصرك منكرا، وأستحي أن أقول امرأتك راودتني عن نفسي، فقال له: ارجع يا غلام، وإلا قتلتك، فرجع معه، فلما دخل القصر، بادرت زليخا إليه وهي تبكي وتقول: ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم؟ فقال يوسف: أيها العزيز، هي راودتني عن نفسي، وإني معها في جهد منذ دخلت هذه الدار، فهم قوطيفر أن يضرب يوسف بسيف كان معه، فنجاه الله، وشهد شاهد من أهلها... وكان في القصر طفل نائم لأخت زليخا له من العمر ستة أشهر، فتكلم بإذن الله وقال: يا قوطيفر لا تعجل، فإني سمعت تخريق الثوب، إن كان قميصه قُدَّ من قُبُل، فصدقت، وهو من الكاذبين، وإن كان قميصه قد من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين. فلما رأى قميصه قدّ من دُبر، سكن غضبه على يوسف، وأقبل عليها، وقال إنه من كيدكن، إن كيدكن عظيم، ثم أقبل على يوسف، وقال يا يوسف أعرض عن هذا الحديث لا يسمعه الناس فيعيروني به. ثم قال لزليخا، استغفري لذنبك، إنك كنت من

الخاطئين، فشاع الخبر في المدينة، امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، فعاتبها النساء وعيّرنها بذلك، وقلن لها: إنا لنراها في ضلال مبين، فلما سمعت بمكرهن، أرسلت إليهن، وأعتدت لهن مُتكأ، أي اتخذت لهن طعاما وفرشا، وزينت لهن المجلس، ودعت بامرأة الكاتب والوزير وصاحب الخراج، وصاحب الدواة، وأمثالهن من نساء أصحاب العزيز، فلما حضرن قعدن في مجالسهن، وقدمت لهن صفايا الأترج والعسل، لأن تلك كانت عادتهن قبل الطعام، وآتت كل واحدة منهن سكينا، ثم إنها زينت يوسف بأحسن الزينة، وقالت: اخرج عليهن ضاحكا مستبشرا رافعا رأسك حتى ينظرن إلى حسنك وجمالك. ثم دخلت إليهن وقدمت لكل واحدة منهن سكينا وإناء فيه أترج، فأخذت النساء في أكل الأترج. فأرسلت زليخا إلى يوسف وقالت أخرج عليهن، فخرج عليهن كما أمرته، فلما تبسم، بدت ثناياه كأنها در منظوم ووجهه كالبدر ليلة تمامه وكماله. فلما نظرت إليه النسوة أكبرنه... وقطعن أيديهن وهن يقطعن في الأترج، فقلن لها يا زليخا، ما رأى أحد مثل هذا الغلام لأنه فتنة لكل من رآه، فقالت لهن: فذلك الذي لمتنني فيه، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره، ليسجنن وليكونن من الصاغرين. فقال يوسف: رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه. ثم استأذنت زليخا العزيز في سجن يوسف فأذن لها في ذلك، فأدخلته سجنا ضيقا منفردا... ودخل معه السجن فَتَيان كانا للملك. فلما كان من الغد عاد أحدهما إلى خدمة سيده. وعندما رأى الملك رؤيته طلب من يوسف تفسيرها ففسرها، فقال الملك ائتوني به، فرجع الغلام، وبشر يوسف وقال: إن الملك يأمر بخروجك، فقال: ارجع إلى سيدك فاسأله: ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن بالسكاكين يوم أبصرنني، فرجع الساقي إلى الملك وأخبره بذلك، فقال الملك: صدق ولكن عليّ بالنسوة. فأتى ببعضهن لأن بعضهن كن قد مِتْن، فلما وقفن بين يديه وفيهن زليخة، قال الملك ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه، فسكتْن حياء من الملك، فسألهن ثانية: فقلن حاشا للّه، ما علمنا عليه من سوء. فقالت زليخا: أيها الملك، الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين. فقال الملك ائتوني به وأكرموا مثواه، ثم دعا وزيره ودفع إليه تاجه وسيفه وفرسه الذي كان لا يركبه إلا في يوم الزينة، وانطلق الوزير إلى يوسف وأركبه على فرس الملك

وأتى به إلى الملك فعانقه الملك وأجلسه على السرير وسط القبة.

(**الثعلبي**): فلما خرج من السجن كتب على بابه، هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء.

وحدثت المجاعة، ولما بلغت السنة السابعة مات قوطيفر.

(**الكسائي**): وأصاب زليخا ما أصاب القوم من الجهد والجوع، فباعت ما تملكه طعاما وصارت مملوكة ليوسف، فأقبلت يوما إلى يوسف، وقالت: يا يوسف، سبحان من جعل العبيد ملوكا وأعزهم بطاعتهم، وأذل السادات بمعصيتهم، لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له.

فقال يوسف، من أنت أيتها المرأة؟ فقالت: أنا زليخا امرأة العزيز، وذكرت حاجتها إلى الطعام. فبكى يوسف وقال لها: إني باعث إليك بجميع ما تحتاجين إليه، وأرد عليك جميع أموالك وعبيدك، وأنت سيدة كما كنت، ثم تزوجها بشهادة الملك... وبحضور ملوك مصر. وردّ الله عليها حسنها وجمالها وشبابها، فلما دخل عليها وجدها بكرا، فقالت له: واللّه ما مسني ذكر قط، وزوجي قوطيفر ما كان يقدر عليّ لأنه كان عنابا. ثم ولدت له ولدين فسمى أحدهما إفرائم والآخر منشا».

منذ أن ظهرت كتب «قصص الأنبياء»، وهناك الكثير، الكثير من الكتابات الشرقية التي تعيد كتابة قصة يوسف وزليخة (أو راعيل). وقد اكتشف قريبا مخطوط إسلامي شعري يرجع إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر، وهو يثبت إمكان إضافة لمسات جديدة على يد أجيال المنقحين للقصة، بل لمسات فكاهية، وإن كان ذلك يتم في إطار الحكاية التراثية.

ففي هذه القصيدة تعنف زليخة صديقاتها عندما قطعن أصابعهن وتقول: «رفقا بأنفسكن لا تقطعن أيديكن، بل أرخين نظركن إلى أسفل. لو تشفعن لي عنده، فربما رق ولان». فاقتربن منه وكل واحدة تغريه بالنظر إليها وتبعده عن النظر للأخريات. وعندئذ قال يوسف: أقسم باللّه لقد كانت امرأة واحدة وأصبحن الآن كثيرات، فكيف يمكنني الهروب منهن؟ وإثر ذلك، سألت زليخة شخصيا الملك وهي في كامل بهرجتها أن يعاقبه. ومضى يوسف إلى السجن شاكرا ربه.

وفي القصيدة الفارسية التي ترجع إلى القرن الخامس عشر والتي أشار إليها بيرون، زخرف جامي قصته بمزيد من العناصر الفولكلورية التي

قد تجمعت قبل نزول السورة القرآنية، وتبدأ القصيدة برؤيا آدم لسلالته الباهرة التي كان يوسف أروع رجالها. «فالجمال يذبل عند رؤيته». أما زليخة فهي أميرة شابة ذات خدر. ورأت ثلاث مرات في رؤياها رجلا جماله يفوق الوصف، وقال لها إنه يتحتم عليها أن تحتفظ بحبها له. وعندما أخبرها في النهاية أنه وزير مصر الكبير ألحت على أبيها أن يهيئ لها الزواج بهذا الرجل المجهول. واكتشفت أخيرا، وعلى وجه التحديد عند زفافها في مصر، أن من تزف إليه ليس هو الرجل الذي رأته في أحلامها، ولكن الملك جبريل أكد لها أنها ستجد حبها الحقيقي من خلال هذا الرجل. وقد حدث هذا حقا. ففي طريقها، من حفل الزفاف التقت يوسف وهو يباع في سوق العبيد. وأغرت زوجها بشرائه، وكان الفرعون نفسه يريد أن يقتني هذا العبد. ولكن لأن الوزير كان مخصيا، سمح الفرعون له بأن يشتري يوسف ويتخذه ولدا له. ثم تستمر القصة بعد ذلك متبعة الخطوط الرئيسية كما وردت في كتب «حكايات الأنبياء»، وإن تكن تتميز بالإسهاب في كل التفاصيل، ومثال ذلك: دور زليخة التي تساعدها وتحرضها، ثم وصف قصر الحب، والمأدبة التي أقامتها زليخة للنساء، وسجن يوسف وإطلاق سراحه، ثم تعيين يوسف في منصب الوزير الأكبر بدلا من زوج زليخة، ثم موت الزوج إثر ذلك، وتوبة زليخة وتعرضها للفقر المذل، وسكناها في كوخ كان يقع في طريق يوسف، ثم التقاؤهما مرة أخرى، وزواجها منه. ومن ناحية أخرى، فإن موضوع المربية الجريئة التي تثير الحدث في القصة، وكذلك فكرة أن اللّه قدر لزليخة هذا الحب من قبل، كل هذا يستدعي أسطورة هيبوليتوس. على أن الطريف أن حكايات الشرق، شأنها شأن الأدب الغربي المتواتر عن فيدرا، تضع المرأة في الصدارة.

وتصبح القصة بعد ذلك قصة زليخة أكثر منها قصة يوسف، فلا تبدو زليخة عقيلة شهوانية، بل عذراء بريئة وفية للحلم الذي ألهمها به اللّه، ثم أصبح الحلم حقيقة بعد توبتها وتحولها للدين الجديد. وعندئذ تسترد شبابها وجمالها وتبرأ من كل العيوب. وبهذا تحولت قصة يوسف تحولا كاملا بدءا بقصة بايرون عن أهل الجليل بما تحمله من لمسة من السخرية، والتي تحتفظ روايتها في إنجيل الغرب بخشونة زمان ومكان كتابتها، وصولا إلى الصيغة الإسلامية التي تحمل عذوبة التأثير الإنساني للقصص الشرقي،

الرومانسي والواقعي منه.

النص الغربي

ملابس الإمبراطور الجديدة

كان يا مكان، كان هناك إمبراطور شديد الغرام بالملابس الجميلة، إلى درجة أنه أنفق كل أمواله على ملابسه الفاخرة. وكانت البلدة التي يقع فيها قصره سعيدة للغاية، وكان يفد عليها الزائرون كل يوم. وذات يوم جاءها اثنان من الأفّاقين، وروجوا بين الناس إشاعة أنهما يعملان بصناعة النسيج، وينسجان أروع الأقمشة، وزعما أن هذه الأقمشة لم تكن تتميز بألوانها ونقوشها الجميلة فحسب، بل كان للقماش خاصية تجعله غير مرئي لكل من كان يشغل منصبا غير مؤهل له، أو إذا كان أحمق حماقة لا تغتفر.

«إن هذا رائع حقا»، قال الإمبراطور لنفسه، الآن يمكنني أن أعرف مَن مِن مستشاريَّ غير كفء في منصبه إذا ما صنعت لهم أردية من القماش. سأطلب من الرجلين أن ينسجا لي بعض الأقمشة. ثم دفع مبلغا كبيرا من المال لهما لكي يبدآ في النسيج. ثم فكر الإمبراطور وقال: «سوف أرسل رئيس وزرائي المقرب إليّ أولا ليرى على أي نحو يسير العمل، إنه يعرف كيف يحكم على مادة القماش» ودخل رئيس الوزراء العجوز الطيب الحجرة حيث يعمل الأفاقان، ولكنه لاحظ أن النول فارغ، فقال في نفسه: «اللهم احفظنا! إنني لا أرى شيئا». وبادره الأفاقان متسائلين: أخبرنا ما رأيك فيما ترى؟» فرد وهو يتمتم: «رائع» وضبط نظارته على عينيه، ثم ذهب وقدم تقريره للإمبراطور. وفي النهاية قرر الإمبراطور أن يرى القماش (بنفسه). ودخل الحجرة التي يعمل فيها الأفاقان في همة على النول، مصطحبا معه علية قومه.

وابتدرهم رئيس الوزراء متسائلا: «أليس هذا رائعا؟» وقال الإمبراطور في نفسه: إنني لا أرى شيئا، كيف يحدث هذا؟ إنها كارثة. ثم قال بصوت مرتفع: «إن القماش رائع، وهو يروق لي». ونصحه مستشاره بأن يُقص القماش ويُخاط ملابس يرتديها في موكب الاحتفال العظيم القادم. ولم يغمض للأفاقين عين طيلة الليلة السابقة على الاحتفال، وكان الجميع يشهدون إلى أي حدّ هما منشغلان. وفي النهاية أعلنا على الملأ: «إن ملابس

الإمبراطور الجديدة جاهزة». وجاءهما الإمبراطور، وافتعل الأفاقان أنهما يلبسانه الملابس الجديدة. وسار الملك والحاشية في الموكب، وكل من في البلد يقول إن ملابس الإمبراطور رائعة. ولم يجرؤ أحد منهم على أن يعترف بأنه لا يرى شيئا. بل إن ملابس الإمبراطور لم تحظ من قبل بمثل هذا الترحاب.

ولكن طفلا صغيرا صرخ قائلا: «إنه لا يرتدي شيئا! ودار الهمس بين الناس وأخذ يعيد أحدهم للآخر ما قاله الطفل: وفي النهاية صرخ الجميع»: إن الإمبراطور عريان!».

وانتابت الإمبراطور قشعريرة، إذ أدرك أنهم على حق، ولكنه قال في نفسه: «لابد أن أتحمل حتى ينتهي الموكب». وسار الإمبراطور في الموكب ربما في كبرياء أكبر.

النص الشرقي

القماش الخفي

وفد ثلاثة من العمال على ملك، وزعموا أنهم يعملون بالنسيج، وأنه في وسعهم صنع قماش له خاصية عجيبة، فلا يرى هذا القماش إلا من كان ابنا شرعيا لأبيه، أما إذا كان غير شرعي، حتى وإن اعتقد أنه ابن شرعي ـ فهو لا يراه، وسعد الملك بهذه الفكرة أيما سعادة، معتقدا أنه بهذه الوسيلة سوف يستطيع أن يميز الرجال في مملكته فيعرف من منهم الشرعيون في نسبهم ومن منهم غير الشرعيين، ذلك لأنه لا يجوز عند المسلمين أن يورث الآباء أبناءهم غير الشرعيين، ومن أجل هذا الغرض أمر بتخصيص قصر لصنع هذا القماش. ولكي يقنع هؤلاء الرجال الملك بأنهم لا يتعمدون خداعه، وافقوا على حبسهم في القصر حتى يفرغوا من صنع القماش.

وشاء الملك أن يأخذ رأي أحد من الرجال فيما يصنعه أولئك العمال، فأرسل وزيره إليهم ليتأكد من أنهم لا يخدعونه، وعندما رأى الوزير أن العمال لا ينسجون شيئا لم يجرؤ على أن يعترف بأنه لا يرى قماشا. ولذلك قرر عند عودته أنه رأى القماش. وعزم الملك فيما بعد على أن يزور العمال بنفسه.

وعندما دخل الملك القصر شعر بالقلق، إذ إنه لم ير أمامه شيئا، وتملكه

الخوف من ألا يكون ابن أبيه، ولكنه رأى أنه إذا اعترف بأنه لم ير شيئا، فربما فقد مملكته. وبتأثير هذا الإحساس المؤلم بدأ يمتدح عمل الرجال. وسارت الأحوال على ما هي عليه حتى جاء ميعاد عيد كبير، وعندئذ طُلب من الملك أن يظهر مرتديا هذا القماش الجديد.

وعندما حل العيد، كان العمال قد انتهوا من صنع القماش وأحضروه للملك، وعندئذ تظاهر الملك بأنه يرى حلته الجديدة، وامتطى صهوة جواده وسار إلى المدينة وهو لا يرتدي شيئا. ومن حسن حظه أن الوقت كان صيفا، ودهش الناس وهم يرون الملك يسير بينهم عاريا.

ولكنهم احتفظوا بدهشتهم لأنفسهم خوفا من الفضيحة. وكان هناك رجل زنجي لم يكن عنده شيء يرثه من أبيه، فقال للملك: «بالنسبة لي لا يهم ابن من أنا، ولهذا أقول لك إنك تركب بيننا عاريا». وأمر الملك بضربه عند سماع قوله هذا. ولكن ما إن نطق الزنجي بعبارته هذه حتى تملك الجميع إحساس بالثقة، وأخذوا يرددون عبارة الزنجي، وفي النهاية زال الخوف من الملك وبطانته واعترفوا بأنهم لم يروا النساجين ينسجون نسيجا، وعندما بحثوا عن النساجين، وجدوا أنهم قد هربوا حاملين معهم ما وصلهم من الملك من هبات وعطايا.

2 سليمان وملكة سبـــأ

لسنا في حاجة إلى أن نجادل في أن الإنجيل كان فريدا في تشكيل التعليم والبنية المطلقة للغرب؛ فهو بالنسبة للبروتستانتيين يمثل السلطة الدينية الكلية. وبينما أفسحت الكنيسة الكاثوليكية، من ناحية أخرى، المجال للأساطير والأقوال المأثورة ـ وإن لم تكن تمثل جزءا من النص الديني المدون ـ فإن اهتمامها الأول كان بطبيعة الحال مركزا على العهد الجديد. وفي العصور الحديثة، نسيت في العالم المسيحي الأساطير القديمة التي تعد إضافة للإنجيل، بحيث بقي العهد القديم تشريعا مغلقا بالنسبة للكاثوليك والبروتستانت على السواء، ولقد رأينا مثالا لذلك في قصة يوسف التي يُحتفظ بنصها كما هو في سفر التكوين. أما الإضافات التي جاءت بها الشروح العبرية والإغريقية، فقد نسيت لكونها خارج الإنجيل.

على أن الأمر اختلف بالنسبة لسليمان الذي وصلتنا صورته بكل ما أضفت عليه القصص المكتسبة والمتزيدة على السنة، من بهاء، فلِمَ هذا الاختلاف بين قصة يوسف وقصة سليمان؟ والجواب أن قصة سليمان تنتمي، في حالة الزيادة إلى التراث القصصي المسيحي الزائد على السنة،

ومن ثم فقد حفظت، وعلى الرغم من أن قصة يوسف ذكرت عابرا في العهد الجديد، فليس لها وزن إلا في العهد القديم وحده، أما بالنسبة لقصة سليمان، فبالإضافة إلى ورود قصة حكمه في «الملوك الأول» و «أخبار الأيام»، فإن العهد الجديد أضفى عليها أهمية ذات مغزى. وكما أشار إلى ذلك «بريتشارد»[1] إلى أن قصة الملك سليمان لم ترد إلا في فقرة واحدة في كل من إنجيل متى (42/12) وإنجيل لوقا (31/11)، ولكن هذه الفقرة كافية (للإشارة إلى أهمية الحكاية الغائبة). يقول المسيح غاضبا من الفريسيين[*] ملكة التَّيْمن ستقوم في الدّين مع رجال هذا الجيل وتدينهم، لأنها أتت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان، وهو ذا أعظم من سليمان هـهنا».

وكلمات المسيح هذه التي اقتصرت على زيارة ملكة الجنوب أو ملكة سبأ إلى سليمان، هي التي جعلت قصة سليمان موضوعا للتفسير الكنسي، وهي التي جذبت أنظار العالم المسيحي إلى قصة سليمان وملكة سبأ بوصفها موضوعا مشتركا. وعلى الرغم من أن سليمان وحده شخصية مألوفة في أدب الحكمة في العصور الوسطى، وفي الأمثولات، وعلى الرغم من أنه يمثل شخصية الساحر الخيالي في قصص الشرق، فإن ما يهمنا في هذا المجال هو الموضوع المشترك بينه وبين ملكة سبأ. فليس سليمان وحده موضع اهتمامنا، ولا ملكة سبأ وحدها، ولكن مقابلتهما معا. ويتخذ اشتراكهما معا، كما سنرى، كل المنعطفات بدءا بالدور الدبلوماسي المشترك بين شعبين، إلى الدور الشيطاني، ثم تحول الملكة إلى ديانة سليمان واتحادهما حتى وصول الملكة إلى القدسية.

ولنبدأ بقصة الأيام الذهبية للملك سليمان في أورشليم في القرن العاشر قبل الميلاد، كما دونت في القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد في سفر الملوك الأول الإصحاح العاشر.

«وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل، فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جدا، بجمال حاملة أطيابا وذهبا كثيرا جدا وحجارة كريمة. وأتت سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها. وأخبرها سليمان بكل كلامها، لم يكن أمر مخفيا عن الملك لم يخبرها به، فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه وطعام مائدته ومجلس عبيده،

وموقف خدامه وماسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب، لم يبق فيها روح بعد. فقالت للملك: صحيحا كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك، ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي، فهو ذا النصف الذي لم أخبر به زدت (به) حكمة وصلاحا على الخبر الذي سمعته، طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائما السامعين حكمتك. ليكن مباركا الرب إلهك الذي سُرّ بك وجعلك على كرسي إسرائيل، لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد، جعلك ملكا لتُجري حُكْما وبِرًّا. وأعطت الملك مائة وعشرين وزنة ذهب وأطيابا كثيرة جدا وحجارة كريمة، لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان وكذا سفن حيرام التي حُملت ذهبا من أوفير، أتت من أوفير بخشب الصندل كثيرة جدا وبحجارة كريمة، فعمل سليمان خشب الصندل درابزينا لبيت الرب وبيت الملك وأعوادا وربابا للمغنين. لم يأت ولم يُرَ مثل خشب الصندل ذلك إلى هذا اليوم، وأعطى الملك سليمان ملكة سبأ كل مشتهاها الذي طلبت عدا ما أعطاها إياه حسب كرم الملك سليمان. فانصرفت وذهبت إلى أرضها هي وعبيدها».

وقد حدث مع قصة سليمان ما حدث مع قصة يوسف. وقد رأينا في قصة يوسف أن تعليق الأحبار في الحواشي على العهد القديم متضمنا الأسطوري والعجيب، وكذلك ما سجله الكتاب الدنيويون، أدى ذلك كله إلى ما أصبح متنا أدبيا شاملا مشكوكا في صحته.

ولعل أهم مصدر بالنسبة لحكاية سليمان وملكة سبأ، الترجمة الآرامية الثانية «ترجوم شيني» لسفر أستير، وقد كتب فيما بين القرنين الثالث والسادس بعد الميلاد. ومن الطبيعي أن تكون مادة هذه الترجمة أقدم بكثير من هذا التاريخ، والمفروض أن «الترجوم» هو بكل دقة ترجمة آرامية لنص الكتاب المقدس، إلا أن «الترجوم شيني» ينحرف عن النص كلية. وما يعنينا ويمكن تلخيصه على نحو ما سيرد، يتصل بسفر أستير في التشابه بين مشهد المأدبة التي أقامها «أحشويروس»[2*] والحفل الذي أقامه سليمان:

«أقام سليمان احتفالا عظيما دعا إليه كل ملوك الشرق والغرب، كما دعا إليه صنوف الحيوان والطيور والزواحف والشياطين والجان والأرواح، وحضر الجميع فيما عدا الهدهد. وغضب سليمان واستدعى الهدهد مهددا

إياه بالموت، وكان اعتذار الهدهد أنه كان قد طار إلى بلد اشتهر ببخوره وغناه إلى درجة أن الفضة كانت تلقى في الشوارع. وهذا البلد تحكمه امرأة، ثم عرض على الملك أن يحضر هذه الملكة له، فسلمه سليمان خطابا يطلب فيه من الملكة أن تحضر. وردا على هذا الخطاب أرسلت له الملكة أسطولا محملا باللؤلؤ والأحجار الكريمة، كما أرسلت له ستة آلاف صبي وصبية في سن متماثلة وشكل متماثل، ووعدته أن تسافر إليه بحيث تقطع المسافة في نصف الوقت العادي للرحلة، أي في خلال ثلاث سنوات بدلا من سبع سنوات، حيث إن لديها مسائل تود أن تطرحها عليه.

وفي النهاية وصلت ملكة سبأ إلى مملكة سليمان، وأُرشدت إلى حجرة أرضها من الزجاج، وكان يجلس بها الملك، وتصورت الملكة أن الملك يحيط جلسته بالماء، فشمرت عن ذيل جلبابها. ولاحظ الملك أن ساقيها كثيرتا الشعر وعلق على هذا، بأنه من الأمور المخزية للمرأة أن تكون مشعرة، وشرعت الملكة في طرح أسئلتها الصعبة، وكانت ثلاثة ألغاز. أما اللغز الأول فهو ما الشيء الذي هو أشبه بالبئر الخشبية وله دلو يسحب الحجر إلى أعلى، ومعه سائل؟ وأجاب الملك: أنبوب الكحل. ثم سألته: ما الشيء الذي يخرج ترابا من الأرض وأسفله تراب ثم يتدفق مثل الماء ويتخذ طريقه إلى البيوت؟ وأجاب الملك: إنه النفط. ثم كان اللغز الأخير: ما الشيء الذي تندفع الريح في قممه، وتصرخ، ورأسه مثل الأسد، وهو مدح الأمراء وخزي الفقراء، ويتألق به الموتى، ويُحزن الأحياء وتبتهج به الطيور ويخيب رجاء السمك؟ وأجاب الملك: إنه الكتّان، ولما كانت إجابات الملك صائبة اعترفت به الملكة بوصفه أحكم الرجال.

ويقدم «ميدراش ميشلي» على «سفر الأمثال» ألغازا مختلفة، إلى جانب كتابات عبرية أخرى تختلف في تفاصيل هذه الحكاية وتتوسع فيها. وعلى الرغم من أنه ليس من الواضح مقدار ما طرأ على «الترجوم شيني» من تغيير سابق على التأثير العربي، وما الذي ترتب على هذا التأثير، فإنه من الواضح أن هذه الحكاية ذات صلة برواية النص القرآني.

ففي النص القرآني تصور الملكة بوصفها امرأة فاضلة للغاية، أما في النص العبري فتصور الملكة بشعر ساقيها غير العادي. ولأن ظهور الشعر في الجسد مرتبط في الشرق الأدنى بالشياطين أدى هذا فيما بعد، إلى

التماهي بين شخصية الملكة في الفولكلور اليهودي وشخصية «ليليت»[3*] ملكة الشياطين وصاحبة القدم ذات الظلف المشقوق. وهناك في نص مبكر متزامن مع «التارجوم تشيني» نغمة حسية في ملاحظة سليمان توحي بهذا، حيث إن ليليت ترمز إلى الاتصال الجنسي غير المشروع، والضلال.

وبين هذين النقيضين - الفضيلة والشر - نشأ الغموض حول شخصية ملكة سبأ، ذلك الغموض الذي أصبح مع التطور اللاحق للحكاية، العنصر القصصي الثاني، أي أنه أصبح موضوعا في حد ذاته وهو: شك سليمان فيما إذا كانت ملكة سبأ روحا شريرة أو لا. ومن المحتمل أن تكون حيلة البِرْكة الزجاجية موضوعا شعبيا قديما، حيث نجدها كذلك في المهابهاراتا[2]. وقد فسرت البركة فيما بعد في قصص سليمان بوصفها حيلة كي يرى سليمان ما إذا كانت ساقا الملكة إنسانيتين أم شيطانيتين.

وهناك موضوعة أخرى نمت فيما بعد، وردت في رواية مختلفة للألغاز: سألت الملكة عن أي نهاية لزند الخشب العائم تمثل جذره، فأمر سليمان بإلقاء جذع من الخشب في الماء، وكان الجزء الغاطس هو الجذر، ومعنى هذا أن موضوع زند الخشب الملقى في الماء أضيف إلى الحكاية فصار تداعيا ثانيا لزيارة الملكة، مرتبطا بموضوع البركة أو مجرى الماء.

وهناك عنصر رابع ورد في بعض الأساطير اليهودية هو زواج سليمان من ملكة سبأ. وخارج مجال بحثنا هنا، كان هذا الزواج مجالا لكثير من التوسع بطبيعة الحال في شجرة الأنساب الأثيوبية الوطنية.

وهكذا أمد التداخل بين العربي والآرامي واليهودي في الشرق الأدنى لقصة ملكة سبأ بالعديد من الموضوعات القصصية الملموسة التي تبعد كل البعد عن قصة العهد القديم. ثم نأتي إلى قصة القرآن الكريم في الجزء الخاص بمقابلة ملكة سبأ للنبي سليمان وهي تختلف عن كل من قصة سفر الملوك الأول، وقصة التارجوم والميدراش[4*].

قال تعالى في سورة النمل[3].

«وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين، لأعذبنّه عذابا شديدا أو لأذبحنّه وليأتينيّ بسلطان مبين، فمكث غير بعيد فقال أُحطْتُ بما لم تُحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء، ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس

من دون الله، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون. إلاّ يسجدوا للّه الذي يُخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون. الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم. قال سننظر أصدقْتَ أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون. قالت يا أيها الملأ إني أُلقِيَ إلي كتاب كريم. إنه من سليمان، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، ألا تعلوا علىَّ وأتوني مسلمين. قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون. قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد. والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين، قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون. وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون. فلما جاء سليمان قال أتمدونَنِ بمال فما آتانِ الله خير مما أتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون. ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون. قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب، أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفُك. فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربيّ ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم. قال نكّروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون. فلما جاءت قيل أهكذا عرشك، قالت كأنه هو، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين. وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين. قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لُجْة وكشفت عن ساقيها، قال إنه صرح مُمَرّد من قوارير، قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين».

إن النقطة الأساسية في القصة القرآنية تتمثل في دعوة عباد الشمس إلى الإيمان بالله الواحد، ولم يكن خضوع الملكة (التي لم يذكر اسمها) لسليمان خضوعا لشخصه في حد ذاته، بل للدين الإسلامي الحق، وفي هذا تختلف القصة القرآنية عن النص الآرامي المترجم والنص العبري في سفر الملوك الأول. كما أن قصة العرش تعد كذلك جديدة، إنها معجزة تشهد على قوة الإله، واختبار لثقة الملكة في حكمها. ولقد رأت أنها كانت على خطأ وأسلمت لله رب العالمين.

على أن الشروح التفسيرية لم تقف عند حد النص القرآني؛ فهي تشمل تفاصيل ملأ بها القصاصون العرب حيَّز القصة واستمدوها من ذلك الكم الهائل من القصص المروي من منابع مختلفة ومنذ الأزمنة السحيقة، هذا فضلا عن خليط المعارف التي وصلت إليهم من ديانات التوحيد التي كانت تنتشر حولهم. وتعد قصص الأنبياء التي ترجع إلى القرن العاشر، مجموعات تقليدية لهذه الحكايات المفصلة. وهي تكوِّن مع النص القرآني، في الواقع، الروايات العربية القياسية. وقد رأينا ذلك في قصة يوسف وزليخة، ونراها الآن في حكاية سليمان وملكة سبأ. وتسمى الملكة باسم بلقيس في كتب «قصص الأنبياء»، كما يسمى الهدهد، وتسمى شخوص أخرى بأسمائها، وكذلك أسماء الأمكنة. وفيها تعرض الحاشية المبجَّلة للنبي سليمان وتوصف بدقة، كما توصف ملابسه الفاخرة ومكان المشهد. ويستحضر القصاصون تلك الموضوعات التي وردت في «تارجوم شيني» ولم يأت بها القرآن الكريم، مثل إحضار بلقيس معها الفتيات والفتيان المتماثلين في الشكل والعمر، كما يفسر الأصل الشيطاني لبلقيس. وهي تبرز قيمة روحية كبيرة لتحول بلقيس إلى الديانة الإسلامية، وإبعاد رمز العنصر الشيطاني عنها، وهو الشعر. وكل هذا كان إيذانا بميلادها الديني الجديد الذي يتزامن مع زواجها من سليمان.

ويلخص الكسائي في «قصص الأنبياء» روايات القرن العاشر عن أصل بلقيس. وسوف أقدم ملخصا لملخصه مضيفا بعض فقرات من «قصص الأنبياء» للثعلبي[*5].

(**الكسائي**): إن أول ملك لليمن عبد الشمس، سبأ بن قحطان بن يشجب بن يثرب.. وكان سبأ قد بنى لنفسه مائة قصر بالرخام والصخور، وسقفها بالعاج والأبنوس، وكان له سبعة بنين لكل واحد منهم بلاد ومملكة... وجاءهم سيل من موضع يسمى العرم وهم غافلون، وهلك سبأ وأهله... ثم جاء بعدهم قوم من ولد حمير بن سبأ فنزلوها وقالوا هذه أرض آبائنا... وكان (للملك منهم) وزير يقال له ذو شرخ بن هدار وكان ذا حسن وجمال، وكان مولعا بالصيد، فاتفق أنه مر يوما بموضع كثير الأشجار فسمع أصواتا ينشدون بالأشعار، فعلم أنه وادي الجن فنادى بأعلى صوته: «يا معشر الجن إني نزلت بكم الليلة فأسمعوني أشعاركم». فأنشدوه بيتا من أشعارهم.

ثم ظهرت لهم عميرة بنت ملك الجن.

(**الثعلبي**) وكان أبو بلقيس... ملكا عظيم الشأن، وكان ملك أرض اليمن كلها. وكان يقول لملوك الأطراف، ليس أحد منكم كفؤا لي، وأبى أن يتزوج منهم فزوجوه بامرأة من الجن يقال لها ريحانة بنت الشكر، وكانت الإنس إذ ذاك ترى الجن وتخالطهم.

(**الكسائي**) «فلما رآها، (أي ريحانة) افتتن بها. وغابت عنه وأخذ حبها في قلبه. ثم قال لهم: مَن هذه الجارية؟» «فقالوا هذه ابنة ملكنا. فقال لهم: أحب أن تأتوني بالملك لأنظر إليه. فأتوا به. فقال له الوزير: لك التحية والإكرام أيها الملك الهمام. فقال الملك: وأنت لك ذاك منا. فمن أنت؟ فقال له: أنا وزير صاحب مدينة سبأ. فقال له: هل لك أن تزوجني بابنتك؟ فرغب فيه الملك لحسنه وجماله وزوجه بها، فدخل بها فحملت منه بلقيس... ولما أتمت أشهر حملها، وضعت جارية وضيئة كأنها الشمس غاية الكمال، فسميت الجارية بلقيس. ثم ماتت أمها فربتها بنات الجن، ونشأت في جمال حتى كان يقال لها زهرة اليمن. فلما بلغت قالت لأبيها: يا أبت إني قد كرهت الإقامة بين الجن، فاحملني إلى بلاد الإنس. فقال لها: يا بنية إن للإنس ملكا جبارا يفتض الأبكار من أهلها قهرا، وإني أخشى عليك منه. فقالت له: ابن لي قصرا خارجا عن مدينته وحولني فيه، وسترى ما يكون بيني وبينه... فبنى لها قصرا واتخذ لها عرشا من العاج، ثم نقلها أبوها إلى ذلك القصر... ثم شاع خبرها للملك».

(**الثعلبي**): «فلما مات أبو بلقيس، ولم يخلف ولدا، طمعت في الملك، وطلبت من قومه أن يبايعوها، فأطاعها قوم وعصاها آخرون، فاختاروا عليهم رجلا فملكوه عليهم... ثم إن هذا الرجل الذي ملكوه أساء السيرة في أهل مملكته... فأراد أصحابه خلعه».

(**الكسائي**) «فركب (أي الملك) وأقبل إلى القصر، وأرسل قهرمانيته فدخلت القصر، ونظرت إلى بلقيس وما هي عليه من الحسن والجمال، فعادت إليه مسرعة، وأخبرته بذلك. فدعا وزيره وقال له: أنت بنيت هذا القصر ولم تعلمني بذلك. فقال له: أيها الملك، إني بنيت هذا القصر عن قريب لما رزقت هذه الجارية من ابنة ملك الجن، وقد ماتت أمها، وكرهت الإقامة بين الجن، فنقلتها إلى هذا القصر. فقال له الملك: أريد أن تزوجني

إياها. فقال له: حبا وكرامة، ولكن لابد من إذنها. فرجع أبوها إليها، وقال لها: يا بنية، قد جاءني ما كنت أخافه عليك. وإن الملك قد خطبك مني. فقالت له: يا أبت زوجني منه فإني أقتله قبل أن يصل إليّ. فرجع أبوها إلى الملك وأخبره بذلك، ففرح الملك بما سمع وكتب لها كتابا يقول فيه: إني قد تعشقت باسمك قبل أن أراك، فإذا قرأت كتابي، فاعجلي بالمسير إليّ».

(**الثعلبي**): فلما رأت بلقيس ذلك، أدركتها الغيرة، فأرسلت إليه وعرضت نفسها عليه، فأجابها الملك إلى ذلك، وقال: ما منعني أن أبتدئك بالخطبة إلا اليأس منك. فقالت: لا أرغب عنك، فإنك كفؤ كريم. فاجمع رجالي وقومي واخطبني منهم، فجمعهم وخطبها منهم. فقالوا له: نراها تفعل هذا. فقال: إنما هي التي ابتدأتني وإني أحب أن تسمعوا قولها فتشهدوا عليها. فلما جاءوها وذكروا لها ذلك، قالت: نعم، إني أحببت الولد.

(**الكسائي**): فكتبت بلقيس جوابا: إني إلى وجهك لأشوق ولكن قصري هذا من بناء الجن، وقد اتخذت لك فيه من المراتب تصلح لمثلك. فلما ورد عليه كتابها قام قائما فعمد إلى أفخر ثيابه فلبسه، وركب في سادات قومه وسار. فلما قرب من القصر، أمرت بلقيس أباها أن يخرج إلى الملك ويقول له أن لا تدخل القصر إلا وحدك. فخرج أبوها إلى الملك وأخبره بذلك، ففرق جنوده وأقبل وحده إلى القصر. وكان للقصر سبعة أبواب، وعلى كل باب جارية من بنات الجن كأنها الشمس المشرقة، في أيديهن أطباق الذهب، فيها من الدراهم والدنانير، وأمرتهن أن ينشرن ذلك على الملك إذا نظرنه. فلما دخل الملك نشرن عليه ذلك، فجعل يقول إلى كل واحدة منهن أنت صاحبتي، فتقول: لا، إني خادمة لك وهي أمامك. فلم يزل كذلك حتى انتهى إلى آخر الأبواب. فلما خرجت بلقيس رأى من حسنها وجمالها ما كاد أن يسلب عقله، ثم أتته بمائدة من ذهب وعليها ألوان الأطعمة. فقال: لا حاجة لي فيها. فأقبلت عليه بالشرب وجعلت تسقيه فشرب، ثم قدمت إليه الخمرة فسكر، وسقط على الأرض كالخشبة لا حركة فيها. فقامت وقطعت رأسه وقالت لجواريها: خذن هذا الكافر وغيبنه في البحر وأثقلنه بالحجارة لئلا يظهر على الماء، فأجبنها إلى ذلك. ثم أرسلت إلى خَزَنَةِ الملك أن يحملوا إليها جميع ما في الخزائن من الأموال والتحف... ثم دعت الوزراء وقدمت إليهم الشراب فشربوا. ثم قالت لهم إن الملك يقول لكم أن

توجهوا إليه نساءكم وبناتكم، فاستشاطوا غضبا، وقالوا أما يكفيه ما جرى. فلما علمت أن غضبهم قد تمكن منهم، قالت أرجع وأعرفه بغضبكم. ثم غابت عنهم ساعة وعادت وقالت إنّي أخبرته بما قلتم، فقال: لابد لي من ذلك. فازدادوا غضبا. فقالت لهم: أتحبون أن أقتله فتستريحوا كلكم من شره ويكون لي الملك عليكم؟ فأجابوها إلى ذلك وحلفوا لها. ثم غابت عنهم ساعة ومعها رأس الملك، ففرحوا فرحا شديدا ومكنوها عليهم ثم أقامت في الملك سبع عشرة سنة».

(**الثعلبي**): «ثم جزت رأسه وانصرفت من الليل إلى منزلها. فلما أصبح الناس ورأوا الملك قتيلا ورأسه منصوبا على باب داره، علموا أن تلك المناكحة كانت مكرا وخديعة منها. فاجتمعوا إليها وقالوا لها أنت أحق بهذا الملك من غيرك. فقالت: لولا العار ما قتلته. ولكن رأيته قد عم فساده، فأخذتني الحمية ففعلت به ما فعلت. فملكوها واستتبّ أمرها في المملكة». ثم تستمر الأحداث القصصية بعد ذلك وفقا للقصة القياسية لسليمان وبلقيس[(4)] .

(**الكسائي**): «ولما فرغ (سليمان) من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم، فتجهز للمسير، واصطحب معه من الناس والجن والشياطين والطيور والوحش ما بلغ عسكره مائة فرسخ، وأمر الريح الرخاء فحملتهم. فلما أتوا الحرم أقام به ما شاء الله أن يقيم، وقرب القرابين وقضى المناسك، وبشر أهله بخروج نبيَّنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأخبرهم أنه سيد الأنبياء وخاتم النبيين، وأن ذلك مثبت في زبورهم.

ثم أحب أن يسير إلى أرض اليمن، فخرج من مكة صباحا وسافر نحو اليمن يؤم نجم سهيل، فوافى صنعاء وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضا بيضاء حسنة تزهو بخضرتها، فأحب النزول بها ليصلي ويتغذى، فطلبوا الماء فلم يجدوه. وكان الهدهد دليله، وكان يرى الماء من تحت الأرض، كما يرى أحدكم كأسه بيده، فينقر الأرض فيعرف موضع الماء وعمقه ثم تجيء الشياطين فيسلخونه كما يسلخ الإهاب يستخرجون الماء. فطلب سليمان الهدهد، فلم يجده فتوعده.

ولما نزل سليمان قال الهدهد في نفسه: إن سليمان قد اشتغل بالنزول، فارتفع إلى نحو السماء، ونظر إلى طول الدنيا وعرضها، ونظر يمينا وشمالا، فرأى بستان بلقيس، فمال إلى الخضرة فوقع فيها فإذا هو بهدهد اليمن،

وكان اسم هدهد سليمان يعفور، واسم هدهد اليمن عفير. فقال عفير ليعفور: من أين أتيت وإلى أين تريد؟ قال أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود عليه السلام. فقال الهدهد له: ومن سليمان بن داود؟ قال ملك الجن والإنس والشياطين والوحوش والرياح. فمن أين أنت. قال: أنا من هذه البلاد. قال: ومن ملكها؟ قال امرأة. قال: فما اسمها؟ قال: يقال لها بلقيس، وإنّ لصاحبكم سليمان ملكا عظيما ولكن ليس ملك بلقيس دونه، فإنها ملكة اليمن كله. وتحت يدها إثنا عشر ألف قيل مع كل قيل مائة ألف مقاتل. والقيل هو القائد بلغة أهل اليمن. فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها فإني أخاف أن يتفقدني سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء. فقال الهدهد اليماني: إن صاحبك ليسره أن تأتيه بخبر هذه الملكة. فانطلق معه حتى أتى بلقيس ونظر ملكها، وما رجع إلى سليمان إلا وقت العصر. فلما نزل سليمان ودخل عليه وقت صلاة العصر طلب الهدهد، وذلك أنه نزل على غير ماء، فسأل الإنس عن الماء فقالوا: لا نعلم هـهنا ماء. فسأل الجن والشياطين، فقالوا: لا نعلم. فتفقد عند ذلك الهدهد، فلم يجده وتوعده.

قال ابن عباس في بعض الروايات عنه، وقعت قطعة من الشمس على رأس سليمان، نظر فإذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر، فسأله عن الهدهد. فقال: أصلح الله الملك، ما أدري أين هو، وما أرسلته إلى موضع. فغضب عند ذلك سليمان وقال: **لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه** (الآية)... ثم دعا العُقابَ سيد الطيور فقال له: عليّ بالهدهد الساعة، فرفع العقاب نفسه دون الماء حتى التصق بالهواء، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين أحدكم، فنظر يمينا وشمالا فإذا هو بالهدهد مقبلا من نحو اليمن، فانقض العقاب نحوه يريده. فلما رأى الهدهد أن العقاب يريده بسوء ناشده الله، وقال: بحق الذي قوّاك وأقدرك عليّ إلا رحمتني، ولا تتعرض لي بسوء. قال: فولّى العقاب عنه، وقال له: ويلك ثكلتك أمك، إن نبي الله سليمان قد حلف أن يعذبك أو يذبحك. ثم طارا متوجهين نحو سليمان. فلما انتهيا إلى المعسكر تلقاهم النسر والطير كله، وقالوا له أين غبت في يومك هذا، فلقد توعدك نبي اللّه سليمان، وأخبروه بما قال. فقال الهدهد، وما استثنى نبي الله؟ قالوا: بلى إنه قال: (**أوليأتينيّ بسلطان مبين**) الآية.

فطار الهدهد والعقاب حتى أتيا سليمان، وكان قاعدا على كرسيه، فقال العقاب: قد أتيتك به يا نبي الله. فلما قرب الهدهد منه، رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه (وهو) يجرهما على الأرض تواضعا لسليمان. فمد سليمان يده إلى رأسه فجذبها، وقال: أين كنت؟، لأعذبنك عذابا شديدا. فقال له الهدهد: يا نبي الله: اذكر وقوفك بين يدي الله. فلما سمع ذلك سليمان ارتعد وعفا عنه...

فلما قال ذلك الهدهد لسليمان، قال له سليمان: **ستنظر أصدقت أم كنت من الكاذبين** (الآية).

ثم إن الهدهد دلَّهم على الماء، فاحتقروا الركايا وهي الآبار التي لم تطو ببطن كل واد فروى الناس والدواب، وكانوا قد عطشوا. ثم كتب سليمان كتابا: من عبدالله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ. **بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من اتبع الهدى** (الآية). أما بعد: (**أن لا تعلوا عليّ وائتوني مسلمين**) (الآية). فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك وختمه بخاتمه، وقال للهدهد (**اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم**) (الآية). وكن قريبا منهم (**فانظر ماذا يرجعون**) الآية...

فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به إلى بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء... فوافاها في قصرها، وقد غلقت الأبواب، وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب وأخذت المفاتيح، فوضعتها تحت رأسها، ومضت إلى فراشها. فأتاها الهدهد وهي نائمة مستلقية على ظهرها، فألقى الكتاب على نحرها... فأخذت بلقيس الكتاب وكانت قارئة كاتبة عربية من قوم تبّع بن شراحيل الحميري.

فلما رأت الخاتم ارتعدت لأن ملك سليمان كان في خاتمة، وعرفت أن الذي أرسل هذا الكتاب هو ملك أعظم منها. وقالت: إن ملكا تكون رسله الطير لملك عظيم. فقرأت الكتاب، وتأخر الهدهد غير بعيد. ثم إنها جاءت حتى قعدت على سرير ملكها، وجمعت الملأ من قومها وهم اثنا عشر ألف قيل تحت يدي كل منهم مائة ألف مقاتل، وكانت تكلمهم من وراء حجاب. فإذا حزبها أمر أسفرت وجهها. فلما جاءوا وأخذوا مجالسهم، قالت لهم بلقيس: (**إني ألقي إليّ كتاب كريم، وإنه من سليمان وإنه باسم الله الرحمن الرحم، ألا تعلوا وائتوني مسلمين**) الآية.

ثم قالت: (**يا أيها الملأ أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون**) الآية. فقالوا مجيبين لها: (**نحن أولو قوة وأولو بأس شديد، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين**) الآية. فقالت لهم بلقيس حين عرضوا أنفسهم للحرب: (**إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة. وكذلك يفعلون. وإنيّ مرسلة لهم بهدية**) الآية. أصانعه عن ملكي، واختبره بها، أملك أم نبي، فإن يك ملكا قبل الهدية وانصرف، وإن يك نبيا لم يقبل الهدية ولم يرض منّا إلا أن نتبعه على دينه.

ثم إنها أهدت إليه وصفاء ووصائف ألبستهم لباسا واحدا حتى لا يعرف الذكر من الأنثى... وأرسلت إليه بصفائح الذهب... فلما بلغ ذلك سليمان، أمر الجن فموهوا له الآجر بالذهب. ثم أمر به فألقى في الطريق في كل مكان. فلما جاءوا رأوه ملقى في الطر يق في كل مكان، قالوا: قد جئنا نحمل شيئا نراه ههنا ملقى لا يلتفت إليه، فصغر في أعينهم ما جاءوا به. وقال وهب بن منبه وغيره من أهل الكتب: عمدت بلقيس إلى خمسمائة جارية وخمسمائة غلام، فألبست الجواري لباس الغلمان، الأقبية والمناطق، وألبست الجواري لباس الجوارى، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب، وفي أعناقهم أطواقا من ذهب، وفي آذانهم أقراطا وشنوفا مرصعات بأنواع الجواهر، وحملت الجواري على خمسمائة فرس، والغلمان على خمسمائة برذون، على كل فرس سرج من ذهب مرصع بالجواهر غواشيها من الديباج الملون، وبعثت إليه أيضا خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع. وأرسلت إليه أيضا المسك والعنبر والعود والألنخوج، وعمدت إلى حقة وجعلت فيها درة ثمينة غير مثقوبة وجزع خرزة مثقوبة معوجة الثقب. ودعت رجلا من أشراف قومها يقال له المنذر بن عمرو وضمت إليه رجالا من قومها أصحاب رأي وعقل، وكتبت معهم كتابا بنسخة الهدية، وقالت في الكتاب: إن كنت نبيا فميز بين الوصائف والوصفاء، وأخبرنا بما في الحقة قبل أن تفتحها، واثقب الدرة ثقبا مستويا وأدخل خيطا في الخرزة، ثم أمرت بلقيس الغلمان، فقالت لهم: إذا كلمكم سليمان فكلموه بكلام فيه تأنيث وتخنيث يشبه كلام النساء. وأمرت الجواري أن يكلمنه كلاما فيه غلظة يشبه كلام الرجال. ثم إنها قالت للرسول: انظر إلى الرجل إذا دخلت عليه، فإن نظر إليك نظرة غضب، فاعلم أنه ملك فلا

يهولنك منظره، فأنا أعز منه. وإن رأيته رجلا بشاشا لطيفا فاعلم أنه نبي مرسل، فتفهم كلامه ورد الجواب.

فانطلق الرسل بالهدايا. فلما رأى ذلك الهدهد، أقبل مسرعا إلى سليمان وأخبره الخبر كله. فأمر سليمان الجن أن يصنعوا له لبِنا من الذهب والفضة، ففعلوا ذلك. ثم أمرهم أن يبسطوا له في موضعه الذي فيه إلى تسع فراسخ ميدانا واحدا بلبنات من الذهب والفضة، وأن يجعلوا حول الميدان حيطانا مشرفة من الذهب والفضة ففعلوا ذلك. فقال لهم: أي الدواب أحسن مما رأيتم في البر والبحر، فقالوا يا نبي الله، إنا رأينا في بحر كذا دوابّ مختلفة ألوانها لها أجنحة وأعراف ونواص فقال سليمان: عليّ بها الساعة. فأتوه بها. فقال شدوها عن يمين الميدان وعن يساره على لبنات الذهب والفضة، وألقوا لها علوفة فيها. ثم قال للجن: عليّ بأولادكم، فاجتمع خلق كثير، فأقامهم فيها عن يمين الميدان وعن يساره، ثم قعد سليمان في مجلسه على سريره، ووضع أربعة آلاف كرسي عن يمينه ومثلها عن يساره، وأمر الشياطين أن يصطفوا صفوفا فراسخ، وأمر الإنس فاصطفوا فراسخ، وأمر الوحوش والسباع والهوام الطيور، فاصطفوا فراسخ عن يمينه وعن يساره فلما أقبل القوم ودنوا من الميدان، ونظروا إلى ملك سليمان ورأوا الدواب التي لم تر أعينهم مثلها تروث على لبنات الذهب والفضة، تقاصرت إليهم أنفسهم، ورموا بما معهم من الهدايا...

فلما جاءوا إلى الميدان ورأوا الشياطين، نظروا إلى منظر عجيب ففزعوا منهم. فقيل لهم: جوزوا فلا خوف عليكم، قال: فكانوا يمرون على كردوس كردوس من الجن والإنس والطير والسبع والوحوش حتى وقفوا بين يدي سليمان عليه السلام. فنظر إليهم سليمان نظرا حسنا بوجه طلق، وقال: ما وراءكم؟ فأخبره رئيس القوم بما جاءوا به وأعطوه كتاب الملكة. فلما نظر إليه وقرأه، قال لهم: أين الحُقّة، فأتى بها فحركها. فجاءه جبريل عليه السلام فأخبره بما في الحقة. فقال: إن فيها درة ثمينة بلا ثقب، وخرزة مثقوبة، معوجة الثقب. فقال له الرسول: صدقت، فاثقب الدرة وأدخل الخيط في الخرزة. فقال سليمان عليه السلام: من لي بثقبها؟ فسأل الإنس، فلم يكن عندهم علم بذلك. ثم سأل الجن. فلم يكن عندهم علم ذلك. ثم سأل الشياطين، فقالوا له: أرسل إلى الأرضة، فأرسل إليها. فلما أتت

أخذت شعرة من فيها ومررتها في الخرزة حتى خرجت من الجانب الآخر. فقال لها سليمان: سلي حاجتك. قالت، أن تصيّر رزقي في الشجر، قال لك ذلك. ثم قال: من لهذه الخرزة يسلكها بالخيط؟ فقالت دودة بيضاء: أنا لها يا نبي الله. فأخذت الدودة خيطا من فيها وأدخلته الثقب، فخرج من الجانب الآخر. فقال لها سليمان: ما حاجتك؟ فقالت أن تصيرّ رزقي في الفواكه. قال لها لك ذلك. ثم إنه ميز بين الجواري والغلمان بأن أمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم. فكانت الجارية تأخذ الماء من الآنية بإحدى يديها ثم تجعله في اليد الأخرى ثم تضرب به الوجه، والغلام يأخذه من الإناء بيديه ويضرب به وجهه. وكانت الجارية تصب على باطن ساعدها، والغلام على ظهر الساعد. وكانت الجارية تصب الماء صبا وكان الغلام يحدر الماء على ساعده حدرا، فميز بينهم بذلك.

ثم رد سليمان الهدية كلها وقال: (**أتمدونني بمال، فما آتاني الله خير مما آتاكم، بل أنتم بهديتكم تفرحون**) الآية. لأنكم أهل المفاخرة والمكاثرة في الدنيا ولا تعرفون غير ذلك. وليست الدنيا من حاجتي لأن الله تعالى قد مكنني منها، وأعطاني ما لم يعط أحدا من العالمين فيها. ومع ذلك فالله سبحانه وتعالى أكرمني بالنبوة والحكمة. ثم إنه قال للمنذر بن عمرو أمير القوم: (**ارجع إليهم بالهدية، فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون**) الآية. إن لم يأتوني مسلمين. فلما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها، قالت: والله ما هذا بملك وما لنا به من طاقة. فبعثت إلى سليمان عليه السلام إني قادمة عليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك وما تدعو إليه من دينك. ثم إن بلقيس أمرت بعرشها فجعلت فيه سبعة أبيات بعضها داخل بعض في آخر قصر من قصورها. ثم أغلقت دونه الأبواب ووكلت به حراسا يحفظونه. ثم إنها قالت لمن خلفت على سلطانها: احتفظ بما قبلك وسرير ملكي فلا تخلص إليه أحدا ولا يراه حتى آتيك، ثم إنها أمرت مناديا ينادي في أهل مملكتها ليؤذنهم بالرحيل، ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قيل من ملوك اليمن تحت يد كل قيل مائة ألف مقاتل. قال ابن عباس: وكان سليمان عليه السلام رجلا مهيبا لا يبت بشيء حتى يكون هو الذي يسأل عنه. فخرج يوما فجلس على سرير ملكه، فرأى رهجا قريبا منه، قال ما هذا؟

قالوا بلقيس يا رسول الله. قال: وقد نزلت منا بهذا المكان؟ قالوا نعم... فأقبل سليمان على جنوده وقال: (**أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين**) الآية. (**قال عفريت من الجن، أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك**) الآية. فقال سليمان: أريد أسرع من هذا. (**فقال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليه طرفك**) الآية. فمد سليمان عينيه فنظر نحو اليمين، فبعث الله الملائكة فحملوا السرير من تحت الأرض يخّدون الأرض خدا حتى انحرفت الأرض بالسرير فقبع بين يدي سليمان... فلما رأى سليمان العرش مستقرا عنده محمولاً إليه من مأرب إلى الشام في قدر ارتداد الطرف وهو مدة يسيرة، (**قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم**) الآية. فقال سليمان عليه السلام (**نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الجاهلين**) الآية.

وخافت الشياطين أن يتزوجها سليمان ويستولدها فتفشي إليه أسرار الجن، فلا ينفكون من تسخير سليمان وذريته من بعده، فأرادوا أن يزهدوه فيها، فأساءوا الثناء عليها، وقالوا له إن في عقلها شيئا وإن رجليها كحافر حمار، فأراد سليمان أن يختبر عقلها بتنكير عرشها وينظر إلى قدميها ببناء صرح. فلما جاءت بلقيس (**قيل لها أهكذا عرشك، قالت كأنه هو**) فشبهته به، وكانت قد تركته خلفها في بيت ذي سبعة أبواب مغلقة، والمفاتيح معها. فلم تقر بذلك ولم تنكر، فعلم سليمان كمال عقلها. فلما وافت سليمان، (قيل لها ادخلي الصرح) الآية. وذلك أن سليمان لما أقبلت بلقيس تريده، أمر الشياطين فبنوا له صرحا من الزجاج كما لو كان ماء، وجعلوا الماء يجري أسفله، ووضعوا فيه سمكا.

رأينا أن الزيارة الدبلوماسية لملكة الجنوب إلى بلاط الملك سليمان، كانت مثارا لفائض من الحكايات الإسلامية واليهودية عما ورد في القرآن والتوراة. وتضفي كل هذه الروايات المروية الإسلامية واليهودية على الملكة لمسة شيطانية حيث إن كتب «قصص الأنبياء» تعتمد على القصص الشعبية اليهودية عن الملكة بعد أن جعلت لها صلة بالأرواح الشريرة. ومن هنا خشي الجن زواجها من الملك سليمان بسبب الاعتقاد في أنها ابنة الجن أو أنصاف الجن ومن ثم تكون هي وأطفالها، على علم بأسرار الجن فيستمر خضوع

الجن لسلالة سليمان. ومع ذلك فإن الزواج يتم في الأسطورة العبرية. وتؤكد الروايات العربية على هذا الزواج المتزامن مع تحولها عن دينها إلى الإسلام. وقد قدم الكتاب الدينيون المسلمون فيما بعد تفسيرا روحانيا، عندما جعلوا سليمان ممثلا للرجل الكامل وبلقيس ممثلة للروح التي تعزف عن الحياة المادية بحثا عن الله. إن حكاية بلقيس في الحقيقة حكاية معقدة، وكما لخصها و. م. والت، يمكن النظر إلى مواجهة بلقيس لسليمان بوصفها «مواجهة بين قوتين من السحر متنافستين. ولأن القصة وردت في القرآن، فقد أصبح لها حق الانتماء إلى الإسلام. ولما دخلت القصة المجال الإسلامي اكتسبت ملامح إسلامية متنوعة محددة، فقد أصبحت تجتذب كثيرا من الموضوعات التي مصدرها الفكر الخيالي الشائع»[5].

ونمت كذلك أسطورة مسيحية عن ملكة سبأ. وبناء على كلمات المسيح في إنجيل متَّى لعب الفن المرئي دورا كبيرا في انتشارها؛ فقد دعا المسيح، نقلا عن إنجيل متى، الملكة لأن تكون شاهدة متنبئة في اليوم الآخر بسبب إدراكها السليم لحكمة سليمان. وكانت إشارات العهد القديم قد أخبرت بقدوم الملكة إلى بلاط الملك حاملة معها المسائل التي أجاب عنها سليمان، والهدايا من الذهب والبهار، ورد الملك بهدايا أعظم منها. وقد استغل الشراح اليهود هذه الحكاية بوصفها توضيحا لما كان عليه الملك من عزة وحكمة في إخضاع الغرباء عن اليهود لإسرائيل. كما يجدها المفسرون المسيحيون مفيدة على حد السواء، فمن الناحية الاستعمارية، تعلي عبارة المسيح من شأن سليمان بوصفه نموذجا للمسيح، كما تجعل من ملكة سبأ نموذجا للغرباء الذين تحولوا إلى الدين المسيحي، وبهذا لاءمت الشخصيتان سليمان وبلقيس بصورة دقيقة الشروح الإنجيلية التي قام بها آباء الكنيسة، واستخدمت فيها شخوص بعينها وأفعال من العهد القديم للتكهن بأخرى محددة في العهد الجديد. وقد أصبحت دراسة هذه الجوانب الرمزية في المسيحية لمثل هذه الثنائيات، معروفة باسم علم رموز الكتاب المقدس.

فمنذ حوالي 1480م أصبحت مجموعات النماذج، والنماذج المضادة مألوفة في الكتب المطبوعة، وبصفة خاصة في الطبعات التي تسمى Biblia Pauperum، والتي أصبحت دليلا للقسس، ولم يكن هناك غنى عنها للرسامين وغيرهم من المهتمين بالفن الديني وصنع الأيقونات.

وقد أصبحت رحلة الملكة الطويلة من الأرض الغريبة مقدمة لتصوير مشهد المجوس الذين يتعبدون الطفل يسوع؛ فملكة الجنوب ترسم من ناحية وملوك الشرق الثلاثة من ناحية أخرى. ويربط بين المناسبات الثلاث أن الجميع يقدمون الهدايا في حبّ الإله الحقيقي. وقد انتشر تمثيل هذه المناظر مرتبطة انتشارا واسعا إلى حد كبير. ويقدم «بول واطسون»[6] أمثلة لهذا من مخطوطة من الألزاس تحت اسم «تأمل في خلاص الإنسان»، ومن مخطوطات ونسخ مصورة من الإنجيل في جنوب ألمانيا، ومن لوحة ثلاثية رسمها فنان فلمنكي، ثم من إنجيل مصور في باريس، ومن زجاج ملون في كاتدرائية كانتربري في إنجلترا، وفي كنيسة كنجز كولينج في كمبردج، وفي اسكتشات بالزيت لـ «روبنز»، لصور فقدت في كنيسة المسيح في أنتوريا.

ومنذ القرن السابع فسرّ إبزيدو من أشبيلية وتبعه معاصره الراهب بيد في انجلترا مكررا قوله «حرفيا»[7]، فسّر الملكة بوصفها تمثيلا أليجوريا للكنيسة نفسها «التي يجتمع الناس فيها من أقاصي الأرض ليسمعوا كلمة الله». ومعنى هذا أن الملكة تطورت كذلك لتصبح نموذجا للمجتمع المسيحي، أكثر من كونها نموذجا للمتحولين من شعوب الأغراب إلى المسيحية، فقد جاءت ملكة سبأ إلى سليمان على نحو ما جاءت الكنيسة إلى المسيح. ونجد مثل هذا النوع من تفسير الرموز في أوروبا في العصور الوسطى متمثلا في تمثال سليمان وملكة سبأ الذي يقع في بيت المعمودية في بارما، وفي كاتدرائية شارتر في مدينة أمين في فرنسا، وفي كنيسة التتويج في ريم.

وفي العصور الوسطى المتأخرة، خُلع على الملكة مظهر آخر من خلال إدماجها في أسطورة «العبور الحقيقي». وقد بدأت الأسطورة تروج في القرن الثالث عشر في الفولكلور البيزنطي والشرقي ثم أشاعها الأسقف جاكويس وأفريني، فانتشرت في أوروبا بوصفها حكاية من حكايات قصص القديسين، وهي مجموعة من أساطير القديسين أصبحت المصدر التقليدي لرسامي الموضوعات الدينية في عصر النهضة.

ووفقا لهذه الأسطورة، أعطى الملاك ميخائيل ابن آدم سيث في أثناء احتضار آدم، فرع شجرة (وفي بعض الروايات أعطاه ثلاث حبات من الجنة، من شجرة معرفة الخير والشر)، وأخبره أنه عندما يحمل هذا الفرع الثمار، فإن جسد آدم لا يصاب بأذى. وزرع سيث الفرع على قبر أبيه، ونما

الفرع نموا غير عادي. وقد أنجز موسى معجزاته في مصر، وفجر الماء من الصخر بواسطة فرع من أفرع الشجرة النامية. وتحت هذه الشجرة جلس داود ينعى آثامه. وفي عهد سليمان فاقت هذه الشجرة كل أشجار لبنان. وبناء على طلبه قطعت الشجرة لتستخدم في بناء المعبد، ولكن العارضة الأخيرة منها قاومت العمال بأن أخذت تقصُر في بعض الأحيان وتطول في أحيان أخرى. وغضب سليمان ورمى بها في مجرى نهر سيدرون بحيث يدوسها كل من عبر النهر. وعندما وصلت ملكة سبأ إلى بلاطه مع بطانتها، كانت العارضة تمثل جسرا، لكن الملكة لاحظت أنها مجوفة. ومن ثم رفضت أن تمشي فوقها مفضلة أن تخوض في مجرى النهر.

ومن هذه الحادثة صور منظر غنيّ في تصويره لسليمان وملكة سبأ في توسكانيا. وكانت هذه الأسطورة تتمتع بشعبية خاصة حيث إن كثيرا من الكنائس كانت تمتلك تذكارات لقصة «العبور الحقيقي»، منها نقوش أنيولوجادي (1390م) الجصية في سانتا كوتشي نفسها في فلورنسا. وكانت هناك نقوش جصية أخرى (وهي الآن مفقودة) في أمولي وفولترا. وربما كانت أكثرها شهرة تلك المجموعة عن «العبور الحقيقي» في سانتو وفرانسسكو أنيرو. وشكَّلها بيرو ديلافرانسسكا في عام 1464م. وفي هذه النقوش التوسكانية تصور الملكة وهي راكعة تقديسا لجذع الخشب.

وتستمر الحكاية فتحكي أن سليمان دفن بعد ذلك عارضة الخشب، وفيما بعد حفر بركة Bethesda في نفس المكان، وفي الحال شفت البركة المرضى، إذ كانت تستمد خاصيتها المعجزة من عارضة الخشب المدفونة أسفلها، وعندما حان ميعاد صلب المسيح طفت العارضة على السطح، فاكتشفت واستخدمت لهذا الغرض.

وكان لعارضة الخشب تاريخ لاحق كذلك. وكما يقول باتنج جولد: «هذه هي أسطورة العبور، وهي تعد أكثر الأساطير جموحا لخيالات العصور الوسطى»[8]. ويتضح نمو الحكاية التي بدأت بموضوع الأرض الزجاجية أو المبللة، يتضح في حكاية «العبور الحقيقي»، وفي بعض الروايات يقال إن ملكة سبأ كان لها قدم مشوهة عادت سليمة في أثناء غمسها في ماء البحيرة، وهو بالأحرى قلب مرتب من الشيء الشيطاني إلى معجزة صغيرة متأثرة دون شك بما روي أخيرا عن شفاء مياه بثزدا للمرضى. ومن المحتمل

كذلك أن لها علاقة بلغز عارضة الخشب التي ألقاها سليمان في الماء، ولعل من أهم خصائص الروايات الشفاهية أن التداعيات المختلفة التي تستحضر على نحو غامض، تُعقّلن ويعاد استخدامها.

وقد أدى الاهتمام بحكاية قدم الملكة، من دون شك، إلى مرحلة فولكلورية أخرى عن الملكة، ونعني بذلك أسطورة أن للملكة رجل إوزة. وقد أصبحت الملكة، بناء على ذلك على نحو ما وصفها بول واطسون، الملكة الشريرة، أي صاحبة شكل شرير على نحو ما، لها ساقان مثل أرجل الإوزة، وهي أوروبية تلمودية عرفها العرب المسلمون، ومن ثم فهي حكاية مسيحية متفرعة عن غيرها. وربما كانت القدم المشوهة في حكاية «العبور الحقيقي» تفسيرا مسيحيا للملكة ذات السيقان الغزيرة الشعر.

ويأتي واطسون برواية يرجح أنها عاشت فيما بين 1154 ـ 1159، تسمى فيها الملكة «بسيدة سبأ، وكذلك سيدة أثيوبيا، كما تسمى سيبل ذات القدم الشبيهة بقدمي الإوزة وعينين تشعان كالنجوم».

وهو يشير إلى أن هذا الموضوع لعب دورا محدودا، حيث إنه لم يعثر عليه إلا في مراجع ألمانية ترجع إلى العصور الوسطى، وأن الملكات ذوات الأقدام الشبيهة بأقدام الإوز، قد سجلن في أشكال نحتية زينت بها كنائس بورجونديا في الماضي، ولم يعد لها وجود اليوم. ومن المحتمل أن هذه المعلومات مستمدة من المصادر الألمانية نفسها. على أن رابليه يشير على نحو غير مباشر، إلى صور الملكة Pedauque[*6] كما فعل أناتول فرانس في زمن أقرب كثيرا، كما يفيد واطسون أن صورة الملكة هذه لا تزال موجودة على قطعة من الحلى «الجميلة المنتجة في ألوكس ـ كورتون في بورجنديا العليا وهي ليست بعيدة عن التماثيل الرومانيسك هناك».

وعلى النقيض من صورة ملكة سبأ بساقها الشبيهة برجل الإوزة، كان تمثيل الزواج الملكي بين سليمان وبلقيس، بوصفه نموذجا لزواج المسيح والكنيسة، كما يتضح من لوحة جيبرتي المرسوم عليها صورة سليمان والمأخوذة من بوابة الجنة البرونزية القائمة في معمدية فلورنسا منذ عام 1452، كما نقشت صورة هذا الزواج على صناديق الزواج المختلفة على نحو دنيوي، وكانت تزين بها صناديق الأسر التوسكانية الفنية.

على أن السؤال المطروح الآن هو: ماذا تبقى لنا اليوم من هذا التراث

الغربي الوافر؟ لأن التأكيد المسيحي على زيارة الملكة المتنبئة للملك الحكيم، احتفظ بلقائهما في الثقافة الغربية، فإن الاتجاه السائد لصورة سليمان في الغرب هو ربطه بالملكة، وليس الاقتصار عليه وحده.

على أنه في عالمنا الغربي، على أحسن الفروض، تأثير مختلط لهيمنة مغالى فيها لشخصية تسمى ملكة سبأ، ففي مسرحية «بيجمالون» لبرناردشو يقول هيجنز لإلزا: «إن في وسعي، خلال ثلاثة شهور أن أقدمك للناس بوصفك ملكة سبأ ونقول في عباراتنا الدارجة: «ومن تظنين نفسك؟ ملكة سبأ؟»، وهي عبارة دارجة تعد رد فعل لسلوك متغطرس، وتقال دون معرفة الإنجيل على أي حال.

وعلى هذا النحو يقال: آه أنت يا ملكة سبأ، وهو نداء يقال لفتاة جميلة. فكل ما نعرفه عن هذه الملكة، أيا كانت هي، أنها امرأة كانت ذات هيبة ومقام، وأنها كانت جميلة، ولا شيء بعد هذا.

أما حياتها التاريخية، فلا تهم إلا علماء الآثار.

وأما صفاتها الشيطانية، فيختص بها منفردا الفولكلور اليهودي الذي لم يقتحم التراث الغربي.

وأما قدسيتها فتقتصر على فنون الماضي.

وإذا كان لسليمان حتى اليوم مكانة من دون ملكة سبأ في الحضارة الغربية، فهي مكانة ضئيلة تتبلور في جمل منتزعة من حكمته، وهي كل ما تبقى من كم من الأدب الحكمي الذي عرف في العصور الوسطى.

ولم تزل حكاية فض الخلاف بين المرأتين اللتين ادعت كل منهما الأمومة لطفل واحد، طازجة، وهي تخلد من خلال محاكاتها، على نحو ما نجده في «دائرة الطباشير القوقازية»، أو على الأقل في التراث المروي...

كما أن أسطورة معبده لا تزال مستمرة بسبب صلتها بالنظام الماسوني.

أما حضورهما كزوجين «سليمان وملكة سبأ» فقد خرج من دائرة الغرب المسيحي.

أما بالنسبة للشرق الأدنى، فبالإضافة إلى النص القرآني الذي يحكي عن سليمان وملكة سبأ، يتمتع سليمان بشهرة عظيمة تميزه عن بلقيس، وما زال القصاصون العرب حتى قرننا هذا، يأسرون المستمعين ليلة وراء الأخرى بحكايات متنوعة عنه: عن بناء المعبد بيد عمال مهرة أتى بهم من

صيدا، وعن كتل الأحجار التي كانت تنحت لهذا الغرض بواسطة البلور الصخري العجيب «سامور» الذي كان يحصل عليه العفريت صقر بمشقة من نسر البحر، ثم تلك الظُّلّة من الطيور التي كانت تحلق معا لتحمي سليمان من الشمس، ثم بساطه السحري المصنوع من حرير أخضر، ويسافر عليه في يوم واحد من سوريا إلى أفغانستان، وثروته التي لا حدود لها، وقصوره الألف المسقوفة بالزجاج وتحتوي على ثلاثمائة أريكة، وسبعمائة زوجة، وعرشه المصنوع من الذهب الخالص، ومنضدته المصنوعة من الزمرد الأخضر، والشمس التي تتوقف عن الحركة لحين فراغه من صلاة المساء، وسجنه للجن الشرير في قماقم من الرصاص، ثم خاتمه الذي كان آلته الرئيسية في السحر وبه أربعة فصوص من الجواهر، كل فص أعطاه إياه ملك من الملائكة، وكان هذا الخاتم يحضر له الملائكة والطيور لتكون في عونه، كما كان يكسبه قوة التسلط على البر والبحر وعلى الأرواح، كما يحكي القصاصون عن تجواله، عندما سرق الجني منه خاتمه عن طريق الحيلة، واغتصب عرشه، ثم عُثِر على الخاتم في جوف سمكة وعاد إلى سلطانه كما يحكون عن أحكامه، التي كانت في العادة، على عكس كل معجزاته، نتيجة تعقل سيكولوجي يستخدمه للكشف عن الجريمة.

وبعد وفاة سليمان، دفن في كهف يقع وراء البحار السبعة جالسا على عرشه ويرتدي خاتمه وتحيط به الكنوز الضخمة وتحرسه حية تقتل كل من يقترب منه. وبهذا يكون سليمان الساحر قد عاش في الفولكلور العربي على نحو أكثر نشاطا من سليمان النبي ورفيقته بلقيس.

وهكذا كان سليمان في الشرق الأدنى ولمدة قرون، شخصية مهمة، وكانت الملكة أقل أهمية منه، أما في الغرب فكان لقاء الملك مع ملكة سبأ، وملكة سبأ نفسها أشد أثرا وقد حدث عكس هذا مع مجموعة حكايات يوسف؛ ففي حين توجّه نظر الغرب إلى يوسف وحده، كان الشرق مهتما بقصة الحب بين يوسف وزليخة.

وعلى الرغم من أن التراث المسيحي ركز على بلقيس، وأن التراث الشرقي ركز على زليخة، فإنه في كلتا الحادثتين كان الخيال الشعبي أسير شخصية لم تتمتع إلا بأهمية ضئيلة في النصوص الدينية نفسها، ولكن الشروح صنعت منها أسطورة كبيرة.

النص الغربي

سبحت ضد التيار

تعود الناس أن يحكوا عن إلزا زوجة دنك هارجروف العجوز التي غرقت في النهر. واجتمع الناس جميعا للمساعدة في العثور على جثتها؛ فكانوا يرمون بشباكهم بحثا عن الجثة، ويطلقون الديناميت أسفل الجسر. ولم يمض وقت طويل على بحثهم، حتى شاهد أحدهم دنك العجوز وهو ينخس بخازوق من أجمة، بعيدا كل البعد عن المكان الذي سقطت فيه زوجته. وظن الناس أن دنك العجوز أسرف في شرب الخمر أكثر من المعتاد. فلما استدار الزوج لم يجدوه مخمورا كما ظنوا، بل إنه تصور أن إلزا كانت من العناد بحيث إنها لم تكن لتعوم مع التيار حتى ولو كانت ميتة.

المرأة العنيدة

كان لرجل زوجة بلغ بها العناد أنها كانت تفعل دائما عكس ما كان يطلب منها زوجها، واعتادت أن تستقبل الضيوف الذين كان... يدعوهم للعشاء، بوجه صارم. وذات يوم دعا الزوج بعض الأصدقاء لتناول العشاء معه، وأمر بإعداد المائدة في الحديقة بجوار غدير. وجلست الزوجة على بعد من المائدة وظهرها للماء، وهي ترقب الضيوف بوجه غير باش. وقال لها زوجها، «اقتربي من المائدة حتى تظهري الود للضيوف». ولكن الزوجة، فعلت العكس، إذ دفعت بكرسيها أبعد من المائدة وأكثر قربا من النهر، وما يزال ظهرها إليه. ولما رأى زوجها ذلك، قال لها آمرا: «اقتربي من المائدة!» ولكن الزوجة دفعت بكرسيها بعنف إلى الوراء فسقطت في النهر وغرقت. وتظاهر زوجها بالحزن الشديد، وركب قاربا، وبدأ يبحث عن زوجته مستعينا بعمود في يده، وكان يسير في اتجاه عكس التيار. وعندما سأله جيرانه عما يدفعه إلى البحث في اتجاه عكس اتجاه التيار، وليس في اتجاه التيار كما ينبغي أن يحدث، أجاب: « ألا تعرفون أن زوجتي لم تكن على الدوام تفعل إلا عكس ما يطلب منها، وأنها لم تكن قط تسير في الطريق العادي؟ ولهذا فإني على يقين من أنها وهي ميتة كذلك، قد سارت عكس اتجاه التيار، وليس مع التيار كما هو مألوف».

3 الإسكندر الأكبر

من الصعب، بعد مرور ألفي سنة وثلاثمائة على وفاة الإسكندر الأكبر ومرور ستمائة عام على وفاة تشوسر، أن نقدم ولو فكرة باهتة عن التأثير الفريد للإسكندر الأكبر في البشرية، حيث إن معلوماتنا عنه أصبحت الآن حبيسة الكتب أكثر منها ميسرة للجميع من خلال الفولكلور. والشخصية التي يمكن أن تكون مقارنتها أقرب إلى شخصية الإسكندر الأكبر هي شخصية نابليون بونابرت، الذي ذوت صورته كذلك في غضون مائتي عام، وإن ظل الاسم الوحيد في التاريخ الحديث الذي سمع عنه كل غربي. ولتسأل أي مدرس للتاريخ يدرس عن جماعات ذات ثقافات متعددة مثل الأمريكيين، أو نلاحظ المجنون الذي يضرب به المثل في الوهم «ويفكر في أنه نابليون».

لقد كان كل من بونابرت والإسكندر التاريخي يمثل عبقرية حربية، ويمتلك الشخصية الآسرة، (كاريزما)، وسماحة النفس، والمقدرة على تكوين إمبراطوريات والتخطيط والبناء على هذا الأساس الشامخ. كلاهما يمتلك خاصة الشغف الفكري الذي يعزز العلم والفنون ويثيرهما. ولكن الإسكندر كان كذلك أول المكتشفين للعالم، وكان يطلب المعلومات،

ليس بوسعنا أن نقول كما قال تشوسر إن حكاية الإسكندر معروفة وشائعة لدرجة أن كل إنسان بلغ سن الرشد يعرف شيئا عن تقلبات خطه(*)

كما يحكي المؤرخ الكبير بليني، عما هو معروف في المعمورة من أناس وحياة نباتية وحيوانات ومعادن، ولا يدخر وسعا في البحث عن المجهول. ولقد أسس ثماني عشرة مدينة جديدة، وكان أول غربي تطأ قدماه الشرق. ومع مرور الوقت تجمعت أسطورته في العصور الوسطى فاشترك الشرق والغرب في الاعتقاد في أن الإسكندر الأكبر كان أعظم الرجال قاطبة.

على أن النقطة الأساسية في التراث الأوروبي عن الإسكندر، أن إنجازات حياته التاريخية التي لا تُبز، لم تكن السبب في شهرته إلا بقدر ضئيل؛ فلقد كانت الحياة التاريخية لهذا الملك الفريد بطبيعة الحال، هي البداية للأساطير الأصلية التي حيكت حوله والتي نشأت دون شك في أثناء حياته. على أن حياته الأسطورية هي التي عرفت في العصور الوسطى على المستوى الشعبي. كانت هناك سجلات معاصرة له، ولكن القليل الأقل منها قاوم الزمن، ومن بين هذه السجلات مذكرات مؤرخه الرسمي، وهو ابن أخي أرسطو ويدعى كاليستينيس، وعندما كتبت لأول مرة حكايات تاريخية عنه كتبها الرومان بعد وفاته بثلاثمائة عام، كانت هذه الحكايات تأثرت بالأساطير الشائعة، ثم نسي تاريخ حياته الحقيقي مع تدهور المعرفة الكلاسيكية في عصور الظلام، ومن ثم لم تنمُ شهرته من الحقائق، بل من المغامرات المثيرة التي تعرف «برومانس الإسكندر»[(2*)].

ومعظم حكايات الإسكندر التي كونت أسطورته كانت تروى شفاها في الشرق الأدنى، وجمع بعضها إلى بعض في مخطوطة إغريقية في الإسكندرية على وجه الاحتمال، ومن المحتمل كذلك أن تاريخها يرجع إلى المائة الثالثة بعد الميلاد. وقد عزيت المخطوطة خطأ إلى كاليستينيس، ومن ثم تسمى باسم «المدعو كاليستينيس»، وتتمثل أهميتها في أنها أقدم مصدر باق لحياة الإسكندر الأسطورية، وأنه من خلاله، وبصفة خاصة من خلال فرع واحد منها أخذ من نص إغريقي مفقود، وترجم في القرن العاشر إلى اللاتينية على يد كبير الكهنة ليو نابولي، استقبل الغرب في العصور الوسطى معظم حكايات الإسكندر. ثم ظهرت نسخة منقحة من ترجمة ليو وعرفت باسم حكاية بروليس Historia de Proeliis، وانتشرت على نحو غير مألوف انتشارا واسعا، لا باللغة اللاتينية فحسب، بل باللغات الوطنية الناشئة كذلك، وكانت هذه النسخة مصدرا لظهور أربعين كتابا عن الإسكندر كتبت بكل اللغات

العامية الأوروبية على وجه التقريب بدءا من إنجلترا غربا إلى روسيا شرقا، وهكذا أصبح رومانس الإسكندر أشهر ملاحم العصر الوسيط وأكثرها قدما بفضل «المدعو كاليستينس»، كما أصبح الإسكندر نفسه أشهر بطل في عالم العصور الوسطى.

والشاهد على هذه المكانة للإسكندر الأكبر ترديد حكاياته في العصور الوسطى التي كانت تعرف بالأمثولة Exempla، والتي ازدهرت بدءا من القرن الثاني عشر، وهي عبارة عن نماذج أدبية تتألف من حكايات قصيرة كان يحكيها رجال الدين وتحكى لهم، في كل أنحاء أوروبا كشواهد الأخلاقيات المسيحية. ويمكن أن يتخذ محتواها معيارا دقيقا للمعرفة المتوقعة آنذاك عند أنصاف المتعلمين أو عند الرجل الأمي العادي. وقد جمعت هذه الحكايات التعليمية في كتب تميل إلى تكرار حكايات أليجورية وتحذيرية بعينها، نقلا عن الكتب السابقة عليها، وقَصَد الوعاظ الذين كانوا يستخدمونها في مناسبات طلب العفو والمواعظ والحج وغير ذلك من المناسبات الدينية، أن يمتعوا بها المستمعين بقدر ما أرادوا تهذيبهم، وكانوا، مثل الخطباء المحترفين المحدثين الذين يعدون أندادا لهم، يعرفون ميزة ربط الحكاية باسم شائع. فإذا تساءلنا، في مسح شامل لهذه الحكايات التعليمية[1]، عن أكثر الأسماء ورودا فيها كانت الإجابة هي الإسكندر، وفي فهرس هذه الحكايات المصنف حسب النماذج المرقمة للحكايات (بصرف النظر عن العدد الهائل للروايات المختلفة لكل نموذج)، يطغى اسم الإسكندر على غيره من الأسماء، فهناك تسعة وخمسون نموذجا مختلفا من الحكايات يمثل الإسكندر في كل منها الموضوع الرئيسي، في حين أن العذراء المباركة قدمت في ثمانية وأربعين نموذجا. ولا يرد شرلمان، وهو أقرب الرجال إلى الإسكندر إلا في أحد عشر نموذجا. كما لم يحظ سليمان، صديقنا القديم، إلا بتسعة نماذج، وأرسطو بسبعة يشترك الإسكندر في اثنين منها. حتى المسيح حظي بعدد أقل من الإسكندر، إذ يبلغ عدد نماذج حكاياته سبعة وخمسين نموذجا. أما الشخصية الوحيدة التي فاق توظيفها في القص عن الإسكندر، فهي شخصية الشيطان، إذ يبلغ عدد نماذج حكاياته مائة وثلاثة وثلاثين نموذجا من الحكايات التعليمية.

ويمكن استخدام هذه الإشارات في الحكايات التعليمية بوصفها دليلا،

يشبه استطلاع جالوب، لجماع حدود المعرفة في العصور الوسطى، ولمكانة الإسكندر المتفوقة، كما تقدم هذه الحكايات التعليمية بدورها إضافات للفكرة الشائعة عن الإسكندر. على أن هذه الحكايات التعليمية بدورها إضافات للفكرة الشائعة عن الإسكندر. على أن هذه الحكايات بعينها كثيرا ما أتت من مصادر شرقية، وظلت تتناقل طيلة قرون في فولكلور الشرق الأدنى قبل دخولها أوروبا، في الوقت الذي كانت فيه صورة الغرب عن الإسكندر، كما ذكرنا من قبل، قد استقرت قبل زمن انتشار الحكايات التعليمية الأوروبية بزمن طويل، وذلك من خلال انتشار رومانس الإسكندر بعناوين ولغات متعددة، وهي جميعا تعد من سلالة رواية «المدعو كاليستينيس».

على أنه قبل كتابة العمل الأخير بزمن طويل، وعلى وجه التحديد بعد موت الإسكندر التاريخي في بابيلون عام 323ق.م. كانت أسطورة الإسكندر قد بدأت في الظهور مجمعة فيها بالطريق المألوف، العناصر المحلية المعروفة من الدين والمعتقدات والأساطير والحكايات المبكرة.

على أنه، في هذه الحالة، لم يكن هناك حدود للمحلية، إذ كانت المساحة التي انتشرت فيها أسطورة الإسكندر تتسع باتساع إمبراطوريته التي بلغت ما يربو على مليون ميل مربع، وكانت تضم أمما متعددة: إغريقية وعبرانية وعربية وفلسطينية وسورية وأرمينية، وبابلية، ومصرية، ومديانية، وبارثية، وفارسية، وأفغانية وهندية. وهذا التراث المبكر الذي لم يكن يشمل الإضافات الإسلامية والمسيحية المتأخرة التي سادت، ما زال من السهل اقتفاء أثره في كثير من الأحيان في مجموعة الكتابات الأساسية للمدعو كاليستينيس... حقا إننا إذا تساءلنا عن الكيفية التي أصبحت بها حكايات الشرق الأدنى هي نفسها حكايات الغرب، فليس هناك ما ينفعنا في ضرب الأمثلة أكثر من روايات «المدعو كاليستينيس»، إذ كان يسهل للقراء الحصول عليها في الغرب بدءا من القرن الثالث باللغة الإغريقية، والقرن الرابع باللغة اللاتينية. على أن مادة أسطورة الإسكندر في أثناء انتشارها في مخطوطات وقبل وبعد ذلك، انتشرت شفاها في اللهجات المحلية للشعوب المختلفة. وربما حدث هذا في أوروبا في العصور المظلمة عندما كان التراث اليوناني الروماني المتناقل، وثقافته بصفة عامة، في أفول، وأصبحت الفنون فجة وغير ممثلة،

كما أصبح أدب الترفيه والمأثورات التقليدية خاضعة للكنيسة، ولابد أن هذه الحكاية المثيرة كانت تبدو مثل السحر للمستمعين البسطاء في ذلك الزمن وهم أجدادنا البدائيون، حيث إن المدعو كاليستينيس كان يمزج التاريخي بالعجائبي، والحسيّ بالمثالي على نحو يبدو آسرا حتى اليوم، على نحو ما سنرى فيما بعد.

كان المخطوط الأصلي الإغريقي المصري «الذي يرجع إلى القرن الرابع الميلادي» للمدعو «كاليستينيس»، قد فقد. ولكن نسخة منه ترجع إلى القرن الثالث عشر، حفظت ترجمة من الإغريقية إلى الأرمينية ترجع إلى القرن الخامس، وتقترب كثيرا من المخطوط الأصلي، وقد ترجمت النسخة الأرمينية التي ترجع إلى القرن الثالث عشر إلى الإنجليزية فتوافرت لنا لقراءتها فرصة سعيدة، وكأنها نص أتانا مباشرة من القرن الخامس من مصر يمثل النسخة الدستور في الشرق الأدنى لملاحم الإسكندر الغربية. وهذه الرواية تلفت النظر إلى حداثتها الغريبة سواء في لغتها أو من ناحية التحليل النفسي.

تاريخ فاتح العالم العظيم الإسكندر المقدوني

حياة حافلة بالأفعال البطولية وموت معلم بالعجائب

بعد أن حدد حكماء مصر حجم الأرض والبحر، وعدوا نجوم السماء، كشفوا عن قوة العالم بأسره وعن سحر الكلمات وقدرتها، وعن معارف المهارة العلمية.

إذ يحكى أن ملك مصر الأخير نيكتانيبوس الذي أفل من بعده نجم المملكة، قهر كل الرجال بقوة السحر والتعاويذ، وحتى العناصر الطبيعية أطاعته؛ فإذا رفعت جماعة غازية ضده راية العصيان، لم يكن يلجأ إلى أسلحة الحرب، أو إلى تعبئة السلاح وتخزينه، أو إلى الأسلحة الحديدية التي تفتك بالإنسان، أو إلى أي وسائل ماكرة، بل كان يأوي إلى قصره، وهناك يعزل نفسه ثم يأتي بحوض ويبدأ العمل بتعاويذه فيملؤه بماء النبع، ويصنع بيديه السفن، كما يصنع الرجال من الشمع، ويضع هذه الأشكال في السفن، ثم يضع هذه الأشياء جميعا في الحوض الممتلئ بالماء. وعندئذ تدب الحياة في الرجال. ويأخذ نيكتانيبوس بعد ذلك عصا من الأبنوس في

يده، ويستحضر بتعازيمه آلهة الأرض وأرواح السماء. وبهذه الطريقة يعمّد السفن الطافية في الحوض، وفي أثناء تعميدها تتحطم السفن التي تأتي لمحاربته من البحر من قبل الأعداء، فكانت مملكته تعيش في سلام بسبب تلك القوة السحرية الآسرة لهذا الرجل.

وبعد مضي ردح من الزمن، جاءه رجال كان يسميهم الرومان مستكشفين ويسميهم الأرمن «جوالة»، وقدموا إليه تقريرا بوصول حشد من الجنود. جاءه القائد وقال له: أيها الملك العظيم، دع عنك احتفالات السلم واستعد للحرب، فهناك تجمع كبير يقترب منك، وليس المهاجم لنا أمة واحدة بل أمم كثيرة هنود وكوانيين وكومينيان، وأوكيداك وأبيريون، وكونيانيون، وليلابيانيون، وبومتيريانيون وأرجفيانيون ولكهالينيون. أمم لا حصر لها تعيش في الشرق جاءت إلى مصر بجيوش عظيمة. وعليك الآن أن تذكر بيتي هوميروس الشهيرين: «ليس من اللائق، وليس من الكياسة للرجل الحكيم الذي يحمل مسؤولية شعبه وغيرها من الهموم الكثيرة، أن يبقى نائما الليل كله».

وبعد أن قال القائد كلمته، ابتسم نيكتانيبوس لحظة ثم قال: «لقد قلت القول الفصل وهذا شيء جميل، ولقد حافظت على ثقتك في ولائي، ومع ذلك فقد تحدثت في خوف، وليس كما يتحدث الجندي الشجاع. فالقوة لا تكمن في العدد، بل في دفقة الرغبة. ففي وسع الأسد الواحد أن يقتنص كثيرا من الغزلان، والذئب الواحد أن يفتك بقطيع من الخراف، فاذهب الآن بالجنود المجتمعين تحت إمرتك، وقف في الموقع المحدد لك، فسوف أغرق بكلمة واحدة، جيوش البرابرة من الأمم التي لا حصر لها، في أمواج البحر».

وبعد أن قال الملك هذه الكلمات، صرف القائد وقفل راجعا إلى القصر، وأمر من كان فيه بالخروج. وعندما خلا إلى نفسه، أحضر حوض الماء وقام بالعملية نفسها. وعندما حملق في الحوض رأى آلهة مصر يقودون مراكب الأعداء المهاجمين من الأمم البربرية. وكان الملك قد اعتاد أن يجد نفسه بين الآلهة، وأن يتحدث معهم لتمكنه من السحر. وعندما علم منهم أن مملكة مصر قد أشرفت على الزوال، ملأ حزامه بذهب كثير وفضة، وحلق شعر رأسه وذقنه وتخفّى، ثم ولّى هاربا وعبر بليوزون دون أن يتعرف عليه

أحد. ووصل إلى مدينة بلاّ في مقدونيا بعد أن سافر في بلاد كثيرة. وهناك أقام مرتديا رداء من الكتان، ومارس التنجيم بوصفه نبيا مصريا، وكانت لديه المهارة الفائقة للقيام بهذا الدور.

عندما افتقده المصريون، تضرعوا للإله وسألوه عن مصير ملكهم، ورد الإله من العالم السفلي في سينوبوس قائلا: «ملككم هذا الذي هرب، سوف يعود مرة أخرى إلى مصر لا بوصفه رجلا كهلا، بل شابا، وسوف يخضع أعداءكم الفرس». وعندما أبلغوا بهذه النبوءة أخذوا يبحثون عن المعنى الحقيقي للكلام، وعندئذ كتبوا تلك النبوءة على قاعدة تمثال لنكتانيبوس.

وهناك في مقدونيا، أصبح نكتانيبوس مشهورا لدى الجميع من خلال علمه في نظام الطبيعة، إلى درجة أن الملكة أوليمبياس أتت تستشيره في أمورها. وكان ذلك وقت رحيل الملك إلى الحرب، وعندئذ أمرت الملكة بإحضار الرجل تستفتيه في شؤونها. وسعد نكتانيبوس برؤية الملكة، بناء على طلبها، ووقف متخشبا أمامها دون أن ينحني أمامها، إذ كان مجنونا بغرامه للنساء، وبعد ذلك مد إليها يده وقال: «لتبتهجي ولتسعدي ملكة مقدونيا، فنكتانيبوس الذي كان أميرا يحمل نفسه على أن يدعوها «سيدتي». وأجابت أوليمبياس: «تحيتي السعيدة إليك أيها الشجاع. تعال واجلس». فلما تحرك وجلس قالت له: «هل أنت عالم التنجيم نيكتانيبوس المعروف في كل بلد؟ المفروض أن الذين استجوبوك قد علموا منك كل حقيقة، فبأي وسيلة علمية يمكنك أن تؤكد لي هذه الحقائق»، وأجاب الملك: «أيتها الملكة إن هناك طرقا كثيرة للاختبار. فهناك مفسرو الأحلام، والذين يحملون رموز الفأل، ومن يحكم على الأحلام. وهناك عرافو آمون ومن يقرأون المندل ومن يقرأ المستقبل، ثم هناك الذين يتنبأون بالحظوظ والمصائر يسمون المجوس وفي قدرتهم كل المسائل العلمية».

ولما فرغ نيكتانيبوس من كلامه، نظر في وجه أوليمبياس بحدة وقد مسته الشهوة وعندئذ قالت الملكة: «لماذا تقف هكذا مشدودا منذ أن أبصرتني»، وأجاب نيكتانيبوس: «سيدتي الملكة: لقد تذكرت نبوءة تلقيتها من آلهتي ذات يوم، تقول إنني سأتشاور مع ملكة وأبحث شؤونها، وها قد تحققت النبوءة، والآن أخبريني، سيدتي الملكة، عما ترغبين في سؤاله».

وعندئذ أخرج نيكتانيبوس يده من تحت ردائه وأطلعها على لوح تعجز الكلمات أو أيّ وسيلة قوية أخرى، عن أن تصفه، إذ كان مصنوعا من الذهب والعاج عليه نجوم سبعة: الفلكي الأثيري أرمزاد، وشمس مصنوعة من كريستال كالثلج، وقمر كالقطيفة آريس(*3) من العقيق، وهرمس من الزمرد، وأفروديت من الزبرجد، وكرونوس من حجر الحية، وإله الطالع من الرخام الأبيض. وانبهرت أوليمبياس بهذه التحفة ولمظهر النجوم الجميل، واقتربت من نيكتانيبوس وجلست إلى جواره، وأمرت الحاضرين بالخروج ثم قالت له: لتختبر الآن ميلادي وميلاد فيليب، فهناك إشاعة تروج أنه عند عودته من الحرب سيهملني ويتخذ زوجة أخرى. وقال لها نيكتانيبوس: «ضعي علامة ميلادك وميلاد فيليب»: فقالت له: «وماذا ستفعل؟»، ووضع نيكتانيبوس علامة ميلاده كذلك بجوار علامة ميلاد أوليمبياس ثم أجرى اختباره وقال: «إن الإشاعة التي سمعت بها ليست كاذبة، نعم إنها في الحقيقة مقدّرة لك. ولكني أستطيع أن أساعدك - بوصفي عرافا مصريا - على ألا يهملك زوجك. وحتى لو فعل، فسوف تجدين من ينتقم منه». وردت أوليمبياس: «وهل هذا صحيح؟» أجاب: «إنه وفقا لما قدمت من علامات مقدر لك أن تعاشري إلها أرضيا، وأن تحملي منه، وبعد الحمل ستلدين وترعين الطفل، وسوف يكون هذا الطفل هو المنتقم لكل ما يصيبك من إساءة من فيليب. وسألت أوليمبياس: «ولكن، من ذلك الإله؟»، وأجاب: «إله الليبيين آمون». واستمرت أوليمبياس في أسئلتها: «وما طول هذا الإله؟ وهل هو شاب أم في منتصف العمر؟ وكيف تبدو ملامحه؟ وأجاب: «إن شعره أبيض وله قرنا كبش في أعلى فكيه. والآن أعدّي نفسك بوصفك ملكة وامرأة فسوف تظهر لك رؤيا ترين فيها نفسك والإله المناسب لك». وأجابت أوليمبياس: «إذا رأيت هذه الرؤيا حقا فسوف أحبك ليس بوصفك رجلا، بل إلها». وغادر نيكتانيبوس القصر، وأسرع في جمع نبات يعلم أنه يثير الأحلام. وبعد أن فعل هذا على وجه السرعة، صنع دمية من الشمع وكتب عليها اسم أوليمبياس. ثم صنع سريرا من الشمع ووضع عليه تمثال أوليمبياس الذي صنعه، ثم أشعل نارا وسكب عليها عصارة النبات، وتلا عليها التعاويذ المناسبة حتى ظهرت الأرواح لأوليمبياس، لأنه رأى من خلال العلامات التي ظهرت أن آمون يعانقها ويهب واقفا يقول: «سيدتي

لقد حملت مني بطفل ذكر سيكون المنتقم لك».

وعندما استيقظت أوليمبياس من نومها، تعجبت من هذا المتنبئ العالم وقالت له: «لقد رأيت الرؤيا ورأيت الإله الذي أخبرتني به، والآن أريد أن أعاشره، فلتجعل هذا همك ولتخبرني بالساعة التي سينام فيها معي، حتى أكون في أبهى حلل العروس». وقال: «إن ما رأيته سيدتي في البداية كان حلما، ولكن الإله نفسه الذي ظهر لك في الحلم سوف يأتي لينام معك، فلتسمحي لي بأن أنام بالقرب من حجرتك حتى لا تنزعجي عندما يدخل عليك الإله».

وقالت أوليمبياس: «لقد نطقت بالحكمة أيها النبي وسأمنحك حق الدخول إلى حجرتي. وإذا نمت وحملت منه، فسوف أقدرك تقديرا كبيرا بوصفك نبيا لا يخطئ، وسوف أستقبلك كما لو كنت والد طفلي». وقال نيكتانيبوس: «إن أول بشارة للإله الذي يأتيك تكون على النحو التالي: إذا دخلت وجلست في حجرتك، فسوف تبصرين ثعبانا يأتي منزلقا نحوك، عندئذ تأمرين كل الحاضرين بالخروج، ولا تطفئي أنوار القناديل، بل اذهبي واستلقي على الأريكة، وغطي وجهك، عندئذ سوف ترين الإله الذي سبق لك أن رأيته مقبلا نحوك في رؤياك». وما إن فرغ الملك نيكتانيبوس من كلامه حتى ترك الحجرة. وفي الحال خصصت الملكة له حجرة بجوار حجرتها. وأعد نيكتانيبوس صوفا من صوف الكباش أشد ما يكون نعومة، بالإضافة إلى قرني الكبش اللذين انتزعهما من رأسه، كما أعد عكازا، ثم شكل ثعبانا وجعله ناعما رخوا حتى انزلق من بين يديه، وفجأة جعله يتحرك منطلقا إلى حجرة نوم أوليمبياس، وعندما أبصرته الملكة لم يتملكها الخوف، إذ كانت تتوقعه. وعندئذ أمرت الحاضرين بترك الحجرة ليذهب كل إلى مكانه، ثم استلقت على السرير وغطت وجهها، ولم تر نيكتانيبوس إلا من خلال زاوية من عينها، وقد اتخذ المظهر الذي رأته في رؤياها. وترك نيكتانيبوس عكازه الخشبي المصنوع من خشب النخيل ودخل في فراشها واجتذبها نحوه وعاشرها، ثم وضع يده اليمنى على جانبها وقال: «سوف يكون طفلا منيعا لا يُقهر، لتعش سيدتي، فأنتِ الآن حامل في طفل ذكر سيكون المنتقم لك. وسوف يصبح الملك الذي يغزو كل العالم المتحضر. وما إن قال ذلك، حتى أخذ عكازه وترك الحجرة ثم أخفى أشياءه التي معه.

وفي الصباح استيقظت أوليمبياس وجاءت إلى حجرة نيكتانيبوس الذي استيقظ عندئذ وسألها: «سيدتي! ماذا حدث؟ أخبريني، هل صدقت الرؤيا؟» وأجابت أوليمبياس: نعم كان كلامك حقا. والآن، ألن يحضر لي مرة أخرى؟ إنني انتظر قدومه بوصفي زوجة له لأنام معه، فقد استقبلته باشتياق كبير أيها النبي. على أنني أتعجب إذا كان هذا قد حدث دون علمك، ودون أن تعرف ذلك مسبقا». وسعد الملك بأن الملكة أحبته وقال: «أصغي إليّ أوليمبياس، إنني نبي ذلك الإله، وإذا سمحت لي بأن أنام في الحجرة المجاورة لك دون أن أزعج أحدا أو أضايق أحدا، فسوف أقوم بواجب الطقوس المعتادة، وعندئذ سوف يأتيك الإله». وقالت أوليمبياس. «لتتحقق رغبتك من الآن». ثم قالت لحراسها: «اعطوه مفتاح تلك الحجرة». وكان نيكتانيبوس يقوم بأفعاله في سرية تامة وفي الحقيقة إنه زارها عدد المرات التي رغبت في أن يأتيها فيها. وبعد ذلك كانت تعبر عن رغباتها من خلال هذا النبي. أما من جانبه فكان يجامعها كما هي عادته، موحيا لها بأنه الإله آمون. ثم انتفخ بطنها. فتوجهت إلى نيكتانيبوس قائلة: «أيها النبي ماذا أفعل إذا جاء فيليب ووجدني حاملا؟». ورد عليها قائلا: «لا تخافي سيدتي، لأن الإله آمون سوف يساعدك في هذا الأمر. سوف يظهر للملك فيليب في منامه وسوف يخبره بما قُدر أن يحدث، ولن تلامي على شيء بعد ذلك، ولن ينالك عقاب». وانغمست أوليمبياس في الفسق مستمرة فيه على هذا النحو، وكانت تكشف عن حقيقة طبيعتها بتأثير قوة السحر. ثم صنع نيكتانيبوس بازا بحريا وشحنه بطاقة سحرية، ورأى على وجه السرعة - وفقا لرغبته - فيليب في أحلامه. ثم مارس سحره على الباز وجعله يتكلم، ثم جعله يطير فوق الأرض والبحر، وفي خلال يومين وليلتين وصل الباز إلى المكان الذي فيه فيليب. وتحدث إليه في الرؤيا كما علمه نيكتانيبوس. وبعد أن رأى فيليب الرؤيا استيقظ منزعجا واستدعى بابيلونيوس مفسر الأحلام، وقال له: «لقد رأيت، في المنام إلها وسيما ذا شعر أبيض، ويحمل قرني كبش في لحيته فوق فكيه. لقد جاء في الليل إلى زوجتي أوليمبياس ورقد معها، وبعد أن نهض قال لها: لقد حملتِ مني طفلا ذكرا يخصبك وينتقم لموت أبيه. وبدا لي في الرؤيا أنني أختم رحم زوجتي بورق البردي ثم أضع عليه خاتمي. وكان الخاتم من الذهب وشارته تشبه شعاع الشمس، وعلامتها

رأس أسد وسيف. هذا ما ظننت أنني فعلته، عندما جاءني باز وأيقظني من نومي بأجنحته دون أن تصدر منه أي إشارة». وقال له مفسر الأحلام: «إن الحلم الذي رأيته حق؛ وحيث إنك ختمت على رحم زوجتك، فهذا دليل يحمل النبوءة؛ فالخاتم يشير إلى أن زوجتك قد أصبحت حاملا، ذلك لأن الإنسان لا يختم وعاء فارغا، بل إنه بالأحرى يختم وعاء ممتلئا ومحملا بشيء. وهذا ما حدث عندما ختمت على رحم زوجتك بنبات البردي. وحيث إن نبات البردي لا يوجد إلاّ في مصر، فالرجل الذي ترك بذرته في رحم زوجتك، مصري. وليست البذرة التي أودعها تافهة وحقيرة، ولكنها بذرة مميزة ومتألقة ومشعة، ودليل ذلك أنك ختمتها بخاتم من الذهب، وهل هناك ما هو أكثر توهجا من الذهب الذي تُبجَّل به الآلهة؟ وحيث إن الخاتم عليه رأس أسد وسيف يشير إلى الشمس، فإن الابن الذي سيولد سيصل إلى أقصى الشرق، وسوف يسلك في كل أمر كما يريد ووفق هواه مثل الأسد، كما أنه سوف يخضع الناس والبلاد، وهو ما يفسره رمز السيف الذي رأيته في الحلم، أما عن رؤيتك للإله ذي القرنين الوقورين فهو يشير إلى آمون إله الليبيين».

وما إن فرغ مفسر الأحلام من شرحه حتى أبدى فيليب استياءه بسماعه بحمل زوجته، مع علمه أنه حدث من الآلهة، ولما كان فيليب قد كسب الحرب، فقد اندفع عائدا إلى مقدونيا. وفي أثناء ذلك كانت أوليمبياس خائفة وكان نيكتانيبوس يواسيها.

وعندما عاد فيليب إلى مقدونيا وذهب إلى زوجه الملكة، استقبلته وهي مهتزة الثقة، بسبب كل ما حدث لها. ولما رآها فيليب مضطربة قال لها: «سيدتي إنك لست مسؤولة عما حدث، بل هناك من يلام على ذلك. وما حدث ظهر لي في الرؤيا مما يشير إلى براءتك وعدم لومك. فنحن الملوك نستطيع أن نفعل ما نشاء، ولكننا لا نستطيع معارضة الآلهة، فأنت لم يغرّر بك رجل عادي سوقي، ولم يشته جمالك الأخاذ أي إنسان اشتهاء رخيصا، بل الآلهة التي تفوق قوتها كل شيء». ولمافرغ فيليب من كلامه، صرف أوليمبياس وهي في حالة نفسية مرضية، وكانت شاكرة للنبي الذي حذرها من قبل. واستمر فيليب يعيش بعد ذلك مع أوليمبياس.

وفي أثناء ذلك كان نيكتانيبوس يعيش في القصر، ولكنه لم يظهر لأحد

حيث إنه لم يكن يرغب في ذلك، ولكنه سمع فيليب يقول لزوجته ذات يوم: «إنك لم تحملي من الآلهة ولكن هناك في الحقيقة من تُيم بك، وإذا ما وقع هذا الشخص في يدي فسوف أقضي عليه بعد أن أعذبه في غير رحمة». وسمع نيكتانيبوس ما قيل. وبينما كان الناس يحتفلون بعودة الملك، كان الملك وحده حزينا لأن زوجته حامل. وبينما كان جمهور الناس يبتهج، حوَّل نيكتانيبوس نفسه إلى هيئة ثعبان أكبر بكثير من الثعبان الأول، وأخذ الثعبان يمر بأنحاء القصر وهو يتنفس في عنف إلى درجة أن اهتزت أساسات القصر، وكان كل من رآه ينزعج ويرتعش ويهرب خوفا. وتعرفت أوليمبياس عليه وأصيبت بالذهول، فرفعت يدها اليمنى من حجرها ومدتها أمامها، فدار الثعبان في الحجرة حتى وصل إلى ركبتي أوليمبياس ولعقها بلسانه المشقوق. بذلك أطلع المشاهدين على حبه الآسر للملكة»، أما فيليب فكان خائفا ومأخوذا في الوقت نفسه، وكشف عن جهله بمجيء الثعبان. وحيث إن نيكتانيبوس لم يكن يرغب في أن يطيل رؤية المشاهدين له على هذا النحو، فقد حول نفسه من ثعبان إلى نسر وطار بعيدا عن المكان. أما عن المكان الذي طار إليه النسر، فلا أجد ضرورة لأن أخبر به. ولكن فيليب كان فزعا كل الفزع، وعندما استعاد رباطة جأشه قال لزوجته: «لقد رأيت بالدليل القاطع أن الإله جاء ليساعدك في محنتك. ولكن من هو هذا الإله، هذا ما أجهله لأنه تجلّى لنا في شكل أرمزاد وآمون». قالت أوليمبياس: «هكذا تجلى لي في وقت مجامعته لي، إنه آمون إله الليبيين جميعا». وعندما سمع الملك هذا الكلام، عد نفسه مباركا وقال «لقد قدّر لي أن أكون والدا لابن الإله».

وبعد أيام قليلة خرج فيليب وجلس في غيضة في القصر حيث كانت طيور كثيرة تلتقط طعامها. وبينما كان منشغلا ببعض أعماله المهمة، هبط طير ووضع بيضة في حجره ثم طار بعيدا. وتدحرجت البيضة من حجره حتى سقطت على الأرض وتهشمت، وخرج منها ثعبان صغير أخذ يلتف حول البيضة عدة مرات. وعندما حاول أن يدخل البيضة من المكان الذي خرج منه، خبط رأسه في أثناء ذلك ومات في الحال.

وحيث إن فيليب كان مضطربا للغاية، فقد أرسل في طلب أنتيفونتا الذي اشتهر آنذاك بقراءة الفأل، وأخبره الملك بما حدث عن الطير والبيضة

والثعبان والتفافه حول البيضة ثم موته». ولأن أنتيفونتا كان قد أوحي إليه، بإرادة الإله، بمعلومات خاصة، فقد نطق قائلا: «أيها الملك سوف يكون لك ابن يغير وجه العالم بأسره، ويخضع كل فرد فيه لسطوته، ولن يستطيع أحد إخضاعه. على أنه سوف يموت في أثناء عودته إلى بلده بعد أن يكون قد عاش فترة قصيرة من العمر. فالثعبان حيوان ملكي، كما أن البيضة التي خرج منها الثعبان تمثل العالم، وعندما أراد الثعبان، بعد أن أحاط بالعالم، أن يدخل المكان الذي انطلق منه، فشل في ذلك ومات». لقد فسر الرجل الفأل على هذا النحو وأخبر به الملك ثم رحل بعد أن تلقّى الهدايا من الملك فيليب.

وعندما أكملت أوليمبياس شهور حملها وحان ميعاد الولادة، جلست على كرسي الولادة لتضع طفلها. ووقف نيكتانيبوس قريبا منها يقيس مواضع النجوم السماوية. وعلم من خلال توجيهه العناصر الطبيعية المضطربة بقوته الخاصة، أنّ ذلك ليس الوقت السليم لولادة الطفل، فقال لأوليمبياس: «تماسكي يا سيدتي في هذه اللحظات ولتكوني مثل الإله الذي منحك هذا الميلاد، لأنك لو وضعت طفلك الآن، فسوف يولد في بيئة من العبودية، أو سوف يكون عبدا للآخرين. وعندما نفد صبر المرأة مرة أخرى، وهمّت بالولادة إذ كانت آلامها مبرحة، قال لها نيكتانيبوس: «تذرعي بالصبر أيتها الملكة لأنك إن وضعت طفلك الآن فإما أن يخصى أو يشوه» وأخذ نيكتانيبوس يواسي المرأة بكلمات عزاء ثم وضع يده على فتحتها وعلم ما يتطلبه الأمر، واستطاع بقوته أن يوقف الميلاد. ثم نظر مرة أخرى إلى نجوم السماء ليرى وضع العناصر الطبيعية، وأدرك أن الكون كله في حالة انسجام، وأن كرونوس وصل إلى منتصف السماء، ولاحظ سهما من البرق يشق السماء في الظهيرة بفعل قوة الشمس فقال لأوليمبياس: «أطلقي الآن صرخة الميلاد أيتها الملكة». وساعد بنفسه الطفل على الخروج قائلا: «إذا وضعت الآن طفلك، أيتها الملكة، فإن من ستلدينه سيكون قاهر العالم». وأطلقت أوليمبياس صرخة أعلى من صرخة الثور وولدت طفلا ذكرا.

وعندما سقط الطفل على الأرض، حدثت هزة أرضية يصحبها رعد وبرق، وتكرر ذلك مرارا، بينما كانت الأرض كلها على وجه التقريب تهتز، وعندئذ قال فيليب: «إنني لا أريد أن أرى هذا الولد يا سيدتي، لأنه ليس

منّي، ولكن حيث إنني أرى أن جنينك كان من الآلهة، وأن وضعك قد تم من خلال فأل من القوى الطبيعية، فإني سأرعاه ذكرى لطفلي الذي مات، ذلك الطفل الذي ولد لي من زوجتي الأولى، وسوف أسميه الإسكندر». ولأن فيليب تكلم على هذا النحو، فقد تلقى الطفل العناية الكبرى، وأقيمت احتفالات التتويج في كل من مقدونيا وبيلا وتراقيا ولدى جميع الأمم.

ولكي لا نطيل كثيرا في الشؤون الخاصة بتنشئة الإسكندر، أبدأ من البداية لكي أخبركم عن العناية التي تلقاها، ذلك لأنه عندما فطم ونما في الحجم والشكل، لم يكن يشبه فيليب في أي شيء، ولم يكن يشبه أوليمبياس، ولا حتى أباه، بل إن ملامحه تطورت على نحو منفرد، فكان له شعر أسد وكانت عينه اليسرى زرقاء، في حين كانت اليمنى سوداء وذات جفن مرتخ، وكانت أسنانه حادة مثل المخالب. وكان يحدق بنظره كما يفعل الأسد، وكانت شخصيته تنبئ بوضوح عن المستقبل الذي ينتظره، ومع مرور الوقت كان يكبر ويجرب قدراته في العلم والحكم.

كانت مربيته «لاكرين» من قبائل السلت، أخت ميلانوس، وكان معلمه ومربيه ليونيدس اللاكوني، ومدرس الأغاني بولينيكوس، ومدرس الموسيقى ليوسيبوس الليمتيانيّ، والهندسة مينيشموس البيلوبونسياني، وفي البلاغة أنا كسيمينوس أرسطو خوليس اللمباسكاني، وفي الفلسفة أرسطو من نكوميتاخوس السناصيري من مدينة ميليتيوس. وقد ذكر بافوفورانوس هذه المسائل في كتابه الرابع الذي يحتوي على تاريخه العلمي الذي شمل كل شيء.

وصار الإسكندر عالما في كل شيء وكان يدرب نفسه على نحو جيد، كما ذكرت سابقا، مما أظهر أن هناك قوة إلهية ترعاه. وكان إذا فرغ من الجلوس يقوم بالتحكيم بين الطلبة من وقت لآخر. وعندما يرى فريقا يُهزم ينحاز إليه، وسرعان ما تدور الدائرة على الفريق الآخر، وينتصر الفريق المنهزم، وعندئذ يتضح أن النصر كان من صنع الإسكندر.

وفي ذلك الوقت، وفد على فيليب سائسو الخيول، ومعهم حصان قوي وضخم، أتوا به من حظيرته، وأوقفوه أمامه، وخاطبوه قائلين: «مليكنا المعظم، لقد ولد هذا المخلوق الذي يفوق بيجاسوس وأريون جمالا وسرعة في حظائركم. وها نحن أحضرناه من لامومينتيوس، ونقدمه هدية لكم. ودهش

فيليب لرؤية حصان بمثل هذا الجمال والحجم وقال: «أقسم بخلاصي إنه لجميل». فردوا عليه قائلين: «وعلى كل يا سيدي إنهم يقولون إن هذا الحصان مفترس». فعلق الملك على ذلك قائلا: حقا إنّ مثل هذه الأمور حدثت بين الهلينيّين، لأن هذا الحصان منح في الأصل طبيعة تجمع بين الخير والشر. ولكن حيث إنه أصبح شريرا فحسب، فلتأخذوه بعيدا وضعوه في زنزانة، ثم ألجموه واحبسوه حتى يمكننا أن نرمي له مجرما أو قاتلا يقع تحت طائلة القانون ليفترسه. وما كاد الملك يفرغ من قوله هذا حتى كان التنفيذ يسبق الكلمات.

وفي أثناء ذلك، كان الإسكندر يزداد نضجا وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره، بدأ يعمل مع أبيه، فحمل السلاح واصطحب فرق الجيش، وكان يهوى ركوب الخيل. ولاحظ الابن أن فيليب لم يكن في علاقة طيبة مع أوليمبياس، واستدعت أوليمبياس نيكتانيبوس وقالت له: «اكتشف لي ما يدور بخلد فيليب فيما يخصني»، ولما بحث نيكتانيبوس هذا الموضوع، جاءها وجلس معها، وسأله الإسكندر: «وهل هذه النجوم يا أبتِ التي تتحدث عنها الآن بادية للعيان»؟ وأجاب نيكتانيبوس: «بكل تأكيد يا بني». وسأله الإسكندر: «وهل يمكنني أن أراها كذلك؟» وأجاب نيكتانيبوس: «من الممكن يا بني».

وعندما حل الليل، اصطحب نيكتانيبوس الصبي خارج المدينة ونظر إلى السماء وأطلعه على النجوم؛ أمسك به الإسكندر وقذف به إلى حفرة فأصيب بشدة في رقبته في أثناء سقوطه، وعندئذ سأله نيكتانيبوس : «لماذا أردت أن تفعل هذا يا ولدي الإسكندر؟». ورد الإسكندر: «عليك أن تلوم نفسك أيها المنجم». وسأله نيكتانيبوس : «وعلام ألومها؟». فأجاب الإسكندر: «لأنك تسعى في دراسة شؤون الأرض». وأجاب نيكتانيبوس: ««إنني أموت يا إسكندر فإصابتي شديدة من سقوطي في الحفرة، ولكن ليس هناك أي شيء أو أي إنسان فانٍ يستطيع أن يرد القضاء». وسأل الصبي: «لماذا»؟. وأجاب نيكتانيبوس : «إنني أعرف على أي نحو قدرت الآلهة حياتي؛ فلقد كتب عليّ أن أقتل بيد ابني، ولم أستطع أن أهرب من هذا المصير، وها أنتذا قد صرعتني». وسأله الإسكندر: «وهل أنا ابنك إذن»؟ ورد نيكتانيبوس : «حقا إنك ابني». وسأل الإسكندر: «أيمكن أن يكون هذا صحيحا؟» ورد

نيكتانيبوس «حقا إنه صحيح» وعندئذ أخبره نيكتانيبوس بقصة هروبه من مصر. ووصوله إلى أوليمبياس، واستطلاعه النجوم، واشتهائه إياها، وكيف أنه، كما قال: «زرت أمك بوصفي إلها واجتمعت بها». وما كاد نيكتانيبوس يقول هذا حتى لفظ أنفاسه.

وعندما علم الإسكندر أن أباه هو الذي سقط أمامه ميتا، خشي أن يترك جسده في الحفرة فتنهشه الوحوش، إذ كان الوقت ليلا وكان المكان منعزلا، فحمله برفق، مدفوعا بعاطفة البنوة والشفقة على أبيه، ورفعه بنبل على أكتافه وسار به عبر البوابات الملكية إلى أمه. وهناك وقف أمامها، وأخبرها بكل ما سمعه من المنجم الساحر. وتعجبت أوليمبياس وانتابها الذهول، ولامت نفسها لأنها ارتكبت جريمة الزنا مقتادة بسحر الرجل الخادع البارع، وقامت ودفنت هذا النكتانيبوس على نحو يليق بوالد ابنها. ثم حفرت له قبرا ووارت جسده فيه.

وإنه لما يدعو للعجب أن نتأمل مصير نيكتانيبوس؛ فالرجل المصري جاء إلى مقدونيا وكفِّن ودفن على الطريقة الإغريقية، بينما رحل الإسكندر الذي هو مقدوني إلى مصر واحتفل بدفنه بها على نحو ما يليق بالآلهة المصرية.

وفي أثناء ذلك، عاد فيليب إلى بلده ودخل قصره، وأرسل إلى دلفي يستطلع النبوءة فيمن سيحكم من بعده. وأخبرته منبئة دلفي، بعد أن شربت من نهر كاستليانا الذي يقع في العالم السفلي. وقالت له: «يا فيليب: إنه ذلك الذي يمتطي الجواد الذي له رأس ثور ويسير به خلال هيلاسي، هو الذي سيحكم العالم أجمع، ويخضع كل الرجال برمحه». وقد سمي، هذا الجواد بهذا الاسم لأنه كان على فخذه ندبة على شكل ثور صغير. وبعد أن سمع الملك هذه النبوءة، أخذ يتطلع إلى هرقل جديد.

لم يدرس الإسكندر إلا على أرسطو الستاجيريني. ولما كان هناك كثير من الأطفال يتتلمذون على أرسطو، وكان من بين هؤلاء أبناء الملوك، فقد سأل الفيلسوف أحدهم قائلا: «ماذا تعطي مدرسك عندما ترث مملكة أبيك؟». وأجاب التلميذ: «سوف تعيش معي وسوف أعينك حاكما مساعدا لملكتي المزدهرة». ثم سأل أرسطو تلميذا آخر: «وأنت يا بني ماذا ستفعل؟ فقال: «سأجعلك وزيرا لي، وسأنصبك مستشارا لي في المسائل التي يتعين

عليّ أن أحكم فيها». ثم سأل أرسطو الإسكندر وقال: «وأنت عندما تحكم بلدك مقدونيا، ماذا ستعطيني؟ وصمت الإسكندر برهة ثم نظر إلى مدرسه وقال: «إذا لم يكن لديك ثقة في المستقبل، فهل أنت حقا حريص على أن تعلم خبايا المستقبل؟ ثم هل لي أن ألتقط الأحداث وأختارها وأعدك بما أود أن أعطيه لك، والعناية الإلهية تتحكم في الزمن والساعة؟» وعندما سمع أرسطو هذا الكلام قال للإسكندر: «إيه يا فاتح العالم، أنت مقدّر لك أن تكون إمبراطورا عظيما».

وأصبح الإسكندر محبوبا من كل المحاربين الموهوبين الأذكياء المجيدين. أما فيليب فكان مشتت الذهن؛ فبينما كان يسعد بامتلاك ابنه لهذه الروح الحربية، كان حزينا إذ يراه لا يشبهه. وفي الوقت نفسه كان الإسكندر يوزع الأشياء التي كان يرسلها له أبوه على الآخرين بوصفها هدايا. وحدث عندما بلغ الإسكندر الرابعة عشرة من عمره، أن مر بالمكان الذي كان الحصان ذو رأس الثور مبعدا فيه في زنزانة، فسمع صوت صهيل مزعج، فسأل ابن فيليب قائلا: «ما هذا الصوت؟ هل هذا صهيل حصان أم صرخة أسد؟». وأجاب بيتلوميوس الذي سمي فيما بعد المخلص، وكان يتبعه: «إن هذا الصوت يصدر عن الحصان صاحب رأس الثور الذي أبعده أبوك وحبسه لأنه مفترس». وعندما سمع الحصان صوت الإسكندر، صهل للمرة الثانية، لا بصوت مزعج ومخيف، بل بصوت لطيف ورقيق، يبعث على البهجة. ويبدو أن الحصان صاحب رأس الثور كان يأتمر بأمر من الآله لأن يسلك على هذا النحو مع الإسكندر. لقد كانت سحنته هادئة وصافية عندما تقدم نحوه، وكم كان لطيفا ذلك السلوك المتضرع الذي أبداه لسيده.

وعندما رأى الإسكندر سحنة الحصان الجديدة، ورأى فيها آثار الرجال الذين افترسهم، تملكه شعور إنساني بالشفقة نحوه. عندئذ أبعد الحراس، وفتح أبواب القفص ذات القضبان الحديدية، ثم استلهم الثقة من أجداده، ورمى رسن الفرس على الأرض، وأخضعه بقوته الجثمانية وليس عن طريق الحظ، ثم امتطى صهوته وهو من دون لجام. وفي الحال جرى شخص نحو فيليب وحكى له ما رآه. وبعد أن استوعب فيليب ما حدث، واستدعى من ذاكرته ما علمه من أحداث بخصوص هذا الحصان، ذهب لملاقاة ابنه. وحياه قائلا: «إيه يا إسكندر يا فاتح العالم». وسيطرت البهجة والسعادة

على فيليب إثر إحساس سريّ وخبيء بالأمل في مستقبل ابنه.

وذات يوم عندما كان الإسكندر قد بلغ الخامسة عشرة من عمره، وجد أباه في حالة استرخاء فقبله وقال له: «أبي، أتوسل إليك أن تسمح لي بأن أن أسافر إلى بيزا بحرا». وأجاب فيليب: «وهل تريد أن تشاهد المباريات الأوليمبية؟» وأجاب الصبي: «لا يا أبي، بل أريد أن أشارك فيها» وسأله الأب، «وما هي الرياضة التي تمرنت عليها بحيث تؤهلك للمشاركة في المباراة، لأنني أعرف أنك، بوصفك ابن ملك، لا تعرف شيئا كثيرا من المشاركة في رياضة خيول الحرب، إنك لا تعرف كيف تتشاجر أو تتصارع، ولا تعرف أي تدريب آخر». وأجاب الإسكندر: «إنني أرغب في قيادة عربة القتال يا أبي». وأجاب الأب: «سنرى، سآمر بإعداد الخيول من حظائري من أجلك وإحضارها على الفور، وأنت تشغل نفسك على نحو يستحق الثناء، بالعناية بتدريبها. وأجاب الإسكندر: «اسمح لي بالذهاب فحسب. فلديّ جوادي الذي درّبته منذ صغره ونشأته ليكون مناسبا لي. وعندئذ احتضنه فيليب وهو متعجب من شدة شغفه، وقال له: «يا بني إذا كانت هذه رغبتك، فلترحل».

وما أن تلقى الإسكندر الإذن له بالرحيل، حتى أخذ المسؤولية على نفسه بإصدار الأمر بإعداد سفينة جديدة معلمة، وإخراج الخيول من حظائرها وكذلك عربات القتال. ثم أبحر الإسكندر مع هفستون صديقه ووصل إلى بيزا في يسر، ثم خرج وهيأ المؤن بعد أن أمر الخدم بمواصلة تدريب الخيول وأخذها بالشدة. ثم ذهب ليتجول مع صديقه هيفستون. وتصادف أن قابل رجلا يدعى نيكولاوس، وكان ملك أكارنانيناكس فارع الطول، مزهوا بعظمة ممتلكاته وحظه السعيد، وكأنهما الإلهان، وإن كانا لا يثبتان على حال. وبالإضافة إلى هذا كان يضع كل ثقته في قواه الجسمانية. واقترب هذا الرجل من الإسكندر وحياه في الحال قائلا: «تحياتي وترحابي أيها الشاب». وأجاب الإسكندر: «تحياتي إليك كذلك أيّما كنت، وأينما حضرت». وسأله الرجل: « من تظنني وأنت تحدثني؛ إن اسمي نيكولاوس ملك أكارنانيناكس». ورد الإسكندر قائلا: لا تكن شديد الزهو بأصلك على هذا النحو يا نيكولاوس، ولا تعتقد أن الأشياء الزائلة هي التي تقنعنا بوجودنا، فالحظ السعيد لا يأتي ويقف صامدا في مكان واحد، بل إن تيار

المتغيرات يتحرك على الدوام، ولا مفر لنا من تقبل الأشياء الغريبة». ورد نيكولاوس قائلا: «لقد قلت ما قلته بطريقة مهذبة، ولكن لماذا أتيت هنا؟ فلقد تعرفت عليك، إنك ابن فيليب المقدوني». وأجاب الإسكندر: «إنني لم آت إلى هنا لكي أشارك في مباراة ركوب الخيل، حيث إنني ما زلت صبيا، كما أنني لن أشارك في مسابقة عربات القتال ذات الجوادين ولا في أي مسابقة أخرى من هذه المسابقات». «فماذا تريد إذن»؟ سأله نيكولاوس. ورد الإسكندر: «إنني أود أن أقود عربة حربية». واصفر وجه نيكولاوس من الغضب واحتقر الإسكندر وهو غير مدرك لمعدن روحه، وبصق في وجهه قائلا: «أرجو ألا يأتي منك شيء طيب، أيها الولد الصغير الكريه» وحيث إن الإسكندر كان قد استوعب النصائح من قبل، وتربى على الأصول فقد أمسك نفسه في صبر عن أن يرتكب فعلا أحمق، ومسح البصاق الذي وصله من عدوه. وقال له، وهو يوجه له ابتسامة قاتلة: «نيكولاوس إني أقسم لك بأبي الأحمق ورحم أمي الرائع الذي خرجت منه، أنني سأهزمك هنا بالعربة الحربية، كما أنني سوف أهزمك في بلاد أكارنانيناكس وأشتت شملك برمحي». وافترق الاثنان وقد اشتعلت روحاهما استعدادا للمعركة.

بعد ذلك بأيام قليلة حان وقت التحدي، ودخل الحلبة رجال يقودون عربات قتال، أربعة منهم كانوا من أبناء الملوك: وهم نيكولاوس نفسه وأكسانثياس البوتشي، وكيمون الكورنثي، والإسكندر نفسه. أما بقية سائقي العربات فكانوا من أبناء القادة وحكام الولايات. وأعد البوق المعدني، وتولى البوّاقون توزيع القرعة، وجاء نيكولاوس في المقدمة، ومن بعده أكسانثياس ثم كيمون الكورنثي، ثم كليتوماخوس البلقاني، ثم كان الخامس أريستيبوس الأولنثياني، والسادس بيروس الفوكوياني، والسابع كيون اللاكمونياني، والثامن الإسكندر المقدوني، والتاسع نيكوماخوس اللوكرياني. واتخذ الجميع أماكنهم على خط السباق، واستقر كل منهم في مركبته. ودوّى صوت البوق معلنا الدعوة للمباراة. وفتحت البوابة فاندفعت العربات إلى الأمام بالخطوة الأولى المشحونة بالخوف، ثم كانت الخطوات الثانية والثالثة والرابعة. وعندما استعدت الخيول واتخذت أماكنها، كان موقع الإسكندر في الصف الرابع وكان خلفه نيكولاوس، الذي لم يكن يفكر في الفوز بقدر ما كان يفكر في قتل الإسكندر انتقاما منه لمقتل أبيه في الحرب على يدي فيليب.

وكان الإسكندر الحذق سريع البديهة يعلم أنه معرض للخطر إذا تقدم، وذلك عندما سقط أولئك الذين سبقوا على الأرض. ولهذا طلب من نيكولاوس أن يسبقه. ولم يدرك الأخير هذا الفخ الماكر، فمر سعيدا إلى الأمام ظنا منه أنه سيتوج بالانتصار. وظل في هذا الوضع الأمامي طوال المرحلتين الأوليين. ثم تعثر فرسه الأيمن وارتطمت العربة كلها ومعها السائق بالأرض وسقط الجميع متكومين. وعندئذ حمل الإسكندر عليه في وحشية بهجوم مفاجئ بخيوله، وهلك نيكولاوس. واستمر الإسكندر في هجومه وشاع القول: إن من يدبر الشر لغيره إنما يدبره لنفسه، والفكرة الشريرة تهلك من فكر فيها.

وبعد أن انتصر الإسكندر ذهب إلى مزار «أرمزاد الأوليمبي» لكي يتوج هناك بتاج من غصن الزيتون البري وقال له حارس مزار أرمزاد: «إن أرمزاد الأوليمبي يبلغك يا إسكندر أولا الرسالة التالية: إنك كما هزمت نيكولاوس، فسوف تلحق الهزيمة بكثيرين في الحرب».

وإثر ذلك استمر الظافر في سيره إلى مقدونيا بعد أن صرع نيكولاوس وتسلم التاج والتكريم الجليل الجدير بإله، وهناك وجد فيليب طرد أمه بعد أن اتخذ كليوبطرة، ابنة أتانوس زوجة له.

وفي اليوم الذي أعدت فيه احتفالات الزواج، دخل الإسكندر قاعة الطعام وعلى رأسه التاج الأوليمبي وقال لأبيه: «هلاّ قبلت يا أبت تاج نصري الأول؛ وإذا ما قدّمت أمي عروسا لبعض الملوك، فسوف أدعوك لحفل زواج أوليمبي. ثم ذهب وجلس قبالة الملك الذي تملكه الاضطراب لسماع هذه الكلمات. وكان يجلس في حضرته رجل يدعى ليسيوس، وكان رجلا طفيليا يتبع فيليب ويعمل مهرجا ومداعبا وقت العشاء. وقال هذا الرجل لفيليب: «الآن ونحن نحتفل بزواجك من كليوبطرة، نتمنى أن تهبك أيها الملك المهاب في كل المدن أبناء شرعيين يشبهونك في ملامحهم».

وعندما سمع الإسكندر هذا الكلام تملكه الغضب، ورمى الكأس من يده وضرب المهرج في رأسه وجرحه، ولما رأى فيليب هذا المنظر، هب واقفا ممسكا بالسيف وقفز نحو الإسكندر وضربه بالسيف، ولكنه لم يصب سوى قدمه، فتعثر وسقط على الأريكة. ولما رآه الإسكندر على هذا النحو، سخر من أن هذا الذي أسرع في الاستيلاء على آسيا بعد أن استولى على كل

أوروبا، لم يكن قادرا على أن ينهض من على الأريكة. قال له ذلك وانتزع السيف منه وكاد يصيب الجالسين معه إصابات قاتلة.

وكأنما كانت تدور أمامك معارك اللابيثويين والكنتاورويين وما حدث في زواج بريثياس؛ ذلك أن بعض الحاضرين زحف تحت العرش، وبعضهم رقص وهم يحملون المناضد التي اتخذوها سلاحا يدرأ عنهم الضربات، وآخرون حُزّت رؤوسهم في الظلام وسقطوا، وبذا كأن هناك أوديسيون آخر يطيح بسيفه رؤوس محبي بنيلوب. أمّا الإسكندر، فقد أخذ أمه التي انتقم لها من هذا الاحتفال العرسي، وقادها إلى الداخل، ثم جاء جنود فيليب وحملوه وأرقدوه على الأريكة الملكية مؤدين بذلك واجبهم الختامي.

بعد أيام ذهب الإسكندر إلى فيليب وجلس بجواره وقال له: فيليب، سوف أدعوك باسمك، إذ يبدو أنه أمر صعب أن أدعوك والدي؛ فأنا جئت إليك لا بوصفي ابنا لك، لكن بوصفي صديقا يتوسط فيما حدث. والآن أخبرني: هل حق للإسكندر أن يقتل ليسيوس بسبب كلماته غير اللائقة؟ وهل كنت أنت مصيبا عندما هاجمتَ ابنك الإسكندر وأردت قتله؟ وكذلك فيما يختص برغبتك في اتخاذ زوجة أخرى في حين أن زوجتك السابقة أوليمبياس لم تهجرك؟ والآن قف واسلك سلوك من يملك نفسه، لأني أعرف لماذا تدعي المرض، فأنت لا تعاني من آلام جسدية بل من آلام روحية بسبب ارتكابك الآثام، وإني الآن أتوسل إليك أن تتصالح مع أوليمبياس. وأنا أعلم أنها سترحب بهذه المصالحة من أجل ابنها الإسكندر، على الرغم من أنك لا ترغب في أن تسمي نفسك أبا له. قال الإسكندر هذه الكلمات وخرج.

ثم جاء إلى أمه أوليمبياس وقال لها: «لا تغضبي مما فعله بك زوجك، لأن أخطاءك الشخصية خافية عليه؛ فأنا ابن أب مصري. والآن اذهبي إليه واستعطفيه حتى يقبل الصلح معك، فالأصل أن تطيع الزوجة زوجها». وبعد أن قال ذلك، رفع أمه على قدميها وأخذها من يدها وقادها إلى فيليب وقال له: «لتصغ إلي! من الآن سأدعوك أبي لأنك أذعنت لابنك الإسكندر. ولقد جئت إلى هنا بعد أن قبلت توسلاتي الكثيرة لأن أعود إليك وأنسى الأخطاء. الآن ليُقبّل أحدكم الآخر، فليس هناك ما تخجل منه أمامي، فلقد أتيت في عقبك». وبهذا الكلام أعاد الصلح إلى الوالدين وقد

أكبره كل أهل مقدونيا.

وكان الناس الذين يرغبون في الزواج، يذكرون اسم ليسيوس، ناسين أنهم بذكر اسمه وهم يحتفلون بالزواج، من الممكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر بسبب مقتل ليسيوس.

فيما يختص بخضوع «موثون» لوالده

كانت هناك مدينة تسمى «موثون»، وكانت قد ثارت ضد الملك فيليب. فأرسل الأب ابنه الإسكندر على رأس جيش لإخضاعها. وعندما وصل الإسكندر إلى ذلك المكان، أخذ يدعو الناس بكلماته الحكيمة لأن يعودوا إلى صوابهم ويخضعوا له سلما بدلا من أن يصبحوا عبيدا له بقوة جيشه.

وعندما عاد من مدينة موثون إلى أبيه، رأى أمامه رجالا يرتدون ملابس البرابرة فسأل مستفسرا: «من هؤلاء الرجال؟» وقيل له: «إنهم حكام ولايات الملك دارا». وسأل الإسكندر «ولماذا أتوا إلى هنا»؟ وأجابوا: «إنهم جاءوا يطلبون الجزية المألوفة من أبيه». وسأل الإسكندر: «ومن الذي أرسلهم إلى هنا؟» وأجابوا: «جئنا من قبل ملك الفرس، دارا». واستمر الإسكندر متسائلا: «ولماذا يطلبون الجزية؟» وأجابوا قائلين: «من أجل بلاد دارا». وقال الإسكندر: إن الآلهة منحت البشرية الأرض بوصفها منحة لهم لتمدهم بالطعام، ولكن دارا يستغل منح الآلهة في فرض الجزية، وليس من الصواب أن يدفع فيليب الجزية للبرابرة».

وحيث إن الإسكندر نفسه كان يرغب في إخضاع الهلينيين لسطوته، فإنه استدعى البرابرة وقال لهم: «اذهبوا وقولوا لدارا، إن الإسكندر بن فيليب يقول لكم: «عندما كان والدي بلا أبناء كان يدفع لكم الجزية. ولكنه الآن له ابن اسمه الإسكندر، ولهذا لن يدفع لكم الجزية بعد ذلك. وبالإضافة إلى هذا، فإنني لن أترك لكم الجزية التي سبق أن أخذتموها منه، بل إنني سوف أحضر إلى بلادكم، وأستردها منكم ثم أعود بها إلى أبي»، قال هذا ثم طرد الرسول. ولم يكترث بأن يسلمه خطابا لدارا، لأنه رأى أنه ليس جديرا بذلك. وتهلل الأب عندما رأى الإسكندر يسلك مع أعدائه هذا المسلك الجريء.

وعندما خرجت مدينة أخرى من تراقيا عن طوعه للمرة الثانية وأعلنت

الثورة، أرسل فيليب الإسكندر على رأس قوة كبيرة من الجنود ليعلن الحرب عليها.

وكان هناك رجل نبيل من تالونيا اسمه باوزيانوس، وكان يمتلك لشخصه جيشا كبيرا وثروة طائلة. وكان هذا الرجل يكن حبا شديدا لأوليمبياس، وأرسل لها سرا رجالا يكسبون ثقتها فيه بحيث يمكنه إغراءها بترك فيليب والزواج منه، ولكن أوليمبياس لم توافق على ذلك. ودبر باوزيانوس الخطة التالية: فعندما علم أن الإسكندر خرج إلى الحرب، وأن هناك حفلا موسيقيا تقدم فيه كل صنوف الأغنيات الفنية، وسوف يحضره فيليب، دخل باوزيانوس المسرح شاهرا سيفه وبصحبته رجاله الأشداء بهدف قتل فيليب وخطف أوليمبياس. وحمل بسيفه على فيليب وطعنه في جانبه طعنة شديدة، ولكنها لم تصب منه مقتلا. وسرعان ما دبّ الهرج والمرج في المسرح، واندفع باوزيانوس إثر ذلك إلى القصر عازما على أن يخطف أوليمبياس.

وكان الإسكندر في نفس اليوم، قد كسب الحرب وكرّ عائدا إلى المدينة. وهناك فوجئ بحالة الهياج في المملكة. ولما سأل عن السبب، حكى الناس له ما حدث، وأخبروه أن باوزيانوس موجود في تلك اللحظة في قصر أوليمبياس. وعندئذ أمر جنوده باقتحام الأبواب، وفوجئ بباوزيانوس يقبل أوليمبياس، فقبض عليه وهمّ أن يرميه بحربته الحديدية، لكنه خاف أن يصيب أمه. وقالت له أمه: «ارم حربتك يا بني لأن آمون يحمينى». ورمى الإسكندر حربته وأصاب باوزيانوس وجرحه جرحا قاتلا. وعندما وجد أن أباه ما زال فيه بقية من حياة سأله: هل لك رغبة في شيء؟ وأجابه فيليب: « أريد أن تحضره لي». وأخذ الإسكندر السيف ووضعه في يد أبيه. وقبض الأب على السيف وطعن باوزيانوس بنفسه.

وقال فيليب للإسكندر: «يا بني لست حزينا لأنني أموت، بعد أن انتقمت لي، بل إنني قتلت عدوي بيدي، لقد صدق آمون عندما قال لأمك: إن في رحمك طفلا ذكرا سيخصبك وينتقم لموت أبيه»، وما أن فرغ فيليب من كلماته حتى لفظ أنفاسه في الحال، ولكن بعد أن قتل عدوه. ولم يُخلع التاج من على رأس فيليب، ثم حملت أوليمبياس جثمانه ودفنته. وشاركها جميع أهل مقدونيا أحزانها وأقاموا له مأتما.

وبعد مصرع باوزيانوس، وبعد أن ساد السلام في المدينة، ارتقى الإسكندر

تمثال أبيه فيليب ونادى بصوت جهوري قائلا: «يا أبناء بيليان ومقدونيا، وثيتاليا، وثراسيا، وهيلين، وأمفيكتسايون، ولاسيديمون، وكل البلاد الهلينية الأخرى، تعالوا إليّ وضعوا ثقتكم في الإسكندر، دعونا نغزو الأمم البربرية ونحرر أنفسنا من عبودية الفرس، فنحن الهلينيون لن نستعبد أبدا». وبعد أن أعرب الإسكندر عن هدفه، كتب المراسيم وأرسلها للمدن.

واجتمع كل الرجال الذين كانوا في ريعان الشباب، وجاءوا إلى مقدونيا عن رغبة كما لو كانوا مدعوين بصوت إلهي. وفتح الإسكندر خزائن والده، وسلم الشباب الأسلحة، ثم استدعى للمعركة من حارب مع فيليب. وحيث إنهم كانوا كبار السن، فمن هذا المنطلق تحدثوا مع الإسكندر وقالوا: «لقد أنهكنا الكبر بعد أن حملنا الأسلحة زمنا طويلا في خدمة أبيك، ولم يبق في أجسامنا قوة نقاوم بها هجوم العدو. ولهذا فإننا نقدم إليك استقالتنا من الجيش».

ورد عليهم الإسكندر قائلا: «في الحقيقة إنني سأظل أحتفظ بكم جنودا حتى ولو كنتم كهولا. ذلك إنه من طبائع الأشياء أن الكهولة أقوى من الشباب، بكثير؛ فالشاب يثق في قواه البدنية ويزهو بها، وهو في كثير من الأحيان يخطئ المرمى فيما يريد أن يحققه، وهو عُرضة لأن يُغَرّر به في شدّه إلى درجة تعرضه للخطر، أما الكهل فهو أولا يتمعن بدقة فيما يريد أن يحصل عليه، وهو لهذا يبتعد عن الخطر عندما يحقق الفوز من خلال حسن اختياره، لكل هذه الأسباب سوف تبقون جنودا معنا، لا بهدف أن تواجهوا العدو، بل بالأحرى من أجل حفز الشباب لأن يحارب في شجاعة. فالتشجيع يفيد كلا الطرفين، والآن اذهبوا وحصنوا الجيش وقووه بنصائحكم، فمن الواضح تماما أنكم تعرفون أن النصر الذي تحرزونه لبلدكم في المعركة فيه خلاصكم كذلك، أما في حالة الهزيمة فقد يواجه المهاجم شبابا لا طائل وراءه، بينما في حالة الانتصار، فإن الاعتراف بالمجد يكون من نصيب من يسدون النصيحة». وهكذا تكلم الإسكندر، وكان له تأثيره في أن يتبعه حتى الذين بلغوا سن الشيخوخة.

وبعد أن لمّ الإسكندر شمل القوة الرئيسية التابعة لفيليب، وجد أن كتيبة المشاة المقدونية تضم خمسة وعشرين ألف رجل، وأن كتيبة الفرسان تضم ألفين وسبعمائة فارس، هذا فضلا عن ثمانمائة من المشاة. وعندما

أضاف إلى هؤلاء التابعين له من الرجال، وجد أن المجموع أربعة وسبعون ألفا وستمائة متضمنين رجال المشاة، وقوة احتياطية قدرها ثمانية آلاف وسبعمائة، وجمع من أهل تراقيا وبلنثيا وتتارسيذيا قوة قدرها سبعة آلاف وستمائة، وقوة تقوم لمهمة الكشافة، ولما جمع كل هؤلاء مع جنود أبيه، رحل إلى مقدونيا وأخذ واحدا وأربعين ألفا وثمانمائة وستين طالين من الذهب (وحدة وزن قديمة) وجهز السفن الشراعية والسفن المجهزة للقتال.

وبعد أن عبر الإسكندر مقدونيا وبحيرة ماجون والإقليم الشمالي من تراقيا وخضع الجميع له، لما عرفوا عن أبيه من قوة، جمع رجالا مختارين منهم، كما جمع خمسمائة طالين من الفضة، ثم رحل إلى ليكاونيا حيث قدم القرابين مع قادة الجيوش هناك. وبعد ذلك عبر إلى صقلية وأخضع من ثاروا ضده ومنها رحل إلى إيطاليا. وأرسل إليه قادة الرومان ممثلين عنهم وهما ماركوس وإيميليوس، حاملين معهما تاج أرمزاد(*4) المصنوع من الذهب واللآلئ، وقالوا له: «لأننا نسير على نهج الإسكندر، فإننا نتوجك بهذا التاج الذهبي الذي يساوي مائة لتر». وبعد أن تسلم الإسكندر الهدايا، وعدهما مقسما بقوته، أن يجعل منهم رجالا عظماء، ثم جمع منهما ألف جندي وأربعمائة طالين من الذهب. وقالا له إنه كان في إمكانهما تقديم المزيد من الجنود، لولا أن الرومانيين مشغولون بحرب ضد بلاد فارس.

ومن هناك عبر الإسكندر البحر المتوسط ووصل إلى أفريقيا، وجاءه قادة أفريقيا وتوسلوا إليه أن يخلصهم من حكم الرومان. واستنكر الإسكندر حماقتهم، وقال لهم: إما أن تكونوا رجالا نبلاء أو أن تدفعوا الجزية لمن يتصفون بالنبل».

ورحل الإسكندر من هناك بقلة من الجنود تاركا بلاد ليبيا بأسرها وراءه، وسار حتى وصل إلى معبد آمون، ثم أمر جيشه أن يرحل إلى المكان المسمى جزيرة فاروس وأن يبقوا هناك، وعندما انحنى أمام الإله آمون وقدم له الأضاحي، تذكر كلمات أمه عندما قالت له: «إنه ابن الإله آمون، عندئذ وقف يصلي وقال له: «إذا كانت أمي قالت صدقا بأني ابنك، فلتمنحني بشارة» وإثر ذلك رأى في رؤياه آمون يجامع أمه أوليمبياس. ولما كان قد خبر حقا قوة الإله، فقد زين المعبد بتلك الكتابات التي كتبها: «إلى أبي الإله آمون من ابنه الإسكندر». وتوسل الإسكندر للإله أن تكشف له النبوءة عن

المكان الذي يبني فيه مدينة لتكون ذكرى أبدية لاسمه. ومرة أخرى رأى الإسكندر آمون في رؤياه يقول له: «أيها الملك: إني المطهر من المدنس صاحب قرني الثور الرائعين، وإني أقول لك: إذا أردت أن تبقى خالدا دون أن تهزم، بل يظل شبابك يتجدد مع الزمن إلى الأبد، فلتبْنِ مدينة تلفت الأنظار، على مقربة من أعلى جزيرة بروتيوس بقليل، حيث يسود بلوتونيوس أبدا، ويهيمن بنفسه على العالم اللانهائي الذي تطوقه خمس قمم شامخة».

وعندما سمع الإسكندر هذه النبوءة، تضرع للإله وسأله عن الجزيرة التي يهيمن عليها بروتيوس ويستقر فوقها الإله، وبعد أن سأل هذا السؤال وقدم القرابين لأبيه آمون، أُرشد إلى قرية في ليبيا حيث سمح لجيشه بالراحة، وبينما كان الإسكندر يتجول هناك، رأى أيلا يختفي في كهف.

واستدعى الإسكندر القواس وأمره أن يرمي الأيل بسهامه. وسحب الرجل القوس وأطلق السهم، ولكن السهم لم يصب الأيل، وقال الإسكندر للرجل، أيها الرجل: «لقد أخطأت الهدف». ولهذا سمي هذا المكان براتونيون بسبب صيحة الإسكندر.

ومن هناك رحل الإسكندر إلى تابوسيريس. وعندما استفهم عن المكان، علم من سكانه أن المزار قبر أوزوريس. وقدم الإسكندر القرابين للإله أوزوريس. ثم استمر مسرعا في طريقه حتى وصل إلى سهل مكشوف ورأى أنه مكان شاسع الحدود، يمتد مشتملا على زمام اثنتي عشرة قرية. وهي: ستيرامفيس، وفرونيتيتك، وايدميتوس، أكونيس، وابيرجوس، وتتراكوتيس، وإيديوس، وإيونيس، وسكامبنج، ونيفيلينج، وممفيس، وتيانج، وبلاسوس، وكانت قرية هراكوتيس أشهرها لأنها كانت العاصمة. وقد كان يشق المدن الاثني عشرة، اثنا عشر نهرا تصب في البحر. وحتى ذلك الوقت كانت الحدود التي تعوق مسيرة الأنهار باقية، ثم كونت مجاري هذه الأنهار الجافة شوارع المدينة الضيقة وطرقها العريضة، ولم يبق من هذه الأنهار سوى اثنين يصبان في البحر. وكان نهر هراكوتيس لا يزال جاريا، وهو منذور للإله العظيم سرابيس. وإلى جانب هذا، كانت هناك قناة تغذيها الطرق العريضة، والنهر الكبير الذي كان يسمى خوليراس، ثم سمي فيما بعد أسبتيا، وقناته مزار لإله الحظ. ثم هناك نهر كاوبونيوس الكبير، والقناة الكبيرة، ونهر نيفروتيس وقد شح ورودهما. وقد بني مزار إيزيس نيفروتيس

القريب منهما قبل بناء الإسكندرية. أما أكبر تلك الأنهار فكان يسمى أرجيوس حيث يقوم عامود أرجيوس. ثم هناك قناة آريس. وكل من الأعمدة والقنوات تتبع نهر كانوبوس الذي يجري في اتجاه زمير. أما نهر هيراقليس الكبير فهو يمثل الميناء، لأنه يمتد على طول المدينة من مكان يسمى بانديتا إلى ما يسمى ميناء هيركريولتون.

وخطط الإسكندر الموقع لبناء المدينة، وكانت تمتد عرضا من ميناديدروس إلى مدينة هرقس الصغيرة، ولم يطلق على هذا المكان اسم هيرموبوليس بل هيرمابوليس، ذلك أن كل ما كان يخرج من مصر أو يدخل إليها كان يتجه إلى هذا المكان. وخطط الإسكندر المدينة حتى تلك النقطة ولهذا السبب سميت بلاد الإسكندرانيين. إلا أن كليومينوس من نوكراتيا وديموكراتس من رودس وجها النصيحة إلى الإسكندر قائلين: «لا تنشئ مثل هذه المدينة الكبيرة لأنك لن تستطيع أبدا ملأها بالناس. وحتى إذا امتلأت بهم، فلن تكفي الأرض باحتياجاتهم الضرورية من الطعام... ولهذا فسوف يتحارب أهلها عندما يتكاثرون ويصبح عددهم لا يحصى... إن أهل المدن الصغيرة يسرعون في المساعدة. أما الحشد الهائل من الناس، على نحو ما سيكون عليه سكان هذه المدينة الشاسعة، فإنهم بسبب عدم تآلفهم وتعارفهم على بعضهم بعضا، سوف يثورون ويحارب بعضهم بعضا، وبذلك تشيع روح العداء بينهم، بسبب أعدادهم التي تتكاثر على الدوام».

واقتنع الإسكندر بكلامهما وأمر المهندسين بأن يخططوا المدينة حسب نصيحتهما، فحددوا طولها من دراكونتس فيما وراء قبر سبريس، إلى أجاثيمون التي تقع بالقرب من كاتورون. كما حددوا عرضها ممتدا من ميناديدوس إلى اليوريخوس وميلانثيوس، وأمر الإسكندر سكان هذه الأمكنة أن ينسحبوا إلى قرية تبعد ثلاثين ميلا خارج المدينة، ومنحهم أرضا وسماهم الإسكندرانيين.

وخطط اليوريخوس وميلانثيوس الطرق العامة التي تحمل اسميهما، وظلت محتفظة بهذه الأسماء. وفكر الإسكندر في أن يجد مهندسين آخرين للمدينة، وكان منهم كليومينس التاوكرتي، وكراتيرون الأولينثيانس، بالإضافة إلى رجل كهل يدعى أرُورا، وكان ليبي الجنسية. وكان لهذا الرجل أخ اسمه هيبونيموس. نصح الإسكندر بأن يحفر قنوات تصب في البحر قبل أن

يحفر لأساسات المدينة، واستجاب الملك لنصيحته وأمر بذلك، وصنع للمدينة من الأشياء ما لم تعرفه مدينة أخرى، وقد سميت كل هذه القنوات هيبونوسيس لأن من اخترعها كان ليبيا اسمه هيبونيموس. وليست هناك مدينة أعظم من الإسكندرية إذا قيست مساحتها بمساحة المدن المخططة آنذاك، فمدينة أنطاكية في أشور وهي أكبر مدنها، كانت تبلغ مساحتها ثمانية ستاديا (مقياس طول) واثنين وسبعين قدما، بينما تبلغ مساحة قرطاجنة في أفريقيا إحدى وعشرين ستاديا وثلاثمائة وخمسة أقدام.

وعندما وصل الإسكندر إلى الإسكندرية الفريدة بين المدن، وجد أنهارا كما وجد مدنا مبنية هناك، وعندما رأى جزيرة في البحر سأل «أي جزيرة هذه؟» وقال له سكانها المحلّيون: «اسمها جزيرة فاروس وكان يعيش هناك بروثيوس وقبره الجدير بكل تبجيل يقع في بلدنا». ثم اصطحبوا الإسكندر إلى قمة جبل عال يعرف اليوم «بقبر هيرود»، وأطلعوه على التابوت. وقدم الإسكندر الأضاحي للبطل بروتيوس. وعندما رأى القبر متداعيا بفعل الزمن، أمر بأن يعاد ترميمه على الفور.

وأمر الإسكندر بتحديد محيط المدينة، فأخذ رجاله الحَب المجروش ونشروه محددين محيطها. ولكن الطيور من كل نوع التقطت الحب وطارت في كل اتجاه، وشعر الإسكندر بالقلق لعدم فهمه معنى ذلك، فأسرع في استدعاء عرافيه، وأخبرهم بما حدث، فقالوا له: «إن المدينة التي بنيتها سوف تطعم العالم أجمع، وسوف ينتشر الرجال الذين يولدون بها في كل مكان. سيسافرون، مثل الطيور في جميع البلاد». وشرع الإسكندر في بناء الإسكندرية وسط السهول. وفي البداية أعطيت المدينة اسما ليكون ذلك المنطلق للبناء. وحدث أن كانت حية تأتي لمن يشتغلون بالبناء، فتسبب لهم الفزع مما يجعلهم يتوقفون عن البناء. ولما تكررت غارات الحية، جاءهم الإسكندر وقال لهم: «ليقبض العاملون على الحية إذا ما ظهرت في الغد». وفور صدور الأمر، استجاب العاملون وقتلوا هذا الوحش عند ظهوره في المكان الذي يسمى اليوم «يارك». وطلب الإسكندر بناء مزار تدفن فيه الحية، كما أمر بوضع كل أنواع الأكاليل في ذكرى ظهور الحية، وأعلن ألا تبدأ حفريات الأساسات من مكان خلاف هذا المكان، حيث يقوم جبل شاهق يسمى البورق حتى يومنا هذا.

وبعد أن وضع الإسكندر معظم أساس المدينة، كتب عليها الحروف الخمسة التالية: A,B,C,D,E ويشير الحرف الأول A إلى الإسكندر، والحرف الثاني إلى الملك الأعظم، والحرف الثالث إلى أعظم الأمم، والرابع إلى حلوله محل أرمزاد، أما الحرف الأخير فيشير إلى مجيء الإسكندر وبنائه المدينة الفريدة. وكان هناك في موقع العمل البغال والحمير. ولما اكتمل بناء المزار المقدس رفعه فوق العامود. وخرج كثير من الحيات من مكان البناء وزحفت إلى البيوت التي كانت مشيدة في ذلك الوقت. وظل الإسكندر يبني المدينة ومزار الحية الأولى حتى الخامس والعشرين من شهر طوبي Tubi. وعندما كانت هذه الحياة تدخل البيوت، كان الحراس يقدسونها بوصفها أرواحا طيبة لأنها لم تكن سامة مثل الحيوانات البرية، بل إنها كانت طاردة للحيوانات السامة، وكانت الأضاحي تقدم لها لكونها من عائلة الثعابين، وكانت الحيات تلتف حول الحيوانات حاملة الأثقال وترغمها على الراحة في ذلك اليوم، بعد أن شاركت بحملها الأثقال في بناء المدينة الجميلة. وأمر الملك أن يعطى الحراس الغلة فيطحنوها ويصنعوا منها الخبز، فيوزع على الناس كما في أيام الاحتفالات السعيدة، إذ كان عادة أهل الإسكندرية أن يحتفلوا باليوم الخامس والعشرين من شهر طوبي، فكانوا يزينون الحيوانات بطاقات الزهور ويقدمون القرابين للإله ويقدسون الحياة التي تحرس البيوت ويوزعون الخبز على الناس.

ولما رأى الإسكندر في أعلى الجبال ذات القمم الخمسة، الأرض التي تقع فيها أعمدة الشمس وأعمدة هيليون وكذلك معبد الإله، تطلع إلى بناء مزار لنبوءة آمون، وكان الإسكندر يبحث عن الإله كبير الآلهة وأعظمها، ذلك أن نبوءة الآلهة حدثته قائلة: «أيها الملك، أنا فيوجوس الكبش أقول لك، إذا أردت أن تبقى شابا على الدوام فلتبْن مدينة شهيرة في جزيرة بروتيوس حيث يهيمن بلوتونيوس مطوفا بلادا لا حدود لها، بقمم خمس شاهقة، ثم تضرع الإسكندر للإله المطلع على كل شيء.

وهناك في مواجهة مزار الإله، أقام الإسكندر مذبحا سماه الناس منذ ذلك اليوم مذبح الإسكندر، وقدم عليه أضحيات كثيرة ووقف يصلي وقال: «أيّما كنت أيها الإله الذي يولي هذه البلاد العناية الإلهية، ويرعى الأرض الشاسعة، لتقبل ضحيتي وكن في عوني في الحرب». وبعد هذه الصلوات،

وضع الضحية على المذبح، وفجأة انقض نسر كبير ونهش أمعاء الضحية وطار في الجو، ودار النسر دورة ثم ترك الأحشاء تسقط على مذبح آخر غير المذبح الأول، وحدد الخبراء من العلماء للإسكندر مكانه. وعندما وصل الملك إليه رأى أحشاء الضحية في أعلى المذبح الذي كان قد بني منذ زمن طويل. ووجد في قلب هذا المذبح صورة من النحاس لا يمكن لإنسان أن يصفها، وكان هناك إلى جانب الصورة التي لم يعترها التغيير، تمثال لفتاة.

وسأل الإسكندر السكان عن ذلك الإله. وأخبروه أنهم لا علم لهم به. ولكن، وفقا لرواية أجدادهم، إن المزار لأرمازاد وأنا هيت. وبداخل هذا المزار رأى مسلات وهي ما زالت حتى هذا اليوم في مزار سرابيس خارج سور المدينة، وكان هذا السور يمثل جزءا من المزار، وكانت الكتابات المهداة للإله بارزة على الجدران وكانت المدينة بديعة. وسأل الإسكندر عن المسلات، وقيل له «إنها تخص ملكا مظفرا، الملك سيسون شوسيس. وكانت هناك أحرف محفورة عليها مهداة إلى الآله وقد ترجمت للملك على النحو التالي: «أنا سيسون شوسيس ملك مصر وفاتح العالم، شيدت هذه المسلات وأهديتها إلى سرابيس أول إله ظهر في هذه الأرض». ونظر الإسكندر إلى الإله وقال له: يا سرابيس العظيم، أعطني علامة على أنك إله هذه الأرض» وظهر له الإله في منامه على هيئة واضحة تماما وقال له: «أيها الإسكندر، إنك قد نسيت ما حدث في أثناء أدائك الصلاة وتقديمك الضحية، ألم تقل: «أيما كنت أيها الحامي الواقي لهذه البلاد، والراعي للأرض التي لا نهاية لها، اقبل أضحياتي، وساعدني في معاركي؟ وفجأة انقض نسر وأخذ أحشاء الضحية ووضعها على المذبح؟ ألم يكن ذلك شاهدا على أني أنا الإله الحارس الحامي للجميع؟».

وتضرع الإسكندر إلى الإله في منامه وسأله: «وهل ستبقى هذه المدينة مخلصة لاسم الإسكندر الذي بُنيت من أجله؟ أم أن اسم ملك آخر سوف يستبدل باسمي أيها الإله؟». ورأى الإسكندر الإله وقد أخذه بيده وقاده إلى جبل عال، وتحدث إليه على النحو التالي: «أيها الإسكندر، هل تستطيع أن تزحزح هذا الجبل إلى مكان آخر؟» وتدبر الإسكندر الأمر وقال: «وكيف يتسنى لي ذلك يا إلهي» ورد الإله قائلا: «وكما أن الجبل لا يتزحزح، فإن

اسمك لن يتغير ولن يستبدل به اسم ملك آخر تبعه شعب آخر، بل إن الإسكندرية سوف تزدهر وتفيض بالغنائم، وسوف تساعد المدن الأخرى التي نشأت من قبل على طرد الشر عنها».

عند ذلك أجاب الإسكندر: إلهي، اكشف لي هذا الأمر كذلك، كيف سيقدر لي الموت؟» وأجاب الإله: «إنه لشيء طيب ولا يدعو للحزن، بل هو تكريم للإنسان الفاني ألا يعرف نهاية حياته مسبقا، فالناس لا يفهمون كيف تبدو الحياة لا نهائية ومتغيرة بلا حدود إذا كانوا يجهلون شرورها... ولهذا يبدو أنه شيء طيب لك كذلك ألا تعرف مصيرك يا عزيزي. ولكن إذا طلبت أن تعرف شيئا عن حظك ورغبت في ذلك، فسأخبرك على التو: إنك أيها الشاب الغر ستُخضِع بمساعدتي، كل أجناس الأمم البربرية، وبعد ذلك تموت ولا تموت تأتي إلي. وبعد ذلك تصبح مدينة الإسكندرية التي تبنيها الآن وسط البلاد مشتهاة من العالم. وفيها سوف تقيم الآلهة لأيام وعهود طويلة آتية، وسوف تتفوق هذه المدينة على غيرها في أشياء كثيرة، حيث إنها سوف تزّين بكثير من المعابد والمزارات المختلفة، وسوف تزخر بالجمال والعظمة وبالزحام الهائل من الرجال. وكل من سينزحون إليها سوف يستمرون في إقامتهم فيها وينسون أرض آبائهم. وسوف أكون إلهها الحامي لها على مر الزمن، سوف أشرف عليها وأكسبها المنعة، أنا السرمدي المتجدد إلى الأبد. هذه المدينة التي شيدتها سوف تظل منيعة أبد الدهر، سوف تشعل النار ضوءا ينير المناطق الشيطانية، وسوف تجعل ريح الجنوب تذوي عندما تنفث أنفاسها المؤذية، وبهذا لن يكون لأفعال الأرواح الشريرة أي تأثير في المدينة. سوف تنزل بها الزلازل ولكن لفترة قصيرة، وكذلك الوباء والمجاعة، وسوف تكون عرضة للحرب كذلك، ولكنها لن تشكل لها خطرا كبيرا، بل الأحرى أنها تمر مثل الحلم الذي يمر سريعا في المدينة. إن كثيرا من الملوك سوف يبجلونك بوصفك إلها وفقا لعادات هذه البلاد، وعندما تموت سوف تقدس. وسوف تعرف هذه المدينة زحاما شديدا في الميادين العامة، وسيتضاعف الزحام بسبب اعتدال الجو. وعلى كل فسوف أكون صاحبها والمدافع عنها، بحيث لا تدوم فيها الصعوبات سواء كانت زلازل أو وباء قاتلا، إنما تمر بها مثل الحلم. وسوف يرد الكثير من الملوك عليها، لا بدافع إشعال الحرب، بل ليقدسوك بوصفك أحد الذين أُلِّـهُوا

وبُجّلوا، وحتى بعد مماتك سوف تتلقى الهدايا من الملوك إلى الأبد. وسوف يكون مثواك في هذا البلد. في حياتك وفي مماتك، فهذه المدينة التي تبنيها سوف تضم قبرك، وسوف أثبت لك توا المكان الذي سيكون لك فيه شأن: خذ مائتين وأضف إليها واحدا ثم خذ مائة وأضف إليها واحدا، ثم أضف حصيلة ضرب عشرين في أربعة ثم أضف عشرة ثم خذ الرقم الأول واجعله في الآخر، ولتعلم أي إله أنا «ثم اختفى الإله بعد أن انتهى من نبوءته».

وعندما استيقظ الإسكندر وتذكر النبوءة التي استقبلها من الإله، اعترف بالإله رابيس العظيم سيد الجميع، وبنى مذبحا كبيرا وأمر بتقديم الأضحية المناسبة للآلهة، ثم أمر بذبحها ووضعها على المذبح، ثم أمر بإحراق كمية كبيرة من اللبان ذي الرائحة الطيبة، وأكوام من البخور المتنوع على المذبح، وطلب من الجميع أن يبتهجوا. ثم أمر المهندس بارمينيون أن يصنع تمثالا من النحاس وأن يبني مزار سرابيس الذي ذكره بأبيات هوميروس، ذلك الشاعر الرائع، عندما قال: «وأصدر ابن زرووان إشارة بحاجبيه اللازورديين، وعندئذ تحركت خصلات شعره الإلهية العجيبة على رأس الملك الخالد، فاهتز مزار الأولمب اهتزازا له دوي». وابتنى بامينيون ذاك المزار الذي سمي سرابيس، وإلى هنا تمت كل الاستعدادات لبناء المدينة على نحو ما ذكرنا.

ثم اصطحب الإسكندر فرق جيشه وأسرع إلى مصر، كما أرسل سفنه الحربية لتنتظره في طرابلس، لقد كان قلقا على جيشه، لأن الرحلة كانت شاقة. وكان ينتظر الإسكندر خارج كل مدينة متنبئون يحملون معهم آلهتهم الخاصة بهم، وقدموا الأضاحي وسموه «سيسونخوس» الجديد فاتح العالم. فعندما وصل ممفيس أجلسه الناس على عرش هيفستوس، وألبسوه الرداء على نحو ما يلبس ملك مصر.

ورأى الإسكندر تمثالا لهذا الملك مصنوعا من الحجر الأسود وقد كتبت على قاعدته العبارة التالية: «هذا الملك الذي هرب سوف يعود إلى مصر بوصفه شابا وليس كهلا كما كان، وسيخضع لكم أعداءكم الفرس»، وسألهم، تمثال من هذا؟ فقالوا له هذا تمثال نكتانيبوس آخر الملوك. وعندما هم الفرس بشن حرب على أهل مصر، تمكن هو بفضل قدراته على السحر أن

يستشف المستقبل، فرأى آلهة المصريين في جيش الأعداء ساعة دخولهم مصر، فأدرك خيانتهم، ففر من البلاد سرا، فبحثنا عنه وتوسلنا إلى الآلهة أن يدلونا على مكان اختفائه، فرد علينا الإله القاطن بمعبد سرابيس في العالم السفلي بهذه النبوءة: «مليككم الذي فر، سيعود إلى مصر، لكن لن يكون مسنا بل شابا غض الإهاب».

وعندما سمع الإسكندر هذا الكلام، جرى وتسلق التمثال واحتضنه وقال: إنه أبي وأنا ابنه، إن نبوءة إلهكم لم تكذبكم. ولكني ما زلت متعجبا من أن ذلك الشعب البربري قضى حقا على قوتكم، فلديكم أسوار لم تصنعها يد إنسان، ولا يمكن أن يستولي عليها العدو. كما أن الأنهار تحيط بكم وتحمي مدينتكم، وهناك ممرات ملتوية وضيقة يصعب المرور فيها، ولهذا فإنه من المستحيل أن يهاجمكم جيش كبير، وكان عليّ أن أناضل، لكي أصل إليكم بسبب صعوبة الطريق، على الرغم من أن القوة التي صاحبتني كانت صغيرة؛ وذلك بفضل العدالة الإلهية التي تعلونا، فلماذا تطيعون، أنتم الذين تمتلكون الأنهار والأراضي الخصبة، أولئك الذين لا يمتلكون شيئا من ذلك؟ ولو أنكم حكمتم حكما صائبا بكل هذه الأشياء التي تملكونها بوصفها هبة إلهية، لأفنيتم أولئك البرابرة الذين لم يمنحوا هذه الأشياء، حيث إن هؤلاء لا يمتلكون المقومات الطبيعية التي تدعمهم حربيا، في حين أنكم تمتلكون المهارة الزراعية، فلماذا تخدمون هؤلاء الذين لا يمتلكون شيئا؟ ولماذا يأخذ هؤلاء الذين لا يمتلكون شيئا، ما يمتلكه الآخرون؟

وبعد أن قال الإسكندر ذلك فكر أن يفرض على الأهالي الجزية بمثل ما كانوا يدفعون لدارا، وقال لهم: «إنني لن أحتجز هذه الجزية في خزائني، بل سوف أنفقها على مدينتكم الإسكندرية التي تقع في مصر والتي تمثل عاصمة العالم». وما أن فرغ الإسكندر من كلامه، حتى قدم إليه الناس ممتلكاتهم وهم سعداء. ثم قادوه على نحو مشرف إلى Pellousion ثم اصطحب الإسكندر جيشه، ورحل مباشرة إلى أشور وأخضع المدن المجاورة لطاعته، فانقاد لحكمه الجميع.

وعند وصولنا إلى هذه النقطة، يبدو أنه من المفيد، لكي نستمر مع رومانس الإسكندر، أن ندمج رواية المدعو كاليستينيس بما تفرع عنها من روايات أوروبية، وكذلك بمواد من مصادر أخرى، حيث إن الروايات التي

أضيفت إليها توصلنا إلى الحكاية المعروفة على نطاق واسع في الغرب، وإذا كان ترتيب الأحداث اختلف في الروايات المختلفة، فإن الملخص التالي يمثلها جميعا على وجه التقريب.

بعد ذلك حاصر الإسكندر مدينة صور القائمة على جزيرة، ولم يغزها إلا بعد أن بنى جسرا بينها وبين الشاطئ المجاور، واستخدم أبراج المنجنيق وكذلك الأسطول البحري، وبعد أن هدمها دخل أورشليم في سلام، وهناك قدم التبجيل المناسب للكاهن الأعلى. ثم سار لمحاربة الفرس بعد أن وصله خطاب تهديد من دارا، وعلى الرغم من امتلاك الفرس للعجلات الحربية المخيفة المسلحة بالمناجل، خسر الفرس المعركة وفقدوا عددا هائلا من الرجال، بل إن دارا نفسه هرب وأسرت أمه وزوجته وأطفاله. وقد عاملهم الإسكندر معاملة نبيلة. ثم وصل إلى طرواده واستاء من حجم نهر سكاماندر الذي يمثل مشهدا لمعركة كبيرة ذكرت في الإلياذة. وعندما أخبره شعراؤه بأنهم سيمجدونه على نحو أروع مما مجّد به هوميروس. أجاب بالإسكندر: «إنني أفضل أن أكون تريسيتس في حكاية هوميروس على أن أكون أخيل على لسانكم»[(*5)]. وبعد مضي وقت طلب رجاله الطعام، فأمر الإسكندر بذبح الخيول، وقال إنه من الممكن أن تعوض الخيول في حين أن المقدونيين لا يعوضون. وعندما أرسلت مدينة طيبة القوات لمحاربته، خرّب المدينة، ثم يستمر في مسيره حتى كورنثا حيث سئل أن يدير الألعاب البرزخية[(*6)] التي فاز فيها رجل من طيبة، وأعاد الإسكندر بناء طيبة مكافأة للفائز.

وبعد مناظرات بين خطباء أثينا بزعامة يوثيينس، قررت أثينا أن تدفع له الجزية. وبعد ذلك حاربه اللاسيديمونيون وهزمهم. ثم دفع الإسكندر جيشه في اتجاه دارا، ولكنه مرض في سيلسيا. وبينما كان طبيبه فيليب يعد له الدواء، كتب إليه أحد رجال حاشيته يخبره أن فيليب يخطط لتسميمه. وسلط الإسكندر عينه على فيليب وهو يصنع له الدواء ثم تناوله. ثم أطلعه فيما بعد على الخطاب الذي أرسل إليه، وقتل الإسكندر مرسل الخطاب بناء على طلب فيليب الطبيب.

ثم شيد الإسكندر في أرمينيا الكبرى جسرا من الأقواس والحواجز على النهر. ولكن رجاله رفضوا العبور إلا إذا سار في مقدمتهم. وعندما وصل الجميع إلى الشاطئ، أمر بتحطيم الجسر، وشرح لهم السبب، فعليهم

دخول المعركة بعزيمة الانتصار وليس بنية الهروب. وعندئذ هلل الرجال الذين كانوا في بداية الأمر خائفين منه. وحدث بعد ذلك أن حاول جاسوس فارسي قتل الإسكندر بعد أن وعده دارا بأن يزوجه ابنته مكافأة له إذا أدى هذه المهمة. وقبض على الجاسوس، وعبّر له الإسكندر عن إعجابه بتصميمه، ثم أطلق سراحه. وسأل فارسيّ آخر الإسكندر أن يمده بجيش ليأسر له دارا ويسلمه له. ولكن الإسكندر قال له: «لتكن في عون مليكك أنت، فلن أَدَعُ شعبي لأن يضع ثقته فيمن خان أهله».

وعندما اقترب المقدونيون من مدينة دارا، ربط الإسكندر فروع أشجار في قطيع من الأغنام كان يرعى في السهول وساقه خلف جيشه، وثارت عندئذ سحابة كثيفة من الغبار مما جعل الفرس يعتقدون أن الجيش المهاجم جيش جرار. ورأى الإسكندر في منامه من ينصحه بأن يذهب بنفسه إلى دارا، ويصطنع أنه رسول الإسكندر إليه، واستجاب الإسكندر للحلم؛ فوصل إلى نهر سترانجا وكانت له خاصية التجمد أحيانا والجريان أحيانا أخرى، وحيث إن النهر في هذا الوقت كان متجمدا، فقد سار الإسكندر فوقه يتقدمه حراس دارا، وقدم نفسه بوصفه رسول الإسكندر، ودعاه دارا إلى الغداء. وفي أثناء الطعام وضع الإسكندر الكأس الذهبي الذي شرب منه في جيبه. ولما سأله دارا عن سبب حمله الكأس في جيبه، أجاب إن هذه هي العادة المتبعة في بلاط الإسكندر، وتأثر دارا وحاشيته بهذا القول؛ على أن أحد رجال الحاشية اكتشف الإسكندر وأخبر دارا بذلك. عندئذ اندفع الإسكندر إلى الخارج ممسكا بشعلة النار الوحيدة في بلاط دارا، وامتطى صهوة جواده وجرى مسرعا، وجرى رجال الحاشية وراءه وهم يتعثرون في الظلام. وكانت مياه نهر سترانجا المتجمدة على وشك أن تسيل، ولكن فرس الإسكندر كان قد حمله بعيدا، ولم يستطع الفُرس اللحاق به. ثم انضم الإسكندر إلى جيشه وهاجمه دارا بجيشه بعد تمكنهم من عبور النهر الذي تجمد مرة أخرى. ولكن وقع الاضطراب في جيش الفرس، وقطَّعت المناجل المركّبة في العجلات رجالهم، وغرق كثير من الفرس في أثناء هروبهم عبر نهر سترانجا حيث كان الثلج قد ذاب. وعندئذ عرض دارا على الإسكندر دفع الجزية، ولكن الإسكندر رفض. وأبقى الإسكندر على قصر القائد إكسركس وقبره. وكان ذلك القائد قد انتصر على الإغريق. ومنح الإسكندر

أرضا فارسية وأموالا للجنود الذين كانوا قد أصيبوا في الحرب، ثم اقتفى أثر دارا الذي كان، في هذه الأثناء، قد تلقّى طعنة غادرة من اثنين من رجاله، ومات دارا بين ذراعي الإسكندر بعد أن طلب منه أن يتزوج ابنته روكسيان..

ودفن الإسكندر دارا بكل مظاهر التبجيل، ثم أعمل الحيلة في سبيل الكشف عن قاتلي دارا. فلما أعلن القتلة عن أنفسهم، صلبهم. وبعد ذلك استعد للاحتفال بزواجه من روكسيان احتفالا مناسبا.

وكتب الإسكندر إلى أمه وإلى أرسطو يخبرهما بالمناظر الغريبة التي قابلته في رحلته: ومن ذلك رجال لهم وجوه أسود، ورجال لهم وجوه كلاب، وشجر يكبر وينكمش تباعا، ثم سرطان البحر الضخم. ووصف لهما صعوده إلى السماء داخل قفص مربوط في أربعة من الغرافين[*7]. ثم هبوطه إلى تحت الماء في بالونة زجاجية.

ثم قاد الإسكندر جيشه إلى الهند ليهاجم بوروس حليف دارا. وكانت خطته أن يسخن التماثيل البرونزية ليحرق بها أفيال بوروس الشهيرة بقدرتها القتالية ويشتتها. ثم تحدى بوروس في معركة واحدة وانتصر عليه. واستمر الإسكندر في سيرة لمقابلة البراهمة، لكي يطرح عليهم مسائل فلسفية تعبر عن إيمانه بالقضاء والقدر. وكتب إلى أرسطو يخبره برؤيته أشجار الشمس وأشجار القمر ورؤيته أشجارا ناطقة أخبرته بأنه على وشك أن يقتل. ثم حاصر الإسكندر القبائل المتوحشة يأجوج ومأجوج داخل أسوار شيدها فلا يبرحونها.

ومن هناك رحل الإسكندر إلى ساميرام التي كانت تحكمها ملكة جميلة تدعى كانداسي. وأرسلت الملكة له الهدايا وأمرت أحد رسلها أن يرسم سرا صورة الإسكندر. وحدث أن أحد أبناء كانداسي ويدعى كانداوليس، جاء إلى المعسكر المقدوني طالبا المساعدة في إنقاذ زوجته التي اختطفها للتو ملك محلي. وطلب الإسكندر من صديقه بطليموس أن يتظاهر بأنه الإسكندر، ويقوم هو بدور نائبه. واقتحم المقدونيون ليلا بناء على نصيحة الإسكندر، معسكر الملك المحلي، وأرجعوا لكانداوليس زوجته، وعندئذ اصطحب كانداوليس الإسكندر إلى بلاط كانداسي الفاخر، وتعرفت الملكة على الإسكندر من الصورة التي رسمها أحد رجالها، ولكنها لم تعلن وجوده

حيث إن أحد أبنائها كان متزوجا من ابنة بوروس.

وبعد ذلك جبى الإسكندر الجزية من الأمازونيين والفرسخيين. وفي خطاب لأمه، وصف الإسكندر زيارته لأعمدة هرقل ونهر أطلس والمدينة البرونزية.

وفي طريقه إلى بابل ساعد الإسكندر اثنين من الفرسان الشباب وكان قد حاصر مدينتهما ديفور. وأهدى لكل منهما أميرة ومعها ممتلكاتها. وخرج بعد ذلك في مغامرة البحث عن ماء الخلود فوجده وزيره أو خادمه، ومن ثم أصبح خالدا بدلا من الإسكندر. ثم اتخذ الإسكندر طريقه إلى الجنة الأرضية، ولكنه لم يسمح له بدخولها. وأعطاه الرجل العجوز الذي كان يحرسها حجرا عجيبا في شكل عين الإنسان. وكان هذا الحجر يرجح في وزنه أي كمية من الذهب، ولكن ما إن ينثر عليه التراب حتى ترجحه الريشة الخفيفة. وشرح له أرسطو تأويل هذا، بأن العين تظل ذات قيمة بوصفها جزءا من الإنسان الحي، ثم تصبح لا قيمة لها عندما يموت الإنسان[*8]، وقبل أن يتمكن الإسكندر من الوصول إلى بابل، دبر أنتيباتر الذي كان الإسكندر قد ترك له رعاية مقدونيا في أثناء غيابه، دبر أن يقوم ساقي الإسكندر بإعطائه السم. وتناول الإسكندر السم وكتب وصيته بتقسيم إمبراطوريته وهو يعاني الألم الشديد في احتضاره، وطلبت فرق جيشه المترعة بالحزن أن تراه، وأمر الإسكندر أن يدخل الرجال حجرته ويمروا به واحدا واحدا ففعلوا، ثم مات الإسكندر وحمل جسده إلى منف أولا، ثم دفن في الإسكندرية بعد ذلك في تابوت ذهبي.

وبالإضافة إلى هذه الحكاية الممتدة، هناك حوادث أسطورية أخرى في حياة الإسكندر تعد كذلك جزءا من التراث الغربي، ولكنها أقل اتصالا «برومانس» الإسكندر، منها بالمصادر الخارجة عنها. ومهما يكن من أمر، تظل هناك ثلاثة أوعية واضحة للمادة المكونة لأسطورة الإسكندر وتسمح بالإعارة، مع الأخذ في الاعتبار ما يتم من استعارات سواء منها أو إليها، وهي: حكايات مصدرها تاريخ حياة الإسكندر بعد موته بثلاثة أو أربعة قرون على الأقل، ولكنها تمدنا بالوثيقة الأولى، حيث إن الكتاب الرومان كانوا يعيدون كتابة ما روي من قبل، ثانيا: حكايات منفصلة تجمعت حول اسم الإسكندر ولكنها جاءت في معظمها من فولكلور شرق البحر الأبيض،

ثالثا: الأساطير المسيحية. وإلى المصدر الأول الذي يرتكز على التاريخ ويرجع إلى أصول لاتينية، ترجع أشهر حكاية مفردة عن الإسكندر ذاعت على نطاق واسع، وهي الحكاية المعروفة بعقدة جورديا التي تربط عربة الملك ميداس الحربية القديمة بأصلها. وقد وقع المقدونيون على هذه العربة في جورد في أثناء زحفهم عبر فريجيا. وكانت العقدة مصنوعة من لحاء شجر الكرز مع ربطها على نحو دقيق للغاية، فلم يستطيع أحد أن يفككها طوال الأربعمائة عام منذ عصر ميداس، ووفقا للاعتقاد السائد، أن من يستطيع تفكيكها سوف يحكم آسيا، واستطاع الإسكندر تفكيكها في اجتماع كبير بأن قطع أربطتها بسيفه.

ثم إن حكاية الحصان بوسيفالوس ذات أصل تاريخي كذلك، وقد رويت حكايات كثيرة عن هذا الحصان. والرواية الأكثر شيوعا تحكي كيف أن الإسكندر استطاع، وهو ما زال صبيا، أن يروض الحصان في حين لم يتمكن أحد من ذلك، مع ملاحظة أن الحصان كان يجمح جموحا متوحشا عندما يرى ظله. وعندما جعله الإسكندر يواجه الشمس استطاع أن يمتطيه وأن يدرّبه. وظل الحصان بوسيفالوس رفيقه الدائم طيلة عشرين عاما، فما أن وضع الإسكندر على ظهره السّرج الملكي حتى أصبح يرفض أي راكب آخر. ولما كبر الحصان وضعف، كان الإسكندر يستعرض به متباهيا أمام قواته، ثم يتركه ليمتطي الحصان المعد للمعركة، وعندما مات بوسيفالوس في الهند في المعركة ضد بوروس، أسس الإسكندر مدينة عند قبره وسماه باسمه.

وربما كانت حكاية تايس ترتكز كذلك على الحقيقة؛ ففي فورة الانتصار على الفرس، وبإلحاح من محظيته الجميلة التي أحضرها معه من أثينا، أقام الإسكندر ورفاقه مأدبة الطعام والشراب، وأخذوا يقذفون بالمشاعل في اتجاه قصر «بيرسيبوليس» الفاخر، فاحترق القصر وهوى حطاما، مما جعل الإسكندر يأسف لهذا الفعل كل الأسف فيما بعد. وقد استغل جون درايدن هذا الحدث في قصيدته «احتفال الإسكندر». ثم كان سلوك الإسكندر الشهم مع بوروس المنهزم عندما سئل الأخير، على أي نحو يرغب في أن يعامل، فقال: «كملك». وسر الإسكندر بهذه الإجابة، وترك له مملكته بلا أذى، بل اتخذه حليفا له. ثم كانت هناك الحكاية التي رويت عن سرعة

بديهة أحد رجال الحاشية الذي حكم عليه بالإعدام ذات ليلة، ثم استغاث بالإسكندر في صباح اليوم التالي قائلا: «من الإسكندر المخمور إلى الإسكندر المفيق». فأبقى الإسكندر على حياته، وهذه العبارة عاشت فيما بعد واسترخصت في الاستخدام اللغوي الحديث للخطباء في الغرب، كأن يقال: من الإسكندر الصغير إلى الإسكندر الأكبر. وهناك روايات متواترة عن سعة معرفته في مجال التاريخ الطبيعي والتي تجمعت لديه من آلاف التقارير، التي كانت ترسل إليه بصفة منتظمة من صيادي الحيوان وصيادي الأسماك وأشباههم، وقد جمعها أرسطو له.

وربما كانت الحكايات التي تحكى عن سرعة بديهة الإسكندر وكرمه أكثر الروايات وفرة. وفي كثير من الحالات ترجع هذه الروايات إلى تسجيلات مبكرة توحي بأن هذه الحكايات تتفق مع طبيعة الإسكندر التي عرف بها. حقا إن الثناء على شخص بالكرم موضوع شائع للشعب، وفيه دائما مصلحة، كما أن سرعة البديهة محبوبة في كل المستويات، ولكن هذه الموضوعات، مهما يكن الأمر بالنسبة للإسكندر، ترد متساوقة مع الحقائق. وأكثر أقواله شهرة التي سجلها «سينكا»، رد الإسكندر على المحارب القديم الذي أصيب بالذهول عندما منحه الإسكندر مدينة مكافأة له، قال له، إنه ليس مهتما بما يستحقه الجندي من مكافأة، بل بما يليق به هو أن يُعطي. وشبيه بهذا رده السريع على رسل من آسيا جاؤوه ليسلموه نصف مدينتهم، قال لهم «ليست المسألة أن تعطوني مدينتكم، بل أن تحتفظوا بما أختار أن أعيد لكم منها». لقد كان الإسكندر يحب الحقيقة البسيطة ويتحدث بها، ولكنه كان بالمثل، بدافع الكرم والتجمل، يمكنه أن يكافئ على جواب أمين موجه ضده مباشرة. حكى شيشرون عن القرصان الشهير ديونيدس الذي علق على أسر الإسكندر له بقوله: إنك تستولي على العالم بأسره، وأنا أستولي على سفينة واحدة بدافع الحاجة، ومع ذلك أسمى أنا لصا، في حين تسمى أنت إمبراطورا لأنك من الطبقة العليا. وبدلا من أن يعاقبه الإسكندر لوقاحته، أطلق سراحه ومنحه فرصة حياة جديدة بتعيينه في الجيش. هذه الحكاية أعاد سنت أوجستين روايتها، كما رويت في «مآثر الرومان»، وكذلك رواها تشوسر في إحدى حكايات كانتربري. وهناك مثال آخر يروى عن تعنيفه لجندي يدعى كذلك الإسكندر، كان قد هرب في إحدى المعارك، قال له

الإسكندر: «إما أن تغير اسمك أو أن تكون أهلا لهذا الاسم».

ولأن سمعة الإسكندر، كما تناقلها آباء الكنيسة عن كتاب مثل شيشرون وسينكا، وفاليروس ماكسيموس وبليني الكبير، كانت أحيانا سيئة وأحيانا ناصعة، فإن صورته الأدبية لم تكن كذلك مستقرة ومطردة؛ فبليني على سبيل المثال، الذي يشير إليه على نحو متكرر، يُرجع إليه فضل اكتشاف الشرق بل فضل استيراد الورد والعطور لأول مرة، بينما يُؤثر سينكا أن يركز على اندفاعه وكبريائه، وهو ما فعله كتّاب الأخلاق المسيحيون من بعده. ولكن حيث إن المادة التي كتبت عنه باللاتينية تنحصر في العصور المظلمة، في العلماء، أي في دائرة القسس، فإن مدحه أو ذمه في صورته الأدبية كان له تأثير ضئيل في نمو أسطورته الشعبية.

ومن ناحية أخرى، كانت صورة الإسكندر الشعبية متساوقة، فيمكن اعتبار جماهير العصور الوسطى، بمعنى ما، خلفاء جنوده الذين صنعت ذاكرتهم لقائدهم المحبوب النموذج الذي نسجت حوله صورته فيما بعد؛ فهو في الفولكلور أكثر ذكاء من أي شخص آخر، وهو لا يعرف الخوف وبصفة خاصة في الأخطار، وهو محبوب من رجاله، ويسهل الوصول إليه، وشغوف بالمعرفة، وشهم كريم، ويتمتع بروح نشيطة وسريعة الاستجابة، وتميل للصفح والتحمل. وهذه الصفات لم تصور في رومانس الإسكندر، بل في الحكايات التاريخية، وفي الحكايات التي تستمد من المصدر الثاني، أي من تراث الشرق الأدنى، حيث انتشرت الطرائف والنوادر المسلية عن طريق الكلمة الشفاهية قبل أن تنتشر المخطوطات اليونانية في الشرق الأدنى، والروايات اللاتينية المدونة في الغرب كذلك. وكثير من هذه النوادر الشائعة لم تكن في الأصل مرتبطة بالإسكندر. على أن ما تبقى منها وظل مرتبطا باسمه كانت الروايات المتسقة مع صفاته. ومن خلال هذه الروايات الشعبية، مقابل روايات القصص وروايات العصور الوسطى المتأخرة، تشكل مفهوم الإسكندر، ومثال ذلك مقابلته بديوجين. وقد استمع سينكا إلى هذه الحكاية كذلك، وانتهى إلى حكم أخلاقي، مفاده أن كرم الإسكندر المزعوم كان قناعا لغروره.

عرض الإسكندر على ديوجين الذي كان يعيش في حوض أي هبة يرغب فيها، فلم يطلب ديوجين شيئا منه إلا أن يبتعد الإسكندر عن مصدر نوره.

وقبل الإسكندر صده، وقبل وجهة نظره في الحياة التي تعبر عنها الحكاية، كما فعل في حكايات شرقية أخرى مماثلة تحكي عنه وعن عدد من الفلاسفة الفقراء الزاهدين، ومثال ذلك حكاية الإسكندر ذي القرنين مع الملك الزاهد في ألف ليلة وليلة، وفيها عرض الإسكندر على هذا الملك أن يشاركه إمبراطوريته ورفض الملك. وقال له: إن كل الرجال أعداء للإسكندر بسبب استحواذه على ممتلكات شاسعة، أما هو فإن الناس جميعا أصدقاؤه بسبب فقره المدقع.

وكان الإسكندر يتجمل كذلك لمعلمي شبابه، بخاصة أرسطو الذي استمر أستاذه طوال حياته؛ ففي مناسبة من المناسبات، لاحظ أرسطو غرام الإسكندر بعشيقته فيليس، وحذره من أن يخضع للنساء، ولكن فيليس آثرت أرسطو عليه، وطلبت من الإسكندر أن يهبها لأرسطو. وسعد أرسطو بها، وسحرته حتى تمنطق بالسرج واللجام وحملها على ظهره وطاف بها وهو زاحف على أربع، ثم دبرت الأمر بحيث يفاجئها الإسكندر بهذا المنظر، ولكن أرسطو سريع البديهة شرح الأمر بأنه لم يذعن للمرأة إلا ليحول بينها وبين أن تُعرّض الإسكندر لمزيد من السخرية. وفي بعض الروايات العربية، أبعدت المرأة، وهنأ الرجلان كل منهما الآخر بحظهما في الهروب من الفتنة. وتشيع هذه الحادثة كذلك في الغرب في عدد من الطرائف والفكاهات، وفي مجموعة الحكايات ذات الانتشار الواسع بعنوان حكايات أرسطو، وهناك مثال آخر لكرم الإسكندر نجده في حكاية أبيليس الرسام الشهير، فقد استدعى الإسكندر أبيليس ليرسم له محظيته المفضلة كامباسب، كان يكن لها كل حب. وفي أثناء جلسات الرسم وقع أبيليس نفسه في حبها. وعندما سمع الإسكندر بهذا العشق قدم له الفتاة هدية. ويعد موضوع التنازل عن محظية أو زوجة لصديق، موضوعا شرقيا شعبيا واسع الانتشار، ومن الممكن افتراض أنه يرتكز على واقع عملي، ونحن نقابله مرة أخرى في Disciplina Clericales، ومن ثم يرد في مجموعة حكايات دي كاميرون ضمن حكايات أخرى.

وفي حكايات أخرى ذات أصل عربي، يصور الإسكندر في أسلوب معروف أنه أسلوب عربي صوّر به في ألف ليلة وليلة هارون الرشيد وصلاح الدين، على نحو تجمع فيه الشخصية بين الديموقراطية، ووجاهة الأمير؛ فقد

رأى الإسكندر أحد ضباطه ممتطيا صهوة جواد يبدو عليه الهزال فقال له: «ماذا أستفيد منك... وأنت تركب مثل هذا الحيوان المسكين. وأجاب الضابط: عفوا يا صاحب الجلالة، إن قصدي أن أحافظ على موقعي، ولكن يبدو لي من اختيارك لفرسك المعد للقتال أنك تستعد لأن تجري بعيدا». وسر الإسكندر كثيرا بهذه الإجابة إلى درجة أن قدم للضابط فرسه هدية له ومعه السرج الغني بزخرفته[3].

وتحكي قصة أخرى أن الإسكندر كان يقضي أمسية مع رجاله في الخلاء فسألهم أن يحلّوا اللغز الذي يقول: ما هو الشيء الذي لم يأت في العام الماضي، ولم يأت في هذا العام، ولن يأتي في العام المقبل؟ فهتف أحدهم قائلا: «لابد أنه مرتباتنا المتأخرة». وضحك الجميع وكوفئ الضابط. وهكذا كانت صحبة الإسكندر لفرق جيشه واضحة في كل حكاية وكان يؤثر أن يضحي بنفسه على أن يضحي بهم، وكان يأكل مما يأكلون، ويرفض أن يشرب إذا كانت حلوقهم قد جفت من العطش، ويقدم مقعده بجانب النار لجندي يرتعش من البرد، وكان يقول: «لن أعيش ولن أموت إلا بصحبة رجالي».

أما المصدر الثالث للمادة الغربية التي كونت حكاية الإسكندر فهي الأساطير المسيحية، وهي في العادة تؤلف عالما في حد ذاتها. وربما نذهل إذا علمنا أن الإسكندر يصور في الإنجيل على نحو أليجوري في سفر دانيال الإصحاح الثامن، كما ذكر اسمه على وجه التحديد في أسفار المكابيّين السفر الأول[9*].

فهو في سفر دانيال فهد بأربعة رؤوس كما أنه تيس يهاجم كبشا بقرنين وينتصر عليه، وهي سطور أوصلت القديس جيروم إلى تفسير دعّمه الشراح فيما بعد. ويقول التفسير عندما يظهر الإسكندر في شكل فهد، فإن الرؤوس الأربعة تمثل خلفاءه الأربعة. وعندما يظهر في شكل تيس فإنه يهاجم دارا الكبش ويقضي على قوته. أما قرنا الكبش فيمثلان إمبراطوريته، ميديا وفارس. وهاتان الفقرتان عن النبوءة المقدسة للإسكندر في اتصالهما بإشارة متأخرة إلى ملك إغريقي سوف يخرب بلاد فارس - من الأهمية بمكان للمفهوم اللاهوتي للإسكندر على نحو ما فسرهما القديس جيروم في قوله: «إنّ انتصارات الإسكندر لم تكن ترجع إلى قوته بل إلى إرادة الله»[4].

ويبدأ السفر الأول في المكابيين بحكاية موجزة للغاية عن تاريخ حياة الإسكندر وعن موته، كمقدمة للتعليق على خلفه أنتيوخوس، الذي اضطهد اليهود في عصره. وبسبب هذه الفقرة، ومن خلال تعليق يهودي يعترض النص، حددت دراسات رموز الكتاب المقدس في العصور الوسطى المكابيين بوصفهم نماذج من المسيحيين المخلصين، وأنتيوخوس على أنه عدو المسيح. وفي الوقت نفسه أدت أسطورة تقديس الإسكندر في أورشليم ومعاملته المعتدلة لليهود، إلى نشأة حكايات يهودية عن عبادة الإسكندر لإله إسرائيل، وهذه الحكايات بدورها أثرت على نحو إيجابي في شراح الإنجيل، اليهود منهم أولا ثم المسيحيين.

وقد سبق أن رأينا في حكاية الملك سليمان وملكة سبأ مدى تأثير الإشارات الإنجيلية وشروحها على الحكاية، وفي هذا المجال تظهر مدرستان للفكر الكنسي متصارعتان: الأولى ترى الإسكندر وسيطا للرب، والثانية تراه ضد المسيحية، مما أدى في النهاية إلى اعتباره مثالا لخطيئة الكبرياء الشيطاني. على أن هذه الإشارات الكنسية في حد ذاتها، كما سبق أن ذكرنا، لم تؤثر في رومانس الإسكندر، ولقد حدث الخلط بين الديني والأسطوري بصفة خاصة في التصوير الكنسي، بقدر ما حدث مع ملكة سبأ في قصة العبور الحقيقي.

ويمكننا أن نقتفي مثالا لذلك في مادة معراج الإسكندر إلى السماء، فالرواية الأرمينية لنص المدعو كاليستينس، وهي الترجمة المقبولة التي تقترب من النص الأصلي، الإغريقي المصري، لا تحتوي على المغامرات التي دست في زمن متأخر في النصوص المنقحة للنص الأصلي والتي أدرجت في الروايات الأوروبية، بل إنها لا تكاد تشير إليها. وكما سبق أن ذكرنا، إن أطول النصوص التي تفرعت من نص المدعو كاليستينس، يبدأ بنص ليو النابولي ويعرف بـ Historia de Proelivs، وترجم إلى معظم اللغات الأوروبية. وفي هذه المجموعة من الحكايات نجد الحادثة العجيبة الشائعة عن صعود الإسكندر إلى السماء. وربما نمت هذه الحادثة من فقرة موجزة في النسخة الأم للمدعو كاليستينيس. وهي تحكي عن لقاء الإسكندر مصادفة بطائرين كبيرين لهما وجها إنسان وسألاه: لماذا ترغب في الصعود إلى السماوات، وهو أمر ليس من نطاق قدرتك؟ وتملك الإسكندر الفزع وأصابته الرعشة

لسماعهما[5]. وسواء صعد الإسكندر إثر سماعه هذا القول أم لم يصعد، فإن هذه الحكاية الخلابة عن صعوده إلى السماء بمساعدة الطائرين انتشرت في الغرب في حوالي أربعين كتابا عن الإسكندر، تعزى إلى «ليو»، بل من خلال التصاوير العديدة لهذا الصعود في الكنائس والمخطوطات المصورة وغيرها. وتمثل هذه الحادثة أكثر الأحداث شيوعا عن حياة الإسكندر في العالم الغربي اليوم.

وفيما عدا المختصين، فمن يعرف شيئا عن الإسكندر الأكبر بوصفه بطل رومانس العصور الوسطى، يعرفه في العادة بوصفه الرجل الطائر، وقد وجدت تصاوير لآلته الطائرة التي تختلف قوتها بين قوة غرفينين وستين من الغرافين، بدءا من القرن الحادي عشر حتى القرن السادس عشر، مستخدمة كل الوسائل التعبيرية الممكنة على وجه التقريب، وجدت في نحت بارز على الرخام في الحائط الشمالي في كنيسة سانت مارك في فينسيا، وفي رسوم خشبية بارزة، وفي تيجان أعمدة بازل، وكاين، وماتريس، وفي الفسيفساء المجددة في كاتدرائية أوترانتو، وفي نسيج من تورناي مزدان بالصورة في بالآزودوريا في روما، وفي مسائد كراسي إنجليزية تنتشر من ويلز إلى بيفرلي، وفي مخطوطات لاتينية وروسية وألمانية، وفرنسية[6]. وفي العادة تحكى الحكاية على النحو التالي: كتب الإسكندر لأمه يحكي لها عن أسفاره، وبعد أن قدم التفاصيل عن كثير من الكائنات الوحشية التي واجهته وعن أقاليم غير طبيعية، وصف وصوله إلى مكان ظن أنه نهاية الأرض حيث تلتقي معها السماء. ولكي يختبر ما إذا كان هذا صحيحا، جوّع بعض الطيور البيضاء الضخمة، أو بعض طيور الغرفين لمدة ثلاثة أيام، ثم أوثقها في قفص خشبي كان قد أعده، ثم دخل إلى القفص، وأخذ حربتين جعل في نهاية كل منهما قطعة من اللحم، وحملهما بعيدا عن متناول الطيور، وعندما وجه الرمحين إلى أعلى، طارت الطيور حاملة معها القفص. وحذر كائن في شكل إنساني ذي جناحين الإسكندر من أن يلتفت خلفه ثم قال له: «انظر إلى الأرض». وبدت الأرض للإسكندر صغيرة مثل مركب يطفو على سطح بحر كبير. وازداد الإسكندر ارتفاعا. وطلب منه الصوت أن يعاود النظر إلى أسفل. وظهر البحر في تلك اللحظة مثل طوق. وكان من الممكن رؤية حدوده. وفي المرة الثالثة ظهر البحر كما لو كان بركة

صغيرة. وخاف الإسكندر وأصابته رعشة، فصوب الرمحين إلى أسفل، وعندئذ طارت طيور الغرفين إلى أسفل، وهبط الإسكندر بعيدا عن عسكره بما يبلغ سفر عشرة أيام.

وتذكرنا حادثة الطيور البيضاء وما سببته للإسكندر من خوف ورعشة، وكذلك صوت التحذير الذي سمعه، تذكرنا بنص المدعو كاليستينيس. وتعد المناظر الثلاثة للعالم وهو آخذ في التضاؤل موضوعا مألوفا في أساطير الطيران السحري في الشرق الأدنى. ومثال هذا، صعود البطل أتانا البابلي الأصل على ظهر نسر، وكذلك طيران ذي القرنين (الإسكندر نفسه) تحت جناح الملاك رافائيل، على نحو ما يحكى في نص Aljamiado[7] الذي يرجع إلى القرن الخامس عشر، وما زال يحكى كذلك في الحكايات الشعبية الشرقية. ولكن الفكرة الأساسية هنا لابد أن تعكس حكاية النمرود العربية (وهي مستمدة كلية من نمرود سفر التكوين الإصحاح العاشر) التي تحكي أن النمرود شاء أن يهاجم الله (سبحانه) فارتفع إلى السماء داخل صندوق تحمله أربعة طيور صغيرة، وهو ممسك برماح معلق في أطرافها قطع اللحم على نحو ما تحكي الحكاية السابقة، (وفيها هوى النمرود إلى الأرض كذلك). وعلى هذا النحو قام الملك الفارسي الأسطوري «كاي كاوس» مدفوعا بإغراء الشياطين برحلة تتطابق مع الرحلة السابقة فيما عدا أن النسور كانت تحمل عرشه (وقد سقط هذا الملك كذلك).

ومن الطريف أن هذه المغامرة وتصويرها على هذا النحو في العصور الوسطى، وتعتمد كل الاعتماد على التراث العربي، أصبحت أكثر الحجج انتشارا بعد الإنجيل، لأن يصبح الإسكندر وسيطا إلهيا في التراث الديني المسيحي. ثم أصبح من الممكن نمو الحكاية بعد ذلك من خلال أسفار الإسكندر للشرق الأقصى حيث العالم المجهول، مما فتح المجال لأن تتضمن هذه الأسفار أي إشاعة أو خبر. وقد شاء الإسكندر التاريخي أن يمتد بغزوته إلى الهند ليرى ما إذا كان نهر الجانج يصب حقا في البحر الشرقي. ولكن جنوده رفضوا أن يستمروا في السير معه خوفا من الوصول إلى شاطئ المحيط الذي يعتقد في أنه مكان مرعب. وأذعن الإسكندر إلى هذا التمرد وعندئذ تهلل الجنود لأن ملكهم الذي أخضع العالم، سمح لرجاله أن يهزموه. ثم أرسل الإسكندر بقية جيشه إلى أرض الوطن متخذين الطريق

الشمالي المعروف، واحتفظ بقوات خفيفة سار بها لاكتشاف طريق عبر الصحراء. ومن ثم، كان منطقيا تماما أن تتيح رحلة الهند الفرصة لإقحام مادة أسطورية في القصة النثرية الإغريقية المصرية المتأخرة، مما أدى إلى تنويعات فنية مفصلة في أوروبا في العصور الوسطى(8). على أنه من بين العجائب الكثيرة وأحداث النجاة الدقيقة مما تحويه هذه النصوص المدسوسة، كان منظر الصعود بالطيران الوحيد الذي يصور عادة في الفن التذكاري. وربما يرجع هذا إلى أن تخطيط المنظر كان في العادة يعتمد على الرتوك(*10). مما يذكرنا بالخواتم الشرقية البالغة في القدم التي كانت في الواقع أختاما منقوشا عليها رجل أو شجرة مقدسة على جانبيها غرفين أو أبو الهول. وكان الإسكندر طائرا؛ موضوعا مفضلا في كل من اليونان ومصر وفارس والهند. والتخطيط الشكلي وحده يمكن أن يستدعي رموز العصر القديم للقوة الإلهية، ففي كثير منها لا يصور الإسكندر داخل قفص، بل جالسا على العرش متوجا وكأنه الملك المؤله، وربما أوحى هذا المنظر لمؤمني العصور الوسطى بموضوع صعود المسيح أكثر من الصعود إلى السماء في حد ذاته.

كان هذا الارتباط بالألوهية لافتا في العالم البيزنطي؛ فنحن نجد أولا أن تراث الشرق الأدنى لا يعزو إلى الملوك الكبار مملكة واحدة أو عدة ممالك، بل حكم الكون كله. وكان الإسكندر يمثل هذه الفكرة أكثر من أي ملك آخر، وكانت رحلة صعوده إلى السماء بالنسبة للبيزنطيين رمزا لأقصى درجات الانتصار. وعندما استقرت المسيحية، استوعبت الصور السابقة التي ترمز للقوة وأعيد تفسيرها. ويشير فروجوني إلى أن الإمبراطور قسطنطين كان يقرن بالإسكندر، كما أن كليهما ارتبط بفكرة القدسية، وقد تبنت الكنائس الروسية صورة الصعود بوصفها رمزا لتتويج المسيح، كما زينت بها أشياء خالصة الدنيوية كما نرى في تاج في كييف، وفي كأس إنزبروك، والمجاديف الذهبية في فيينّا، وكلها شرقية المصدر. وبناء على ذلك فإن الإسكندر الذي كان يمثل بدقة نموذجا للأباطرة البيزنطيين، تحول هو نفسه إلى إمبراطور بيزنطي، فهو بوصفه إمبراطورا تحيطه العناية الإلهية، فإن كلا من التراث الدنيوي والمقدس في الإمبراطورية المسيحية الشرقية، أيد رحلة الإسكندر السماوية مصداقا لمكانته السامية

بين الناس، وهو اعتقاد يرتكز كلية على تفسير جيروم لسفر دانيال الإصحاح الثامن، ثم دعمته فيما بعد نظرة الإسلام إلى الإسكندر ثم من خلال التصوير الإسلامي. ومن ناحية أخرى خفتت سمعة الإسكندر في المسيحية الغربية بدءا من القرن الثاني عشر إلى ما بعد ذلك، عندما اتهم، بصفة خاصة في ألمانيا في الدراسات الإنجيلية، بخطيئة الكبرياء الذي أصبح هدفا في ذلك الوقت لهجمات كثيرة من الوعاظ الأخلاقيين، واعتبرت قصة صعوده السماوي نموذجا رئيسيا لهذه الخطيئة قياسا على الفعل المشابه في قصة برج بابل. واستغلت الكنيسة هذه الأسطورة الحاطة لقدر الإسكندر، كما لو كانت إنجيلية كذلك، ومن ثم فهي لا تقبل الجدل، وقبلت على هذا النحو. وكان من السهل استخدام الرتوك نفسها التي يمكن أن تحمل مغزى التتويج في العالم السماوي للتعبير عن درس مهم هو سقوط الكبرياء.

وقد دعم القرآن، وكذلك الشروح القرآنية، وجهة النظر القائلة إن الله كان يرعى الإسكندر ويحميه، وأنه في الحقيقة مقدس، وذلك بمطابقته مع شخصية عاشت قبل الإسلام وعرفت بذي القرنين، أي صاحب القرنين، وربما كان هذا البطل الذي عاش قبل الإسلام هو الإسكندر الذي كثيرا ما صور حاملا قرني كبش.

ومن الناحية التاريخية، فإن الإسكندر لم يلبس القرنين إلا بعد زيارته، احتفالا بانتصاره، لمعبد زيوس آمون في مصر، حيث أوضح له الهاتف أن آمون كان والده. ويظن أن هناك أسطورة سريانية نشأت في القرن السادس، كانت الأصل في المطابقة بين الإسكندر وذي القرنين. ووفقا لهذه الأسطورة أن الإسكندر قال لربه: «إني أعلم أنك جعلت فوق رأسي قرنين حتى يمكنني أن أحطم ممالك العالم بهما»، على أن القرون كانت، من ناحية أخرى، علامة قديمة للتقديس، وربما عكس الشكل العربي لرجل يحمل قرنين هذا المعنى، على نحو ما صور ميكلانجلو موسى بقرنين. وتمثل صورة ميكلانجلو أشهر نموذج لمفهوم موسى في العصور الوسطى. وترتكز هذه الفكرة بدورها على ترجمة القديس جيروم للإنجيل في القرن الرابع. وكان جهد جيروم[*11] في ترجمته اللاتينية للكتاب المقدس يتمثل في النقل الحرفي قدر الإمكان. فهو قد ترجم كلمة عبرية بالقرن، وهي كلمة يمكن أن تعني كذلك التمجيد

(كما فسرت في التوراة السبعونية)[*12].

«كان وجهه يحمل قرنين نتيجة خطابه مع الله». وكما سبق أن ذكرنا كان في مصر القديمة وغيرها من البلدان ربط مسبق بين الألوهية والقرون، وربما في مرحلة تالية كان لقطعة من التصوير الأيقوني من الشرق الأدنى أثر في كل من موسى والإسكندر.

ويحكي بعض القصاصين العرب أن الإسكندر الأكبر كان يبحث عن ماء الحياة، وكان معه خادمه الخضر. (في بعض الأحيان يسمى الخادم أندرياس بدلا من الخضر).

وفي أثناء غياب الإسكندر، كان الخضر يعد الطعام فغسل سمكة مملحة في نبع ماء، وعادت الحياة إلى السمكة، وتسربت إلى الماء وقفز الخضر وراءها وكذلك اكتسب الخلود. وعندما عاد الإسكندر وسمع الحكاية، بحث مع الخضر عن النبع ولكنهما لم يجداه ثانية[*13].

وتماثل هذه الفقرة فقرة أخرى تربط بين الخضر وسمكة موسى الذي لم يصور بقرنين في القرآن الكريم. ويشار في هذه السورة إلى ذي القرنين الذي بنى سدا حول يأجوج ومأجوج حسبما أمره اللّه.

ويبدو أن الإسكندر في هذه السورة قد بُلّغ رسالة إلهية بأن يعاقب الكافرين ويكافئ المؤمنين. وبهذا يمكن القول إن الإسلام والمسيحية، اشتركا في اعتبار الإسكندر موجّها من قوى الله، أما في «رومانس» الإسكندر وفي الفولكلور، فقد صور وكأنه السوبرمان، رجل يحمل ملامح إلهية بدليل الأفعال الخارقة التي تنسب إليه. بل إن أحد الكتاب الرومان الذين أرخوا لحياة الإسكندر التاريخية ويدعى أريان Arrian وكان الأول والأعلم وموثوقا فيه بين المؤرخين، ختم ملخصه عن الإسكندر بالعبارة التالية: «كان بارعا في تصفيف الجيش، ولم يكن له نظير في قيادة فصائل الجيش. وكان يطرد مخاوفهم بأن يقدم لهم المثال على مواجهة الأخطار بشجاعة لا تهتز. وكانت جسارته، في مواقف الشك تحسم النصر.

لقد كان يعول عليه كلية في الحفاظ على الوعد، وكان حريصا كل الحرص على ألا يقع في فخ الجبناء المضللين، وبقدر ما كان يبخل بماله على نفسه، كان شديد الكرم في منحه الهبات للآخرين. إن الإسكندر لم يظهر بين الناس على هذا النحو من دون إرادة الإله، ولم يكن هناك من

يمكن أن يقارن به».

الملك جون ورئيس دير الرهبان

1 ـ سأحكي لكم حكاية، وسأحكيها في الحال، عن أمير نبيل كان اسمه الملك جون، لأنه كان أميرا، وأميرا يتمتع بقوة كبيرة، ارتكب هذا الأمير كثيرا من السيئات بقدر ما فعل كثيرا من الحسنات... هيا بنا إلى ميناء ديري، لنهبط هناك (ميناء في شمال غرب أيرلندا).

2 ـ سأحكي لك الحكاية، حكاية مرحة، عن رئيس دير الرهبان في كانتربري، عن إدارته الدير وشهرته الذائعة التي جعلته يلوذ بمدينة لندن الواسعة.

3 ـ كيف أيها الأب الراهب بلغني أنك تحتفظ ببيت أفخم من بيتي بكثير، ولأنك تدير الدير وتتمتع بشهرة كبيرة، فإنني أخشى خيانتك ضد عرشي.

4 ـ وإني أتمنى، يا تابع إقطاعي، ألا تُكنّ لي الحسد، لأنني أنفق من مخصصاتي التي أمتلكها حقا. وإذا لم تجبني على ثلاثة أسئلة فسوف أقطع رأسك من جسمك.

5 ـ السؤال الأول هو: كم أساوي إذا امتطيت صهوة جوادي المطهم، ووضعت تاجي الذهبي فوق رأسي، وسرت بين رجالي النبلاء ونحن نمرح ونطرب؟ عليك الإجابة ولا تخطئ بمقدار قرش واحد زيادة أو نقصانا.

أما السؤال الثاني فلا ينبغي أن تهزأ به وهو: كم من الوقت يستغرق طوافي حول العالم وأنا راكب جوادي؟

وأما السؤال الثالث فلا تخجل منه بل أجبني عنه في صدق، وهو: ماذا يشغل فكري؟

ـ كان راعي الغنم يسير في طريقه إلى حظيرة الخراف، إذ أبصر رئيس دير الرهبان يسير في طريقه على ظهر جواده، فقال له: كيف حالك يا سيدي رئيس الدير؟ أهلا بك في موطنك هل لديك أخبار من الملك جون؟

6 ـ وقال الراهب: أحمل أخبارا سيئة يتحتم علي أن أخبرك بها، ولم يتبق من عمري سوى ثلاثة أيام، وبعد ذلك سوف يُقطع رأسي من جسدي إذا لم أرد على أسئلته الثلاثة.

7 ـ فعندما يمتطي الأمير صهوة جواده المطهّم وقد وضع تاجه الذهبي على رأسه، ويسير بين رجاله النبلاء في جو من السعادة والمرح، يتحتم عليّ أن أخبره كم يساوي بالضبط.

8 ـ والسؤال الثاني لا ينبغي عليّ أن أهزأ به وهو: كم من الوقت يستغرق طوافه حول العالم وهو راكب حصانه. والسؤال الثالث الذي لا ينبغي أن أخجل منه بل أخبره في صدق، هو ما الذي يشغل باله؟

9 ـ وقال الراعي يا سيدي ألم تسمع بهذا من قبل؟ إن الأحمق يمكن أن يعلّم الرجل الحكيم سرعة البديهة. أعرني جوادك وكل عدته، حتى أركبه إلى لندن الجميلة وأجيب الأمير عن الأسئلة التي طرحها عليك.

10 ـ فإذا قال لي: الآن أنا أعلو على صهوة جوادي، وتاجي الذهبي فوق رأسي، وحولي جميع نبلائي، وقد ملأنا المرح والطرب، فأخبرني: كم أساوي بالقرش؟ فسوف أرد عليه قائلا:

11 ـ إن مخلصنا المسيح بيع بثلاثين قرشا بين اليهود الأخساء، كما حُكي لك، فأنت تساوي تسعة وعشرين قرشا لأنني أعتقد أنك دونه بقرش واحد.

12 ـ فإذا سألني السؤال الذي لا ينبغي أن يُهزأ به، وهو: كم من الوقت يستغرق طوافي حول العالم وأنا راكب جوادي؟ فسأرد قائلا: ينبغي عليك أن تصحو مع شروق الشمس وتركب الجواد.

وتظل تسير به حتى صباح اليوم التالي عندما تشرق الشمس مرة أخرى، وعندئذ ستكون قد طفت العالم في أربع وعشرين ساعة بكل تأكيد.

13 ـ فإذا سألني السؤال الثالث الذي لا ينبغي أن أخجل منه، بل أخبره بصدق عما يفكر فيه فسوف أقول له: إن أقصى ما أستطيع من القول مما سيضحك، أنك تتصور أنني لست رئيس دير كانتربري، وإن كنت راعي غنمه كما تراني، ولقد جئتك أطلب العفو له ولي.

14 ـ وابتسم الملك وقال إنك ستكون رئيس دير الرهبان والراعي معا. وأجاب الراعي: كلا يا مولاي لا حاجة لذلك وأنا لا أستطيع أن أكتب أو أن أقرأ.

15 ـ إذن أمنحك أربعة جنيهات في الأسبوع من أجل هذه الدعابة التي أمتعتني بها، ولتخبر رئيس دير الرهبان عندما تعود إليه، أنك تحمل إليه العفو من الملك جون الطيب.

النص الشرقي

الملك والفخراني

ذات يوم دعا الملك «بُولاه» وزراءه وقال لهم: سوف أسألكم أسئلة محددة، فإذا أجبتم عنها فسوف أزيد من أجوركم ومن قوتكم. أما إذا فشلتم في الإجابة فسوف أقطع رقابكم. أخبروني عن أشياء ثلاثة:

أولا: كم عدد نجوم السماء؟ ثانيا: كم تحصل الشمس من أجر يوميّ في مقابل ما تمنحه كل إنسان؟ ثالثا: ما الذي يفعله الإله العليّ كل يوم؟ ولما لم يعرف الوزراء الإجابة، طلبوا من الملك أن يمهلهم بعض الوقت فأعطاهم مهلة شهرا.

وكان الوزراء قد تعودوا أن يخرجوا كل يوم خارج مدينة منف وأن يجلسوا في ظل أتون لحرق الفخار، حيث يتشاورون معا. ولاحظهم الفخراني وسألهم عما يفعلونه، فأخبروه بقصتهم، فرد عليهم قائلا: في وسعي أن أجيب عن أسئلتكم، ولكني مشغول بأتوني وليس في وسعى أن أتركه عاطلا. فليجلس أحدكم إليه ويستمر في العمل به. ثم أعطوني أحد ركائبكم لأركبها وزودوني بالملابس. فأعطوه ما طلبه منهم.

وكان هناك في المدينة أمير بعينه ابن ملك ساء حظه وتدهورت أموره، واقترح عليه الفخراني أن يحاول مجتهدا أن يعينه على استعادة عرش والده. وأجاب الأمير: «ليس هناك من سبيل لطرد هذا الرجل خارج المدينة». وأجاب الفخراني: «سوف أخرجه لك منها». وعندئذ بدأ الأمير يعد عدته لاستعادة عرشه.

وذهب الفخراني إلى الملك بُولاه ومثل أمامه وقدم نفسه له بوصفه الرجل القادر على الإجابة عن أسئلته. وقال له الملك: أخبرني إذن عن عدد نجوم السماء. وأحضر الفخراني حقيبة ملأى بالرمل وأفرغها، وقال للملك «هذا هو عدد النجوم تماما. وسأل الملك «وكيف عرفت هذا»؟ وأجاب الفخراني: «لتأمر أحدا بعدّ ذرات الرمل، وعندئذ ستعرف أنني على صواب». ثم استمر الملك في طرح أسئلته فقال: «وكم تحصل الشمس من عملها اليومي الذي تمنحه لكل ابن من أبناء آدم؟» فقال الفخراني: «إنها تحصل على قيراط واحد، حيث إن العامل الذي يعمل من الشروق حتى الغروب يحصل على هذه القيمة». ثم يسأل الملك: وما الذي يفعله الإله العلّي كل

يوم؟ وقال الفخراني: هذا ما سوف أطلعك عليه في الغد».

وفي اليوم التالي اصطحب الفخراني الملك إلى حيث يجلس وزراؤه عند الأتون؛ وقال له: «أما ما يفعله الإله العلي كل يوم فإنه يُذلُّ رجالا ويُعزُّ رجالا، ويغني رجالا، ويفقر رجالا، ولكي أوضح لك هذا القول، فانظر إلى أحد وزرائك وقد جلس للعمل في أتون الفخار، بينما أنا الفخراني المسكين، ألبس رداء الأمراء. وأكثر من هذا فإن هناك من أغلق أبواب منف في وجهك في هذه اللحظة».

وعاد الملك مسرعا إلى المدينة، ولكن أبواب المدينة كانت قد أوصدت دونه. ولما رآه جنود الأمير، أمسكوا به وطردوه خارج المدينة.

4 عنتـــر وعبلــــة

ترتبط سيرة عنترة أو رومانس عنتر (أو عنترة الذي عاش في القرن السادس الميلادي، بالتراث الغربي من زاويتين، أولا: إطلاله إلى الوراء إلى عصر البطولة السابقة، وإلى الأمام إلى عصر البطل الفارس. وكما لاحظ كلاوستون منذ مائة عام مضت، أنها تمثل النموذج الأصلي لقَصص الفروسية الرومانسي الأوروبي[1].

ويحتوي الفولكلور بطبيعة الحال على أنماط كثيرة من الأبطال، وأكثرهم شهرة بطل الحكاية الخرافية الذي ليست له ملامح محددة، ويتطلب وجوده التاريخي على الرغم من أن حياته تعكس الموضوعات الشعبية المعروفة وتشاكلها. ويعد عنترة أحد هؤلاء الأبطال الشعبيين. وربما كانت هذه الموضوعات مميزة للعصر البطولي. وهو مصطلح أدبي شأنه شأن المصطلحات الثقافية الأخرى مثل العصر الحجري البرونزي إلخ. ومن الممكن أن تختلف جغرافيا وعبر آلالف السنين وإن تكن مع ذلك، واسعة الانتشار على مستوى العالم، بل قد ترد في الفولكلور الحديث كذلك. والملاحظ أن المنبع الكلي للموضوعات الشعبية الشرقية والغربية معا، هو ذلك المورد الرئيسي الأوليّ، أي ذلك المخزون

من موروث الشرقين الأدنى والأوسط. وهو تراث الإغريق القدماء والحضارة الهلينستية. وهذا التراث الذي يقصد به بمعنى شامل الموروث الغربي الذي سار عبر الإغريق إلى الرومان. ومن الرومان إلى أوروبا اللاتينية حتى وصل إلينا. وهذا المخزون نفسه، ونعني مخزون الشرق الأدنى والأوسط، نهل واختلط بروافد من مصر والهند والفرس، والرومان المتأخرين والسوريين واليهود والمسيحيين والبيزنطيين والعرب المبكرين، ثم عاد، وأصبح زادا يتزود به هؤلاء جميعا. وفوق هذا كله، كان هناك التراث الإسلامي المركب من كل تلك المركبات. وبناء على ذلك فإن التشابه وارد بين الأبطال الشعبيين في الثقافة الغربية وعنتر في الشرق، على الرغم من أن هذا التشابه لم يدرس كثيرا.

يبدأ تكوين البطل الشعبي بوصفه كائنا له وجوده الفعلي. ولكن في أثناء عملية صناعة البطل تتسع حقائق حياته التاريخية التي تمثل القاعدة التي يبني عليها نموذجه عبر سنوات كثيرة، لكي تتشاكل مع النماذج المقولية البطولية المألوفة والمعدة من قبل. وهذه النماذج مألوفة لدى الشعب من خلال موروثه الشعبي. فهي تحفظ في الأساطير والحكايات والأغاني. وكثيرا ما تتجمع مكونة حكايات طويلة تروى شفاها في أشعار تعرف بالملاحم، أو في شكل نثري يعرف بالساجا Saga، وهي قصص البطولات عند شعوب الشمال، وينتمي هذا القص إلى العصر البطولي. وفي حالة أقدم القَصص البطولي كانت هناك عملية متماثلة تصنع من الأبطال الشعبيين أبطال حضارات أشباها بالآلهة، أو آلهة على نحو ما حدث في الأساطير التي صورت السحر المقدس والمعجزات. وهذه الشخصيات المؤلهة، ونعني بذلك أبطال الملاحم وأبطال الحضارات وأبطال الأساطير، والآلهة، يصطلح على تسميتها أبطال التراث الشعبي، فما يمكن أن يكون قد حدث في الزمن البعيد في الواقع، تحول ببطء إلى حوادث تاريخية مدهشة أو حوادث إلهية في سطور عاشت على مستوى عالمي، وهي سطور تعكس أحوال زمن البداءة المبكر ومعتقداته، وفقا للنموذج القديم، وهو ما زال كذلك؛ فهو البطل المصارع العظيم والمحارب من أجل خير الناس. وكان من الطبيعي أن الأحداث النموذجية عن حياة مثل هؤلاء الأبطال القدامى، هي التي شكلت في عقول من أتوا فيما بعد، الأفكار التي تتوقع من البطل. على

أن السؤال عن كيفية تقولب هذه الأفكار منذ بداية الأمر، لم يجد الإجابة عنه بعد. وهناك عدة فروض للإجابة عن هذا السؤال، منها: أنها تشكلت من السحر والطقوس التي لازمت بداية نشأة المجتمعات. ومنها، أنها تشكلت من دوافع ورغبات ذات أساس سيكولوجي لا تزال لها فعاليتها، إلى غير ذلك من الفروض. ومهما يكن من أمر فإن قصة البطل قد تكونت لهذا السبب أو ذاك.

ونستخلص من هذا أن عملية صنع البطل التي تتم في أي رقعة أو زمان، لابد أن تبدأ من الشعب، فالشعب هو الذي يقبل أو لا يقبل، وهو الذي يذيع أو لا يذيع حكايات عن أبطال بارزين معروفين لديه. هذه الحكايات التي تنتشر على المستوى العشائري أو الوطني، من الممكن أن تنشأ حول ملك (الإسكندر، أرثر، شرلمان) أو حول محارب محلي أو حام للبلاد (فِن أو روبن هود أو دافي كروكيت). وتتميز شخصية عنترة التي تنتمي إلى النوع الثاني على وجه الخصوص، بطرافتها؛ فقد ظلت تتطور فيما يربو على الخمسمائة عام. وفي وسعنا أن نقارن الجزء الأول من سيرة عنتر ونسميه «عنتر وعبلة»، بالأجزاء الأخيرة، لنرى تقدم القصة نحو النموذج البطولي العام، وهي دون شك، ما تزال تنمو وتتغير. ومن ناحية أخرى يبدو أن عملية صنع البطل في الغرب اقتصرت على الماضي بعد أن أوقفت الكتابة ووسائل الاتصال الجماهيري عملية نموها، فشخصية ديفي كروكيت وكذلك شخصية أبراهام لينكولن، على سبيل المثال، لم تجاوزا المرحلة الأولى في دورتهما. أما شخصية روبن هود البطولية فقد وصلت إلى مرحلة المواويل الشعبية ولكنها لم تصل قط إلى مرحلة الملحمة.

وعلى خلاف البطل الفولكلوري العالمي، كان بطل الفروسية نتاجا مميزا لفترة زمنية واحدة، وهي فترة العصور الوسطى، إذ ينشأ عن الأبطال الشعبيين وعن الأبطال الملوك، وله وجوده في الأعمال التي تدور حول المحاربين الأفراد بقدر وجوده في كل التقسيمات الثلاث الكبيرة لأدب العصور الوسطى: وهي مادة روما الملحمية[*]، وتحتوي كذلك على موضوعات إغريقية مثل حرب طروادة وورومانس الإسكندر، ومادة فرنسا وتشتمل على ملحمة شارلمان ونبلائه، ومادة بريطانيا وتحتوي على ملحمة الملك أرثر وفرسانه. وفي ضوء المعلومات الحديثة عما أضافه العرب إلى الغرب في

العلم والأدب، يمكن أن نقترح بحق طبقة رابعة للتراث الملحمي هي مادة العرب[2].

يخرج البطل الشعبي من الشعب. وقد كان لشعب الشرق قبل الإسلام مخزونه الغني الذي يستقى منه، وهو يعيد رواية قصة حياة بطل من الأبطال. وباختصار كان الشرق قبل الإسلام يمتلك فولكلور العالم المتحضر في الوقت الذي لم يكن الغرب يملكه. «وقد كان في حياة عنتر تأثير آخر مثير، ونعني بذلك مبدأ المساواة الذي أتى به الإسلام، حيث إن عنتر قدم الدليل على أن الفرد المخلط يمكنه أن يحقق مكانة من يحمل دما عربيا نقيا»[3].

كان الشعب العربي يعرف كذلك «عنترة التاريخي من خلال شعره ذائع الصيت الذي كان يمثل المصدر الفرعي لأسطورة سيرة حياته»[4]. وقد كانت الموضوعات الرئيسية الثلاث في شعره وتتحدث عن بسالته: حبه لعبلة، الجهود التي يبذلها كي يكون جديرا بها، ثم الموضوعات التي تناسب على نحو ملائم القسم الخاص بعنتر وعبلة في السيرة، وترد فيه. وقد ظهرت في الرواية المتأخرة بصفة خاصة أشعار أقل مستوى من شعره الأصلي، وكان لإحدى قصائده، وفقا للأقوال الشائعة، الشرف في أن تكون بين المعلقات الذهبية السبع التي عُلقت على أستار الكعبة في مكة قبل عصر النبي محمد (عليه السلام). وتشيد السيرة بهذا الموضوع بنفس الدرجة التي تشيد بانتصاراته الحربية، وإن كان شعر المعلقة يخرج عن نطاق الشعر الذي اقتبسناه من السيرة. وقد جمع العلماء شعر عنترة في القرن التاسع، ونخص بالذكر منهم الأصمعي الذي كان أحد رجال حاشية هارون الرشيد.

ومهما يكن من أمر فإن بداية اهتمام الشعب بعنترة لابد أن تكون قد انطلقت من حقائق حياته الواقعية، فقد عرف بانتمائه إلى قبيلة عبس التي تقيم وسط الجزيرة العربية، وأنه ابن أب عربي، وكان عبدا أسود اللون. وقضى لذلك شبابه في العبودية في رعي الأغنام. لكن الصراع بين قبيلة عبس والقبائل المجاورة أعطته الفرصة لعرض قدراته القتالية. ويبدو أنه برّز في حرب داحس والغبراء، ومن المحتمل أنه حصل على حريته نتيجة لذلك. ويظن أنه توفي بعد أن عُمِّرَ طويلا في حوالي ستمائة ميلادية في غارة ضد قبيلة طيء.

من هذا المختصر الذي ينحو إلى التجريد لحياة عنترة، ننطلق إلى هدفنا المنشود وهو عنترة، فعندما عرف عنترة بالشاعر المحارب الذي عاش في القرن السادس، بدأ الشعب ينسج أسطورته من موضوعات مألوفة للأبطال الشعبيين، وكان من الممكن دونها ألا ينسج عنترة بطلا مرموقا بل ألا يصبح بطلا على الإطلاق. لقد نشأت طبقة كاملة من القصاصين المحترفين الذين كانت صناعتهم رواية حكايات عن عنترة وحده، وكانوا في الحقيقة يسمون العناترة وأصبحت سيرة عنترة الأكثر ألفة في التراث العربي المروي كله، ولا يزال الناس يستمعون إليها في البوادي وفي الأسواق.

نعرف من خلال حوار ديني يروى منذ القرن الثامن، أن تأليف السيرة كان مستمرا منذ ذلك الزمن. ففي حوار بين راهب ورجل مسلم، ذكر الراهب أفعال عنترة. وينقلنا ورود ذكر بوهمند الإفرنجي وجودفري بويلون في الحكاية نفسها، إلى فترة ما بعد الحرب الصليبية الأولى، أي في النصف الأول من القرن الثاني عشر. ويلخص ب. هيلر في مداخلته المميزة عن سيرة عنترة في دائرة المعارف الإسلامية هذا الموقف فيقول:

«إن عنترة الأصلي يمكن استعادته باحتمالات اللغة المستخدمة، ففي الجزء الحادي والثلاثين من السيرة يستعرض عنترة وهو يحتضر سيرته البطولية في أغنية التم[*2]؛ فهو يستدعي انتصاراته في البلاد العربية وفي العراق وبلاد الفرس وسوريا، ولكنه لا يذكر عن بيزنطة أو إسبانيا أو فز أو تونس أو برقة أو مصر أو الهند أو السند أو السودان أو أثيوبيا. وهذا العنتر الأصلي يمكن أن يكون ظهر في العراق (بتأثير الفرس، أو ربما على سبيل المحاكاة في الشعر الملحمي الفارسي)، ولا يذكر شعر الوداع الأخير شيئا عن أطفال عنترة، وهو لا يذكر سوى حبه الوحيد لعبلة. وهذا العنتر الأصلي ينبغي أن يسمى بناء على ذلك «عنتر وعبلة». فإذا تتبعنا الحافز الخاص بالنّسب، فإننا نجد الملحمة المتأخرة جعلت لعنترة أجدادا ملكيين في السودان وسلالة ملكية في الجزيرة العربية وبيزنطة وروما وبلاد الإفرنج. وتبع هذا أن الحروب الصليبية وجدت صدى لها ورد فعل في حكاية عنترة، فالصليبيون جاءوا من بلاد الإفرنج في اتجاه بيزنطة وسوريا، في حين أن عنترة خرج من سوريا في اتجاه بيزنطة ومنها إلى بلاد الإفرنج في حملة صليبية معاكسة، ومن هناك عاد بالنصر، إن لم يكن مع ذلك نصرا للإسلام،

فهو على الأقل نصر للمثل العربية والحضارة العربية على أوروبا المسيحية».

أما أفعال عنترة المتأخرة التي لا ترد في قسم «عنترة وعبلة» من السيرة، فهي التي تدفعه للارتباط بملوك العراق والفرس وسوريا؛ فقد نُصب وصيا على الملك السوري الجديد القاصر، وهو في حد ذاته يجعله الحاكم الفعلي. ومن هنا أصبح على اتصال بالإفرنج، حليفا في بعض الأحيان، وعدُوّا في أحيان أخرى، ثم على اتصال بالبلاط البيزنطي، وكانت سوريا تابعة له. وقد ساعد عنترة مسيحيي بيزنطة كما أنهم بدورهم أكرموه وبجلوه. ثم قادهم، فيما بعد، لحرب الإفرنج والإسبان، ولما قمع بوهمند الإفرنجي روما، قتله عنترة وحرر روما. وفي حملة انتقامية ضد السودانيين رحل عنترة إلى أفريقيا إلى بلاد النجاشي، حيث اكتشف أنه جد أمه زبيبة. كما أدار معارك في بلاد الجن. وعلى الرغم من أن عنترة لم يكن له أبناء من عبلة، فقد كان له عدة أبناء من زيجات سرية وعلاقات غرامية، وكان من بين أبنائه ابنان مسيحيان، أحدهما ولد له من زواجه بأخت ملك روما، ولم يكن هذا الابن سوى قلب الأسد، المحارب الصليبي، أما الابن الثاني فكان ابنه من أميرة إفرنجية، وهو جودفري بويلون، قائد الحملة الصليبية الأولى. وعند موت عنترة على نحو ما يوصف في قسم عنتر وعبلة ينتقم له ابناه، ثم يعودان إلى أوروبا.

ظهرت سيرة عنترة باللغة العربية في بداية القرن التاسع عشر في اثنين وثلاثين جزءا صغيرا. وينتهي كل جزء عند موقف مشوق ليتصل به الكلام في الجزء الذي يليه على نحو ما يحدث في ألف ليلة وليلة. وقد ترجم تريك هاملتون مختصرا للجزء الأول من السيرة، وهو الجزء الذي سميناه «عنتر وعبلة» 1819 ـ 1820. وفي 1881 ضم كلاوستون خلاصة ترجمة هاملتون في كتابه الإنجليزي «أشعار عربية للقارئ الإنجليزي»، أي أنه قدَّم ملخصا للملخص. وقد اتخذنا من كتاب كلاوستون أساس المختارات التي نقدمها[*3] مع تركيز على بعض الفقرات وحذف بعضها الذي يتضمن الكثير من الأشعار[5].

«عنتر وعبلة»

خرج عشرة فرسان من قبيلة عبس في غارة، فكانوا يسافرون في الليل

ويختبئون في النهار. وعندما وصلوا إلى واد يقع بين تَلَّيْن، فوجئوا بقبيلة بني جديلة التي تتباهى بشجاعة فرسانها، فتجنبوا أن يدخلوا معها في معركة مكشوفة. وبدلا من ذلك رحلوا إلى أرض معشبة حيث أبصروا عددا كبيرا من الجمال ترعاها أمة جميلة سوداء مع ابنيها، فأسرهم رجال عبس وساقوا الجمال أمامهم ثم واجهوا محاربي بني جديلة وهزموهم.

عندما عادوا إلى ديارهم، جلسوا وقسموا الغنائم فيما بينهم وكان أحدهم واسمه شدّاد قد وقع في حب المرأة السوداء واسمها زبيبة، فأخذها من نصيبه هي وولديها جرير وشيبوب وترك بقية الغنائم للآخرين.

ومع مرور الزمن وضعت زبيبة ابنا أسود البشرة ولكنه كان يشبه أباه شداد. وسعد شداد بابنه وسماه عنتر. وكان عنتر يساعد أمه في رعي الماشية. وكان كلما كبر لفت الأنظار إليه بقوته وشجاعته. فلما بلغ التاسعة قتل ذئبا كان يطارد الشياه، وبعد ذلك مباشرة قتل أسدا، وأصبح عنترة فارسا متمرسا وعلم نفسه كيف يرمي الرمح دون أن يخطئ الهدف.

وكان لزهير ملك قبيلة عبس، أبناء عديدون. وكان لكل منهم مائتان من العبيد وكان شاس أكبرهم سنا ووريث أبيه، وكان أحب العبيد إلى شاس عبد متنمر يدعى داجي.

وذات يوم كان فقراء القبيلة والأرامل واليتامى يسوقون قطعانهم إلى مورد المياه لترتوي. ولكن داجي استولى على البئر واحتكرها لقطعان سيده، وأساء معاملة سيدة عجوز توسلت إليه أن يدع شياهها ترتوي. وعندما اقتربت امرأة عجوز أخرى من المياه، ضربها، فسقطت على الأرض وقد تمزقت خرق ملابسها بينما كان العبيد يسخرون منها.

وعلى الرغم من أن عنترة كان لا يزال صبيا، فقد جرى إلى داجي وصرخ في وجهه وقال له: «ويلك يا ولد الزنا وتربية الخنا، ما هذه الفعال الرديئات يا ابن العاهرة. أتهتك ستر النساء العربية»[(4*)]. وصفع داجي عنترة على وجهه. ومكث عنترة لحظة استرد فيها حواسه، ثم جرى إلى العبد وطرحه أرضا. ثم رفعه مرة أخرى ورماه إلى الأرض فسقط وكأنه كتلة من اللحم. ثم زأر عنترة في غضب كما يزأر الأسد، فالتف حوله بقية العبيد، وكان عليه أن يدافع عن نفسه قدر استطاعته. ومن حسن حظه أن الأمير مالك، أحد أبناء الملك زهير، كان يمر مصادفة بهذا المكان، فلما رأى

عنترة على هذا النحو وعده بحمايته. وعندما سمع الملك زهير بأفعال عنترة، باركه وأشاد بأفعاله وقال: «والله ليكونن هذا العبد شديد الغيرة على النسوان ويصير شجاعا قرما مناعا»[5*]. وعندما عاد عنترة إلى بيته تجمعت حوله النسوة وصرن يطرين عليه، وكانت من بينهن عبلة ابنة عمه مالك.

فجــر الحــب

وكانت هناك فرص كثيرة يرى عنترة من خلالها عبلة، إذ كان أحد واجباته أن يخدم نساء أبيه وعائلات عمه، بتقديم لبن الجمال إليهم بعد تبريده في النسيم البارد. وكانت من عادة نساء العرب أن يشربن اللبن في الصباح وفي المساء. وذات يوم دخل عنترة خباء عمه مالك عندما رأى أم عبلة تمشط لها شعرها الطويل المنساب، وتشبعت روح عنترة بصورة جمالها. وعندما أخلد إلى السكينة عبر عن مشاعره وجعل يقول:

وجـنـاء تـسـحـب شـعـرهـا مـن طـولـه
وتـغـيـب فـيـه وهـو لـيـل أسـحـم
فـكـأنـهـا فـيـه نـهـار طـالـع
وكـأنـه قـد بـان لـيـل مـظـلـم
وكـأنـه بـدر بـدا فـي تـمّـه
وبـنـوره الـوهـاج تـخـفـى الأنجـم
زادت مـحـاسـنـهـا عـلـى مـن حـولـهـا
فـسـعـى لخـدمـتـهـا الجـمـيـع ويمـمـوا
وتمـتـعـوا بـجـمـالـهـا وكـمـالـهـا
وتـلـذذوا فـي حـسـنـهـا وتـنـعـمـوا
لا تـعـذلـونـي فـي هـواهـا إنـنـي
مـضـنـى وقـلـبـي فـي هـواهـا مـتـيـم
إنـي سـأكـتـم حـبـهـا فـي مـهـجـتـي
حـتـى أرى لـي الـسـعـد يـومـا يـخـدم[6*]

وفي مناسبة أخرى، أبصر عنترة عبلة تلعب وتغني بين أترابها في عيد من الأعياد فوقف عنترة يخاطبها بتلك الأبيات البليغة:

رمــت الــفــؤادَ مــلــيــحــةُ عــذراء
بــســهــام لحــظ مــا لــهــن دواء
مــرت تــريــد الــعــيــد بــين نــواهــد
مــثــل الــشــمــوس لحــاظــهــن ضــيــاء
فــاغــتــالــنــي سَــقــمــي الــذي فــي بــاطــنــي
أخــفــيــتــه فــإذا بــه وضــاء
خــطــرت فــقــلــت قــضــيــبُ بــان حــركــت
أعــطــافــه بــعــد الجــنــوب صــبــاء
نــفــرت فــقــلــت غــزالــة مــذعــورة
قــد راعــهــا وســط الــفــلاة ظــبــاء
ســفــرت فــقــلــت الــشــمــس حــقــا وجــهــهــا
لمــا بــدا لــلــنــاظــريــن ضــيــاء
وبــدت فــقــلــت الــبــدر لــيــلــة تمــه
قــد قــلــدتــه نجــومــه الجــوزاء
وتــبــســمــت لاح الــضــيــاء بــثــغــرهــا
وبــدا لــداء الــعــاشــقــين شــفــاء
الــلــه أكــبــر يــا لــهــا مــن ظــبــيــة
تــســبــي الــعــقــول لــطــيــفــة حــســنــاء
ســجــدت تــعــظــم ربــهــا فــتــمــايــلــت
لجــمــالــهــا أعــطــافــهــا الــعــظــمــاء
يــا عــبــل مــثــل بــهــاك إنــي لا أرى
بــشــعــائــل نــارت بــهــا الأرجــاء
إن كــان يــســعــدنــي الــزمــان وإن أبــى
فــلــهــمــتــي فــي صــرفــه إزراء(7*)

لقد تسلط الحب على روح البطل. وكل المعارك التي قام بها بعد ذلك بوصفه محاربا، كان يقوم بها ويؤديها بهدف أساسي، وهو أن يرفع معه قدره فوق ظروف ميلاده، وبذلك يصبح جديرا بابنة عمه. ولكن عنترة كان له بالفعل أعداء ألداء في قومه، وكان هؤلاء يبحثون عن كل الوسائل التي يحرمونه بها من حبه الملك زهير. وذات يوم، بينما كان يتجول بعيدا عن

مضارب قبيلته وهو يطيل التفكير في أحواله البائسة وفي حبه لعبلة قال الأبيات التالية:

أتـــانـــي طـــيـــف عـــبـــلـــة فـــي المـــنـــام
وقـــبـــلـــنـــي ثـــلاثـــا فـــي الـــلـــثـــام
وودعـــنـــي فـــأودعـــنـــي لـــهـــيـــبـــا
وأطـــفـــئـــه فـــيـــشـــعـــل فـــي الـــعـــظـــام
ولـــولا أنـــنـــي أخـــلـــو بـــنـــفـــســـي
وأطـــفـــئ بـــالـــدمـــوع لـــظـــى غـــرامـــي
لَـــمـــت جـــوى ولا أشـــكـــو لأنـــي
أخـــاف عـــلـــيـــك يـــا بـــدر الـــتـــمـــام(*8)

الغزوات المبكرة

دعا الملك زهير شدادَ والد عنترة مع غيره من المحاربين، لكي يصحبوه في غارة ضد القبيلة المجاورة، أما عنترة فقد تركوه وراءهم ليكون في رعاية النساء. وهنا نصل إلى وصف حَيّ للهو النساء في تلك الأيام. على نحو ما يقول النص التالي:

«ولما خلا الحي من الفرسان وتخلفت البنات والنسوان والعبيد والغلمان، صنعت سُميَّة زوجة الأمير شداد وليمة للنساء على غدير ذات الأرصاد، وذبحت فيها الأغنام وروجت الطعام وروقت المدام، وغنت بها الجواري والمولدات، وحملت الإماء والعبيد الآلات، ورقصت البنات العربيات، وكان عنترة من جملة الغلمان، وهو بهذا القصد فرحان لأن عبلة كانت من جملة البنات والنسوان، وقد خرجت وهي تزهو بينهن كأنها الغزال العطشان وعليها الحليّ والحلل المختلفات الألوان... هذا وقد أخذت النسوان في شرب المدام واللهو والطرب حتى كاد البر بهم يلعب، وإذا هم بخيل طلعت عليهم من بين الجبال فتبينوهم، وإذا هم مائة فارس من قحطان قد أدركتهم على الغدير وقصدت النسوان فساقوا الجميع بالذل والهوان»(*9).

ولم يكن عنترة بطبيعة الحال الرجل الذي يقف متفرجا ويسمح للعدو بأن يسلب عهدته الحسناء أمام عينه. لهذا اندفع، وكأنه يمارس لعبة من لعب الأطفال، وباغت الفارس الذي أسر عبلة وطرحه أرضا، فصار كالكتلة

التي لا شكل لها ولا حياة فيها، ثم استولى على حصانه وسلاحه. وبعد أن فعل كل هذا، باغت بقية الأعداء، واستطاع بيد واحدة أن يصنع العجائب، بحيث أن الذين أفلتوا من ضربته القاضية بسيفه، هرولوا في فزع تاركين وراءهم نساءهم والغنيمة التي كانوا قد غنموها من قبل. لقد كانت هذه أول معركة حربية يخوضها عنترة وعندما عاد الملك زهير وسمع عن شجاعته، أثنى عليه على الملأ وخلع عليه رداء الشرف.

وبعد ذلك بوقت قصير، أرغم عنترة جماعة من قبيلة معادية كانت قد أحاطت بأبناء الملك وخدامهم، على الهرب.

وكان من الطبيعي أن يكون الملك ممتنا للخدمات الطيبة التي قدمها عنترة. وفي حفل أقيم احتفالا بهروب أمراء بني قحطان، أجلس الملك عنترة بجواره، وأمر شداد ألا يستخدم ابنه بعد ذلك في حراسة الجمال، بل يسمح له بأن يحتل مكانه بين محاربي القبيلة.

عنترة وأم عبلة

اشتهر عنترة بعدئذ بشعره بقدر ما اشتهر بقوته وشجاعته، وكما كان متوقعا خطا خطوات جديرة بالاعتبار، لكسب حب محبوبته عبلة. على أنه كان في عيني والد محبوبته مالك، أبعد ما يكون عن الزوج المناسب المرغوب فيه، بل إن أم عبلة سخرت من شعره الغزلي ومن عشقه لابنتها. وذات يوم سألته في استهزاء أن يسمعها بعض أشعاره في عبلة، فقال:

أتـــانــي طـــيـــف عـــبـــلـــة فـــي المـــنـــام
وقـــبـــلـــنـــي ثـــلاثـــا فـــي الـــلـــثـــام
وودعـــنـــي فـــأودعـــنـــي لـــهـــيـــبـــا
وأطـــفـــئـــه فـــيـــشـــعـــل فـــي الـــعـــظـــام
ولـــولا أنـــنـــي أخـــلـــو بـــنـــفـــســـي
وأطـــفـــئ بـــالـــدمـــوع لـــظـــى غـــرامـــي
لمـــتُ جـــوى ولا أشـــكـــو لأنـــي
أخـــاف عـــلـــيـــك يـــا بـــدر الـــتـــمـــام
ألا يـــا عـــبـــل كـــيـــف (لـــي) الـــتـــســـلّـــي
وذقـــت هـــواك مـــن قـــبـــل الـــفـــطـــام

وكـــيــف أروم قـــربـــي مـــنـــك يـــومـــا
وحـــول خـــبـــاك أســـد فـــي الآجـــام
وحـــق هـــواك لا داويـــت قـــلـــبـــي
بـــغـــيـــر الـــصـــبـــر يـــا بـــنـــت الـــكـــرام
إلـــى أن ارتـــقـــي رتـــب المـــعـــالـــي
بـــطـــعـــن الـــرمـــح أو ضـــرب الحـــســـام
نـــســـيـــمَ الـــصـــبـــح حـــين تمـــرَّ فـــانـــزل
بـــعـــبـــلـــة حَـــيـــهـــا بـــشـــذى الـــســـلام
وبـــلـــغـــهـــا شـــديـــد الـــشـــوق عـــنـــي
إلـــيـــهـــا فـــي الـــصـــبـــاح وفـــي الـــظـــلام
وصـــف حـــالـــي ومـــا يـــلـــقـــى فـــؤادي
وقـــلـــبـــي قـــد أضـــرّ بـــه ســـقـــامـــي
أحـــامـــي عـــن هـــواك بـــطـــول عـــمـــري
وهـــل لـــهـــواك أن يـــرعـــى ذمـــامـــي
وأبـــذل مـــهـــجـــتـــي فـــي كـــل صـــعـــب
إذا مـــا الـــنـــقـــع خـــيّـــم كـــالـــظـــلام
فـــإمّـــا أن أشـــال عـــلـــى الـــعـــوالـــي
وإمـــا أن أعـــدّ مـــن الـــكـــرام[*15]

عنترة يثير غضب أبيه

كانت زمرة من نساء عبس ذوات الحسب، في طريقهن مع خدمهن لحضور زواج عند قبيلة صديقة، وكان لعنترة شرف مرافقتهن لحمايتهن. وهناك على بعد في الطريق، هاجمهن بعض قطاع الطرق. وصرخ فيهم عنترة وقال: «أقسم بعبس أني أنا العاشق لعبلة إلى الأبد»، وأعمل سيفه بين الأعداء مما أدى إلى قتل الكثير منهم وفر الباقون في هلع. ثم أتاحت عودة النساء من حفل الزواج مزيدا من الفرص لعرض شجاعته الفائقة. وبعد أن واجه جماعات معادية متعددة وقتل الكثير من فرسانهم المشهورين، أوصل نساء عبس إلى مضاربهن في أمان وسرور. وكان من الطبيعي أن يتهلل شداد لذيوع صيت ابنه العبد، بل إنه أعلن رغبته في رفع شأنه على

الفور، ولكن أخاه مالكا كان يثنيه عن ذلك، ويهدده بأنه سوف يهجر القبيلة إذا ما رفع عنترة فوق مستوى العبيد. وذات يوم تجرأ عنترة بعد شربه الخمر ومثُل أمام أبيه وطالب بمرتبة شيخ من شيوخ العرب. وثار شداد لجرأته وهدد بقتله. وخرج عنترة من عنده باحثا عن المشورة والحماية لدى صديقه الأمير مالك الذي أعرب عن أسفه لاندفاعه في إثارة غضب أبيه على هذا النحو. وكانت في إجابة عنترة تعبير عن فطرته فقال:

«يا مولاي ما حملني على هذا إلا الهوى الذي هدّ منّي الحيل والقوى وألهب قلبي بنيران الجوى. ولعبت بعقلي طاسات الهوى، وإلا ما كان جرى عليّ ما قد جرى، وما قد تم في هذه الليلة عليّ من الافترا، بل كنت كتمت هواي ودائي حتى يدنو موتي ووفاة أعدائي. والذي أعلمك به يا مولاي أني أحب عبلة ابنة مالك ابن قراد، وهي التي منعت من عيني لذيذ الرقاد ورمتني بالسهر والسهاد. وما طلبت من أبي أن يلحقني بالنسب إلا من أجلها، حتى يكون لقربي لها سبب، وألقي نفسي من أجلها في بحار العطب، وأملأ عين أبيها بالفضة والذهب وأجلب له المال والكسب، وأقول لنفسي لعلي أن أنال منها أرب، أو أهلك في بعض أحياء العرب وأستريح من تعلل القلب والتعب»[*11] ، وتدفقت الدموع من عيني البطل معبرة عن آلامه وعواطفه.

وحاول الأمير مالك أن يخفف من أحزان عنترة، بأن وعده بأن يستخدم نفوذه في معالجة الأمر، ويمنحه الحماية. وأمضى عنترة الليل كله مع الأمير مالك.

كيف حصل عنترة على فرسه الأبجر

عند الفجر انسل عنترة من خيمة الأمير مالك، وامتطى صهوة جواده وظل يسير في الصحراء. وتصادف أن تقابل مع أربعين رجلا من بني عبس، فانضم إليهم واستمروا جميعا في السير حتى وصلوا إلى أرض قحطان. وهناك أبصروا عددا كبيرا من القطيع الذي كان يرعى بجوار بعض الخيام العالية، كما أبصروا سرادقا سامقا. وكانت الخيول تجري حول هذا المكان كما كانت الجمال ترعى عنده، ولم يكن يدور بخلد الناس أن الحظ سوف ينقلب ضدهم؛ فبينما كان رفاق عنترة مشغولين في سلب

الخيام، كان عنترة يطرد القطيع بعيدا، ويتقدم في سيره إلى مسافة أبعد، «عندما رأى فارسا قد ركب على ظهر مهر أدهم كأنه الليث القشعم، وكان هذا المهر يشبه لون الظلام أو كأنه قطعة من الغمام، وكانت أم المهر يقال لها نعامة، وأبوه يقال له واصل، همته همة يقظان وخفته خفة غزلان، وصهيله جرس، وقوائمه كأنها حرس وعيناه ياقوتتان ويداه جناحان»[*12]. ولما رأى عنترة جمال الفرس، تمنى بشغف لو امتلكه. فأخذ يقتفي أثر الراكب إلى أن غربت الشمس. وعندئذ توقف الفارس الغريب، فاقترب منه عنترة وقدم عرضا لشراء المهر الجميل. ولم يقبل الفارس أن يبيعه إلا مقابل أن يرد له عنترة ما سلبته قبيلة شداد من قبيلته؛ ولم يتردد عنترة في قبول هذا العرض. وبهذا أصبح مالكا للأبجر، ذلك الجواد الشهير الذي أنجز من فوق ظهره معاركه الكثيرة الرائعة.

مهاجمة حفل عرس

وفي اليوم التالي قابل عنتر ورفاقه موكب عرس كثير العدد، وكان هودج العروس مزدانا على نحو ثري بالمخمل، وقد توج قمته هلال من الذهب، وكان في المقدمة الفتيات العذارى والعبيد بملابسهم ذات الألوان الزاهية، ومن خلفهم فرقة من الفرسان يبلغ عددها سبعين فارسا. وهاجم العبسيون الموكب وأخذوا العروس أسيرة. وبينما كانوا يتناقشون حول نصيب عنترة من غنائم الغارة، وصل والد العروس يزيد بن حنظلة وكنيته «شارب الدماء» ومعه ثلاثمائة محارب. وفي لحظة اصطدمت السيوف واهتزت القلوب. وتطايرت الرؤوس كالكرات والأيدي كفروع الأشجار. واندفعت طيء تجاه رجال عبس وهاجمهم شارب الدماء بشجاعة، وأطلق سراح ابنته، وانسحب العبسيون الذين لم تصمد أرواحهم أمام النار ولاذوا بالفرار في الصحراء. ولكي يعاقب عنترة رفاقه على خستهم، انسحب بعيدا وبقي متفرجا سلبيا في المعركة. ولكنه عندما رأى رجال عبس وقد استسلموا، هاجم طيء وقتل بيده ثمانين من أشجع محاربيهم، أما الباقون بمن فيهم شارب الدماء وابنته، فقد انتشروا في السهل وهربوا. وما كاد بنو عبس يعودون أدراجهم بعد اقتفاء رجال طيء، حتى وصل «ناقد بن الجلاح»، زوج العروس، بحشد من الفرسان، وبدأت معركة حامية في الحال. وانهزمت قبيلة عبس وكادت

تنسحب عندما حَوّل عنترة مصيرها بعد أن واجه ناقدا وصرعه.

في هذه الأثناء أرسل الملك زهير عبدا ليجدّ في البحث عن عنترة. وعاد العبد حاملا خبر اشتباك عنترة مع قبيلة معن في معركة قاتلة: وفي الحال، أرسل الملك ابنه الأمير مالك، رسولا من عنده وبرفقته جماعة من المحاربين ليكونوا في عون عنترة. ولكنهم، عندما وصلوا إليه، كان العدو قد اختفى. وعندئذ عاد عنترة والأمير مالك إلى بلادهم. وجاء الملك زهير وزعماء القبائل لمقابلة عنترة وهنأوه بسلامة العودة. وبعد أن حيّا الملك عنترة بلطف، خفَّ عنترة إلى أبيه شداد، وطلب منه العفو. أما قبيلة عبس أجمعها، فقد امتلأت إعجابا ببسالة عنترة.

مكائد ضد البطل

على أن العجوز مالك، عم عنترة، وزمرته، عزموا، أكثر من أي وقت مضى، على أن يحولوا بين عنترة وزواجه من عبلة. واقترح مالك على ابنه عمرو، بدافع حقده على عنترة بسبب التكريم الذي خلعه الملك عليه، وبسبب ما أخذه عليه من جرأة بتصريحه لعشقه لابنته، أنه لابد أن يقتل عنترة. ودبر أعداء آخرون لعنترة أشد جبنا من العم وابنه، مؤامرة لكسر عنترة، وناشدت الأم زبيبة ابنها، ببساطة قلبها، أن يرجع إلى عمله القديم في رعي القطعان والجمال، وألا يعرض حياته أكثر من ذلك للخطر، ورد عليها عنترة مبتسما بأنه ينبغي عليها أن تكون فخورة بابنها.

واعترض الأمير شاس (الذي لم ينس قط لعنترة قتله لعبده الوقح) على والده إزاء هذا العطف الذي يوليه لعنترة، كما اشتكى إليه جرأته في الجهر برغبته في الزواج بعبلة.

وأنب الملك ابنه على مشاعره المريضة التي تفضح نفسه إزاء البطل، إذ ربما قدر له الله أن يكون أهلا للرعاية الإلهية.

وعندما سمع عنترة هذا الحديث اقتحم الخيمة عليهما وأنشد:

نـــيـــران عـــبـــلـــة يـــا نـــديمـــي
قـــد أزالـــت ظـــلام لـــيـــلـــي الـــبـــهـــيـــم
يـــتـــلـــظـــى لـــهـــيـــبـــهـــا فـــي فـــؤادي
وجـــوى الـــعـــشـــق ســـاكـــن فـــي صـــمـــيـــم

أضـرتـهـا بـيـضـاء تـهـتـز كـالـغـصـن
إذا مـا ثـنـاه مـر الـنـسـيـم
كـلـمـا ذقـت بـاردا مـن لمـاهـا
خـلـتـه فـي فـمـي كـنـار الجـحـيـم
ذقـت مـن ريـقـهـا ألـذ مـن الـشـهـد
إذا مـازجـتـه بـنـت الـكـروم
مـلـك تـقـصـد المـلـوك إلـيـه
لـتـؤدي مـراسـم الـتـسـلـيـم
وإذا سـار سـابـقـتـه المـنـايـا
فـيـبـيـد الأعـداء قـبـل الـقـدوم
فـاعـدلـوا إن أردتم أو فـجـوروا
أنـتـم جـنـتـي وأنـتـم جـحـيـمـي
واسـمـحـي بـالـوصـال يـا نـور عـيـنـي
وأنـقـذيـنـي ممـا أطـال هـمـومـي

وشكر الملك عنترة بلطف على أشعاره، واعترف له بعدم مقدرته على مكافأته المكافأة التي تناسبه، وقال «لقد أوليتني وحق رافع السماء جميلا لا أقدر مجازاته»(*13).

وقدم لعنترة عبدتين عذراوين وجميلتين مثل البدر، وصفين من اللآلئ النادرة وبعض الطيب. وخرج بعد ذلك عنترة.

وعندما اقترب من خيام بني قراد، وجد الرجال غائبين ووجد النسوة يجلسن لحكاية غزوة من غزواته، وكانت عبلة أكثرهن شغفا بالاستماع. ولما كانت عبلة تحب عنترة لشجاعته وفصاحته معا، فقد كانت شديدة التأثر بأحزانه التي كانت جلية على مظهره، وقالت له: «ويلك ابن زبيبة، وأين نصيبي من الغنيمة، أما كان لي عندك قدر ولا قيمة، فقال لها، يا روحي وحياة عينيك، وهو قسم عليّ عظيم، إن عبدك ما ملك منها عقال بعير، بل الكل وصل إلى أبيك وأعمامك، وروحي وما أملك قدامك. ثم ناولها العقد الجوهر الذي أعطاه له الملك زهير وأعطاها المولدتين والطيب. ثم قال لها: يا عبلة خذي هذا الطيب، ولو كنت في غنى عنه، لأن طيبك أوفى وريقك أشفى، فضحكت من كلامه»(*14).

عنترة ينقذ أباه وأعمامه

وعلم عنترة أن أباه شدادا وأعمامه رحلوا في اقتفاء أثر فارس من الفرسان يدعى قيس، وكان قد سلب قبيلتهم بعض القطيع، وفي الحال امتطى صهوة جواده الأبجر، وخف لمساعدتهم، وهناك وجد أباه وأعمامه مقيدين على نحو مخز في خيولهم بعد أن وقعوا في أسر قيس. وكان يصرخ فيهم قائلا: «يا أولاد الخنا قد حل بكم التدمير»(*15). وعندما سمع قيس أن عنترة جاءه متحديا، وخز حصانه وجاء إلى عنترة وخاطبه بشعره قائلا:

أنا ابن ضبيان تخشى سطوتي العرب
وأكشف الكرب والهندي مختضب
والنقع قد ثار والأبطال صائلة
والأرض من شدة الأوهاج تنقلب
لا خير في المرء قد تدنو منيته
وما له همة تجْلى بها الكرب

ورد عنترة على هذه الأبيات المعبرة عن الغطرسة وقال له: «اسكت ثكلتك أمك»، ثم أنشد:

إن كنت عبدا فروحي حرة خُلقت
أو أسود اللون فالهنديّ لي حسب
وفي اللقا عنتر العبسي تعرفني
وصارمي من دم الأبطال مختضب
وفي الوغى أهزم الأبطال قاطبة
وأترك الدم في الهيجاء ينسكب
واليوم ألقيك في البيداء منقلبا
ملقى طريحا وقد أودى بك العطب
وأترك الخيل في الأقطار شاردة
خوفا وفرسانها في النقع تضطرب(*16)

وما إن قال هذا، حتى سحب سيفه من غمده وضرب قيسا بين عينيه، ورمى بخوذته وبعثر أعيرته، وأخذ يُعمل سيفه فيه حتى أوصله إلى أفخاذه بل أوصله إلى ظهر فرسه، ثم صرخ قائلا: أيها البائس، لن يقف في وجهي

شيء، ما زلت عاشق عبلة[*17]. ثم اقتحم قبيلة ذبيان فهرب رجالها فزعين تاركين غنائمهم وراءهم.

فارس بني مازن

وعاد العبسيون إلى ديارهم منتصرين، وجاءهم الملك زهير لمقابلتهم عند غدير ذات الأرصاد، حيث أقام عيدا احتفالا بانتصارات عنترة. وكان هناك وسط الحفل فارس أنيق من قبيلة مازن ومعه مائة من أتباعه. وقد جاءوا راكبين إلى السرادق الملكي يناشدون الملك المساعدة. وكان هذا الفارس هو «حصن» أخا الأمير مالك في الرضاعة. وأخبر الملك بأنه يحب نعمى الجميلة ابنة خاله نجم منذ زمن طويل. وكان هناك زعيم ثري يسمى «عوف» جاء ليخطب ابنة الخال نعمى، وخاف أبوها أن يسيء إلى هذا الفارس الصنديد إذا ما رفض يده. على أن حصنا حسم الأمر في مصلحته عندما قرر مواجهة عوف، وإرغامه على الترجل عن حصانه، ولم يُبْقِ على حياته إلاّ بعد أن تشفع له خاله الذي ذكّره بأن عوفا قد أكل خبزه وكان يعيش في حماه. على أن حصنا لم يترك عوفا إلا بعد أن حلق له شعره وتركه يرحل مقهورا. وإلى هنا كان كل شيء على ما يرام، ولكن حصنا لم يكن لديه ما يدفعه مهرا لابنة خاله، ومن ثم فقد رحل ليحصل على هذا المهر بالطريقة المألوفة آنذاك، وهو أن يقوم بالإغارة على بعض القبائل. وعاد حصن بثروة طائلة ليجد «عساف»، الزعيم القوي، قد تقدم لطلب يد فتاته من أبيها، ولكن الأب رفض. عندئذ جمع عساف كل محاربي قبيلة قحطان وسلك سبيله لمهاجمة القبيلة. ولهذا لاذ حصن بالملك زهير ليستنجد به في صد الغارة المهددة لقبيلته.

ولم يكد حصن يكمل قصته حتى هب عنترة واقفا وقدم خدماته في حماسة، وعندئذ أمر الملك زهير ابنه الأمير مالك أن يرحل بصحبة البطل عنترة على رأس ألف من المحاربين المختارين.

كيف عثر عنترة على السيف دامي؟

«ولم يزالوا سائرين، وهم في سيرهم مجدين، ولما يريده الله تعالى من سعادة عنتر أنه عدل عن الطريق وقصد إلى واد عميق. فنظر إلى فارسين

يتقاتلان وقد سطا أحدهما على الآخر، فعرج عنتر عليهما حتى قرب منهما، ونظر إليهما وصاح فيهما: على مهلكما يا وجوه العرب، وأخبراني هل لقتالكما سبب؟ فلما سمع الفارسان كلام عنتر افترقا وسار أحدهما إليه وقال لعنترة: أنا مستجير بك، وأجرني يا همام.

فقال له: أطلعني أيها الغلام على جلية حالك واصدقني في مقالك. فقال ذلك الفارس: اعلم يا أخا العرب أني أنا وهذا الفارس أخوان من أم وأب، وكنّا روحين في جسد، وما كان بيننا لا غم ولا نكد. وأن أخي هذا الكبير، وأنا دونه، وكان أبونا أميرا كبيرا يقال له الحارث بن تبع سيد بني حمير، وكان جدنا الأمير تبع حسان ملك العصر والأوان سيدا على كل من نهى وأمر.

وكان له ناقة مليحة الصفات زائدة الحسن سريعة الحركات، وكان مولعا بها من دون الجمال، ولما عرضوا عليه الجمال لم يرها مع الأموال، فسأل عنها الرعيان، فقال له بعض العبيد، يا مولاي أنا أخبرك بما كان منها، وذلك أنها شردت يوما من المرعى، فسرتُ خلفها في الطلب إلى أن أبعدت في البر وقد تعبتُ ومللت، فانحنيت إلى الأرض، وأخذت حجرا أسود على صفة الصوان وهو شديد اللمعان ورميت به الناقة، فجاء في جنبها فمزق بطنها وخرج من الجانب الآخر، فوقعت الناقة، على الأرض وقد تبددت أمعاؤها طولا وعرضا، وماتت وبقي في جنبها خرق هائل المنظر والحجر بجانبها ملطخ بالدم، فقال جدي للراعي: سر قدامي وأرني الناقة، فأخذه الراعي وسار حتى أراه إياها ميتة والحجر بجانبها. فأخذ جدي الحجر وتميزه بخبرته فعرف أنه صاعقة فأخذه وعاد وأحضر أهل الصناعة الجياد، وأمرهم أن يصنعوا له من ذلك الحجر سيفا قاطعا .فأخذه بعضهم وصنعه صنيعة محكمة، وأتى به إلى جدي، فلما رآه أعجبه، فخلع عليه. فعند ذلك وصف الحداد ذلك السيف، وقال: سيف حديد ماله من يغالبه، مليح ولكن أين للسيف ضاربه.

فلما سمع جدي ما قاله الحداد، أخذ السيف وضربه به فأطاح رأسه عن بدنه وقال له: أنا الضارب، وأي ضارب، ثم إن جدي ترك السيف في خزائنه وسماه الظامي، وما زال عنده إلى أن شرب كأس الانتقال، فورثه بعده أبي، ولم يزل عنده إلى أن أحس بوفاته، فدعاني إليه، وقال لي: يا

ولدي إني أخاف عليك من أخيك بعدي أن يحتاط بالسيف مع الأموال، فقلت له: يا أبي وكيف تكون حيلتي؟ فقال: خذ يا ولدي هذا السيف وأنكره من أخيك، وإذا أنا قضيت نحبي، وجار عليك أخوك، فاذهب أنت بهذا السيف إلى من أردت من الملوك، فإنه يغنيك بسببه. فأخذت ذلك السيف وخرجت به إلى الصحراء في هذا المكان فدفنته ورجعت إلى أبي، وأقمت عنده حتى قضى نحبه، فدفناه، وبعد ذلك احتوى أخي هذا على ما كان من الملك والأموال وافتقد ذلك السيف، فلم يجده، فصعب عليه وزاد غضبه وقبضني من طوقي وجرّد حسامه عليّ، وسألني عنه فأنكرته، فلم يصدقني وأراد أن يقتلني. فلما رأيت منه ذلك، وأخبرته بما فعلت فقال لي: أحضره وإلا أقتلك. فقلت له: يا أخي اركب معي وأنا أريه لك. ثم إننا ركبنا وأتينا إلى ههنا وفتشت على السيف فتاه عنّي مكانه، فخفت من أخي وقلت له: والله ما عرفت له مكانا. فقال لي: أنت تخفيه وتنكره مني. وسل سيفه وأراد قتلي فحاميت عن نفسي حتى أشرفت أنت علينا، وهذه قصتنا، وأنا فوضت أمري إليك فاحكم بيننا بما تريد حكم الموالي على العبيد، وعندما سمع عنترة هذا الكلام أشفق عليه، ثم تركه والتفت إلى أخيه وقال له: لم ظلمت أخاك وهو ابن أمك وأبيك فقال له: يا ابن اللئام أي شيء ألجأك إلى هذا المقال؟ وقد عوّل على ضرب عنترة بالحسام فاستقبله عنترة وطعنه في صدره فطلع الرمح يلمع من ظهره.

ثم إن عنترة قال لذلك الغلام: عد إلى حلتك واجلس مكان أخيك، وأنت في ذمامي، وكل من تعرض لك أعلمني، وأنا أقسم ظهره، فشكره الغلام وقبل يديه وقال له يا مولاي، بعد أخي ما بقي لي معاند، ثم إنه ودع عنترة وسار طالبا أهله والديار(*18).

ودفع عنترة برمحه في الأرض، وترجل عن الأبجر وجلس ليستريح. وبينما كان يعبث في الرمل بأصابعه، لمس حجرا، وعندما أزاح التراب من حول الحجر، لاحظ، لشدة تعجبه، سيف الشاب الذي كان يبحث عنه. واستمر في إزاحة التراب حتى انتزعه وأمسك به، لقد كان سيفا طوله ذراعان وعرضه شبران، ومصنوعا من معدن صقيل وهو مثل الصاعقة، ففرح به عنترة واستبشر، وعلم أن سعادته كل يوم تزداد في النماء وأن هذا السيف ساقه له رب السماء(*19).

إنقاذ قبيلة مازن

وفي اليوم التالي قابل العبسيون خمسمائة من الفرسان يرتدون الفولاذ ويقودهم الغيدق، الزعيم المتغطرس الذي كان عنترة قد قتل أباه في إحدى غاراته السابقة. وكان الغيدق يتقدم مع فرقته لمساعدة عساف في حملته التي كان يعتزم بها مهاجمة قبيلة مازن، عندما وجد نفسه محاصرا بمحاربي عبس «فعند ذلك حملت الخيل على الخيل وانعقد عليهم الغبار كسواد الليل، وقل منهم الجلد والحيل ونزل بهم الذل والويل، واشتد القتال، وطاب النزال وعملت النصول وبعث ملك الموت إلى قبض الأرواح رسولٌ... وعنتر يهيج فيهم كالأسد الرئبال، وقاتل مالك أحسن قتال، وغرق أصحابه في تلك الأهوال حتى ملك أبطالهم وجندل رجالهم»[*20].

وهكذا ظلت المعركة محتدمة حتى منتصف النهار، عندما تقابل الغيدق مع عنترة، وبعد معركة أَنْـهَكَ فيها البطل العبسي خصمه، أصاب عنترة الغيدق بضربة من سيفه الظامي فشقه نصفين كما شق فرسه.

وعندما رأى محاربو الغيدق أن زعيمهم قد سقط، ولوا الأدبار، أما رجال عبس فبعد أن جمعوا الخيول والغنائم، استأنفوا رحلتهم وتقدموا حتى وصلوا إلى قبيلة مازن، وهناك وجدوا الجميع في هرج ومرج بسبب هجوم عساف وفرسانه على أماكن الحريم. وفي الحال اقتحم عنترة، الغيور دائما على أحوال النساء، مع فرسانه المكان على الجبناء وفرق فرسان عساف في سائر الجهات. لقد كانت القوة وراء كل حركة لعنترة كما كان الحظ حليفه. وبينما عنتر يجول وعلى الأبطال يصول، إذا بصوت مالك بن الملك زهير وهو ينادي: يا أبا الفوارس الحقني قبل الهلاك، فقد حل بي الارتباك. وكان مالك قد حمل في مقابلة العساكر وغاص في الدساكر، فالتقى بعساف وقد قاتله فرأى منه حربا أكيدا، فتضايق مالك ونادى يا أبا الفوارس، فأدركه عنتر، ولما لحقه رأى عساف ظافرا على مالك بن زهير، ففاجأه عنتر وحمل عليه. وأراد عساف أن يجول مع عنتر. وإذا بأبي الفوارس تأخر عنه وتمطى في رمحه وطعنه فقلبه وعن مركوبه كركبه، فلما رأى بنوعمه ما فعل به عنتر، حملوا عليه كالسيل إذا انحدر، لأنهم كانوا قد احتقروه بالنظر، ولما رأوه قد قتل عسافا بلا توان، طلبه الفرسان من كل مكان. ولما قاربوه تلقاهم بقلب أقوى من الحجر وجنان مثل تيار

البحر إذا زخر[*21].

وأخذ أتباع عساف يدورون حول خيولهم بحثا عن الأمان بين صخور الصحراء.

وبعد أن اقتفى فرسان عبس ومازن أثرهم وأخرجوهم من ديارهم، عادوا إلى خيامهم حيث أحيا حصن الأعياد التي اشترك فيها عنتر ورفاقه مدة سبعة أيام، وفي اليوم الثامن دخل حصن على عروسه نعمى. وفي اليوم التالي لذلك رحل مالك وبنو عبس طالبين الديار.

خطيب ثان لعبلة

وبينما كان عنترة بعيدا عن قبيلته يقوم بمهمة مساعدة قبيلة بني مازن، حدث شيء أفسد آماله في الزواج من حبيبته عبلة، وبدأت إثر ذلك سلسلة من المتاعب له ولأسرته، بل لقبيلة عبس جميعها؛ وهذا الحدث هو خطبة عبلة لعبسي نبيل يدعى عمارة، وهو شاب مغرور أحمق شديد العناية بلباسه ومغرم بالعطور، ودائم المرافقة للنساء والبنات العذارى. وكانت شهرة جمال عبلة قد وصلت إلى هذا البدوي المتأنق، فأرسل قابلته العجوز إلى خيام أسرة بني قراد لتكتشف له ما إذا كانت عبلة من الجمال كما هو شائع عنها. وعادت العجوز بحكاية مثيرة عن سحر عبلة. وتملكت عمارة عاطفة قوية نحو عبلة، فقد عشقتها أذناه من قبل عينيه. ومن ثم قام بزيارة عمه العجوز مالك وطلب يد ابنته، ووعده بمهر محترم. وسعد مالك، الخائن بطبعه، أيما سعادة بمشروع مثل هذا، ووافق في الحال، آملا، دون شك، أن يصبح عنترة في هذه المرة طعاما للغربان والنسور.

وفي اليوم التالي لذلك، بينما كان عمارة في طريقه مسرعا لوالد عبلة حاملا إليه المهر وهدايا الزواج، وصل رسول يبلغ بعودة عنترة والأمير مالك، فخرجت القبيلة بأسرها لاستقبالهما. وأمضى عنترة هذه الليلة مع أمه زبيبة، ومنها علم أن عبلة تمت خطبتها لعمارة. وفي الحال صار الضياء في عينه ظلاما. وفي الصباح أبلغ عنترة الأمير مالك عن خيانة عمه، وعرض الأمير مالك عليه أن يضمن له زواجه من عبلة بأن يطلبها لنفسه قال له «فأنا أطلب عبلة لنفسي وأسمى عليها»، وبذلك يبعد عنها الخطاب حتى يستطيع عنترة امتلاكها فيما بعد. ثم ذهب الأمير مالك إلى شداد

وطلب منه أن يعترف رسميا بعنترة ابنا له، حتى يمكنه أن يتمتع بمرتبة بين زعماء القبيلة، ولكن شدادا لم يقبل أن يفعل ما لم يفعله زعيم عربي قط من قبل، وهو أن يمنح ابنه العبد هذا الشرف.

ورد عليه الأمير مالك بقوله، بأنه لم يسبق لزعيم آخر أن كان له ولد مثل عنترة. ثم قال له: «والرأي عندي أنك تسن هذه السنة في العرب وتجعلهم لك تبعا، لأن الفضائل الحميدة تشكر إن لم تكن بدعة ولا منكرا».

على أن مالكا لم يصل من هذا النقاش إلى شيء لمصلحة عنترة سوى أن شدادا وعد بأنه سوف ينظر في هذا الأمر.

وفي أثناء ذلك تقابل عنترة مع غريمه بعيدا عن خيمة مالك العجوز، بعد زيارته له، وكان قد ركبه الغرور إلى أقصى حد وتحدث إليه غريمه بلغة وقحة، ورد عليه عنترة بأن أمسك بتلابيب هذا الذي يتيه عجبا بنفسه، وطرحه بشدة على الأرض فأفقده وعيه. وأسرع أتباع عمارة مندفعين نحو البطل. وكان من المحتمل أن يتغلبوا عليه، لولا وصول الأمير مالك لإنقاذه في أثناء عودته من زيارته لشداد.

فصرخ فيهم ببسالة وقال: حقا إن عنترة عقيق يماني نادر بين أناس لا يعرفون قدره، ثم قال لعنترة: تعال يا عنترة، لنذهب الآن لأسرة زياد. ثم أخذ يعمل سيفه بينهم في شهوة، إلى أن ظهر الملك وفرق بين المتحاربين.

وعلى الرغم من أن عمارة الذي يتيه بنفسه عجبا، كان يستحق العقاب الذي تلقاه من عنترة كل الاستحقاق، فإنه عندما رفع عنترة يده وهو العبد، على عبسي نبيل، فإن هذا الفعل عده أعداؤه من وجهة نظرهم، جريمة لا تغتفر، مما اضطر شداد والده إلى أن يعيد عنترة مرة أخرى لعمله السابق وهو رعي الأغنام والجمال.

وفي الوقت نفسه كان على عنترة أن يعاني من الشعور بالخزي وهو يرى محاربي عبس يستعدون لمقاومة هجوم من قبل قبيلة طيء.

ولكن أمه زبيبة أحضرت له رسالة حب وعزاء من محبوبته الجميلة عبلة تقول فيها لأمه: طمئني قلب ابن عمي عنترة، وأخبريه أنه حتى لو وصل الأمر بأن يجعل أبي قبري مكانا لراحتي، فلن أرغب إلاّ فيه، ولن أختار غيره.

المعركة بين قبيلتي عبس وطيء

عنترة يُستدعى لإنقاذ عبس

وتقابلت قبيلة عبس مع قبيلة طيء، وانهزمت عبس، وتراجع أشجع محاربيهم وأُخذت نساء عبس أسرى. وفي هذه اللحظة التي هددت فيها قبيلة عبس بالهزيمة، تذكر زعماؤها بسالة عنترة. وكان هؤلاء الزعماء، بسبب حقدهم على عنترة، وبسبب نفوسهم الشريرة، قد تسببوا في أن يحطوا من مرتبته، بعد أن أصبح فارس عصره الأشهر، إلى مرتبة راعي الجمال والقطيع. فأرسلوا رسولا إليه يطلبون منه المساعدة. وتمنطق عنترة بسلاحه، وثبت سيفه الظامي في جانبه، وامتطى صهوة جواده الأبجر، وانضم إلى صفوف زعماء عبس، ووعده أبوه شداد في صرامة، إن هو اقتفى أثر الأعداء، وأنقذ عبلة، فسوف يقدمها زوجة له، وبناء على هذه الشروط، وافق عنترة على أن يعيد للقبيلة شرفها.

وكان أول فارس هاجمه عنترة، ذلك الذي أسر عبلة، فدفع عنترة رمحه في جنبه وأمسك بعبلة، التي لم تكن قد أصيبت بين ذراعيه، وكانت مثل العصفور الفزع.

ثم اندفع نحو العدو في عنف لا يقاوم وأعمل سيفه الظامي بين رجالهم، فكانت رؤوس المحاربين تطير في الهواء كالكرات وأطرافهم كأوراق الشجر. وجمع العبسيون صفوفهم مرة أخرى وهاجموا قبيلة طيء التي لاذ رجالها بالفرار فزعا من سيف البطل. وبعد أن طرد رجالُ عبس رجالَ طيء خارج أرضهم، عادوا إلى خيامهم، وعنترة في مقدمتهم وهو يغني أغنية النصر ويقول:

عقاب الهجر أعقبني الوصالا
وصدق الصبر أظهر لي المحالا
ولولا حب عبلة في فؤادي
مقيم، ما رعيتُ إذن جمالا
عتبت الدهر كيف يذل مثلي
ولي عزم أقد به الفصالا
أنا الرجل الذي خُبرتُ عنه
وقد عاشت مع خبري الفعالا

غـــداة أتـــت بـــنـــومـــعـــن وطـــيء
تـــهـــز أكـــفّـــهـــا ســـمـــرا صـــقـــالا
بـــجـــيـــش كـــلـــمـــا فـــكـــرت فـــيـــه
حـــســـبـــت الأرض قـــد مـــلـــئـــت رجـــالا
فـــداســـوا أرضـــنـــا بـمـــضـــرّمـــات
حـــســـبـــت صـــهـــيـــلـــهـــا قـــيـــلا وقـــالا
ومـــا رفـــعـــت ذوي الأحـــســـاب ضـــيـــمـــا
ولا ســـمـــعـــت لـــداعـــيـــهـــا مـــقـــالا
ولارد الـــفـــوارس غـــيـــر عـــبـــد
ونـــار الحـــرب تـــشـــتـــعـــل اشـــتـــعـــالا
بـــطـــعـــن تـــرعـــد الأبـــطـــال مـــنـــه
لـــشـــدتـــه تجـــنـــبـــت الـــقـــتـــالا
فـــولـــوا بـــالخـــيـــول غـــدا هـــزامـــا
خـــفـــافـــا بـــعـــد مـــا كـــانـــت ثـــقـــالا
وكـــم بـــطـــل تـــركـــنـــاه طـــريـــحـــا
يـــحـــرك بـــعـــد يمـــنـــاه الـــشـــمـــالا
وخـــلـــصـــت الـــعـــذارى والـــغـــوانـــي
مـــا أبـــقـــيـــت مـــع أحـــد عـــقـــالا
ولـــي ســـعـــد عـــلا فـــوق الـــثـــريـــا
وأخـــرق حـــجـــبـــهـــا لمـــا تـــعـــالـــى
وإنـــي عـــنـــتـــر حـــامـــي زمـــامـــي
بـــســـيـــف لا تـــرى فـــيـــه انـــغـــلالا[(*22)]

عنترة ينادى به نصير عبس

وأخيرا قبل فرسان بني عبس عن كره أن يكون لعنترة شرف مرتبة العربي، وأقام الملك زهير عيدا للاحتفال بقهر طيء. وقدم في هذا الاحتفال عنترة وقد خلع رداء مطرزا بالذهب وألبسه سيفابتّارا، ووضع في يده رمحا خطيا، وأجلسه على صهوة جواد عربي جميل، ثم نادى به بطل عبس وعدنان. وهكذا أزيحت، ولو في الظاهر، العقبة الكؤود التي تحول دون

اجتماع عنترة بعبلة. وفضلا عن هذا، فإن والد عبلة كان قد أقسم أن ابنته سوف تتزوج بعنترة إذا ما أنقذها من الطائي الذي كان قد أسرها. ولكن مالكا المخادع لم يكن يعني قط أن يحافظ على كلمته. ولكن لأن الملك زهير كان يناصر عنترة في قضيته، فإن مالكا لم يكن يملك سوى أن يتظاهر بالرغبة في تقديم ابنته لمخلص القبيلة. على أن مالكا العجوز كان سيدا ماهرا في الخداع والاحتيال، فدبر خطة يكاد يعرض من خلالها عنترة للموت المحقق؛ إذ طلب منه أن يكون مهر عبلة ألفا من النوق العصافير التي يمتلكها المنذر بن ماء السماء، ملك العرب وكان من أتباع كسرى أنو شروان ملك الفرس. وأكد مالك للمتآمرين معه في ثقة، أنه إذا كان عنترة قد غزا قبيلة بني شيبان، فإنه لن يعود سالما أبدا إذا ما عاد لإزعاجهم. على أنه إذا كانت الجائزة ستكون عبلة، فإن عنترة يرحب بمواجهة أخطار أشد من ذلك. ومن ثم فقد قبل مبتهجا بل مستخفا، أن يقوم بهذه المغامرة اليائسة.

رحلة عنترة لإحضار النوق العصافير

وتسلل عنترة في الليل من خيام عبس مصطحبا أخاه المخلص شيبوب وحده. وكان شيبوب تابعه وموضع ثقته وكثيرا ما أمده بخدمات جليلة مستعينا ببراعته في رمي السهام وبسرعته الفائقة في الجري حتى سمي «أبو الريح». وسار الأخوان ووجهتهما أرض العراق، مخترقين البراري والفلوات من خلال ممرات سرية كان شيبوب على خبرة بها، حتى وصلا بعد لأي، إلى خيمة منصوبة بجوار نبع «وإذا هو بشيخ كبير قد أحناه الكبر وصار عبرة لمن اعتبر وهو كما قال فيه الشاعر:

وشـيـخ فـوق ظـهـر الأرض يمـشـي
ولـمّـتـه تـعـادل ركـبـتـيـه
فـقـلـت لـه لمـاذا أنـت مـحـنـي
فـقـال رافـعـا نـحـوي يـديـه
شـبـابـي فـي الـثـرى قـد ضـاع مـنـي
وهـا أنـا دائـمـا أسـعـى إلـيـه(*23)

وظل عنترة وشيبوب مسافرين حتى وصلا إلى بلاد الحيرة حيث «رأيا بلادا عامرة وخيرات وافرة، ومراعي خضرة ومياها جارية، وأشجارا مائلة،

وخيولا صاهلة، ونياقا وفصلانا، وجمالا حسانا، وعبيدا وغلمانا، وإماء ومولدات، وإقليما قد عمته سائر البركات وشملته الهيبة من سائر الجهات، ورأى أرضا كافورية بيضاء نقية وهو في واد من الأودية الحسان وقد تزخرفت بزخارف الجنان»[*24]. لقد كان كل شيء يشير إلى الغنى والمتعة، ولا شيء يبعث على الخوف. وأرسل عنترة أخاه شيبوبا ليأتي له بخبر النوق العصافير، بينما أراح هو فرسه الأبجر بعض الوقت. وتسلل شيبوب متنكرا في هيئة عبد، إلى خيام العبيد الذين كانوا يحرسون الجمال وأخذ يحكي لهم حكاية يمكن أن تصدق عن هروبه من سيده، وعن مرضه المختلق. ومكث شيبوب مع العبيد طوال النهار. وعندما راح العبيد في النوم، انسلّ منهم وانضم إلى عنترة وأخبره بنتيجة تلصصه فيما يختص بعدد الجمال وعدد العبيد التي تحرسها. وأمر عنترة أخاه شيبوبا أن يتخذ له موقعا في طريق الحيرة ومعه قوسه. وبعدئذ تسلل عنترة وقطع حبال ألف من النوق العصافير، وأمر بعض العبيد أن يسوقوها تجاه بلاده. ولكن عنترة أُخذ بغتة من قبل الملك المنذر وجماعة الصيد المرافقة له، ودافع عنترة عن نفسه بكامل رجولته ضدهم جميعا، حتى تعثر فرسه الأبجر ورمى بعنترة إلى الأرض، وما إن رأى شيبوب أخاه يسقط وظن أنه قتل، حتى خف مسرعا إلى بيته.

ولكن عنترة لم يكن قد مات، بل أسر بعد ذلك وحُمل في وثاقه إلى الملك المنذر الذي سأله من أين جاء، ورد عنترة قائلا بأنه ينتمي إلى قبيلة عبس النبيلة، فسأله الملك: هل أنت أحد محاربيها أم أحد عبيدها، فأجاب عنترة: «اعلم أيها الملك أنني أنا الليث الهمام والبطل الضرغام، الضارب بالحسام الصابر تحت القتام، أنا طبيب عبس إذا مرضت، وحاميها إذا ذلت، وحافظ حريمها إذا ولت، وشجاعها إذا ابتدرت»[*25]. ثم حكى له بعد ذلك عن مغامرته التي أخفق فيها، وعبر الملك عن دهشته في تعريض نفسه للخطر من أجل جويرية من بنات العرب، فقال عنترة:

«نعم يا مولاي فإن الهوى يحمل الإنسان على ركوب الأخطار والأهوال، ومن أجله تضرب أعناق الرجال، ولا يعذر العشاق إلا من ذاق مرارة هجر الوصال، وما يوقع في البلاد في سائر المواضع إلا النظر لما تحت البراقع... وتأوه من قلب موجوع وتنهد وتحسر وصار لا يسمع ولا يبصر وأنشد يقول:

حـفـتـنـي الـغـوانـي مـن حـواشـي الـبـراقـع
أحـدّ مـن الـبـيـض الـرقـاق الـقـواطـع
سـقـى الـلـه عـمـي مـن يـد المـوت شـربـة
وشـلـت يـداه بـعـد قـطـع الأصـابـع
لـقـد ودعـتـنـي عـبـلـة يـوم بـيـنـهـا
وداع يـقـين أنـنـي غـيـر راجـع[(26*)]

وبينما كان الملك يبدي دهشته لفصاحة سجينه وجلده، إذ بالهياج يسود بين أتباعه بسبب اندفاع أسد متوحش في الصحراء إلى خيمة الملك، وصار يمثل بأشجع محاربي الملك. وعرض عنترة على الملك أن يصرع الأسد إذا فك قيد يديه فحسب، تاركا رجليه في الأغلال، فسلمه الملك سيفا وترسا، وأدى عنترة عمله البطولي وسط إعجاب الجميع. ورأى المنذر في البطل، الرجل المؤهل كل التأهيل لتنفيذ خطته الطموحة في الاستقلال عن كسرى أنو شروان ملك الفرس. لقد كان المنذر موضوع نكتة انتشرت في بلاد فارس واستمتع هو بها قليلا؛ وذلك عندما أكل التمر بنواه محاكيا في ذلك الملك ورجال البلاط، إذ تصور أنهم يأكلون التمر كاملا بنواه، وهم في الحقيقة يأكلون التمر المنتزع منه النوى. وعندما عاد المنذر إلى بلده عزم على أن ينتقم من هذه الإهانة. فحرض عدة قبائل عربية لشن غزوة للسلب في بلاد الفرس. فأمره كسرى أنو شروان أن يعاقب هؤلاء الغزاة، ولكن المنذر كانت لديه الجرأة لأن يرد الرسول الملكي ومعه خطاب يخبر فيه الملك بأنه نتيجة للإهانة التي لحقت به في بلاطه، لم يعد لديه أدنى تأثير في القبائل العربية. ولهذا فإنه ينبغي على كسرى أن يدبر شؤون مملكته بنفسه، ثم وصل رد كسرى على رسالة المنذر متزامنا مع سقوط عنترة في أسر المنذر.

المرزبان الخسرواني يُرسَل لتأديب المنذر

وعقب تسلم ملك الفرس لرسالة المنذر الجريئة، أرسل المرزبان الخسرواني (الذي كان السبب في كل المتاعب) على رأس جيش كبير لتأديب العربي التابع له. ومع اقتراب الجيش الفارسي من بلاد المنذر، كان المنذر يجمع بطون قبيلة شيبان، وكل القبائل العربية. وكانت المعركة في صف

خسروان، وانهزم المنذر هزيمة منكرة. وعندما أيقن المنذر بحلول الكارثة، فكر في أسيره قاتل الأسد. وفي الحال فكت الأغلال عن عنترة وأحضر إلى المنذر، وقال له عنترة:

«ها أنا أيها الملك بين يديك وحالتي قد عرفتها وقصتي قد قصصتها عليك، وإن أنت أيها الملك الكبير ضمنت لي ألف ناقة من النوق العصافير التي قد طُلبت مني وهي مهر ابنة عمي عبلة التي هي من لحمي ودمي، وتفرج همي وغمّي، وترد لي سيفي ورمحي وجوادي وتعطيني عدة جلادي، ويكون معي من قومك ألف فارس أبطال عوابس ليكونوا خلفي يحمون ظهري، فعندها ترى ما يصنع عبدك الأسود، البطل الأمجد، وتنظر كري وفري وما يظهر من فعلي وأمري»[*27].

وأقسم المنذر بالكعبة المقدسة أنه إذا أثبت عنترة نجاحه في تدمير جيش الفرس، فسوف تكون جماله كلها طوع أمره، ثم أمر أن يعاد إليه حصانه وأسلحته.وفي الصباح الباكر تقابل العرب مع الفرس وكان عنترة على رأس العرب، وصرخ قائلا: «من أجل عيني عبلة أقاتل عباد النار اللئام أولاد الحرام»[*28].

وتتقهقر الفرس بفعل طعنات الظامي التي لا تقاوم، وتملك الفزع من قلوبهم عند سماعهم صوت عنترة الذي كان مثل قصف الرعد، وأصبحت ضربات السيف أكثر سرعة من ومضات البرق، وفي النهاية انتصر جيش المنذر.

المعركة بين عنترة وخسروان

وفي صبيحة اليوم التالي استعد الطرفان لاستئناف المعركة، وامتطى عنترة صهوة مهرة، (ذلك لأن الأبجر كان قد جرح في اليوم السابق ولم يكن مهيأ بعد ليوم المواجهة). وكان مشغولا بأن يتحدى خسروان ليحسم الأمر في معركة واحدة. واندفع بين الجيشين وهو ينشد:

نفِّسوا كربي وزيلوا عللي
وابرزوا لكل ليث بطل
وانهلوا من حد سيفي جرعا
مُرة منها نقيع الحنظل

وإذا المـــوت أتـــى فـــي جـــحـــفـــل
فـــدعـــونـــي ولـــقـــاء الجـــحـــفـــل
يـــا بـــنـــي الأعـــمـــام مـــابـــالـــكـــمـــو
عـــن لـــقـــائـــي كـــلـــكـــم فـــي شـــغـــل
أيـــن مـــن كـــان لـــقـــتـــلـــي طـــالـــبـــا
رام يـــســـقـــيـــنـــي شـــراب الأجـــل
قـــســـمـــا يـــا عـــلـــبـــة يـــا مـــنـــيـــتـــي
بـــثـــنـــايـــا كـــالـــزلال الـــعـــســـل
وبـــعـــيـــنـــيـــك ومـــا قـــد جـــمـــعـــا
مـــن دواهـــي ســـحـــرهـــا والـــكـــحـــل
إنـــنـــي لـــولاك مـــا ذقـــت الـــكـــرى
كـــي أرى الـــطـــيـــف بـــه يـــا أمـــلـــي
يـــا تـــرى ريـــح الـــصـــبـــا تـــخـــبـــرهـــا
بـــاشـــتـــيـــاق لـــربـــوع المـــنـــزل
وتـــبـــلـــغـــك ســـلامـــا كـــلـــمـــا
شـــق ذيـــل الـــلـــيـــل صـــبـــحـــا يـــنـــجـــلـــي

ثم إن عنترة كان ينشد هذه الأبيات وهو يصول في الميدان والخسروان يتأهب للقتال، فقفز بجواده إلى المجال، وهو على حصان سريع الالتفات، كثير الحركات، وقد تقلد سيفا بتارا ماضي الشفار، وأخذ تحت فخذه أربع حراب مثل شعل النار...

ثم إنه أراد أن يحمل على العسكر فما مكنه عنترة من ذلك الشأن... فلما نظر الخسروان إلى ما فعل عنتر، زاد به الغيظ ونقل العامود من يده الشمال إلى اليمين، وتمطى بما أعطاه الله من القوة.

وحذف عنترة بالعامود، وزعق في عقب حذفه زعقة دوت لها الجبال، فركز عنتر الرمح من يده واستقبل العامود وخطفه من الهواء بيده، وهزه وضرب به الخسروان ونادى عند ضربته، خذها يا قرنان وأنا حبيب عبلة بنت مالك بن قراد، ثم أنشد:

ســلـــي يـــا ابـــنـــة الـــعـــبـــســـي رمـــحـــي وصـــارمـــي
ومـــا فـــعـــلا فـــي يـــوم حـــرب الأعـــاجـــم

سقيتهم والخيل تنفر في الوغى
دماء العدا ممزوجة بالعلاقم
على مهرة منسوبة عربية
تطير إذا اشتد الوغى بالقوائم
وكم فارسا يا عبل خليت غاديا
يعض على كفيه عضة نادم
عليك سلام الله يا ابنة العم فاعلمي
بأني إليك قادم بالغنائم

وكان الخسروان قد استهول أخذ العامود من الهواء وعاد يطلب الفرار من عنتر، وحمل ترسه بين كتفيه، فوقع العامود على الترس أعظم من حجر المنجنيق، فحذفه إلى قدام أكثر من اثني عشر ذراعا فكسر أضلاع الخسروان، وقطع منه النخاع، وقد حار من تلك الضربة كل بطل شجاع، ولما نظرت الأعجام إلى ذلك حارت في أمورها، فحملت على عنترة وعلى العرب من شدة ما نالها، فالتقطتها فرسان العرب بأسنة سمهرياتها، وقد اشتدت بفعال عنتر قوة عزماتها ونخواتها وقد شفى عنتر فؤاده من العجم بالقتال، وجندل الأبطال، وصاح الملك المنذر في العرب وأمرهم بالحملة، فرمت العرب من صياحه أنفسها على أعدائها، وقد اشتد زفير الحرب والتهب بحملاتها، وقد سقطت ثمار الأعناق عن غصون قاماتها، ونظرت الأعجام من عنتر ما أذهلها، فولت هاربة إلى فلواتها وتفرقت في تلك الأرض ولم تصدق بنجاتها، وصارت العرب فرحانة ببلوغ الأرب ومكثرة لعنتر من الشكر والثناء[*29].

عنترة في بلاط كسرى

وقرر المنذر، وقد ملأته نشوة الانتصار، أن يعلن الحرب رسميا على كسرى، ولكنه رأى تأجيل هذا الموضوع خضوعا لمشورة وزيره الحكيم العجوز عمرو بن نفيلة، الذي أخذ على عاتقه أن يرحل إلى عاصمة بلاد الفرس، ليتأكد من رد فعل موت الخسرواني على الناس، وهناك وجد رجال بلاط كسرى في حالة شديدة من الاضطراب، إثر وصول فارس مشهور يدعى البدرموط الذي كان قد وصل إلى هناك، بوصفه المحارب المناصر لإمبراطور

الروم المدافع عن العقيدة المسيحية ضد فرسان الفرس. وكان الإمبراطور يستعد لإرسال الجزية السنوية السخية للملك كسرى، عندما وصل البدرموط إلى بلاط كسرى قادما من سوريا، حيث ذاع صيته طويلا بسبب جسارته القتالية. وكان البطل المسيحي قد أعلن سخطه على ما يدفع من ثروة طائلة لأمير لا يدين بدين الحق. ولهذا اقترح على إمبراطور الروم ألا يدفع الجزية إلا إذا قهره فرسان الفرس منفردا، ووافق الإمبراطور على طلبه. وبناء على ذلك رحل البطل إلى بلاد الفرس ومعه خمسمائة فارس ضمن حاشيته. وعلم وزير المنذر أن البدرموط كان من قبل قد اشتبك في خلال خمسة عشر يوما بزهرة الفروسية الفارسية وقهرهم عن آخرهم. وكاد اليأس يتملك كسرى، إذ كان يخشى ألا يستطيع أحد من فرسانه أن يقهر فارس الإمبراطور الرومي، وعندئذ يفقد سيادته عليه. واحتال عمرو على أن يعرف عن طريق صديق البطل الأسد عنترة الذي كان قد صرع مؤخرا المرزبان الخسرواني وشتت محاربيه، أن كسرى قد أرسل في تأديب المنذر، وأنه يسعى في استقدام عنترة من الحيرة.

وفي أثناء ذلك، واجه بهرام فارس الديلم الأشهر البدرموط وصمد أمامه لمدة يومين متتاليين. وفي صباح اليوم الثالث عندما كان الأبطال على وشك استئناف المعركة، ظهر في السهل الملك المنذر وعنترة على رأس مائة من الفرسان. وبعد أن أُدخل الأمير العربي والبطل العبسي إلى حضرة كسرى، وبعد أن أدى الملك المنذر التحية كما ينبغي، خطا عنترة إلى الأمام ووجه الكلام إلى الملك الفارسي وأنشد:

كفاك الله نائبة الزمان
وعشت من الحوادث في أمان
ولا زالت نجومك زاهرات
بسعد ثابت أعلى المكان
ودمت مباديا في كل عز
وحكمك نافذ أقصى وداني
أيا ملكا وقد حاز العطايا
وبذل الجود ثم علوشان(*30)

وامتلأ كسرى إعجابا بفصاحة البطل، ودهش لضخامة جسمه، ثم فكر

في نفسه وقال، أخيرا سيواجه البدرموط مصيره. وأعطى الملك أوامره لحاشيته أن يعامل المنذر وعنتره بكل لطف وكرم. وعندما كانوا يعدون لهما الخيام التي يستريحون فيها حتى اليوم التالي، أعلن عنترة أنه لن يستريح حتى يقتل الفارس الرومي، وفي الحال أخذ يعد للمعركة. أما البدرموط، فبعد أن أخبر بالبطل الجديد الذي جاء لمواجهته، قرر دخول الحلبة في شغف، وكان عنترة، وهو يتقدم نحوه، ينشد:

اليوم أنصر للمليك المنذر
ليعلم كسرى قوتي وتجبري
وأهدّ ركن الروم جمعا في الوغى
وأجز رأس البدرموط بأبتر
يا أيها النذل الذي رام الوغى
مستهزئا متكبرا بتجبر
إن كنت أنت البدرموط فإنني
من آل عبس غاب ليث قسور
ولئن قهرت جيوش كسرى في الوغى
فلسوف أُقهر في المجال القيصري
فأنا الذي شهدت له يوم الوغى
كل الفوارس من زبيد وحمير
سيفي أنيسي في الظلام وذا بلى
والمهر مع رمح مديد أسمر
والليل لوني والصباح فعائلي
والشمس إقبالي بغير تنكري
وفعائلي تزري بأنوار الضيا
وسميت في يوم القراع بعنتر
فابرز لتلقى شرح ما قد قلته
واعلم بأني واحد في الأعصر(*31)

ثم حمل عنترة على البدرموط وكانت معركة رائعة، وأدرك البدرموط أن البطل العبسي لا يقارن بأي بطل عادي، وأن كل مهارته وقوته لا تجدي إذا ما قورنت بخفة حركة عنترة وقوته، مما مكنه من أن يتجنب طعنات

سيفه القاتلة بسهولة بالغة. ولما رأى بهرام فارس الديلم ببعد نظره، وكان يشاهد المعركة في حقد، أن عنترة سوف يحقق النصر الذي لم يتمكن من تحقيقه لنفسه، رماه في خسة بسهم، بينما كان المتحاربان مغلفين بغبار المعركة. ولكن عيني عنترة اللتين لم يفتهما شيء، لاحظتا حركة بهرام، فأمسك بالسهم وهو على مقربة منه، وقذفه نحو البدرموط بقوة فنفذ السهم من صدره وخرج من ظهره، وسقط البدرموط فاقد الروح من فوق حصانه.

ثم اتجه عنترة إلى بهرام المخادع لينتقم منه شر انتقام، لولا أن حال كسرى دون ذلك، بأن أرسل إلى المرزبان ليأتيه بعنترة. وعندما مثل عنترة أمامه خلع عليه الرداء الملكي، وأمر له بكل الذهب والجواهر والجواري الجميلات التي أتى بها البدرموط.

وفي اليوم التالي، وفي حفل بهيج استخدمت الجواري كل وسائل الإغراء لجذب عنترة نحوهن، ولكن دون جدوى، إذ كان قلب عنترة يفيض بصورة عبلة. ولما لاحظ المنذر ذلك، سخر من البطل بسبب ارتباطه بفتاة عربية غائبة، وذكره بأنه قد بلغ درجة من الشهرة التي يحسده عليها زعماء العرب جميعا، وأجاب عنترة بأنه حتى هذا البهاء الذي يحيط به ليس له أي وقع في نفسه، فلا شيء ينسيه موطنه ومحبوبته عبلة.

وكانت عودة البطل إلى موطنه تتأخر من يوم لآخر بسبب احتفال كسرى به تعبيرا عن امتنانه له. وذات يوم رافق عنترة الملك في رحلة صيد، ونجا بالكاد من طعنة قذرة من بهرام الذي كان لا يزال ينفث عليه حظه السعيد في قهر البطل الرومي، وبعد أن أفلت عنترة من ضربته، طرحه بقوة على الأرض فأفقده وعيه. وأسرع أتباع بهرام (المرميدون)[*32] يلتفون حول البطل عنترة الذي دافع ضدهم جميعا، إلى أن خف كسرى إليهم وأمر المرزبان بالإمساك بهؤلاء الجبناء وقطع رؤوسهم. وبناء على ذلك سيقوا في الأغلال. «ولكن عنترة، عندما رأى مرافقي بهرام على هذا النحو من الخزي، ترجل عن الأبجر وتقدم إلى الملك العظيم، وقبل الأرض بين يديه وتوسل إليه أن يعفو عنهم وقال: يا مولاي لا تفعل، فإن العفو عنهم منك أجمل وهو بمثلك أوفق وأمثل، واعلم يا ملك الزمان أنني في هذه الأيام قد عزمت على الرحيل من هذه الديار، فلا أشتهي أن يذكرني أحد بالقبيح بعد فعل

الجميل للكبار والصغار. ولا تدعهم يقولون عني إني ذهبت إلى قبيلة وتركتها في خزيها ترفل في عارها»[*33]. وأعجب الملك بشهامة عنترة وحقق له مطلبه، وأطلق سراح بهرام وأتباعه.

وفي اليوم نفسه حضر عنترة حفلا أقامه كسرى في قصر رائع مشيد في الحدائق الملكية. «وكان في البستان قصر عالي الأركان، مشيد البنيان، قد أمن صاحبه من حوادث الأزمان، سليم من البوائق، مبني بحجارة من المرمر الفائق، مرصع بالزمرد الأخضر، وقضبان الذهب الأحمر، وفي صدره قبة مثمنة مرفوعة فيها عقود من خالص الجوهر وله أربعة وعشرون بابا من النحاس الأصفر، ويخيل للناظر أنها ذهب أحمر، لها لمعان يأخذ البصر»[*34].

وألح كسرى على البطل عنترة أن يشرب الخمر في حرية وأن يستمتع بغناء المغنيات من الجواري، ولكن عنترة وسط كل هذا البهاء الملكي، كان بعيدا بقلبه في بلاد شريبة، ومن ثم فقد أخذ ينشد:

فؤادي ما يسليه المدام
وجسمي لا يفارقه السقام
وأجفاني تبيت مقرحات
تفيض الدمع إذ جن الظلام
وغانية شجت قلبي بصوت
يردده المحب المستهام
شغلت بذكر عبلة عن غناها
وقلت لصاحبي هذا منام
وقد لاقيت في سفري أمورا
تشيِّب من له بالمهد عام
وبعد العسر قد لاقيت يسرا
وملكا لا يحيط به الكلام
وسلطانا له كل البرايا
عبيد والزمان له غلام
يفيض ندى العطا من راحيته
فما ندري بحار أم غمام

فـــدم يـــا أوحـــد الخـــلـــفـــاء وابـــق

مـــدى الأيـــام مـــا نـــاح الحـــمـــام[*35]

وخلع كسرى، بتأثير استمتاعه بالشعر الجميل ـ تاجه من على جبينه وقدمه لعنترة هدية لعبلة يوم زفافها منه، كما قدم إليه ظلة من الفضة الخالصة والمزينة في ثراء بالأحجار الكريمة النادرة. وانتهز عنترة الفرصة ليتوسط لصديقه الملك المنذر، فعفا عنه الملك كسرى في شهامة، وأعاد إليه مركزه القوي السابق.

وتحدى رستم المصارع المشهور في بلاط الملك، عنترة في أن يصارعه أمام كسرى، وكان قد حقد على الملك أن يمنح هذا الشرف الملكي لغريب. وتردد عنترة في قبول هذا التحدي لئلا يقال عنه إنه بعد أن حصل على عطاء كسرى صرع أحد رجاله في حضرته، إذ كان على يقين أنه إذا تصارع مع رستم الحريص على حياته، فسوف يقتله. ونصح الملك رستم أن ينسحب من المصارعة.

ولكن رستم أصر على إتمامها. وبعد لأي وافق أنو شروان. فتحزم رستم وتشمر في حين اكتفى عنترة برفع طرف ثوبه في منطقته، ثم توجه إلى خصمه، «وضرب به الأرض فرضّ عظامه أقوى رضّ، فلم يدع له طولا يعرف من عرض، فمات لوقته وساعته» وأنشد عنترة يقول:

تـــبـــت يـــداك فـــقـــد عـــلـــمـــت جـــهـــالـــة

وبـــهـــا ســـلـــكـــت إلـــى الـــفـــنـــاء ســـبـــيـــلا

هـــل شـــاهـــدت عـــيـــنـــاك فـــعـــلـــي فـــي الـــورى

والـــرمـــح يـــقـــرع فـــي الأكـــف نـــصـــولا

والخـــيـــل قـــد نـــفـــرت ومـــاج صـــهـــيـــلـــهـــا

والـــفـــارس الـــصـــنـــديـــد راح مـــهـــولا

يـــا أيـــهـــا المـــلـــك الـــذي هـــو عـــادل

والمجـــد ســـيـــمـــتـــه اســـمـــع لـــي قـــلـــيـــلا

واشـــهـــد عـــلـــى إســـرافـــه فـــي فـــعـــلـــه

حـــتـــى غـــدا فـــي دمـــه مـــجـــدولا

لـــو كـــان ذا أصـــل وطـــيـــبـــة مـــولـــد

تـــبـــع الـــصـــواب ولا عـــصـــى لـــك قـــيـــلا

حـــكـــم الإلـــه بـــفـــعـــلـــه فـــي مـــوتـــه
وقـــضـــى بـــذاك فـــخـــرَّ بـــعـــد قـــتـــيـــلا
فـــاســـلـــم ودم فـــي نـــعـــمـــة مـــحـــروســـة
طـــول الـــزمـــان ممـــجـــدا مـــقـــبـــولا[36*]

وكان رستم قد انحنى إلى الأرض وكأنه القنطرة، وهو غير مكترث بصراع عنتر، لما يعرف من نفسه وما هو فيه من القوة والشدة والبراعة في الصراع والشجاعة. وتقارب الاثنان في الصراع واعتركا في ذلك الاتساع. ومن شدة طمع رستم في عنترة وحماقته، هجم عليه، وظن أن عنتر مثل غيره من الرجال. ولما هجم على عنتر، قبض على قوائمه وأراد أن يقلعه ويتعنفه ليهزه، فوجده شجرة جوز، لا يحول ولا يزول. فعاد رستم يريد الخلاص منه وقد ندم على فعله... ثم أقبل عليه وعاوده ودخل فيه بكل المعاني فأسرع عنتر الهجوم عليه من غير «تواني». وكان عنتر في ذلك الفن أصنع من ضرب الحسام الهندواني. فعند ذلك تأخر رستم عنه وهو لا يصدق بالخلاص ولا بسلامة نفسه. ثم إن عنتر قام إلى رستم كأنه الأسد الغشمشم وقاربه وهاجمه ولازمه وأمسكه من منطقته، وزعق فيه فأدهشه وأذهله وخيله ورفعه حتى بان بياض إبطه، وصار معلقا في الهواء على يده، وأراد أن يحمله إلى الملك ويضعه سالما بين يديه، فتخبط رستم وأراد الخلاص من يده، ولطم عنتر لطمة على صماخ أذنيه، فكاد أن يخلع رقبته، ومن شدة ما جرى على عنتر من لطمته، ضرب به الأرض، فرض عظامه أقوى رض، فلم يدع له طولا يعرف من عرض، فمات لوقته وساعته»[37*].

وأعلن الملك أن رستم قتل عدلا، إذ إنه تجاوز قوانين المصارعة العادلة، ثم خصص لعنترة كل ممتلكات خصمه وثروته.

ولم يمض وقت طويل على انقضاء ذلك اليوم الحافل بالأحداث حتى كان المنذر يستريح مع عنترة في مكان راحتهما، حيث انضم إليهما على التو الموبذان، رئيس كهنة عباد النار الذي أذعن لمطلب عنترة الملح في أن يدخله معبد النار.

«فرأى (أي عنترة) رجالا قياما وهم عراة الأجسام، وفي أيديهم مقامع من حديد يقلبون بها النيران، ويزمزمون بكلام اليهود وطريقة المجوس ويتلون ما يقولونه بأنغام تطرب النفوس وتسلب العقل المعكوس. وفي صدر

المكان كبير خدام النيران، وهو رجل كبير جالس على طراحة من جلود الأسود وهو يومئ ويقول: بنود بنود، كبود، كبود، ويتردد ويشير ويومئ لها بالسجود من دون رب البرية الخالق المعبود. وأخيرا حصل عنترة على موافقة كسرى للعودة إلى بلده، ومنح الملك البطلَ مائة ألف دينار كسروية ذهب باسم الملك العادل، ومثلها باسم قيصر، ومثلها من الفضة، وألف ثوب من الديباج. ومن سائر الأصناف برسم الخلع على بني عمه، وألف ثوب منسوجة بالذهب الوهاج برسم ابنة عمه عبلة، ومن سائر الحلي والحلل والأصناف، كذلك عشر سرادقات كبار وما يحتاج إليه من بسط وفرش وغير ذلك بصناديقها وبغالها، ومائة عبد وخمسين مملوكا بملبوسها ولامتها وسيوفها ورماحها وجميع آلة حربها وكفاحها»[*38].

وخرج الموبذان وكسرى لوداع عنتر وكل من في المدائن من الأجناد والوزراء والحجاب، وساروا معه إلى أن أبعدوا عن الديار وانتشروا في الفلاة حتى ملأوا الأقطار، فعند ذلك ترجل عنتر بن شداد عن ظهر الجواد، وقد نظر إليه عند ذلك الخلائق والأجناد، وتقدم وقبل رجل كسرى في الركاب، وقد فرح بفعاله جميع من معه من الأصحاب، وأنشد وجعل يقول هذه الأبيات:

أنت المليك الذي ما مثله ملك
وجوده قد شاع بين السهل والجبل
يا من غدا في ذرى العلياء منتصبا
يعلو على الجوزاء والحمل
أوليتني نعما لم أحص عدتها
من بعد ما كنت بين الخوف والوجل
أغنيتني منه بالمال يا سندي
ومن عطاك غيوث الوابل الهطل
وجدت بالمال والأنعام في سعة
من جود كفيك يا سؤلي ويا أملي

«وقال له (الملك) : وحق من غرب الغروب وشرق الشروق إن عطاءنا ينفد ومدحك لنا يبقى، فعند ذلك قبل عنتر يده وشكره وأثنى عليه ثم ودعه كسرى وسأله أن يعود إليه كل سنة ويزوره، ولا ينقطع عن بلاده في كل عام

ولا يغفل عن إنفاذ كتبه والسلام عليه»[39*]. وسار الملك المنذر وعنترة حتى وصلا إلى تلال الحيرة حيث احتفل بالبطل في ترف بعض الوقت، ولما أصبح عنترة على وشك الرحيل إلى بلاده منحه المنذر ألفا من النوق العصافير، إلى جانب كثير من الهدايا القيمة. وبعد ذلك بدأ عنترة رحلة العودة يرافقه عدد من العبيد الذين مُنِحَهم من أنو شروان والمنذر معا. وبينما كان عنترة يعبر الصحراء، أخذ يتذكر كل المغامرات والمخاطر التي كان عليه أن يواجهها من أجل عبلة. ولما أصبح على مشارف الحجاز ترك العنان لمشاعره وأنشد:

نسيم ربا أرض الشربة أحياني
وأحيا فؤادي أم نسيم من البان
وهاتيك نار أوقدت لعبيلة
أم البرق من أطلال هاتيك يغشاني
فيا دار ما زال ربعك آنسا
بأترابها مع كل أهلي وجيراني
ترى سهرت عيناك يا عبل ليلة
كما سهرت من أجل بعدك أجفاني
ترحلت عن مغناك من غير ما قلى
ولكن بغى عمي عليّ وأقصاني
رماني إلى بحر المنايا فخضته
بأبيض ماض في الحروب يماني
وعدت بمال الكسروي وقيصر
ونوق وأصناف الخيول وغلماني
همو طلبوا بالغدر قتلي وما دروا
بأن المنايا في ذباب سناني[40*]

محنة عبلة في أثناء غياب عنترة

بعد أن انتشر خبر إرسال مالك لعنترة في مغامرة بائسة، مضمرا له الشر لإحضار النوق العصافير مهرا لعبلة، وجد نفسه موضوع سخرية واحتقار بين أفراد قبيلته، ولهذا عزم على أن يرحل سرا برفقة خمسة

عشر فارسا في رحلة سلب، وقرر ألاّ يعود إلا عندما يكون الناس قد نسوا جريرته. على أنه بدلا من أن يغزو الآخرين، أسره واقد بن مسعرة الكناني، فارس قبيلة كنانة المشهور هو ورفاقه. وكان هذا الزعيم قد أبلغته أمه أن مالكا عنده ابنة جميلة تدعى عبلة، فطلبها من أبيها ووافق على ذلك مالك طوعا، وعرض عليه أن يذهب ويحضرها له لتكون زوجة له. وعلى هذا الأساس أطلق واقد سراح مالك وابنه عمرو ورحلا في الحال إلى بلاد شريبة. وعند اقترابهما من قبيلتهما، وجدا أن الناس جميعا في حالة حزن إثر وصول النبأ بموت عنترة، فتسللا خلسة حتى وصلا إلى مضارب الخيام حيث أبصرا عبلة جالسة حزينة وقد ارتدت السواد، إلى جانب قبر أنشئ حديثا. عندئذ دخل مالك خيمة زوجته، فأخبرته أن شيبوبا جاء بنبأ موت عنترة، كما أخبرته أن القبيلة جميعها أحلت به اللعنة من حيث هو السبب فيما حدث له. وحاول مالك أن يخفف عن ابنته عبلة حزنها، ولكنها رفضت أن تقبل عزاءه واتهمته بأنه قاتل ابن عمها. ثم ذهب مالك لزيارة أخيه شداد فسمع - من بعد - نواحه لفقد ابنه البطل.

وهكذا وجد مالك المسكين الأحوال غير مريحة، ولم يبق له، على الأقل، سوى أن يهاجر بأسرته سرا، ثم أخفى نفسه حتى يحين وقت الرحيل، لئلا يكتشف عمارة خطته ويمنعه من مغادرة البلاد، إذ كان هو كذلك قد خطب عبلة من قبل. على أن عمارة قرر في نفس الوقت، وقد تخلص من غريمه عنترة، ألا يضيع وقتا في المطالبة بعروسه، ومن ثم رحل إلى بلاد اليمن في صحبة عروة بن الورد وعشرة فرسان آخرين، لإحضار مهر عبلة (عن طريق غزو القبائل بطبيعة الحال). ورأى مالك أن يستغل فرصة غياب عمارة ويرحل مع أسرته، ولكنه عندما أخبر عبلة أنه وعد واقدا أن يزوجها له، اعترضت عبلة وأعلنت رفضها لأن تكون زوجة لواقد أو لعمارة، لأنها قد دفنت قلبها في قبر عنترة.

وعلى الرغم من بكاء عبلة وعذابها، أمر مالك بأن تقوض الخيام. وعند منتصف الليل ترك قبيلته وتقدم مع أسرته حتى أشرف على وادي الظباء، حيث كان واقد يقبع متخفيا مع رفقاء مالك الذين احتجزهم رهينة حتى يعود. وعند وصول مالك، أطلق سراح الأسرى الذين عادوا إلى ديارهم، أما هو فقد استأنف السير مع مالك وأسرته عائدا إلى دياره.

وفي اليوم الرابع من سفرهم، هاجمتهم جماعة من قطاع الطرق بقيادة زعيمهم الذي يزهو باسمه، وهو «طارقة الليالي». ولما كان واقد شغوفا بأن يستعرض بسالته أمام عبلة، فقد واجه اللص الجبان الذي صرعه، ولكن بعد أن كان مالك وابنه قد أخذا أسيرين وأحكم وثاقهما. وبينما كان قطاع الطرق منشغلين باتباع واقد، حلت عبلة وأمها وثاق مالك وابنه وهرب الجميع إلى الصحراء حيث تقابلوا مع عمارة ورجاله، وهم عائدون بالغنيمة من بلاد اليمن يتهللون بفرحة الانتصار. وأخذ مالك يحكي لعمارة قصة حظهم العثر، عندما داهمهم طارقة الليالي ورجاله الذين هزموا الكنانيين ثم التفتوا وعادوا يبحثون عن الهودج الذي به عبلة. وعندما وجدوا الهودج فارغا اقتفى طارقة الليالي أثر الهاربين وأسرع في أسرهم، وتهيأ عمارة وعروة لمقاومة اللصوص، ولكنهما سرعان ما أمسك بهما وكبّلا. ومرة أخرى وقعت عبلة الجميلة وأسرتها في يد قاطع الطريق الشرير المفزع. وبعد أن أمضى طارقة الليل ليلته في ذاك المكان، استأنف سيره في الشفق بعد أن عين خمسة من العبيد للسير قدام عبلة لحراستها وأمرهم أن يسيروا إلى مكان يسمى ذات المناهل، وهناك يضربون بخيامهم، لأنه كما قال الشقي الشرير: «أريد أن أتمتع بهذه الجارية المليحة القوام مدة ثلاثة أيام».

عنتر ينقذ عبلة وأسرتها

وحدث أن عنترة الذي كان مستمرا في رحلته إلى دياره، عندما وصل إلى ذات المناهل بعد وقت قصير، حيث كان العبيد الخمسة الذين كانوا في حراسة محفة عبلة، يضربون خيامهم هناك. ولم يتعجب عنترة لسماع صوت امرأة في المحفة وهي تذكر اسمه في يأسها وتقوله: «ويل لهؤلاء العبيد الأنذال، آه يا عنترة، أين عيونك التي بها تراني؟».

وتأكد عنترة في هذه اللحظة أن الفتاة اليائسة ليست سوى محبوبته عبلة. وفي ثورة من الغضب صوب سهامه نحو العبيد، فسقط ثلاثة منهم، وهرب اثنان حاملين الأنباء إلى زعيمهم. وأُخذت عبلة بطبيعة الحال برؤية حبيبها عنترة على نحو مفاجئ، وكانت قد حسبته منذ زمن طويل في عداد الموتى، ولكنها سرعان ما استردت وعيها. ثم أخذت عبلة تحكي لعنترة كيف

أن شيبوب جاءهم ومعه الأخبار المحزنة بموته، كما قصت عليه كل ما حدث لها في أثناء غيابه الطويل. أما عنترة فقد أخذ بدوره يحكي لها في اقتضاب عن مغامراته، والأخطار التي واجهها منذ أن ترك أرض الشريبة ليحصل على النوق العصافير مهرا لها.

وبينما كان العاشقان يتبادلان الحديث، إذ أبصرا طارقة الليالي يقترب منهما في سرعة، وذلك بعد أن سمع من العبدين اللذين هربا من ضربات عنترة، عن ذلك البطل الذي لا يقاوم، والذي جاء لإنقاذ المرأة الجميلة التي كانت في عهدتهم. وفي الحال امتطى عنترة صهوة الأبجر وواجه قاطع الطريق برمحه في غير هوادة، وهو يصرخ: «أقسم بعبس وعدنان، أني أنا عاشق عبلة»، ورشق الرمح في صدره فسقط على الأرض فاقد الحياة، ثم أسرع البطل وطعن أتباع طارقة الليالي ثم أطلق سراح الأسرى. وبينما كان عنترة يعبّر عن ترحيبه بمقابلة عمه، كان يذكر في الوقت نفسه بأن كل المعاناة التي واجهها عمه متأخرا، لم تكن سوى عقاب لسلوكه في الماضي.

ثم ضرب الخيام، وأعد عبيد عنترة حفلا كبيرا، وأخذ البطل يمتع أصدقاءه بحكايات مغامراته في العراق، ومظاهر التكريم، والهدايا الملكية التي قدمها له الملك الكسرواني. وبعد أن انتهى الحفل انضم عنترة إلى عبلة التي ارتمت في أحضانه وقبلته عدة مرات، وعندما أخبرها بالثراء الذي جاءها به قالت له: إن سلامتك عندي أحب لدي مما ذكرت، وما أرى العز إلا إذا حضرت. وابتسم عنترة وانشرح صدره لمقالها وشكرها على صفاء ودادها.

استقبال القبيلة لعنترة البطل

وفي الصباح الباكر أمر البطل أن تحمل الجمال ويتم الاستعداد لاستئناف الرحلة إلى دياره. وبعد أن زين عبلة بالأثواب الرائعة المرصعة بالجواهر، ووضع على رأسها تاج كسرى، رفعها إلى القبو الفضي وأدخلها فيه هي وأمها، ثم أمر العبيد أن يسبقوا الركب ويتولوا حراستهم في رحلتهم.

وعندما جلست عبلة في المحفة كانت ملامحها متألقة وساطعة وكانت تبتسم ابتسامة فاتنة. لقد فاق سحرها كل شيء وانطلقت من رموش عينيها سهام تقتل الرجال والأبطال. وليس عجبا أن يعاني عمارة من الحسد

والغضب وهو يمسك بمقود البعير الذي يحمل عروس عنتر.

ولما أصبحت القافلة على بعد يوم من مضارب قبيلة عبس، تقدم مالك وابنه عمرو وأم عبلة ليخبروا الملك زهير بعودة عنتر، وخرج كل محاربي عبس وعلى رأسهم الملك لاستقبال البطل. ولم تعش القبيلة يوما أبهج من هذا اليوم.

«وفرح الجميع بلقائه وسلامته من أعدائه، وصار الملك زهير يسأله عن طريقه، وما كان سبب تعويقه، وإخوته جرير وشيبوب يضجان بالبكاء من حلاوة اللقاء بعد الحزن والشقاء»[*41] . ثم وزع عنترة الهدايا الثرية على الملك زهير وأبنائه وعلى كل نبلاء فوارس عبس؛ أما والده شداد فقد أعطاه كمية وافرة من الذهب والفضة وكثيرا من العبيد الأشداء، وما تبقى بعد ذلك أعطاه مع النوق العصافير لعمه مالك، وبعد ذلك رحل كل إلى خيمته، وقدم عمرو أخو عبلة وهو قائد بزمام البغال التي عليها العمارية التي فيها أخته عبلة، والأموال مع العبيد قدامه جملة. ولما وصل إلى فريق بني قراد الكرام كانت العبيد ضربت لهم الخيام ومدوا الأطناب وركزوا الأعلام. فعند ذلك تقدم عمرو وكشف سجاف العمارية وصاح بأخته وقال لها: قومي انزلي يا عبلة، وافرحي بهذه الأموال والخيرات والأرزاق التي أقبلت بالعرض. فلم يجبه من العمارية أحد. فظن أنها نائمة، فصاح بأعلى صوته، وقال لها قومي يا عبلة وانزلي، فلم يجبه أحد، فهز العمارية بقوته وأدخل رأسه فيها فلم ير فيها أحدا»[*42].

حزن عنترة لفقد عبلة

«الحظ يرفع والحظ يخفض» فبعد أن امتلأ كأس عنترة بالسعادة إلى أن فاض، سقط الكأس من بين شفتيه وتحطم بهذا الاختفاء الغامض لمحبوبته عبلة التي تحدى من أجلها مخاطر الصحراء والمجاهل، وحارب السبوع المتوحشة والمحاربين الذين لا يكادون يقهرون. أما بالنسبة لهذه الكارثة فلم تكن في حسبان البطل ابن شداد قط، لقد هبطت عليه بشدة إلى درجة هددته بفقدان عقله. وعبثا حاول الملك زهير ذو القلب الطيب أن يخفف عنه، ولكنه أكد له أنه لن يمضي وقت طويل حتى يكشف عن هذا الغموض. وأخذ المحب المترع بالحزن يتهم نفسه في قسوة بأنه في شغفه،

لمقابلة الملك، أهمل في ترك معبودة قلبه في رعاية عبيد لا يعرفون قيمتها. وأرسل الملك جماعات تطوف بالبلد في كل اتجاه، ولكنهم عادوا جميعا دون أن يحصلوا على أخبار عن ابنة مالك الجميلة. أما عن عنترة نفسه، فإن المصيبة سلبته الإحساس بما حوله؛ فقد حل محل مظهره المفعم بالتصميم، أغنية حزينة مغلفة بنظرة شاحبة من التفكير، كما أصبح مصارع الأبطال في هذا الوقت غير كفء للقيام بمغامرة تتميز بالتفوق والأهمية. وعلى كل فقد أرسل أخاه شيبوبا للبحث عن عروسه المفقودة، وظل ينتظر عودته بتوقعات ملؤها اللهفة، مما جعل النوم يجافي جفونه.

شيبوب يأتي بأخبار عن عبلة

وظل عنترة يتحمل هذا التعليق المعذب أياما وأسابيع، وكان مصدر عزائه مجتمع الملك زهير. وأخيرا عاد شيبوب يحمل أخبارا عن عبلة. وقال له عنترة: «أخبرني بالعجل يابن الكرام ولا تطول عليّ الكلام، فقال له شيبوب: ها هي مرمية عند مفرج بن همام في بني طيء، وأمه تستخدمها في الجلة والحطب وتغلظ عليها في الكلام وقلة الأدب، فقال له: وما سبب وصولها إلى تلك البلاد، فقال له: أخذها عمارة بن زياد، فقال: وكيف عرفت ذلك... فقال شيبوب: لما خلصه عنترة من أسر طارقة الليالي وعاد معه إلى قرب ديار عبس، وقد شاهد تلك الأموال والغنائم، كادت روحه أن تزهق من جسده... ففي تلك الليلة ما ذاق طعم المنام، بل إنه خرج في الليل من الخيام... وكان لم يزل سائرا... فبالقضاء والقدر وقع بعبلة فانقض عليها... وعرفته عبلة وقالت له: أما تستحي وأنت تسبي بنت عمك؟ ولم يزل على ذلك إلى أن أمسى عليه المساء... وإذا الغبار قد ثار وبان من تحته فرسان وشجعان... والمقدم عليهم مفرج بن همام الطائي... وطعنه فارس منهم بعقب الرمح فقلبه عن جواده وكركبه وأخذه أسيرا وقاده ذليلا حقيرا وحملوه هو وعبلة وساروا بهما إلى ما بين أيادي مفرج بن همام. فقال له عنترة: أخبرني يا أخي كيف عرفت ذلك: فقال له يا ابن الأم إني درت في بلاد اليمن وصنعاء وعدن، وأتيت جبال بني سلمى وبت في كل فريق الليلة والليلتين. ولما كان في آخر ليلة بت في حلة مفرج بن همام عند عبد يقال له سلام، فأضافني وأكرمني بعد ما سألني عن عُربي وحسبي ونسبي.

فقلت له يابن الخالة أنا من جهينة، فقال لي أكرمت يا مولد العرب. فلما نامت الناس كلهم وهدأت الحركات... وقع في أذني صوت عبلة وهي تنادي في الليل الهادي... وتقول: واشوقاه إلى العلم السعدي وأرض الشـريبة، واحسـرتاه من بعد الوطن وفراق الأحبة، يا حامية عبس من أين أناجيك، ومن أي الجهات أناديك... فما يخلصني من هذا العذاب غيرك... ولقد آلمني العذاب وقرّح جفن عيني الدمع والاكتئاب... ثم إنها يا ابن الأم بكت وأكثرت النواح وقيل إنها تموت قبل الصباح». واستمر شيبوب (في وصف ما حدث فقال:) «فقلت للعبد الذي أنا في ضيافته، يابن الخالة ما لهذه الجارية من دون نساء الحلة ما نامت وهي على هذه الحالة؟ فقال العبد يا فتى اعلم أن هذه الجارية يقال لها عبلة بنت مالك بن قراد العبسي، ثم إنه يا أخي أعاد عليّ حديثها وكيف وقع مفرج بن همام برجل يقال له عمارة بن زياد، وكيف أسره وحكى له ما جرى لك معه، وعلى ما أتيت به معك من بلاد العراق، وكيف خلصته من العبيد اللئام، وكيف أنك ملكت عبلة... ولأجل القضاء والقدر لقيها في الطريق وأخذها وراءه على الجواد ثم أخذها منه مفرج بن همام... وطلب منها ما تطلب الرجال من النساء وهددته بك يا فارس الفرسان... فلما سمع مفرج منها هذا الكلام، كبرت نفسه عنده فنزع ما كان عليها من الثياب والجواهر وضربها بالسياط الثقال، وفعل بعمارة أقبح الأفعال، وأوثقه بالقيود والأغلال، حتى إنه يفدي نفسه بالنوق والجمال وقد أنفذ لإخوته يعلمهم بما هو فيه من سوء الأحوال ويطلب الخلاص منهم من كثرة العذاب... إنني يا ابن الأم لما سمعت هذا الكلام وأقبل الصباح بالابتسام، طار من عيني لذيذ المنام، وما صدقت أن صبح الصباح يصبح حتى أنني طلعت من عندهم لأجل أن أعرفك ما جرى لهم»[*43].

عنترة ينقذ عبلة

ما أن انتهى شيبوب من رواية ما قد جرى من أحداث، حتى بدا على عنتر الذهول، المشوب بالحزن والغضب. وعندما استعاد توازنه صرخ قائلا: «لابد لي أن أكافئ بني زياد ولأحرمنّهم لذيذ الرقاد»[*44]. ثم أسرع إلى صديقه الأمير مالك الذي ذهب به إلى الملك وأخبره عن صنع عمارة الناكر

للجميل مقابل ما أداه له من تحريره من أسر طارقة الليالي. وغضب زهير كل الغضب لهذا السلوك الشائن، وأقسم لينتقمن من بني زياد جميعا، ولكن عنترة أخبر الأمير مالك أنه لن يعرض الملك للمتاعب بسببه، وسوف يتولى وحده أمر تخليص عبلة. على أن صديقه مالك أصر على أن يصاحبه. وانتهز فرصة غياب الملك زهير في الصيد وقاد فرسان أبيه، بينما استدعى عنترة أباه شداد وأخاه مالكا مع ابنه عمرو. ولم تكد الشمس تبزغ حتى بلغ عدد المحاربين مائتين، واستعدوا للانتقام من الإهانة التي لحقت ببني قراد والقبيلة بأسرها. وفي الطريق توجه عنترة إلى الأمير مالك وقال له «يا مولاي إن سفرتنا أمرها عجيب وزين لاحتوائها على أمرين، تخليص حبيبتي من الذل، وإنقاذ عدو شن. فقال مالك: وما معنى هذا الكلام يا أبا الفوارس؟ فقال لأني سائر إلى أعدائي أتسبب في خلاصهم وأنا أعلم أنهم لو ظفروا بي ما أبقوا عليّ ولكن لأجل عين تكرم ألف عين، ولأجل عبلة أتحمل الضيم[(*45)].

وفي هذه الأثناء، كان ربيعة يتقدم على رأس مائتي فارس لإنقاذ أخيه عمارة. ولكن مفرج بن همام كان يحذرهم. ثم هجم عليهم وأخذ ثلاثين منهم أسرى. وتراجع ربيعة مع ما تبقى من أتباعه إلى التلال الرملية، وهناك غلب عليهم الأسى بسبب احتياجهم إلى المياه. ثم أرسل ربيعة رسولا إلى مفرج طالبا منه الحماية حتى يتمكنوا من تسليم أنفسهم وتدبير الفدية، فإذا لم يوافق على تجنب مزيد من إراقة الدماء، فليمدهم على الأقل بالماء. وكان جواب مفرج على هذه الرسالة قاتما، إذ قال إنه مستعد لأن يمدهم بالماء بشرط أن يلقوا عنهم أسلحتهم وأن يحضروا إليه مترجلين، ثم يحلق لهم أذقانهم ويجدع أنوفهم ويقطع آذانهم. ثم أقسم باللات والعزّى أن يشنقهم جميعا. وهبط ربيعة وأتباعه إلى السهل وبدأوا يستعدون لهجوم آخر. ولكن الضعف كان قد تملك منهم بسبب العطش وسهل على طيء أسرهم جميعا.

«وأما ما كان من مفرج بن همام ومن معه من بني الأعمام فإنه صار يشرب معهم المدام وقد أكثروا من الحديث والكلام حتى سكروا وانتشوا وانعجموا عن الكلام، فأخذ مفرج الوسواس بذكر عبلة، وقد صار من أجل حبه لها في ذلة، فدخل إلى بيته وهو يميل من الخمر، وقال لأمه، وحق ذمة

العرب الأخيار ما بقيت أنام الليلة، ولا يقر لي قرار حتى أبلغ من جاريتي العبسية ما أختار، وإلا قتلتها وأنزلت بها البوار بعد ما أذبح بين يديها من بني عمها خمسين فارسا أخيارً، وأشفي قلبي منها سريعا. وأول ما أبدأ بهذا الذي يقال له عمارة وأخوه الربيع وأضربهما بعد ذلك الضرب الوجيع. فعند ذلك خرجت أم مفرج إلى المضرب الذي فيه الإماء والمولدات، ونادت بعبلة فأتت إلى حضرتها في أسرع وقت، فقالت لها، اعلمي أن مولاك في هذه الليلة طافح سكران، وقد حلف وشدد في الأقسام والأيمان أنه لا يرقد الليلة ولا ينام إلاّ وأنت حضينته في المنام. وإلا ذبح من بني عمك خمسين غلامً، فاقبلي مني هذا الكلام، وأجيبيه إلى ما أراد من المرام، وقد نلت ما تشتهين من الأمر والشأن، فلعلك أن تنزلي في قلبه وتتشفعي في بني عمك مما نزل بهم من الآلام. فعند ذلك قالت لها عبلة: اسمعي يا عجوز ما أقول من الكلام، فوحق من رفع هذه السماء وأجرى بقدرته الماء، وعلم آدم الأسماء، ولو أن ابنك يقطعني قطعا ويبضعني بضعا بضعا، وذبح جميع بني عبس وكل ما طلعت عليه الشمس، ما يراني له ضجيعة ولا سامعة ولا مطيعة، وإن رأيته جد في قتلي، فأنا أقتل روحي بيدي ولا أدعه يتحكم في مهجتي. فلما سمعت أم مفرج منها ذلك الكلام وما أقسمت بها من تلك الأقسام، زاد بها الغيظ فلطمتها على وجهها، وقالت للإماء خذوها إلى عند سيدها يفعل بها ما يريد، كما تفعل السادة بالعبيد. فعند ذلك دارت بها الإماء وصرن يجذبنها وهي تضج بالبكاء وتكثر من الأنين والاشتكاء وتقول يا آل عبس يا آل عدنان أما من أحد يخلصني من قبضة هذا الشيطان؟[46*].

وفي هذه الليلة نفسها فوجئت قبيلة طيء في خيامهم بعنترة الذائع الصيت ومحاربيه وهم ينادون يا آل عبس يا آل عدنان، ولم يتركوا منهم صغيرا أو كبيرا. وبينما كان الفرسان مشغولين في قتل رجال طيء وأسرهم، حرر شيبوب ربيعة ورفاقه، ثم تجول بين الخيام بحثا عن عبلة وأخيرا وجدها وقد غطتها جثث القتلى وهي تئن أنين المرأة الثكلى:

وأخذ شيبوب عبلة بين ذراعيه وأحضرها إلى عنترة الذي ضمها إلى صدره وقبلها بين عينيها وصار يقول لها: «أقلي يا منية القلب بكاك فلا عاش من يشناك. فو الله يا بنت العز يعز عليّ أن تلقي هذا الملتقى أو تنالي

بؤسا وشقا وأنا في الحياة الدنيا، ولكن هذه غدرات الزمان لأنه دائما غدار وخوان»[*47]، ثم طلب عنترة من أخيه أن يحمل عبلة إلى خيمة مفرج بن همام (الذي كان قد هرب إلى الجبال). وسعد شيبوب بعثوره على كل ممتلكات عبلة: أرديتها الثمينة والعقود المصنوعة من الجواهر التي كان قد استعادها لها، وبهذا اختفت عن عبلة أحزانها ومآسيها وانطلقت بآمالها ورغباتها.

وبينما كان العبسيون على وشك أن يرحلوا إلى بلادهم، جاء ربيعة وعمارة إلى عنترة وتوسلا إليه في ذلة أن يغفر لهما أفعالهما الشائنة. وزال من قلب عنترة ما كان فيه من الأحقاد وشعر نحوهم بود القرابة التي تربطه بهما، ثم احتضنهما وقال: على الرغم من أنه يساء إليّ بسبب سواد بشرتي فإن أفعالي أفعال النبلاء.

وبعد أن عادوا من بلاد قحطان، واجهوا قبيلتي جديلة ونبهان، فدارت بينهما معركة حامية انتصر فيها العبسيون الذين جمعوا الغنائم إثر ذلك وعادوا إلى خيامهم يتقدمهم عنترة.

«وتهللت عبلة لجرأته وبسالته وابتسمت، ولما رآها عنترة تبتسم قال: يا ابنة العم أنت تبتسمين لما رأيته من أدائي في المعارك والمجازر. قالت له بشرف العرب لقد ذهلت لضرباتك بين هؤلاء الأنذال. وكان لكلماتها وقع على قلبه أحلى من وقع الماء القراح على الروح العطشى»[*48].

وفي منتصف الليل، وبعد أن اقتسم العبسيون الغنائم، امتطوا صهوات جيادهم، واستأنفوا سيرهم عائدين إلى ديارهم، وعندما بدأت أشعة الشمس تطرد الظلام، اكتشفوا قدوم قبيلة طيء وعلى رأسها الملك ملجم ابن حنظلة، ومعه أخوه الملقب بشارب الدماء، وهم يقتفون أثرهم، وعندما رأى العبسيون أعداد الأعداء، استعدوا للهرب، ولكن عنترة بث فيهم الشجاعة، عندما اقتحم جيش طيء في غير هوادة من قبل فرق الفرسان التي أرسلها الملك زهير لتكون في عون عنترة، وانهزمت طيء وخلفت الكثير من القتلى.

وفي اليوم التالي، توسل والد عبلة للأمير شاس، بناء على اقتراح ربيعة، أن يأخذ عبلة تحت حمايته، لكي يمنع عنترة من الزواج بها، ووافق شاس على ذلك، وأرسل في طلب عنترة، وصرح له بأن عبلة من الآن فصاعدا ستكون تحت حماية زوجته. وفي الوقت نفسه لامه على سعيه وراء امرأة لا

حق له فيها. ودمعت عينا البطل، ورد عليه بأن عمه هو الذي أضرم نار الحب في قلبه، فعندما تكون عبلة في الأسر يتوسل إليه أن ينقذها، فإذا أنقذها سماه عبدا وابن عبدة.

ورحل عنترة إلى صديقه الأمير مالك، وأخبره بنيّة عمه الشريرة في مقاومة زواجه من عبلة. ووعده الأمير أن يحمل إليه عبلة بالقوة، وما عليه سوى أن ينتظر عودة الملك زهير وعندئذ يحصل على الحكم العدل. ولكن البطل، الذي لم يكن راغبا في أن يحمّل صديقه أحزانه، أو في أن يكون السبب في نشوب نزاع في القبيلة، قرر أن يرحل سرا إلى مكة، وأن يحمل شكواه لإله العالمين.

رحلة عنترة إلى مكة

وفي الليل، وعندما عم الكون السكون، امتطى عنترة الأبجر واصطحب أخاه شيبوبا، ورحلا معا إلى الكعبة المقدسة، ولم تحدث في أثناء رحلتهم حوادث خاصة حتى اقتربوا من مكة. وعندما أبدى شيبوب ملاحظة لأخيه بأنهما لم يواجها أي مغامرات في الطريق، الأمر الذي يثير دهشته، أجاب عنترة بأنه مل من مواجهة الأخطار وعزف قلبه عن القتال. ولكنهما ما لبثا أن سمعا، في هدوء الليل، صوتا أنثويا يتشكى، وكان من الواضح أن الصوت يتشكى بحزن موجع، الأمر الذي جعل عنترة يرخي عنان فرسه ويعدو به في اتجاه الصوت. وهناك رأى امرأة أخبرته بأنها من قبيلة كندة، وأن زوجها أسعد بن عباد، وقد انتابت بلادهم مجاعة، وكانوا في طريقهم مع أسرتهم إلى ديار بني الحارث ليقيموا بها، حيث إن لهم ابنة متزوجة هناك، عندما هاجمهم فارس من فرسان الصحراء يدعى صدام بن الملهب مع أربعين من الغزاة، فقتلوا ثلاثة منهم، وجرحوا زوجها وأخذوها وبناتها الثلاث أسرى، وكانوا على وشك أن يرسلوهن إلى جبال طيء لبيعهن إماء هناك. وعندئذ ترك عنترة شيبوب يتولى رعاية النساء، وأمسك برمحه وتحول إلى صدام وأتباعه الذين رآهم مسرعين نحوه. وفي الحال تلقى البطل طعنات من عدد من قطاع الطرق، ومع ذلك فقد أخذ يصرعهم في الاتجاهين، ثم اتجه إلى صدام وطعنه في صدره بسيفه الظامي فشطره شطرين، وسقط الزعيم على الأرض ميتا غارقا في دمائه.

وتجمعت البنات الثلاث وأمهن حول مخلصهن وهن يقبلن يديه، ويشكرنه على إنقاذهن من العار. أما عنترة فقد طلب من الفتيات أن يسدلن خمرهن على أجسادهن، ثم ضمد جراح أبيهن الشيخ وجلس ليستريح بعد تعب المعركة. ولما كان الشيخ شاكرا لأفضاله التي قدمها لأسرته، فقد قدم له فتياته ليختار إحداهن لتكون زوجة له، ولكن عنترة رفض عرض الشيخ في أدب جم، ثم توجه للفتيات وأنشدهن:

لو كان قلبي معي ما اخترت غيركمو
ولا أردت سواكم في الهوى بدلا
لكنه رغب فيمن يعذبه
وليس يقبل لي قولا ولا عملا
أشكو إلى الله من جور بليت به
من اللئام الأولي قد أحكموا الزللا
مالي سواه معين ابتغي عوضا
لأنه عادل ما يبتغي بدلا

وبعد أن رافق عنترة الشيخ وأسرته لحمايتهم إلى ديار بني الحارث، تركهم واستأنف السير إلى مكة بمرافقة شيبوب. ثم إنه عاد بعد هذا الكلام إلى ناحية البيت الحرام وزمزم والمقام، وهو تائه في ميدان العشق والغرام، زائد القلق قليل المنام، فكان يمضي النهار في الصيد ليخفف من أحزانه ومتاعبه، والليالي يقضيها مع شيبوب في حديث عن الحكايات القديمة والأحداث الماضية[*49].

الأمير شاس في الأسر

وكان أصدقاء عنترة قلقين كل القلق على رحيله، وأخذوا يبحثون عنه في كل مكان، وكان عمه يشعر بصفة خاصة، بالرضاء، حيث إن رحيل عنترة قد تركه حرا، كما كان يظن، في أن يقرر مصير عبلة. وبناء على ذلك فقد عاد وخطب عبلة لعمارة، وتم العقد بين والد عبلة وعمارة وسلم أحدهما على الآخر. ولكن الأمير مالك حزن بسبب هذا الظلم الذي لحق بصديقه الغائب، وأقسم أنه لن يسمح لعمارة بأن يتزوج عبلة، فما زال يعيش ليقاوم خططه الوضيعة، وخطط والدها الدنيء الماكر، وتنبأ بأن الشر سيلحق

بشاس حيث إنه شارك في هذه الصفقة الخسيسة.

وعندما وصل العبسيون غدير ذات الأرصاد، رحل الأمير شاس بفرسانه ليقتفوا أثر ظبي، وهناك تقابلوا مع فريق من المحاربين بقيادة ميسور بن زياد من بني الخزرج، وهم فرع من بني الحارث، ووقع العبسيون صرعى فيما عدا شاس الذي أخذ أسيرا حيث عامله ميسور بوحشية، إذ كان الأمير قد قتل أخاه في معركة من المعارك.

ووصل الأمير مالك والآخرون في أمان إلى مضارب قبيلتهم، وغضب الملك زهير عندما علم أن والد عبلة عاد وخدع عنترة النبيل، وأنبه بشدة لسلوكه الإجرامي، وأمر بطرد عمارة عقابا له على خطبته لعبلة، وهو يعلم أنها مخطوبة من قبل لعنترة، وأن أباها امتلك المهر الغالي الذي كان البطل قد أحضره من العراق. وقد تسبب غياب الأمير شاس في قلق الملك قلقا شديدا، وزادت لوعته بعدما أرسل الفرسان إلى الصحراء للبحث عنه ولكن دون جدوى، ومن ثم فقد أعلن أنه إذا قتل شاس، فسوف يقطع رأس عمارة ويشنق مالك بن قراد لأنهما حرضا ابنه على أن يسلك سلوكا وضيعا إزاء عنترة.

وفي أثناء ذلك كان شاس قد وقع أسيرا في ديار بني الحارث وكان يعذب كل يوم من قبل ميسور، إذ إنه «ضرب أربع سكك من حديد، وشبحه فيها مثل بعض العبيد، وقال له وحق الواحد المجيد لابقيت أطلقك حتى أعذبك العذاب الشديد... وصار إذا دخل لطمه، وإن خرج صدمه»[*50]. وعندما سمع زعيم العشيرة عن المعاملة المخزية التي يتعرض لها عربي نبيل، أرسل إلى ميسور ونصحه بأن يخفف من قوته على أسيره، واستجاب ميسور لطلب الزعيم وأسرع إلى شاس وفك قيد يديه، وأبقى على قيد رجليه، وركله في ظهره وعين له حارسا يحرسه.

عنترة يُستدعَى من مكة لإنقاذ شاس

على أن الأمير شاس عثر على صديق الشدة ممثلا في المرأة العجوز التي كان عنترة قد أنقذها، وهو في طريقه إلى مكة، هي وأسرتها من أسر صدام، قاطع الطريق. وكان الحظ العثر قد لقن شاس درسا مفيدا، ومن ثم أصبح نادما كل الندم على سلوكه تجاه البطل النبيل عنترة. فلقد أكد

للعجوز أنه إذا حصل على حريته فسوف يكون صديقا لعنترة وسوف يساعده على زواجه من عبلة. ولما رأت العجوز أن عنترة سوف يغنم من صداقته لشاس، أرسلت زوجها الأشعث إلى مكة ليخبر عنترة بما حل بشاس.

«وجدّ (الشيخ) في المسير من وقته وساعته وما زال سائرا يجد المسير إلى أن وصل إلى مكة المشرفة والبيت الحرام... ولما صار في مكة أخذ يتقصى أخبار عنترة من بعض الأقوام، فأرشدوه إليه... وصار بين يديه وأعلمه بقصة شاس وما تم عليه، وأنه قد أتى وتركه في حالة العدم... وقال شيبوب: لأنه لم يكن لأخي عدو غيره ولا ضد سواه، فلا فرج الله عنه ما هو فيه، وبما فعل يجازيه، فقال عنترة: لا تقل هذا المقال يا شيبوب... واعلم أنه لا ينال العلا إلاّ من ليس عنده حقد ولا ظلم ولا اعتداء، ثم أنشد:

لا تحمل الحقد يا شيبوب اتركه
فلا ينال العلا في الناس من حقدا
والبغي شؤم فلا تأمن عواقبه
واعلم بأن لا يفادى يومه بغدا
دعني أحمّل نفسي كل نائبة
فإن سلمت وإلا مت مجتهدا
ألقى جميع العدا في كل معركة
أموت موت كريم قد لقى رشدا
أعفو عن الأهل لا أبغي لهم بدلا
وأخدم القوم حتى أعدم الجلدا

«ثم إن عنتر لما فرغ من ذلك الشعر والنظم، أكرم الشيخ غاية الإكرام وشكره على ما فعل من ذلك الاهتمام، وأقام بقية يومه وليلته حتى أن الشيخ استراح، وقال له: قم يا كريم النسب، ودعنا نسير إلى خلاص الأمير شاس المنتسب، من قبل أن يتم عليه الويل والنصب، فقال الشيخ: إن هذا الأمر قد وجب، وقد لحقه من حسن مروءته العجب، وساروا يجدون المسير في المهامه والقفار وشيبوب في مقدمتهم جاعلا الوحوش المفترسة والظباء تطير أمامه»[*51].

وقبل أن يصل عنترة لإنقاذ شاس، كان ميسور قد عزم على شنق الأمير

شاس دون تسويف، ولهذا فقد مكنت عجوز كندة شاس من الهروب متنكرا في هيئة عبد، ثم قادته إلى الطريق المؤدي إلى مكة. وبعد أن استراح الأمير في أثناء الليل في كهف في الجبال، استأنف سيره مع طلوع الشمس حتى تقابل مع جماعة من قبيلة ريّان، وحدس أحدهم خطأ أنه العبد الذي سرق حصانه مؤخرا. ولما أخبرهم بأنه شاس بن زهير، تبين، لسوء حظه، أنهم أعداء قبيلته، وكانوا على وشك أن يقضوا عليه، عندما اكتشفوا رجلا يجري في اتجاههم في سرعة الريح، كما اقترب من خلفه فارسان وكان هؤلاء الثلاثة هم عنترة وشيبوب والأشعث، وسرعان ما أرغم البطل، بسيفه الظامي ومساعده وشيبوب، المحاربين على أن يعضوا التراب فيما عدا واحدا تمكن من الهروب على جمل سريع.

وأعرب الأمير شاس لعنترة عن ندمه الشديد، ووعده أن يكون في المستقبل متسع من الوقت لتحسين صورة ماضيه. وبعد أن قدم عنترة للأشعث كل الخيول والغنائم، ودعهما الشيخ ورحل إلى بلاده، بينما بدأ البطل عنترة والأمير شاس رحلتهما إلى أرض الحجاز في رفقة شيبوب الثقة، ليدلهم على الطريق، وفي اليوم الخامس وصلوا إلى مياه قبيلة الغيلم حيث أخلدوا للراحة ليلا.

البطل يواجه روضة، الفارس الجسور، وهو في طريقه لخطبة عبلة

وظل شيبوب يقود أخاه والأمير شاس في أمان، مارا بكثير من القبائل المعادية. وفي اليوم الحادي عشر من رحيلهم، وصلوا إلى أرض تسمى ذات الأعلام «فبينما هم سائرون في تلك الآكام، وإذ قد ظهر بين أيديهم ستة هوادج على ستة جمال وعلى رأس كل هودج هلال، وعلى الهودج ثياب من الديباج مصفحة بصفائح الذهب الوهاج، وعليها شراشيف من الحرير والإبريسم الأصفر والأحمر والأخضر، محبوكة أطرافه بالقصب المفتخر، يأخذ ضياء لونه بالبصر، وحولهم جملة من العبيد الأجواد، وكل واحد منهم كأنه طود من الأطواد... وتقدم على الجميع فارس، في الحديد غاطس، وهو طويل من الرجال، عريض الأكتاف والأوصال، مضيق اللثام، كثير الاحتشام مليح القوام، صلب الفطام، له وجه كأنه البدر التمام... وعلى رأسه خوذة عادية لامعة تتوقد، متقلد بسيف عريض مهند محلّى بالذهب المنضد، وعلى كتفه رمح طويل مكعب... وتحته جواد كأنه سلهب كثير

الخبب، طويل الذنب قليل التعب... تربية ملوك العرب أصحاب الحسب والنسب، وهو مثل الأسد السائج وهو يسير قدام وادج والجمال[*52].

وكان هذا الفارس هو روضة بن منيع، وقد وقع، شأنه شأن عمارة، في حب ابنة مالك من الوصف الذي سمعه عن جمالها.

وكان روضة في هذه اللحظة، في طريقه إلى قبيلة عبس ومعه الهدايا الثمينة لعبلة وترافقه أمه وأخواته الخمس، وكان هذا الفارس شغوفا بمواجهة عنترة أو أي فارس آخر ذائع الصيت يمكن أن يقف مناوئا له في طريق الزواج بعبلة.

ونشبت المعركة بطبيعة الحال، بين عنترة وروضة، وأرغم البطل العبسي روضة على أن يترجل عن فرسه، ولكنه حفظ له حياته، ومنحه حريته لما توسطت بينهما أمه وأخواته، وامتلأ روضة إعجابا بعنترة وامتنانا لعطفه، ورجاه أن يقبل الهدايا التي كان ينوي تقديمها لعبله، ثم عاد أدراجه إلى أرضه.

ووصل الأمير شاس وعنترة في النهاية إلى مضارب قبيلتهما، واستقبلهما الملك بحرارة، وكذلك كل المحاربون النبلاء من قبيلة عبس، وهنأه عمه المنافق على عودته، وأعلن على الملأ أن عنترة سوف يتزوج من عبلة في هذه الليلة. وشعر شداد بأن العالم يضيق بفرحته بوصول ابنه، وقبلته أمه زبيبة، وهي تقول له: لو أنك بقيت معنا، ورعيت الجمال معي، لخفت آلام قلبي التي سببتها هذه الحوادث المزعجة التي حدثت لك. وابتسم عنترة وطمأنها واحتفل الملك زهير بعودة شاس وعنترة، وأقام حفلا كبيرا أكد فيه أبناء زهير جميعا بحرارة صداقتهم للبطل.

عنترة يقوم بمغامرة أخرى من أجل عبلة

ومرة أخرى بدا كما لو كانت كل عقبة في طريق زواج عنترة من عبلة قد أزيحت. أما في الحقيقة فقد كان عمه المخادع ما زال نافرا من إتمام زواج عبلة بعنترة، وسرعان ما خطط لمؤامرة أخرى يحقق بها موت البطل. ولهذا أوعز إلى ابنته ببراعة أن تطلب من عنترة أن يُعلي من قدرها على نحو ما حدث مع الجيداء ابنة زاهر؛ فعندما تزوجت الجيداء من ابن عمها خالد بن محارب، أمسكت ابنة معاوية بن نزال بلجام ناقتها. وعندئذ وعدها

عنترة في جرأة أن تمسك الجيداء نفسها بلجام ناقتها، وأن تطوق رأس خالد عنقها ليلة زفافها. وتظاهر والد عبلة بالاعتراض على هذا الاقتراح الفظ، ولكن عنترة، كما كان متوقعا، أصر على تنفيذ وعده. وفي هذه الليلة نفسها رحل البطل الذي تملكه الشغف في تحقيق رغبة محبوبته عبلة، للقيام بهذه المغامرة الخطيرة وأخذ ينشد:

أجـوب هـذي الـفـلا والـلـيـل مـعـتـكـر
وأقـطـع الـبـيـد والـرمـضـاء تـسـتـرُ
ولـيـس لـي مـؤنـس غـيـر الحـسـام وإن
صـال الأعـادي غـداة الـروع يـبـتـدر
إلـيـكـمـو يـا سـبـاع الـبـر عـن رجـل
إذا مـضـى سـيـفـه لا يـنـفـع الحـذر
أو رافـقـيـنـي تـريْ قـتـلاي مـطـرحـة
والـطـيـر عـاكـفـة تـغـدو وتـبـتـكـر
مـا خـالـد بـعـد مـا قـد سـرت أطـلـبـه
بـخـالـد ولا الجـيـداء تـفـتـخـر
ولا ديـار هـمـو بـالأهـل آنـسـة
إلا الـقـلـيـل ويـأوى سـوحـهـا الـنـمـر
يـا عـبـل يـهـنـيـك مـا يـأتـيـك مـن نـعـم
ومـا يـصـيـر عـلـى أعـداك مـن قـدروا
يـا مـن رمـت مـهـجـتـي مـن لحـظ مـقـلـتـهـا
بـأسـهـم قـاتـلات رامـيـهـا عـسـر
نـعـيـم وصـلـك جـنـات مـزخـرفـة
ونـار هـجـرك لا تـبـقـي ولا تـذر
سـقـاك يـا عـلـم الـسـعـديّ غـاديـة
مـن الـسـحـاب ويـروي ربـعـك المـطـر
كـم مـن لـيـال قـضـيـنـاهـا مـؤانـسـة
مـضـيـئـة بـالـصـفـا مـا شـانـهـا كـدر
مـع فـتـيـة تـنـقـل الأقـداح بـيـنـهـمـو
مـدامـة مـزجـت راووقـهـا عـطـر

إن عـشـت فـهــي الــتــي مــا دمــت أشــكــرهــا
أومـــت فـــهـــي لـــيـــال كـــلـــهـــا الـــعـــمـــر

حكاية الجيداء وخالد

محارب وزاهر هما والدا خالد والجيداء على التعاقب. وكان محارب زعيم قبيلة بني زبيد، وكان زاهر مستشاره، ثم تشاجر الأخوان بعد ذلك، فحمل زاهر خيامه، وحط رحاله عند قوم يقال لهم بنو سعد. ثم حملت زوجة زاهر، فقال لها زوجها إنه إذا كان المولود ولدا فأهلا به، أما إذا كان بنتا، فعليها أن تخفيها وتعلن على الملأ أنها أنجبت ابنا، وذلك حتى لا يشمت فيه أخوه. وبعد أن انقضت شهور الحمل، ولدت الزوجة بنتا، سماها أبوها في محيط أسرته الجيداء، وسماها على الملأ «جودر» حتى يعرف الجميع أنها ولد. وفي الوقت نفسه على وجه التقريب، ولد لمحارب ولد سماه خالدا. ونشأت ابنة زاهر نشأة الولد، وعُلمت ركوب الخيل، وسرعان ما اشتهرت بتدريباتها التي تلائم الفارس النبيل، وكانت تصحب أباها في المعركة، مشاركة فيها بالجانب الأهم. كذلك أصبح خالد أشهر فارس في عصره، وصار معترفا به على الملأ بوصفه المحارب الجسور والبطل الباسل. ووصلت إلى خالد شهرة ابن عمه جودر (الجيداء). وبعد أن مات أبوه، شدّ الرحال إلى عمه، ومكث عنده عشرة أيام في مقارعة فرسان أسرته. وفتنت الجيداء بابن عمها. وعندما علمت أمها بذلك، رأت ضرورة أن يتم زواجها من ابن عمها، ولكن عندما أخبر خالد عن طريق أمه أن ابن عمه فتاة وليست رجلا، اغتم غما شديدا، واستخف بحب ابنة عمه له وأسرع عائدا إلى قبيلته.

ولما غضبت الجيداء لهذه الإهانة، قررت أن تنتقم من ابن عمها، فرحلت إلى حلة بني زبيد متنكرة، وهناك دخلت خيمة أقيمت للتسلية على مستوى جماهيري، وهي مقنّعة على هيئة فارس حجازي، وبعد أن أثبتت علو قدرها فوق كل الفرسان، دخلت مع خالد في مبارزة لمدة ثلاثة أيام متتالية لم يتمكن أحدهما أن يغلب الآخر خلالها. وعندما كشفت عن نفسها لابن عمها، كان كرهه قد تحول فجأة إلى حب، ولكن الجيداء رفضته وعادت إلى بيتها.

وأسرع خالد إلى عمه وطلب منه أن يزوجه الجيداء، ووافقت ابنة عمه أخيرا على أن تتزوج به شريطة أن يذبح لها ليلة العرس ألف جمل يؤتى بها من جمال خشم بن مالك الملقب بملاعب الأسنة. وحصل خالد على هذه الجمال عن طريق غزوته لقبيلة عامر، ولكنه عند عودته وضعت الجيداء شرطا آخر، وهو أن تمسك بلجام جملها ليلة العرس، ابنة أمير تؤخذ أسيرة. ومرة أخرى رحل خالد مع فرسانه وهاجم حلة معاوية بن النزال وأسر ابنته أميمة. وبعد أن عاد، بدأ الاحتفال بالزواج مباشرة، وأمسكت ابنة معاوية أميمة بلجام جمل العروس وبهذا ذاع صيت الجيداء بين الرجال والنساء جميعا.

عنترة في حلة زبيد

وعندما وصل عنترة إلى حلة الزبيديين، وجد خالدا غائبا في غزوة، ولكنه تقابل مع الجيداء وهي ممتطية ظهر حصان ومسلحة بسلاح فارس. وواجهت المرأة المحاربة عنترة بشجاعة، ولكنها بعد ذلك تقهقرت وأخذت أسيرة. وعندما دعا الملك زهير محاربيه ليلحقوا بعنترة ويشاركوه المعركة، استغل والد عبلة هذه الفرصة لترك القبيلة مرة أخرى، كما هاجر مالك مع أسرته، ومعه ربيعة إلى قبيلة عامر. ولكن سوء الحظ حالفه كالعادة؛ فلقد كان خالد ومحاربوه يهاجمون العامريين وأُخذ مالك وربيعة أسيرين. وبينما كان خالد عائدا إلى موطنه، تقابل مع بني عبس، وقامت بين الفريقين معركة يائسة قتل فيها الكثير من الجانبين، وظل خالد وعنترة في أثناء الليل التالي يحرس كل قبيلته، ثم تقابل البطلان وقتل عنترة بطل الأبطال خالدا، وقطع شيبوب رقبته لكي تزين بها رقبة عبلة ليلة عرسها، وفي أثناء ذلك دارت معركة انتصرت فيها عبس. وبعد أن عاد فرسان عبس من اقتفاء أثر العدو وجمع الغنائم، سأل عنترة عن الجيداء وهو ينعى خسارته في عبلة مرة أخرى.

ومع شروق الشمس، كان محاربو عبس النبلاء يرحلون إلى حلتهم. وعندما اقتربوا من مضارب قبيلتهم، جاءهم الكبير والصغير لمقابلتهم، وكان يوما مشهودا للجميع، وبعد أن حيا الأصدقاء بعضهم بعضا، سكن كل إلى خيمته، ولكن عنترة ظل يحملق في أسى في سكن عبلة الخرب المهجور،

وارتكز على رمحه وأنشد بصوت يعبر عن حزنه العميق الأبيات التالية التي تعد افتتاح معلقته الشهيرة:

هــــل غـــادر الـــشـــعـــراء مـــن مــــتـــــردم
أم هـــل عـــرفـــت الـــدار بـــعـــد تـــوهـــم
يـــا دار عـــبـــلـــة بـــالجـــواء تـــكـــلـــمـــي
وعـــمـــي صـــبـــاحـــا دار عـــبـــلـــة واســـلـــمـــي

خطة الزواج التي رسمها والد عبلة

وكان عنترة الحزين قد أرسل شيبوبا ليحمل إليه أخبارا عن عبلة. وبعد عدة أيام عاد شيبوب برسالة حب منها إليه، ولكنه عاد كذلك بخطة عمه البارعة غير السارة، وفحواها أن عمه الذي كان يقيم في هذا الوقت عند قبيلة شيبان، وعد بزواج عبلة من بسطام ابن الأمير قيس، بشرط أن يحضر له رأس عنترة مهرا لعبلة.

وبناء على ذلك رحل بسطام إلى أرض عبس، وواجه عنترة في معركة انهزم فيها بسطام. وبعد ذلك جاءه شيبوب يحمل إليه خبر أسر قبيلة تميم لكل نساء شيبان. وعندئذ عرض بسطام على عنترة أن يساعده في تخليص عبلة في مقابل أن يطلق عنترة سراحه، ورحل الاثنان معا لينتقما من المغيرين على قبيلة شيبان، وأنقذ عنترة البطل عبلة من الأسر مرة أخرى.

وبكى العم مالك بدموع التماسيح وجدد مع عنترة وعده أن يزوجه عبلة. على أن الرجل العجوز المحنك، أخذ يستحث عنترة أن يعود أدراجه ليحمل له رسالة ليست بذات قيمة إلى الملك زهير. وما إن رحل عنترة، حتى هرب مالك مع ابنته مرة أخرى. وبلغ عنترة الخبر، فرحل مقتفيا أثرهما. على أن مالكا وضع نفسه وأسرته في حماية عمرو ملك كندة وقدم عبلة زوجا لمسحل ابن أخي الملك.

شيبوب يتنكر في خيام كندة

وصل عنترة إلى منطقة مجاورة لقبيلة كندة قبل الميعاد المحدد لزفاف عبلة بأيام قليلة، وتنكر شيبوب في زي امرأة ودخل خيام كندة وهو يحمل على كتفيه قربة ماء.

ولاحظ أن «الأطلال خالية من الفرسان، فعند ذلك تقدم إلى الأبيات التي هي عاليات... حتى وصل إلى مضرب العروس ورأى الناس في انتهاب المسرات، والبنات يرقصن مع المولدات وهن يضربن المزاهر والدفوف ويصفقن بالأيادي والكفوف، فلما نظر شيبوب إليهن، تقدم حتى بقي بينهن... وهو في قلق عظيم لأجل ذلك. فبينما هو متفكر في معرفة ذلك المكان، إذ لاحت منه التفاتة، فنظر إلى خيمة من الإبريسم وفيها عمودان من الذهب الأحمر، وهما مرصعان بقطع من الياقوت...

فعرف أنه مضرب العروس العبسية... فعند ذلك صاح وأظهر الطرب والانبهار... ورقص حتى أنه حيّر الأنظار... ثم إنه تقدم بين المولدات وضرب على ذلك المزهر حتى حيّر جميع النساء والبنات، فاستقبل ذلك المضرب الذي علم أن فيه عبلة... فضرب بذلك المزهر ولعلع بصوته المبهر وأنشد يقول:

يا ظبية قناص صيدك قد أتى
فلتبشري بالنصر من سيف الفتى
ولتفرحي بالقرب يا كلّ المنا
ولا تقولي ما أتى، بل قد أتى
فلتفهمي ما قلته من قصتي
إلى متى هذا الونا إلى متى
قد حلت الأفراح في حيكمو
في دائم الأوقات صيفا وشتا

فلما أن سمعت (عبلة) ذلك الصوت، عرفته وعرفت المطلوب فبقيت حائرة كيف أنها تجاوب شيبوب، وهي بين تلك النساء والمولدات، فحنت كما تحن النياق وكثر منها الوجد والاشتياق، فأنشدت تقول هذه الأبيات:

أيها الصائل ما بين الخيم
قد أتى يرقص ما بين الخدم
بشّر القناص والسبع الذي
رابض ما بين كثبان الأكم
ها غزال الحي ما بين الظبا
ترتجي الأفراح من فرط السقم

هـــــذه أوقـــات أفـــــراحـــــي بـــكـــــم
كـــي يـــزول الـــهـــم عـــنـــي والـــســـقـــم
وســـــروري قـــــربــــكـــــم يـــــا ســـــادتـــــي
وبـــعـــــادي قـــــد أتـــانـــي مـــنـــه غـــم
هـــــذه الخـــيـــــل لـــســـــادتـــــي أتـــــت
فـــاســـمـــحـــوا بـــالـــقـــرب إنـــيّ فـــي عـــدم

فلما سمع شيبوب عن عبلة ذلك الشعر عرفها معرفة تمام، فعند ذلك أظهر التعب وجلس كأنه يأخذ له راحة إلى جانب المضرب... وإذا بعبلة قد طلعت من باب الخيام فنظرت إلى شيبوب وهو جالس في زي الأمة فقالت: وحق خالق البرية، إن هذه الأمة ما أظنها كندية، وإن فاتني حذري ما هي إلا عبسية شداد. فلما سمع شيبوب هذا المقال خفق فؤاده من شدة الفرح. ثم إنه التفت إلى التي تخاطبه بهذا الكلام... فأقبل عليها بعد أن هدأ من الرقص... ثم إنه كشف عن وجهه اللثام، فعرفته معرفة تمام، فقامت إليه وكاد قلبها أن ينفطر وفاض دمعها وانحدر وقالت: ويلك يا شيبوب وأين أخوك عنترة؟ فقال لها قريب في هذه البيداء ومعه عروة بن الورد... ومعه أصحابه المائة فارس من فرسان بني عبس الأشاوس... وقد أنفذني إلى هنا أقتفى سائر آثارك، وسوف أعود لأخبره بالأمر. وعندما حدثته عبلة بحديث مسحل بن طراق، قالت: وأنا وحق من أنار الشمس بالإشراق الواحد الخلاق، إن زفوني على مسحل لأقتلن روحي... ولكن يا شيبوب عد إليه... وتمكنه من الهجوم على ذلك المكان لأنهم فرسان كثيرة لا تحصى... فإذا رآني مع الظعن فذلك الوقت يخرج (أي عنترة) ويهجم عليهم. وتقود أنت زمام ناقتي ومحملي، ومن تبع أثري فإنه يلقاه ويسقيه كأس فناه، وأوصيه إن لقي مسحل أن يقتله ولا يرثي له. ثم قالت شعرا.

«فلما سمع شيبوب ذلك الشعر والنظام، وفهم معنى الكلام خرج من الأطلال والبراري والجبال. وكان عنتر حين فارقه أخوه شيبوب وهو في نار لا تطاق... فقص على أخيه القصة التي سمعها عن عبلة»[*53].

وبناء على ذلك وضع عنترة خطة، فكمن لموكب الزفاف، وقتل مسحل، وأمسك بعمه مالك، وهاجم بوسطام الكنديين، أما العبسيون فكانوا قد وصلوا بقيادة أبناء زهير ليكونوا في عون عنترة، وعاتب الأمراء عنترة

لتركه إياهم، وسبوا عمه لسلوكه الشائن. ولكن عنترة طلب منهم بشهامة ألا يفرضوا عليه أي مطلب إذا ما عاد مع ابنته إلى ديار عبس، ولكنه يتحتم عليه ألا يزوجها لأحد غيره، واضطر مالك أن يعود بابنته عبلة إلى قبيلته بينما أصر عنترة على أن يبقى بعض الوقت مع صديقه بوسطام عند بني شيبان، ولكن حبه لابنة مالك سرعان ما دفعه لأن يلحق بها بحثا عنها.

ووجد عنترة عمه طريحا في الصحراء وقد جرح جرحا غائرا؛ فقد هاجمه مع رجاله أنس بن مدركة الخثعمي وأخذت عبلة وأخوها أسيرين، واقتفى عنترة أثر هذا الزعيم وأنقذ عبلة وأخاها عمرا، وعاد إلى دار عبس مع أسرة عمه.

محاولة قتل عبلة

ودبر الربيع أخو عمارة، خطة جديدة تحول دون زواج عنترة من عبلة، فاستخدم جارية عبدة لاستدراج عبلة إلى غدير، بزعم أن تقابل عنترة وهناك اختطفت عبلة، وأخفيت في ديار شيبان. ولكن الجارية العبدة سرعان ما اكتشفت بعد ذلك هذا العمل الجائر. أما الربيع فقد أرغم بعد ذلك على ترك القبيلة.

ورحل الربيع إلى دار شيبان حيث تقابل مع مفرج ابن هلال، الصديق الموكول إليه حراسة عبلة ووجده في حالة فزع من أن يأتي عنترة ويعرف دوره في هذه المؤامرة، فقررا قتل عبلة ودفنها في التلال الرملية، بحيث لا يتركان أثرا لها. وحمل عبد اسمه بشارة عبلة وأردفها خلفه وسار بها إلى الصحراء، وكاد أن يصوب إليها ضربة قاضية بخنجره، عندما انقض عليه رجل فجأة وضربه بخنجره بين الكتفين فسقط قتيلا على الأرض غارقا في دمائه.

وكان الذي خلص عبلة هو شيبوب الذي تصادف أن كان يمر في هذا الطريق بحثا عنها.

على أن بشارة لم يكن قد تم قتله وإن كان قد جرح بشدة، وكشف عن المتآمريْن الأساسيين في هذه الخطة الإجرامية، واتفق مع شيبوب على أن يودع عبلة لدى أمه في مكان ناء وأن تبقى هناك إلى حين أن يجد عنترة الفرصة لعرض جريمة الربيع على الملك.

البطل يغادر قبيلته

لقد تسبب حب عنترة لعبلة في إحداث الشقاق والنزاع في قبيلته، الأمر الذي دفع الملك زهير لأن يطلب من عنترة أن يغادر ديار عبس. وبناء على ذلك ترك البطل النبيل ديار عبس بصحبة والده وعمه. وبعد أن غزا عنترة قبيلة فزارة، غزا محاربو بني قراد بقيادة عنترة أرض شيبان قبل أن يهاجم مفرج بن هلال الذي كان قد أخفى عبلة عنه، ويأخذه أسيرا.

نعمان ملك الحيرة، يعلن الحرب على الملك نصير، البطل ينقذ قومه

وسرعان ما تمنى الملك زهير حضور بطل عبس وعدنان؛ فقد حدث أن رفض الملك أن يزوج ابنته من النعمان ملك الحيرة، فأرسل الأخير أخاه، الأمير أسود، بجيش جرار لتخريب بلاد عبس. وعزم عنترة، بدافع قبلي على أن يساعد ملكه وصديقه القديم في طرد الغزاة، واستطاع أن يدمر جيش الأمير أسود من خلال خطة استراتيجية دبرها شيبوب، وذلك بأن سعى للوصول إلى قِرب مياههم وشقها، فسالت المياه منها. ولما أصابهم الهزال بسبب العطش، أصبح من السهل على قوة صغيرة من بني عبس أن تقهرهم، ثم أخذ الأمير أسود أسيرا مع غيره من رجاله.

في هذه الأثناء، رحلت المحاربة الجيداء التي كان قد أسرها عنترة ثم هربت بعد ذلك من ديارها لتنتقم من البطل عنترة، بسبب قتله خالدا خطيبها. على أنها لم تواجه عنترة، بل هاجمت جماعة من بني عبس وأخذت مالكا وعبلة أسيرين، ثم رحلت بهما إلى العراق، وسلمتهما إلى النعمان الذي أعلن أنه سوف يشنق عبلة وعنترة معا، ولن يترك عبسيا على قيد الحياة. ولكنه سمع بانتصار عنترة الكبير على جيش أخيه، فأرسل مرزبانه إلى البطل يقترح عليه أن يبادل عبلة وغيرها من نساء عبس، بالأمير أسود ورفاقه، وعاد الرسول الملكي بالجواب بأن ترد عبلة مع جواهرها كافة قبل أن يطلق عنترة سراح الأمير أسود، ولما كان النعمان قد سمع من مرزبانه ذلك الوصف الذي يثير الفزع لمعارك عنترة وشجاعته البطولية، وافق في الحال على طلب عنترة. وما إن ردت عبلة وأبوها إلى القبيلة، حتى تقدم عنترة لإطلاق سراح الأمير أسود مع من معه من الأسرى، وكان من بينهم كرب، ابن عم الجيداء.

«وعندما دخلوا الجبال، أمر عنتر شيبوب بإطلاق سراح الأمير أسود

ومن معه، وأطلق شيبوب سراحهم»[*54]. «ثم إن عنتر بعد ذلك دعا بمعد يكرب فجز ناصيته وأطلقه، وقال له أنا ما فعلت بك هذه الفعال إلاّ لأجل ما فعلت الجيداء من إهانة لبنت عمي عبلة»[*55] ثم أمر عنتر بإطلاق الأسارى بعد ما عراهم من الثياب الملاح، وأخرجهم من الوادي حفاة عراة بأسوأ حال. فقال أسود يا أبا الفوارس، أما تخاف من غدرات الزمان إذا سيرتنا هكذا عراة لا شيء نركبه ولا زاد نأكله؟ فقال عنتر: أنا أعلم أنكم تسيرون من هنا وتجمعون العربان وتعودون إلى قتالي بكل من سكن البنيان، وأنا أحق بخيلكم ألقاكم بها... وأما المأكل والمشرب فقدامكم كثير لأنكم تأكلون من نبات الأرض، وتشربون من غدرانها، وأما نحن فقوم محصورون في هذا المكان. على أني، وحق ذمة العرب، ما أردت إطلاقكم، بل أردت أن أضرب رقابكم. وأقل ما كانت العرب تقول عن أني عبد ولد الزنا، وهذا تقولونه أنتم وغيركم، ولو أني أطلقتكم ألف مرة وأحسنت إليكم ألف كرة، وكان الصواب قتلكم وراحة قلبي منكم، وما عليّ أكثر من اللوم، فسيروا من قدامي بلا مهل واخرجوا من وجهي بالعجل... فقال الملك أسود: لا يا أبا الفوارس لا تفعل بحق ذمة العرب، فإني لا أقدر أن أمشي ولا فرسخا، فلا تشمت بي العدو والصديق، فإن لم تمن عليّ بشيء يحملني، وإلا فاجذب حسامك واقتلني... فقال عنترة لشيبوب: يابن الأم تصدق على هذا الفقير بما يركبه، وأخرجه من وجهي، وإلا أعجل عطبه. هذا وشيبوب أخرجه ومع ناقة ضعيفة جرباء عوراء لا يزال لعابها على خطامها، بعنق رقيق، مرخية الآذان، بارزة الأسنان، مكومة على أجنابها، وقال له شيبوب: هذه الناقة اركبها، بينما أنا أمسك بلجامها، فإني خائف كل الخوف أن تطير بعيدا، فهي إحدى السلالات المشهورة للنوق العصافير»[*56]. «فخرج الأسود إلى الجبال وهو كثير الحسرات وسار يقطع البر والفلوات ويقول: وحق النار إن ضرب الرقاب خير لنا من هذه الأسباب»[*57].

ولما سمع أنو شروان ملك الفرس عن معارك عنتر ضد تابعه النعمان ملك الحيرة، أرسل مرزبانه ورديشان على رأس جيش كبير لإخضاع البطل العبسي. وقامت معركة حامية بين الفرس والعبسيين في وادي السيل، وقتل فيها ورديشان (كما حدث لسابقه المشهور خسروان) بطعنة من عنترة الذي لا يقاوم، وانكسر الجيش الفارس عن آخره.

وكانت الجيداء الجميلة، عدوة البطل عنترة، لا تزال تتحرق بالرغبة في الانتقام لمقتل زوجها خالد، فتزعمت محاربي بني زبيد وخرجت للقتال. «وصاحت عن بكرة أبيها بالأصوات، يا لثارات خالد... وحملت بنو زبيد وقد أطلقت الأعنة وقومت الأسنة، وصارت لهم ضجة ورنّة... ودفع بهم الخوف والعدم، وكلما سمعوا بأن عنتر دهمهم، طلبوه بالقنا والقواضب، وداروا به من كل جانب، وقد كشفوا رؤوسهم وزمجروا بالحملة عليه، وقد خففوا ملبوسهم، وكانوا سبعة آلاف بطل همام، وليث قمقام، ويتبعهم ألف فارس من بني لخم، وجذام، وأيضا جماعة من العربان من فرسان الملك النعمان، وبين أيديهم معد يكرب يدمدم كما الأسد الضرغام»(*58). ولكن عنترة ومعه ثلاثمائة فارس فحسب، استقبل الهجوم بقلب صلب وهزم السبعة آلاف محارب، وهربت الجيداء ومعد يكرب بحياتهما. وأصبح الملك النعمان يحن إلى السلام بعد أن أرسل جيشا آخر لمحاربة العبسيين ودحره عنترة النبيل، كما دحر محاربيه الأسود، ولهذا فقد جدد مطلبه بالزواج من ابنة الملك زهير.

ولما كان عنترة شاكرا للنعمان فضله في إطلاق سراح أبيه شداد الذي كان قد وقع في أسره، فقد نصح الملك زهير بشدة لأن يقبل طلب الملك النعمان. وعندئذ أعلن السلام بين الطرفين وتزوج النعمان على التو من ابنة الملك زهير.

ولكن الأمير أسود انتقد سلوك أخيه النعمان في حربه الأخيرة مع أنو شروان، وكان أنو شروان قد خلع النعمان من الحكم وسلم المملكة إلى أسود، وأرسل ابنه خداوند على رأس حملة فارسية قوامها خمسة آلاف فارس لقتال العبسيين. وفي الوقت نفسه تقدم الزعيم حجار بن عامر ومحاربو كنده لتخريب ديار عبس. وتلقى عنترة المعلومات عن تحركاتهم من شيبوب الحاضر على الدوام، فوضع نفسه على رأس ثلاثة آلاف فارس عبسي (تاركا الأمير قيس في الجبال مع جماعة لحماية النساء وممتلكات القبيلة)، ورحل إلى العدو ليمنحه استقبالا دافئا، ثم أنشد البطل النبيل معبرا عن وقع المعركة على نفسه فقال:

يا عبلة قِرّى بوادي الرمل آمنة
من العدا وإذا أُحرقت لا تخف

فــدون بــيــتــك أســد فــي أنــامــلــهــا
بــيــض تــقــد أعــالــي الــبــيــض والجــحــف
لــلــه در بــنــي عــبــس لــقــد بــلــغــوا
كــل الــفــخــار ونــالــوا غــايــة الــشــرف
خــافــوا مــن الحــرب حــتــى أبــصــروا فــرســي
تحــت الــعــجــاجــة يــهــوى بــي إلــى الــتــلــف
ومــا شــرفــت بــقــومــي بــل هــم شــرفــوا
بمــا بــلــغــت مــن الــعــلــيــاء والــشــرف
لــولاك يــا عــبــل مــا ذل الــهــوى عــنــقــي
ولا دعــوت دعــا يــعــقــوب وا أســفــي
عــســى تجــودي بــوصــل مــنــك يــا أمــلــي
يــحــيــي الــفــؤاد مــن الآلام والــتــلــف[*59]

وأخذ عنترة الحجار أسيرا، وانتصر هو بجيشه الصغير، ولكن خداوند وصل بفيلقه، وقام عنترة في المعارك التي دارت بين الفرس والعبسيين بهجمات رائعة، ولما تصور خداوند أن العبسيين سيستسلمون طواعية في أي وضع، فقد طلب من وزيره أن يكتب رسالة إلى الملك زهير يعرض فيها عليه السلم، إذا ما سلم له العبد الشرير عنترة، وأرسل الوزير الرسالة مع حاجبه يرافقه عشرون فارسا، وبصحبته مترجم يدعى عقاب بن ترجم. وعندما وصل إلى خيام عبس، تصادف أن كان عنترة وحده ومعه زعيم آخر وكانا يمتطيان جواديهما.

«وبينما هم في الكلام إذا بالحاجب إليهم قد وصل، فما سلم ولا تكلم، بل إنه سأل عن الملك زهير ـ فقال الترجمان لعنترة ومعد يكرب، إنه سألكم عن الملك زهير لأن معه من خداوند كتابه يأمركم فيه بالطاعة، إن كان أحد فيكم له عقل ونظر. وإن أنتم خالفتم، فما يكون إلا السيف لكم جوابٌ. فلما سمع عنترة من الترجمان هذا الكلام صار الضياء في عينه ظلامٌ، وقال للترجمان: نحن قرأنا كتابكم من قبل وصولكم إلينا ـ وهو أن ملككم يأمرنا أن نسلم أرواحنا إليه بلا حرب ولا قتال ولا طعن ولا نزال. ثم إن عنترة صاح في أخيه شيبوب وقال له: ويلك! رجّل هذا الحاجب عن ظهر جواده هو ومن معه من أصحابه ورفقاه، وخذ ما معهم من المال، وإن

تجد منهم من تعاصى عليك فافعل معه هذا الفعال، ثم إن عنترة فتح باعه ومد ذراعه وطعن الحاجب بالرمح في صدره، فطلع عشر أنابيب تلمع من ظهره. ولما رأى الباقون ما فعل عنتر في الحاجب، نادى الأمان وسلم أرواحهم إلى شيبوب، فشد الكل بالكتاف وقوى منهم السواعد والأطراف، وأما عقاب الترجمان فإنه انذهل وتحير، وقال جزاكم الله خيرا لأنكم أطعتمونا قبل أن تقرأوا الكتاب. فإذا كانت هذه خلعة الحاجب العظيم الشأن، فكيف تكون خلعة عبدكم الترجمان. لأني والله ذو عيال وأنا صعلوك قليل المال لا نوق لي ولا جمال، وأنا ما سرت مع هؤلاء الأعجام إلاّ وقلت، لعل أن يحصل لي شيء من المال أعود به إلى العيال، وما حسبت أن ألقى هذه الأحوال ولا أن أصلب وتبقى عيالي بعدي بالويل، ثم إنه بكى وانتحب وأنشد معبرا عن نفسه:

يا فارس الخيل والأبطال تصطدم
وليثها وهي مثل البحر تلتطم
ذلت لهيبتك الأبطال وانخذلت
لما رأوك وذلت بعدها العجم
ولو دنوا منك أو مدوا رماحهم
إلى لقاك فما عادوا ولا سلموا
فارحم فديتك شيخا قل ناصره
عند المشيب وذلت بعده الحرم
مولاي ذنبي عظيم فاعتذرت به
فانظر إليّ فقد ضن بي العدم
فما طعان القنا والحرب من شيمي
ولا النزال ولا في صارم سلم
اسمي عقاب ولكن ما أنا بطل
والسيف في راحتي تصطادني الرخم

«فلما سمع عنترة بن عقاب هذه الأبيات ضحك... فعندها أطلقه عنترة وقال له: ارجع إلى أهلك ولا تعد للعجم فتهلك، وإذا رأوك سالما اتهموك وربما إنهم يقتلونك، فقال الترجمان: والله يا مولاي إنك لصادق، وحق ذمة العرب لو علمت أنكم تكسرون العجم ما كنت فارقتكم. وكيف أكسب لي

شيئا من أموالهم وأعود إلى عيالي، فقال رفيق عنترة (معد يكرب): يا شيخ هذا أمر يطول شرحه، ولكن خذ سلب هذا الحاجب وعد إلى أهلك ودع عنك الفضول، وما بقيت تعود فتصير مقتولا، قال الترجمان عقاب: والله يا مولاي إنك لصادق لأن العاقل من يمضي إلى أهله وهو سالم، وذلك خير له من الأموال والدراهم، ثم إنه تقدم للحاجب وأخذ سلبه، وكان في وسطه منطقة مرصعة بالجوهر والياقوت مزركشة بالذهب الأحمر، فلما رأى ذلك الجوهر أخذه الطمع... وتقدم إلى عنترة ودعا له وقبل قدميه وقال: الله ينصرك على أعدائك ويبلغك منهم مناك، وأنا والله يا مولاي ما بقيت أفارقكم، بل بقيت عندكم أصبر حتى يرسل لكم الملك رسولا آخر فتقتله وتعطيني سلبه، لأني ما أتيت إلى هذه الجبال إلا لأجل هذا الحال، فضحك عنترة من كلامه»[*60].

ونشبت معركة دامت سبعة أيام. وعلى الرغم من الجهد البطولي الذي بذله عنترة، فقد انتهت المعركة بهزيمة بني عبس، الذين، على الرغم من ذلك، استمروا في النضال مع العدو وسط التلال الرملية وفي الممرات. وجرح عنترة في أماكن ثلاث (من جسده)، ولكن روحه ظلت عالية على الرغم من المصائب التي تراكمت من حوله. وفي قلب هذه الأزمة، قابل الملك النعمان خداوند، وبرأ نفسه من التهم الزائفة التي اتهمه بها أخوه، وجُرد أسود من رُتبه، واستعاد النعمان مركزه. وعندما أعلن السلم بين المتحاربين، عاد العبسيون سعداء إلى ديارهم، واصطحب عنترة وعدد من رفاقه المختارين الملك النعمان إلى الحيرة، حيث قضوا وقتا ممتعا للغاية. وقبل أن يرحلوا إلى ديارهم، أرسل كسرى أنو شروان رداء الشرف إلى عنترة، بعد أن سمع من ابنه خداوند كيف أنقذ عنترة العبسيين بجسارته التي لا تقهر، كما أرسل له الكثير من الهدايا الثمينة، علامة على صداقته المجددة له.

الأمير حارث يقع في الحب

وذات يوم بينما كان الأمير الحارث، أحد أبناء الملك زهير خارجا للصيد، تصادف أن تجول في واد على بعد من بلاد شريبة، وهناك وقع بصره على جماعة من النساء من قبيلة زهران، وقد برزت بينهن ابنة زعيم القبيلة

الجميلة، لبنى، فوقعا في الحب لأول وهلة. وسعى شيبوب لأن يحمل الفتاة لمحبوبها، ولكن أباها الذي احترق شوقا للانتقام، اقتفى أثره مع محاربيه، وأخذ الحارث أسيرا، ولكن سرعان ما أطلق شيبوب سراحه بعد ذلك. على أن شيبوب أُخذ بدوره أسيرا، وتزامن ذلك مع عودة عنترة من الحيرة، ووصل إلى هذا المكان وأنقذ أخاه وعادت لبنى والحارث أحدهما إلى الآخر.

الملك زهير وأخوه أسيد

بينما كان الأمير الحارث غائبا وكان يعاني من المتاعب بسبب قصة عشقه، رحل الملك زهير لمقابلة أخيه أسيد «وكان أسيد غائبا في مكة له عشرون سنة، فأمر الملك زهير أخاه خداش أن يأخذ مائة فرس وخمسمائة من الغنم وعشرين حملا من المدام، وساروا لأجل أن يلاقوا أسيد بن جديمة، وكان الملك زهير قد ركب في سائر بني عمه وإخوته وأقربائه ونزلوا في وادي الظباء، ثم ساروا ضحوة النهار... وما زالوا سائرين ثلاثة أيام حتى نزلوا في واد كثير الزهر، وقد جرت في أرجائه الأنهار وكان يسمى مرج اليعفور ووادي الشحرور[*61]».

ولم يتعجب الملك أن يسمع أخاه العالم والجاد يشير إلى قصة حب خفية حدثت له في شبابه. ولما كان الملك زهير شغوفا بمعرفة تفاصيل القصة، فقد شرع أسيد يحكي القصة التالية:

«فقال لهم اعلموا يا إخواني أني كنت في زمان شبابي وأنا خال من الهم والغم، وكان نديمي أخي هاني وابن عمي بشر النعماني، فطلبنا يوما الصيد والقنص، فركبنا وسرنا نحو البر الأقفر، وإذا بجملة من الحمر الوحشية وسرب من الغزلان، فأطلقنا نحوها الأعنة، فرأيت بينها فحلا أقرن وهو يكرّ على سرب من الغزلان، كما تكر الفرسان، وهو معجب بنفسه، فأطلقت عناني خلفه. وما زلت كذلك إلى أن حميت الرمضاء، ثم التفت فلم أجد من أصحابي أحدا، فطلبت الغزال فهرب مني، وما زال يجري إلى أن دخل وادي الأراك ومرج اليعفور، وإذ بجارية تحير الأذهان بقامة فتية، وطلعة مضيئة، فلما رأيتها يا أخي سلبت عقلي، فناديتها يا زين الدلال، لعلك تسقينا شربة من الماء تطفي لهيب الحر والظمأ. فقالت يا وجه العرب، أبشر بالماء والقرى، فقد وجب حقك علينا فانزل لتستريح، فقد أهلكت

الجواد المليح. فما صدقت بهذا الكلام، ثم إنها أحضرت لبنا وعسلا، فشربت منه شيئا ألذ من الروح إذا عادت إلى البدن... وإذا بشيخ كبير أتى. فلما رآني، مال إلى فصيل فنحره، ثم قرّبه إلى ابنته، ثم جلس يحادثني فقال لي: حييت وحيتك اللات والعزى، من أي القبائل أنت؟ فقلت أنا أسيد بن جديمة بن رواحة العبسي، سيد بني عبس وعدنان... فقلت له وقد زال الحيا من وجهي: يا سيد قومه من تكون من العربان الكرام؟ فقال: نحن حلة من بني شمخ بن عثمان بن مزينة... فقلت وهذه الفتاة ابنتك؟ فقال يا بني إنها بنية من ذوات الخدور، وإن طلبتها فهي أمة لك بالفرح والسرور... ثم إني قلت له أنكحني كريمتك على نقد وقدره مائة ناقة إليك منساقة، ومائتي جواد من فخر خيول العرب، فهل ترضى بهذا الكلام أيها الأسد الضرغام؟ فقال: رضيت يا بن الكرام... فقمت يا أخي من ساعتي، وقد وعدتهم أني في الغد أكون عندهم، وآتيهم بالنعم والصداق. وعبرت إلى الخيام واقتطعت من مالي مائة ناقة تمامٍ ومائتين من الأغنام... وتوكلت على الحي الذي لا يموت... فما أصبح الصبح ولاح الضياء في البطاح، إلا وقد بان لنا من بين أيدينا خيام وقباب وأعلام وهي لبني شمخ بن عثمان... فكنت أنا والشمس بالسواء على أخباء ذلك الشيخ الأجل، فناديته فلباني من غير مهل، وقال: ما هذا يابن الكرم؟ فقلت له: هذا مهر ابنتك. فقام الشيخ من وقته وساعته إلى مقدم قبيلته... وفرحوا غاية الإفراح، وقالوا له سعدت الآن يا واصلا، وصار نسبك بنسب بني عبس واصلٍ، ثم إنهم أدخلوني على سلمى، فكان دخولي عليها تحت هذه الشجرة الأراك. وأقمت معهم ثلاثة أيام وقلت لهم: أنا ماض إلى بني عطفان لأقيم عند سيدهم حسان لأنهم أولاد عمي... ثم إني حلفت لها أني لا أغيب عنها غير ثلاثة أيام... فودعتها وسرت»(*62).

«فلما رجعنا أرسلت خلف بني عمي هؤلاء... وأعلمتهم بأمري وأودعتهم سري، وقلت لهم أريد أن تروحوا معي إلى وادي الأراك حتى آتي بزوجتي سلمى، فقالوا: على الرأس والعين، فركبنا وأخذنا معنا أربعة عبيد وعشرين مطية، وسرنا في الليل من أوله نجد في السير حتى أصبحنا في وادي الأراك، فرأينا الديار بلاقع... ورأينا القتلى قد أكلت لحمها الوحوش... فتحيرت من ذلك... ثم إني بكيت... وجعلنا نبكي»(*63).

وبعد أن أنهى أسيد رواية قصته الحزينة، أمر الملك العبيد بفرش الطنافس تحت أشجار الأراك، وكان الصيادون قد عادوا لتوهم، ومعهم وفرة من الأرانب البرية والغزلان، وسرعان ما أعدت الوليمة السخية، وقضى الجميع الليل في هذا المكان نفسه. ولكن مع طلوع النهار، فوجئت الجماعة بفرقة من فرسان قحطان يقودهم زعيم شاب يدعى نازح وأخذتهم جميعا أسرى. وكان نازح في طريق عودته إلى قبيلته سعيدا ومعه هؤلاء الأسرى المرموقون عندما قابله عنترة، وهاجم البطل النبيل نازحا في عنف، ودفعه إلى أن يترجل عن جواده ثم قيده شيبوب بشدة، وأسرع في فك قيد الملك وأخيه. واقترح عنترة أن يقتل نازحا ورفاقه، وما إن بدأ نازح يخلع عنه ثيابه، حتى اكتشف عنترة في معصمه سوارا من العقيق الأحمر وقد حفر عليه صور اللات والعزّى، وتعرف أسيد على حلية صغيرة تماثل تلك التي أهداها لعروسه في وادي الأراك، وعندئذ سأل الزعيم الشاب عن أبويه، فاكتشف أن نازحا هو ابنه، وفي النهاية حلت السعادة بأسيد بعد أن اجتمع شمله مرة أخرى بعروسه التي كانت قد اختفت زمنا طويلا.

موت الأمير شاس والملك زهير

وفي هذا الوقت لقي الأمير شاس مصرعه بقسوة في أثناء رحلة في بلاد عامر على يد صياد يدعى ثعلبة، وهرب خادم الأمير حاملا معه النبأ إلى الملك زهير الذي نصّب نفسه في الحال قائدا على فرسانه ورحل لينتقم لموت ابنه.

ولما كان خالد زعيم قبيلة عامر متغيبا في العراق، فقد خشي العامريون مواجهة العبسيين، وعرضوا على الملك زهير فدية الدم بمقدار عشرة أضعاف ما يدفع في العادة، ورفض الملك أن يعقد اتفاقا معهم بشأن مقتل ابنه، إلا بعد أن يحارب قبيلة عامر، ولكن الملك خدع بعقد هدنة تمكن العامريون بمقتضاها أن يحتلوا مكانا حصينا في الجبال حيث ظلوا في أمان طوال الأيام القليلة التي سبقت الشهر المحرم رجب، الذي يحرم فيه القتال. ولكن بمجرد رحيل الشهر المحرم، وكان خالد في هذه الأيام قد عاد من العراق، واجه خالد الملك زهير الذي تلقى طعنة من جندح، أحد أتباع خالد، وعاد العبسيون إلى ديارهم مدحورين.

الملك قيس ينتقم لموت والده

وبعد أن تبوأ قيس، الابن الأكبر للملك زهير، مكان أبيه، رحل مع المحاربين لينتقم لمقتل أبيه، ولكنه استمع لأعداء عنترة في ألا يجعل عنترة يصطحبهم. فلما هاجم العبسيون قبيلة عامر من دون عنترة، هزموا، عند ذاك أرسل الملك قيس إلى عنترة، يتوسل إليه أن يحضر لمساعدتهم. وفي هذه الأثناء وقعت معركة شرسة بين الزعيم الشاب نازح في جانب العبسيين والحارث بن ظالم، وهو فارس خارج عن قبيلة عبس، في جانب العامريين. وبينما كان نازح على وشك أن يستسلم لعدوه، ظهر فارس غريب يمتطي جوادا نحيلا أعرج وقد تسلح بسلاح فقير، ووجّه هذا البدوي المتجول طعنة للحارث وأخذه أسيرا، ثم تغلب على جندح الذي كان قد وجه للملك زهير الضربة القاضية. وكان الملك قيس هو أول من تعرف على عنترة نفسه في شخص هذا البطل الغريب. وأطاح الملك برأس جندح بسيفه. وبعد فترة من الراحة، استأنف العبسيون الحرب ضد العامريين الذين اندحروا كلية.

عنترة ينقذ والد عبلة وأخاها مرة أخرى

وعلى الرغم من التقدير الكبير الذي كان يتمتع به عنترة من قبل الملك قيس ومحاربي عبس النبلاء، فإن عمه مالك كان لا يزال بعيدا عن الموافقة على تحقيق رغبته بالاقتران بعبلة. وفي مناسبة من المناسبات دبر الشقي غير الشكور هجوما قاتلا ضد عنترة عن طريق جماعة من قبيلة فزارة، بينما كان البطل يجلس منفردا في خيمته يحتسي الخمر. ولكن عنترة الذي كان قد بلغ بالمؤامرة من قبل خادمة عبلة، أبطل خطة عمه الدنيئة. ولما غضب مالك لفشله في تنفيذ المؤامرة، وربما كان كذلك قد شعر بالخزي بعض الشيء، فقد عزم على الهجرة مرة أخرى. ولكن عبلة رفضت هذه المرة بإصرار أن ترافق أباها وأخاها، ولم يبق لهذين الرجلين الفاضلين سوى أن يتركا عبلة وراءهما في رعاية شداد والد عنترة.

وبعد أيام من ترك مالك وابنه القبيلة، عزم عنترة على أن يرحل بحثا عنهما، وأن يحثهما على العودة. وبناء على هذا رحل مع شيبوب واثنين من رفاقه الثقة. ولما علم أن مالكا وعمرا وقعا في أسر رابح بن الصباح، زعيم قبيلة نبهان، خفوا إليهم على جناح السرعة. وعندما وصلوا إلى مضارب

رابح، تنكر شيبوب وعنترة واقتربا من خيمة الزعيم، وكل منهما يحمل حزمة من الخشب فوق ظهره. «وقد أقبل الظلام، فدخل شيبوب قدام أمام عنتر... وما زال (يسير) بين المضارب والخيام، حتى وصل إلى مضارب رابح بن الصباح. ومد شيبوب عينيه فنظر مالكا وولده عمرا مربوطين مع الكلاب... فقال شيبوب لأخيه: هذا يابن الأم عمك وولده فانظر إليهما، فحط عنتر حزمة الحطب عن أكتافه، وأظهر أنه يستريح من التعب، وفعل شيبوب ذلك كذلك، إلا أنهما ما أقاما إلا بقدر ما خرج رابح بن الصباح، وكان حوله جملة من العبيد وأخذ في الحديث مع رعاته، وصار يسأل عن العشب والكلأ، إلى أن قال له بعض العبيد، يا مولاي، رأيت اليوم عجبا، وهو أني كنت في وادي البر، والإبل بين يدي تسعى في البيداء، فلما صرت في الطريق التي تأتي إلى أرضنا من ناحية العلم السعدي ورأيت فارسا أخذ يطارد غزالة، وبين يديه رجل كأنه النمر، والفارس على فرس كأنها الليل إذا أظلم، والرجل معه قوس عربية وكنانة بالنبل ممتلئة، فوقفت أنظر إليهما، وإذا بالرجل قد سبق الفارس وأمسك بالغزالة من قرنيها وأتى بها إلى الفارس وسلمها إليه، فلما صارت في يده بكى بكاء شديدا، ثم باسها بين عينيها وأطلقها، ولم يكدر عليها ووقف وأنشد يقول:

اذهبي في الأمان من كل شر
ما تولت بسيرها الأيام
لك من عبلة التكحل في العين
وجيد ينور منه الغرام
ورقيق القوم يحكي قواما
فوق خصر كأنه الأوهام

«فلما سمع رابح بن الصباح من العبد هذه الأبيات تعجب وقال: ويلك يا ولد الزنا، ومتى كان هذا؟ فقال: يا مولاي آخر النهار، فقال هذه صفات أسود بني عبس، وإن كان قد غره الطمع، وأتى إلى هذه الأماكن في طلب هذين الأسيرين، فأنا أقوده غدا أسيرا ويكون لنا الفرح التام»[(64*)].

على أن مالكا الذي كان قد استمع إلى الحديث، أصبح على يقين من أن الرجل الذي يسير على قدميه، ويتحدث إليه بوصفه عبدا، لابد أن يكون شيبوبا، أما الفارس فمن الممكن أن يكون عنترة، وهما في طريقهما

لإنقاذهما. وقد كان على حق، وفي الحال حدث هرج في الخيام. لقد ضرب البطل الأسد رأس الزعيم بسيفه الظامي، وخلص مالكا وابنه ورحلوا جميعا إلى مضارب بني عبس.

سباق الخيل ونتائجه

وأرسل الملك قيس بعض عبيده ليأتوا له بأخبار عن عنترة، وعاد أحدهم بحكاية مثيرة عن مهر رائع يسمى داحسا، الذي رآه في أثناء رحلته. ولم يكن لهذا المهر مثيل عند جميع العرب في الجمال والسرعة. وساوم الملك قيس صاحب المهر على شرائه، وكان سعيدا عندما توصل إلى اتفاق. وحدث بعد ذلك أن كان قرواش، ابن عم الملك قيس، يحضر حفلا كبيرا أقامه حذيفة، وجرى الحديث إلى الخيل، وعندئذ زها قرواش بكفاءة داحس في السبق، وعرض حذيفة عشرين جملا رهانا للسباق بين داحس وفرسه الغبراء، وتهيأ الجميع للسباق بناء على ذلك، على أن الملك قيس أخذ الأمر بيده وزار حذيفة لكي ينظم معه السباق.

«وقال يا أبا حجار، على كم كان الرهان والاتفاق؟ فقال: على عشر من النوق يؤديها المسبوق، وتكون من خالص الجمال والنوق. فقال قيس: يا حذيفة جميع ما فعله ابن عمي قرواش لاش في لاش وأنا أريد عوضه، أن أجعل الرهان بيني وبينك على عشرين ناقة ويكون بيني وبينك المسابقة. فقال حذيفة: وذمة العرب ما أسبقك إلا على ثلاثين، فقال قيس: على أربعين، فقال حذيفة على خمسين، فقال قيس على ستين. وما زالوا على زيادة وملاجحة ولباقة إلى أن أوصلوا الرهان إلى مائة ناقة، واتفقوا على سباق الخيل بعد تضميرها أربعين يوما. فقال قيس لحذيفة: وتكون المسافة للخيل مائة غلوة، ويكون الرامي إياس بن منصور، فقال حذيفة: والسبق إلى غدير ذات الأرصاد فقال قيس: وأنا رضيت بذلك... وقد عزم الملك قيس على السباق والنزال، وضمر الخيل أربعين يوما، والعرب تموج في الحلل، وما بقي لهم حديث إلاّ ذكر داحس والغبراء، فلما دنا الأجل، وأتى ميعاد سباق الخيل الجياد، اجتمع فرسان القبيلتين على غدير ذات الأرصاد، وأحضروا إياس بن منصور على الموضع الذي وقع عليه الشرط. فأعطى ظهره إلى المكان المعروف بالغدير، واستقبل مهب الشمال ورمى بقوسه مائة

سهم، فانتهى إلى المكان المعروف، واجتمع المشايخ وكلهم وقوف، وكان فرسان بني ذبيان قد تسامعوا بالرهان، فانتظروا ذلك الأوان، وأتوا للفرجة على سباق الخيل، وكانوا كلهم في أرض واحدة، وكان الملك قيس قد أوصى عنتر أن يقيم في الخيام وقت السباق خوفا من إثارة الفتنة ونزول المحنة»[*65].

وبدأ السباق بين داحس والغبراء في المكان المحدد، وكانت داحس على وشك الفوز، لولا لعبة حذيفة الخسيسة، إذ تسبب في جرح المهر قبل أن يصل إلى الهدف، ونتيجة لذلك كانت حرب الأربعين الشهيرة بين قبيلتي عبس وذبيان والتي عرفت بحرب داحس والغبراء.

زواج الأمير مالك وموته

بينما كان الأمير مالك يصطاد، وقع في الحب، كما حدث لأخيه الحارث، وكانت الفتاة الجميلة من قبيلة غراب، وسألها مباشرة عن أبيها وطلب منه يد ابنته. ووافق الأب بعد تردد بعض الوقت متعللا بفقره، ثم تصافح الرجلان متفقين على الزواج. «ولما كان عند الصباح، أنفذ مالك بن الملك زهير إلى شيخ بن غراب الثياب الملونات والمال والجواهر مما عنده من الذخائر، وأرسل عشرة هوادج من الديباج مطرزة بالذهب الأحمر الوهاج والخيام والأغنام والعبيد والخدام والجمال والمدام، وأمر القوم أن يعجلوا بذلك الأمر لأجل ما في قلبه من الغرام، وأجّل لهم وقتا معلوما وهو سبعة أيام. ولما وصلت هذه النعم إلى بني غراب فرح بها الشيوخ والشباب وقضوا الأوقات بانتهاب اللذات، وذبحوا الأغنام لذوي الأفاضل، وتجمل مالك وكان جماله قد فاق حد الجمال، وتقلب في قالب الكمال، وكان وجهه أضوأ من الهلال، وله قوام أحسن من الغصن إذا مال،، وعند مسيره سار معه عشرة فوارس وخمسة من إخوته، وساروا وهم يتمايلون في حلل الإعجاب حتى وصلوا إلى بني غراب. ونزل مالك في قبة الزفاف وكانت قد ضربت على نشر عال على مرج أخضر، ونزل قومه وأرباب عشيرته، وقام بنو غراب في خدمته، وقد ترجل المشايخ والغلمان. وبعد أكل الطعام، قدمت آنية المدام ودارت عليهم الأقداح وارتفع الصياح بالأفراح، وغنت المولدات، ورقصت الإماء والبنات، ولم يزالوا كذلك ثلاثة أيام متواليات، وزفت الجارية إلى مالك المفضال»[*66]. «ولكن من الذي يستطيع أن يحدس أنه عند الصباح

تتبدل أفراح القوم بأتراح، وأن ليلة زفاف الأمير مالك الطيب تكون آخر ليلة له في حياته. لأن الدهر ما وهب إلا وأذهب، وما صفا إلا وأتعب، ولا هـزل إلا وجد، ولا أعطى إلا واسترد»[*67] .ففي الصباح المبكر لليوم التالي للزفاف، هاجم حذيفة مع جماعة من أقربائه ضيوف العرس، وكان عنترة أول من هب على زعقة العبيد، وأسرع، ممتطيا جواده الأبجر، لمقابلة العدو، وسرعان ما دبت الحركة في قبيلة غراب بأكملها. وتقدم حذيفة قاصدا خيمة العروس، وإذا بمالك يندفع، وهو نصف نائم، ورداؤه تفوح منه رائحة المسك والزعفران، وامتطى صهوة جواده وهو يهتف «أنا مالك بن زهير. ولكن جواده تعثر ورماه على الأرض، وبينما كان يحاول النهوض، عاجله حذيفة بضربة قاضية على رأسه بسيفه، ثم انضم إلى رفاقه خوفا من انتقام عنترة. وعندما عاد عنترة من المعركة، وجد صديقه يعاني سكرات الموت، وهو غارق في دمائه وبجانبه حصانه. وفتح الأمير المحتضر عينيه، وحاول أن يتحدث إلى عنترة، ولكنه لم يستطع. وبتنهيدة رقيقة فارقت روحه بدنه، فعندها لفّه عنترة في أثوابه، وعارضه على ظهر جواده وشده بعمامته وأخذه بين يديه وسار طالبا ديار عبس»[*68] . وظهر شبح الأمير مالك لعنترة ذات ليلة في النوم وهو يشير بأصابعه ويقول له: «يا أبا الفوارس، نمت عن أخذ ثأري يوم الأمان، ونسيت ما كان بيني وبينك من قديم الزمان، ولكن (هناك) من وفى قبلك للخليل. (فلتفِ) أنت لمن هو تحت التراب جديل»[*69] . ثم ودعه وانصرف. وفي ظلام الليل، وفي تلك اللحظة وذاك المكان امتطى عنترة صهوة جواده الأبجر، وأخذ شيبوب قدامه، ورحل باحثا عن ديار فزارة، وهناك قتل عوفا أخا حذيفة، وكان أول ضحية لروح صديقه المقتول.

عمارة تهجوه البنات

وعاد عنترة إلى قبيلته، وعاش منعزلا في خيمته حزينا أسفا على فقد صديقه الأول، الراسخ في صداقته على الدوام. وذات يوم جاءته خميسة خادمة عبلة برسالة من محبوبته، تطلب منه أن يضمن لها الأمان لها ولرفيقاتها في أثناء قضائهن بعض الوقت عند الغدير في المساء. وسعد البطل بأن يقوم بهذه المهمة، ووعد عبلة مرحبا بحمايتها من متجولي الليل.

وخرجت البنات إلى الغدير في الساعة المحددة، وتبعهن عمارة وهو متنكر في ملابس امرأة، وعندما وصلت النسوة إلى الغدير انقض عمارة على عبلة كأنه النسر الشره، ولكن النجدة كانت جاهزة؛ إذ سمع عنترة صراخ عبلة وهو متخف وراء التلال الرملية، فاندفع مثل الأسد الثائر، وأمسك بعمارة وكاد يقتله، ثم تركه يرحل، وقد أتبعته سخرية البنات وتوبيخهن.

فقال الربيع: «ويلك يابن الأم، أنت مجنون ! وما ارتفع النهار حتى شاع أمره بين الفرسان وعلم كل أحد كان، وصار الناس كلهم يضحكون ويتعايدون الحديث بينهم، وبعض الجواري اللاتي كن مع عبلة لما رجعن إلى الخيام أخذن يقلن هذه الأبيات:

عمارة دع هوى الجرد الرداح
ودع عنك التعرض للملاح
فإنك لا تكف يد الأعادي
ولست بفارس يوم الكفاح
فلا تطمع بعبلة أن تراها
ترى الأهوال من ليث البطاح
فدع عنك اللجاج لها وإلاّ
سقيت لأجلها سم القراح
ولما أن أتيت أتاك ليث
تخر له الأسود لدى الكفاح
وما أبقى عليك سوى احتقار
لقدرك إذ رجعت كمستراح
وعنترة الفوارس ليث غاب
يصول وفي العصا بحر السماح
وأنت أذل من ركب المطايا
وأبخل سائر القوم الشحاح
ونحن كأننا زهر زكي
كأنفاس البنفسج والأقاح
وعبلة بيننا غصن ندي
علاه البدر أو شمس الصباح

فــــمــــت كـــمــــدا وإلاّ عـــش ذلــــيـــــلا
فـلـيـس لحـد هـجـري فـيـك مـاحـي[*70]

زواج عنترة من عبلة

كثيرة تلك المعارك التي خاضها عنترة ضد أعداء بني عبس، وكثير هؤلاء المحاربون الذين سقطوا تحت ضربات سيفه الظامي الذي لا يقاوم، وذلك قبل أن يحقق حلم قلبه القديم. وفي النهاية أصر الملك قيس، اعترافا بخدمات عنترة، على ضرورة زواج عنترة من حبيبته من دون تأخير، وأعرب مالك عن موافقته في حرية تامة. ولم يحدث أن كان هناك زفاف أبهى من زفافهما؛ فقد حضر الفرسان المشهورون من أقاصي البلاد ليشرفوا حفل زواج ابن شداد وابنة مالك الجميلة، وكانت الهدايا التي أحضروها معهم غنية ونادرة، وكان كل واحد من الزعماء المرموقين ينشد الشعر في مدح بسالة عنترة وفي تهنئته بالزواج.

«وكان مذهب العرب في ذلك الزمان عند زواجهم أنهم يلبسون العروسة الحلي والحلل والقلائد وما يقدرون عليه من المتاع والذهب والفضة، ثم يعملون لها أقتابا على الجمال بعضها فوق بعض حتى تبقى كالدكة العالية، ويُقعدون العروسة على تلك الدكة، فإذا جلست العروسة واستقر بها الجلوس، فعند ذلك يلبس الرجال صدور الزرد النضيد ويتساوى الأحرار والعبيد، وتضرب المولدات بالدفوف وتشهر الفرسان الرماح والسيوف، ثم يقلن للعريس: تعال هناك عروسك. وعندئذ يندفع العريس ليحملها، بينما يصطف شباب القبيلة عن اليمين وعن الشمال وبأيديهم الحجارة والهراوات ويأخذون في ضربه، ويحولون دون وصوله إلى عروسه قدر المستطاع. فإذا كسر له ضلع أو أصيب في هذا الحفل، فإن هذا يكون من حظه. أما إذا قتل فإن هذا يكون مصيره. وأما إذا نجح في الوصول إلى عروسه في سلام، فإن الناس يتركونه ولا يحاول أحد الاقتراب منه»[*71]. على أن هذه العادة الفريدة مُنعت في حالة زفاف عنترة بأمر من الملك قيس، لأنه خاف أن يتعرض البطل لإيذاء أحد من أعدائه في هذه المشاجرة الصخبة.

«ولما حضرت الأمم في أرض الشريبة والعلم السعدي، وقد ضاقت بهم الأرض، فمنهم من نزل من الجبال، ومنهم من نزل في بطون الأودية الخوال،

ومنهم من طلب وجه الأرض والرمال، وقد ازدحمت الخلايق، وما بقي الأخ يعرف حرمة أخيه، ولا الولد يلتقي بأبيه... وصار عنتر يقدم إلى الفرسان العشاء والسحور والغداء والفطور»[*72].

«ولما ألبس النسوان عبلة من تلك الحلل وأردن أن يخرجوها إلى الجلاء، عندها أمر عنتر بن شداد أن يضربن لها سرادقا من الديباج الملون، وأن تصف فيه الزرابي والنمارق، وينصب في الوسط كرسي شاهق، وأوقدوا فيه الشمع الملبّس بالعنبر... وبعد ذلك صاح عنتر بأخيه شيبوب وأخيه جرير وجماعة من العبيد والفرسان الصناديد... وقد أمرهم أن يدوروا حول السرادق من كل جانب وبأيديهم الرماح... وأن يكونوا على يقظة من عدو طارق... فعندها صفت الأبطال من كل جانب وصفت النساء والصبيان والجواري والغلمان، وأوقدوا الشموع... وإذا بالمواشط قد خرجن من السرادق وفي أيديهم الشموع... والإماء بين أيديهن يضربن بالعنبر والمزاهر، وبين أيديهن عبلة البهية كأنها الشمس المضية... وبيدها سيف مشهر يأخذ لمعانه بالبصر، فعندها صرخ كل من حضر وقال الأعداء والحساد، يا خسارة هذا الحسن والبياض لذلك السواد»[*73].

وهكذا تزوج ابن شداد الذائع الصيت بحبيبته عبلة، بعد كل تلك المحاكمات والأخطار التي تعرض لها، وأخذ يعبر عن سعادته بتحقيق رغبته في شعره.

موت عنترة

في أثناء غزواته، بوصفه زعيما لقبيلته، هزم عنترة فارسا يدعى وزرا وكان راميا للسهام مشهورا. ولما أراد عنترة معاقبته جزاء هجومه على قبيلته، سمل عينيه بأن مرر عليها سيفا متوهجا. ثم منحه الرتبة العليا في قبيلته.

١- ومنذ ذلك الوقت، ووزر بن جابر يدبر في صمت للانتقام منه. وعلى الرغم من أنه حُرم عينيه، لم يفقد بحال من الأحوال مهارته في الرمي. ولما كانت أذناه قد تربتا على تتبع حركات الحيوانات المتوحشة من خلال أصوات وقع أقدامها، فقد اكتفى بحاسة السمع لأن تكون خير مرشد ليديه في رمي السهام، إذ لم يحدث أنه أخطأ الهدف. وقد كانت كراهيته المستثارة

دائما تستجيب في شغف للأخبار التي تنتشر وتذيع حول عدوه. ثم نمى إلى علمه أن عنترة عاد من اليمن، بعد حملة بعيدة وناجحة على حدود بلاد الفرس، محملا بالغنائم والأشياء الفاخرة مثل تلك التي سبق أن عاد بها من بلاط كسرى، وأنه على وشك أن يمر في الصحراء لينضم إلى مخيمه. ولما سمع وزر بذلك بكى حسدا وغضبا. ثم استدعى نجما، عبده الوفي، وقال له: لقد مرت سنوات عشر منذ أن دمر القضيب الملتهب، بناء على أمر عنترة، نور عيني، وأنا لم أنتقم منه بعد. ولكن ها قد حانت اللحظة لأن أخمد في دمه النار التي أحرقت قلبي. إنهم يقولون إن عنترة يعسكر على شواطئ الفرات، ولهذا فإني أرغب في أن أذهب إلى هناك وأبحث عنه. سوف أسكن مختبئا في أدغال النهر إلى أن تسلم السماء روحه بيدي.

ثم أمر وزر عبده أن يحضر له ناقته التي تنافس النعامة في السباق، وسلَّح نفسه بجعبة ملأها بالسهام المسمومة. وأناخ نجم الناقة، وساعد سيده على أن يمتطي ظهرها، ثم أمسك بنهاية الخطام ليقود خطوات الناقة في اتجاه حوض الفرات البعيد، ثم دوت الصحراء بعويل البطل المحارب الكفيف وتهديداته.

وبعد مسيرة يوم كامل عبر الفضاء الصحراوي الجاف، وصل وزر وخادمه (في النهاية) إلى شواطئ الفرات حيث تعلم مجراه تلك الأشجار الخضراء والأعشاب التي تنتشر على طول حوضه.

وسأل وزر خادمه: ماذا ترى على الشاطئ الآخر؟

ورمى نجم نظره على الشاطئ الآخر، ورأى خياما قد زينت في ثراء، وقطعانا كثيرة، وجمالا تتجول في مجموعات في السهول، ورماحا منغرسة في الأرض على مداخل الخيام، وأفراسا مطقمة مربوطة من أرجلها أمام أماكن إقامة أسيادها. ثم رأى خيمة تفوق الخيام الأخرى في بهائها، وقد نصبت في مكان يبعد عن النهر، وينتصب عند مدخل الخيمة مثل السارية رمح طويل من الصلب، وبالقرب منه يقف جواد أشد سوادا من الأبنوس. وتعرف نجم على فرس عنترة النبيل، الأبجر المشهور، كما تعرف على سيفه البتار. وأوقف ناقة سيده وراء الأحراش والشجيرات التي تخفيهما عن الأعين، ثم أخذا ينتظران ساعة حلول الظلام.

2- وعندما نشر الظلام أسداله على شاطئ الفرات، قال وزر الكفيف

لعبده: دعنا نترك هذا المكان، إن الأصوات التي أسمعها من الجانب الآخر تبدو لي بعيدة للغاية عن مجال سهامي، قربني من الأطراف، إن قلبي يحدثني أن ضربة رائعة على وشك أن تجعل اسمي وانتقامي خالدين.

وأخذ نجم الرجل الكفيف من يده، وجعله أكثر قربا من الماء، ثم أجلسه على الشاطئ في مواجهة خيمة عنترة، وسلمه القوس وجعبة السهام، واختار وزر أكثر السهام دقة ووضعه على الوتر، وظل ينتظر ساعة الانتقام بأذن صاغية.

وفي هذه الأثناء، بينما كان عنترة في أحضان عبلة زوجته الحبيبة التي لم يقلل من حبه لها سنوات الزواج العشر، وقد نسي في خيمته متاعبه وغزواته، أثار النباح الموحش للكلاب، حراس الخيمة المخلصين، كما بعث في نفس عنترة الإحساس بفأل يثير القلق.

نهض عنترة وخرج من الخيمة، وكانت السماء مظلمة تنتشر فيها السحب، وتجول عنترة وهو يتحسس طريقه في الظلام، وجذبه نباح الكلاب الذي أخذ يتزايد، إلى النهر، واستمر عنترة يسير إلى أمام مدفوعا بمصيره، حتى وصل إلى حوض النهر. ولما كان يحدس بوجود بعض الأعداء على الشاطئ المواجه، صرخ على أخيه بصوت عال وسأله أن يبحث عنهم في الشاطئ الآخر.

ولم يكد رجع صوته يسمع صداه في أنحاء مجرى الفرات، وتصل اهتزازاته إلى الصخور والجبال، حتى نفذ سهم في جانبه الأيمن ثم تغلغل في أحشائه، ولم تصدر عن عنترة وهو يتألم، صرخة ولا أنّة، إذ لا يليق ببطل أن تصدر عنه الصرخات والأنات، بل إن عنترة سحب من جسمه السهم بيد حازمة.

وصرخ عنترة على عدوه المتخفي وقال له: أيها الخائن الجبان الذي لم يتجرأ على طعني في وضح النهار، لن تهرب من انتقامي، ولن تنعم بثمرة خيانتك.

أما عن وزر الكفيف، فعندما سمع الصوت وظن أن سهمه قد أخطأ الهدف، أصابه الفزع من مجرد التفكير في انتقام عنترة، فأغشي عليه على الشاطئ، واعتقد خادمه أنه مات، فهرب على ناقته تاركا سيده الفاقد الوعي في مكانه، أما شيبوب فقد عبر النهر عائما، وتعثر في جسم تصوره

جسد ميت، فحمله على أكتافه وسار به إلى خيام الأبطال.

3- وكان عنترة الممدد في خيمته بين أصدقائه اليائسين من شفائه، يعاني من آلامه المبرحة، وكانت دماؤه تختلط بدموع عبلة، وهي تحاول أن توقف نزيف الدم. وأحضرت جثة القاتل، وقوسه وسهامه إلى الخيمة، وتعرف عنترة على الملامح المشوهة لعدوه، ولم يكن عنده أدنى شك في أن السهم الذي صوب من يد مثل هذا الإنسان، كان مسموما. وفارق عنترة الأمل في الشفاء وأصبح الموت المحتم ماثلا أمام عينيه. وقالت له عبلة في رقة: «ولماذا تفقد الأمل؟ أنت تتضجر من نبلة، وأنت لا تهمك أسنة الرماح التي غطت جسدك بالجروح»[(*74)].

وأجابها عنترة: «والله يا ابنة العم لقد وافاني الردى وما بقي لي حياة بعد هذا أبدا، انظري إلى ملامح ذلك الوجه، إنه وزر، لقد كان سهم الخائن مسموما»[(*75)].

وعندما سمعت عبلة هذه الكلمات ملأت الليل بنحيبها، وأخذت تشق ثيابها، وتمزق شعرها، وتقبض على التراث وتضعه على رأسها، وكانت النساء في المخيم يرددن نواحها.

وقال لها عنترة: «واعلمي يا حبيبة القلب إنهم بعدي ما يبقون، كذلك بنو عبس لا يقدرون أن يحموك، ولا يرعون لك جانبً، ولا يردون لك طالبً، ولابد لك من قريب يحميك ومن الأعداء يقيك، فهذه موتتي التي كتبت علي، فيا ترى كيف تكون موتتك، ولكن يا ابنة العم اقصدي أحد الرجلين، إما ابن الطفيل، وإما ابن المهلهل الأمير زيد الخيل، فإن أحدهما يحميك ويرد عنك الأعداء ويقيك، فاطلبيه لنفسك. ولم ترد عبلة على هذه الأفكار المفزعة إلا بالدموع. واستمر عنترة يقول لها: «يا ابنة العم أنا والله ميت بلا محالة، ومن بعدي والله ما بقي يقام لبني عبس راية، ولا يبقى منها أبيض ولا أسود... ولكن يا ابنة العم أسرعي واركبي حصاني والبسي درعي اليماني، واعتقلي برمحي وسناني، ويكون سوطي في يدك واقصدي نحو بني عبس وعدنان، ويكون في صحبتك الأمير مالك أبوك وعمرو أخوك. وإذا سرت في البر والوديان فلا تعلمي أحدا من العربان، وإذا كنت على مثل هذا المعنى، فلا يشك أحد فيك ويظنونك أنا، فتهابك جميع العربان، وتخاف منك سائر الشجعان»[(*76)].

4- وبعد أن قال عنترة هذه الكلمات أعطى أوامره بالرحيل، فنكست الخيام وطويت، ووضعت على الجمال. أما عبلة التي كانت غارقة في دموعها، فقد أجبرت نفسها، وإن يكن بدافع الطاعة، على ارتداء سلاح عنترة الثقيل، ثم طوقت خصرها وعلقت سيفه، وحملت رمحه المنتصب في يدها، وامتطت صهوة جواده الأبجر، بينما وضع العبيد عنترة وهو يحتضر في محفة عبلة التي تعودت أن تسافر فيها في الأيام السعيدة، عندما كانت تعبر الصحراء وكأنها ملكة.

وما كاد يتوارى مرأى ضفاف الفرات الخضراء مقتحمين الصحراء الرحبة، حتى أبصروا خياما على البعد وبدت كأنها بقع في الأفق، أو كأنها هداب أسود على معطف السماء الأزرق. لقد كانت قبيلة قوية وكثيرة العدد. وتقدم ثلاثمائة فارس من هذه القبيلة لمهاجمة القافلة، ولكنهم تعرفوا عند الاقتراب منها، على المحفة والفرس.

فقال أحدهم للآخر بصوت خافت: إنه عنتر وعبلة، انظروا هذا سلاحه وهذا فرسه الأبجر، ومحفة عبلة الفاخرة. دعونا نعود إلى خيامنا فلا نعرض أنفسنا لغضب هذا المحارب الذي لا يقهر.

ثم كانوا على وشك أن يديروا اللجام، عندما قال شيخ كهل أكثر تعقلا وتدبرا من الشباب:

«يا بني عمي، إن هذا الجواد جواد عنتر، والسلاح سلاح عنتر، إلا أن الراكب، وحق من علا فاقتدر، ما هو عنتر، لأن القامة والله ما هي قامته، ولا هذه الهمة همته، فإن صدق حذري ولم يخنّى زجري، فإن عنتر قد مات. وما هذه إلا عبلة بنت مالك، وابن عمها قد حلت به المهالك، فسيروا قدامهم حتى نتحقق أمرهم»[*77].

ولما رأى الفرسان أن كلام الشيخ صادق في هذا الاحتمال، تراجعوا في خطواتهم وهم يتتبعون القافلة من بُعد، دون أن يجرؤوا على مهاجمتها.

وأخذ ذراع عبلة الرقيق يلتوي من ثقل الرمح الحديدي مما اضطرها لأن تناوله لأخي زوجها الذي كان يسير بجوارها. وسرعان ما شعرت عبلة بالإرهاق الشديد من التعب والمعاناة، وعندما وصلت الشمس إلى السمت، وصارت رمال الصحراء تتوهج مثل النار، رفعت مقدمة خوذتها لتجفف العرق الذي جرى على جبهتها، وعندئذ ألقت عيون الأعداء نظرة خاطفة

على بياض وجهها، وصرخوا: إنها ليست سوداء، واندفعوا مسرعين على خيولهم مقتفين أثر جماعة عنترة القليلة العدد.

وعندما سمع عنترة صوت عدو الخيول، وصوت صهيلها، وعندما سمع صوت عبلة تصرخ به، وكان راقدا مشرفا على الموت في المحفة، قام وأطل من بين الستائر، وأطلق، للمرة الأخيرة، صرخة الحرب المفزعة التي عرف بها، وعرفتها كل الصحراء. وعندئذ انتصبت أعراف الخيول وتجمد من عليها من الفزع، ثم قال أعداء عبس: «أسرعوا بنا نطلب الهرب والنجاة لأنها حيلة هذا الشيطان الذي ما يقاومه في الدنيا إنسان، ولا يطيق لقاه أحد من الشجعان، وقد أخفى نفسه حتى ينظر من يتعرض لأهله، فيسير إليهم ليخرب ديارهم ويمحق آثارهم».

ولم يبق بعد ذلك سوى نفر قليل كانوا لا يزالون يثقون في صوت الرجل الشيخ، ويستمرون في تتبع القافلة من بعد.

5- وعلى الرغم مما كان يعانيه عنترة من ضعف، فقد وضع عبلة في المحفة وامتطى صهوة الأبجر، واكتسى بأسلحته ومشى ببطء بجوارها.

ولما حل المساء، كانوا قد وصلوا إلى واد لا يبعد كثيرا عن قبيلة عبس، وكان يسمى وادي الغزلان، ولما كان الوادي محاطا بجبال صعبة الاختراق، لم يكن من اليسير على الجماعة السير خلالها إلا من خلال جانب الصحراء عن طريق ممر ضيق تكتنفه الأخطار حيث لا يستطيع السير فيه بالكاد سوى ثلاثة فرسان متجاورين. ووقف عنترة عند مدخل الممر الضيق، وجعل القطيع والعبيد والجمل الذي يحمل محفة عبلة العزيزة تسبقه. ولما اطمأن إلى أن القافلة تسير في أمان في الوادي، عاد ليقف وحده حارسا على نهاية المدخل مواجها السهل والعرب الذين كانوا يتبعونه على بعد، وفي تلك اللحظة ازدادت آلامه وتمزقت أحشاؤه، وكانت كل خطوة للفرس تجعله يعاني من الآلام التي أصبحت مثل نار جهنم، وبدأ الموت يجتاح أطرافه، ومع ذلك فقد كان يوقر روحه الباسلة. ولما أصبح مواجها للعرب الذين يلاحقونه، أوقف الأبجر، وغرس طرف الرمح في الأرض واستند عليه، على نحو ما يفعل المحارب الذي يعطي الفرصة لفرسه لكي يتنفس، ثم وقف عنترة بلا حراك عند مدخل الوادي.

6- وعند رؤية هذا المنظر، وقف المحاربون الثلاثة الذين كانوا حتى هذا

الوقت يقتفون آثار القافلة، مترددين، على بعد عدة مئات من الخطوات.

وقال أحدهم للآخر: «لقد لاحظ عنترة أننا نتبع سيره وهو ينتظرنا ليقتلنا جميعا، دعونا نستغل فرصة ظلام الليل ونهرب من سيفه وننضم لإخوتنا».

ولكن الشيخ الذي كان لا يزال مصرا على رأيه، طلب منهم أن يبقوا وقال: «يا بني عمي إنني قد تحيرت من هذا الأمر المتدارك، وإني ما أظن إلا أن عنتر هالك، ولو كان هو في طيب الحياة ما سكت عن قتاله في هذه الوديان، لأنه لا هو برعديد جبان ولا ذليل مهان، حتى إنه يقف هكذا عن القتال، ويرهب الرجال والأبطال، تعالوا إذن أيها الشجعان، وإذا رفضتم أن تغامروا بأرواحكم أمام سيفه: فلتنتظروا على الأقل قبل بزوغ الفجر، وعندئذ تنجلي شكوكم». وقرر الفرسان الثلاثة، على الرغم من عدم اقتناعهم بكلام الرجل اقتناعا كاملا، أن يبقوا كما هم، ولكنهم كانوا متوترين وخائفين من أقل هبة من التراب الذي كان يثيره الأبجر برجليه، وظلوا طوال الليل ممتطين صهوة خيولهم دون أن يسمحوا لأعينهم بأن تغمض.

7- وفي النهاية بدأ نور النهار ينير السماء، ويزيل الظلال التي عمت الصحراء. وكان عنترة لا يزال واقفا على نفس الهيئة في مدخل الممر. أما فرسه الذي كان مطيعا لأفكاره، فقد وقف بلا حراك مثل سيده.

وعندما رأى المحاربون هذا المنظر الغريب، وقفوا مشدوهين وأخذوا يتشاورون قبل أن يصلوا إلى حل. إن كل الشواهد توحي بأن عنترة فارق الحياة، ومع ذلك لم يجرؤ أحد على أن يتقدم ليتأكد (من الحقيقة). وإلى هذا الحد تمكنت منهم عادة الخوف، تلك التي غرسها فيهم البطل. ولكن الشيخ أراد أن يقدم الدليل لنفسه ولهم، وذلك قبل أن يعزموا على الفرار أو التقدم، فترجل عن فرسه، وترك لجامها، ووخزها في مؤخرتها بطرف رمحه وهو يدفعها إلى مدخل الممر، وما كادت تصل إلى حدود الصحراء ومنها إلى الممر الضيق حتى وثب الفحل الناري الأبجر وهو يصهل وجرى نحو الفرس التي جاءته بلا فارس. وعند أول وثبة، سقط عنترة الذي كان لا يرتكز إلاّ على الرمح الذي انزلق من تحت يده، وسقط كما يسقط البرج، ودوى صوت سلاحه في الممر.

وعند سقوط البطل، وسقوط الجسد الميت على التراب، تجمع الفرسان

الثلاثة حول الجسد المسجى أمام حوافر خيولهم، وتعجبوا أن يروا ذلك الذي هز بلاد العرب، مسجى بلا حراك في الصحراء. ولم يتملكوا مقاومة أن يقيسوا بأعينهم تلك الأطراف الضخمة وقوامه الفارع. واكتفى المحاربون، بعد أن ضاعت منهم فرصة الإغارة على عبلة التي دبر لها عنتر، بناء على خطته الاستراتيجية، أن تصل إلى مضارب عبس بعد ليلة كاملة (من المسير) واكتفوا بأن يسلبوا البطل أسلحته ويأخذوها معهم تذكارا لهزيمة البطل بالموت. وعبثا حاولوا الإمساك بفرسه، فعندما اشتم الأبجر المخلص موت سيده، شعر بأنه ليس هناك فارس بعد يستحقه، فجرى كالبرق وهرب منهم واختفى عن أعينهم في أعماق الصحراء الحرة.

ويقال إن الشيخ الكهل عندما أيقن من مصير البطل الذي طبق اسمه الآفاق بغزواته المتعددة، وهدأت نفسه، بكى على جسده وغطاه بالرمال وقال له: يا لك من فارس كريم، فإنك في حياتك وبعد مماتك صنت الأموال والحريم، لتخلد روحك وليُبلّل القطر النَدّي الأرض التي شهدت آخر معاركك.

التعليق والدراسة

يتمثل الموضوع الشعبي الأول الشائع في «عنتر وعبلة» في الأحوال الاجتماعية المبكرة غير الواعدة التي نشأ فيها البطل؛ فقد كانت المحظيات من العبيد لا يلقين القبول في المجتمع العربي. ويشكل هذا الموضوع حكاية عنترة، إذ كان الأطفال الذين يولدون من أولئك النساء يمثلون قاع المجتمع، بالإضافة إلى هذا فإن موضوع عنتر الأسود البشرة، نشط في وقت كانت فيه غارات الأثيوبيين وتهديداتهم قريبة إلى الذاكرة. وربما كان من النماذج الأخرى للطفولة غير الواعدة، وربما من أشهرها في مجال الفولكلور، ما يرد في دائرة حكايات سندريلا الخرافية التي لا تعرف أبطالا يرتكزون على مهاد واقعي، كما ترد في حكايات أبطال التراث الشعبي. ففي هذه النماذج يبعد الطفل عند ولادته، ثم ينقذ، وينشأ في حضن أبوين متواضعين، وفي النهاية يكتشف أن الطفل ابن ملك. ولا يرد هذا الحل في رومانس عنترة إلا في الروايات المتأخرة، حيث يكتشف عنترة أن أمه كانت أميرة أثيوبية أو سودانية، وهي علامة على أن الحكايات التي كانت تدور حول

عنترة كانت تطابق النموذج. وهناك أبطال آخرون كانوا يعانون من الازدراء بأشكال مختلفة، ومن بينهم يوسف الذي بيع بوصفه عبدا، وأرثر الذي كان خاضعا للأخ «كاي» الذي تولى تربيته، ثم خادم المطبخ جاريت الذي أهانته «لينيت» ثم آب لينكولن الذي كان فقيرا دميما.

ومن ملامح البطولة في رومانس عنترة قوته المبكرة وضخامة حجمه، وقد أثبت هذا عندما قتل الذئب والأسد، والعبد المتنمر، وهناك أحداث إضافية أخرى في الرومانس، وإن لم يتضمنها العرض المختصر الذي قدمناه؛ وهي تذكر كيف أن عنتر، عندما كان طفلا، مزّق أقوى الأقمطة، وعندما كان عمره أربع سنوات قتل كلبا ضخما، وهو ما فعله كوخلاين الذي قتل كلب الصيد كولان، فاشتق منه اسمه ويوازي هذا ما يروى عن هرقل، الذي لم يكد يبلغ السنة الأولى من عمره حتى خنق حيتين. ثم هناك الصبي بول بونيان الذي اهتز المدّ في خليج فندي من مهده الضخم، ثم دافي كروكيت الذي قتل دبا عندما كان عمره ثلاث سنوات فحسب.

وتعد أسلحة البطل وتجهيزاته من التراث المروي كذلك، فإذا كان عنترة قد غنم فرسه الأبجر، فإن الإسكندر روض الفرس بوسيفالوس، كما اشتهر كوخلاين بحصان مركبته، وكان يعرف باسم أشهب ماشا. وإذا كان عنترة قد اشتهر بسيفه «الظامي» فقد اشتهر كل من الملك «أرثر» و «رولاند» بسيفيهما، إكسكاليبور ودوراندل، كما اشتهر فيرجوس وسيجود وشارلمان وسيجفريد، وأويجير بحملهم سيوفا مشهورة. وقد وصل الظامي إلى يد عنترة من تحت رمال الصحراء بطريقة تكاد تكون سحرية، وهي شبيهة بحادثة انتزاع الملك أرثر للسيف إكسكاليبور من الصخر وانصياع السيف جرام لسيجموند. وكان رولاند، وروبين هود ينفخان في أبواق مشهورة، كذلك أخيل وكوخلاين، وكروكيت، أما عنترة فكان يطلق صرخات الحرب المثيرة للفزع.ويعد الفخر أمام العدو عادة أخرى شارك فيها الأبطال، ومثال ذلك تحدي عنترة في السهل لضربات الحاجب خسروان قبل أن يدخل المعركة وأنشد:

نفسوا كربي وزيلوا عللي
وابرزوا لي كل ليث بطل
وانهلوا من حد سيفي جرعا

مـــرة مـــنـــهـــا نـــقـــيـــع الحـــنـــظـــل
وإذا المـــوت أتـــى فـــي جـــحـــفـــل
فـــدعـــونـــي ولـــقـــاء الجـــحـــفـــل
يـــابـــنـــي الأعـــمـــام مـــا بـــالـــكـــمـــو
عـــن لـــقـــائـــي كـــلـــكـــم فـــي شـــغـــل
أيـــن مـــن كـــان لـــقـــتـــلـــي طـــالـــبـــا
رام يـــســـقـــيـــنـــي شـــراب الأجـــل
قـــســـمـــا يـــا عـــبـــلـــة مـــا مـــنـــيـــتـــي
بـــثـــنـــايـــا كـــالـــزلال الـــعـــســـل
إنـــنـــي لـــولاك مـــا ذقـــت الـــكـــرى
كـــي أرى الـــطـــيـــف بـــه يـــا أمـــلـــي[*78]

وفيما بعد أنشد عنترة شعره قبل أن يدخل المعركة مع البطل الرومي فقال:

الـــيـــوم أنـــصـــر لـــلـــمـــلـــيـــك المـــنـــذر
لـــيـــعـــلـــم كـــســـرى قـــوتـــي وتجـــبـــري
وأهـــدّ ركـــن الـــروم جـــمـــعـــا فـــي الـــوغـــى
وأجـــز رأس الـــبـــدرمـــوط بـــأبـــتـــر
يـــا أيـــهـــا الـــنـــذل الـــذي رام الـــوغـــى
مـــســـتـــهـــزئـــا مـــتـــجـــبـــرا بـــتـــكـــبـــر
إن كـــنـــت أنـــت الـــبـــدرمـــوط فـــإنـــنـــي
مـــن آل عـــبـــس غـــاب لـــيـــث قـــســـور
فـــابـــرز لـــتـــلـــقـــى شـــرح مـــا قـــد قـــلـــتـــه
واعـــلـــم بـــأنـــي واحـــد فـــي الأعـــصـــر[*79]

ولنا أن نقارن هذه الأبيات بما ورد في المسرحية الأمريكية المفقودة، أسد الغرب، وإن كانت المقارنة تهبط من السامي إلى الهزلي، وفيها نجد أن الكولونيل نمرود المرسوم على غرار نموذج دافي كروكيت، هو الأسد، وكان على وشك أن يضرب شخصا جاءه متفاخرا من الأدغال، وهو مراكبي في المسيسيبي يدّعي من بين أشياء أخرى، أنه يستطيع أن يصارع القطط المتوحشة. وصرخ نمرود قائلا: ألست أنا زهرة الغابة الصفراء ! اسمي

نمرود الناري، نصفي حصان ونصفي تمساح، وبي لمسة من الزلزال، إنني أمتلك أجمل البنات وحصاني أسرع حصان، وكلبي أقبح كلب في الحي، سرعتي تفوق سرعة أي رجل في كل كنتاكي، أقفز إلى أعلى وأطرحه أرضا، وأسابقه وأضربه بالسياط»(6) ويتشابه نموذج البطلين في المقارنة بالأسد، ثم في المباهاة بالمرأة والجواد، وفي تمتعهما بمواهب خاصة في القتال وفي صرختيهما في الحرب ومبالغاتهما.

وتروي الحكاية الشعبية خطابا لدافي كروكيت المفروض أنه ألقاه أمام الكونجرس، وتبدأ بصرخة حرب، وتقول، هو.. هو.. هوب.. يو.. وو.. وو.. يو.. أنا أقول لك يا سيدي رئيس الجلسة، عندي حديث نقحته طيلة ستة شهور، أنا الرجل الصياح، عندي أخشن جواد يهز الجنبات، وأقدر سلاح على التصويب، وأجمل أخت، وأسرع الكلاب في الحي... أبي يغلب أي رجل في كنتاكى، وأنا أستطيع أن أتفوق على أبي وأستطيع أن أبز أي رجل في الكلام في هذا المجلس بعد أن أمنحه فرصة ساعتين يبدأ فيهما قبلي. وفي وسعي أن أجري أسرع من أي فتى وأنا أنافس أي فتى في الغوص في هذا الجانب من المستنقع الكبير، وفي البقاء أطول مدة في قاعه، ثم أخرج غير مبلل، وأستطيع أن أمشي مثل الثور وأجري مثل الثعلب، وأعوم مثل القرموط وأصرخ مثل الهندي، وأحارب مثل الشيطان، وأنطلق مثل الزلزال، وأعشق مثل الثور المجنون وأبلغ مواطنا دفعة واحدة دون أن أختنق، إذا دهنت رأسه بالزبد، وثبت أذنيه إلى الخلف»(7).

على أن مالا مثيل له في خصائص البطل الشعبي، حسن بلائه في المبارزة، وحتى إذا حارب في صفوف الجيش، فهو يحارب الأعداء جميعا واحدا واحدا في آن واحد، ومن الخصائص اللازمة للبطل كذلك، أنه يكسب المعركة على الدوام؛ فهو البطل الأعلى الذي لا يقهر، على الأقل حتى نهايته. حتى إذا حانت نهاية حياته، فإنه يتبع كذلك النموذج الشعبي، فهو يموت بسبب الخديعة بالسم، ولكنه يموت موتة بطولية. وكثيرا ما يظل مدافعا عن قومه حتى بعد الموت؛ فـ «أخيل» طعن طعنة غير عادلة في عقبه غير المحميّ، ومات رولاند بسبب خيانة جانيلون له، وكان موت الملك آرثر نتيجة خيانة موردريد له، أما روبين هود فنزف حتى الموت بسبب الخيانة. ومات الإسكندر مسموما وقد أعطى جنوده الساعات الأخيرة من حياته.

وفي معركة ألامو، أصيب دافي كروكيت من الخلف، واستمر يدافع عن القلعة وهو يعاني سكرات الموت. ويتشابه البطلان عنترة وكوخولاين في موتهما، فقد جعل كوخولاين أتباعه يربطونه إلى حجر منتصب فاستمر صده للعدو حتى استقرت عليه الغربان وكشفت عن موته، وكما أن الأبجر لم يسمح لأحد بأن يقترب منه بعد موت عنترة، كذلك هاجم ماشا الأشهب فرس كوخولاين، أعداء سيده المتوفى ثم هرب. ويبدو أن هناك علاقة تشابه خاصة بين عنترة وكوخولاين، وهذا الموضوع جدير بالملاحظة، حيث إن الأدب المبكر لأيرلندا لم يكن منتميا للمسار الإغريقي الروماني ـ اللاتيني ـ الأوروبي الذي سارت فيه الثقافة الغربية بصفة عامة، كما سبق أن ذكرنا، بل يعد هود وغيره من آداب الجزر البريطانية وأيسلنده مستقلا عن المجرى الرئيسي(8). وربما فسرت بعض وجوه التشابه، من خلال ما يبدو من تماثل في البناء الاجتماعي بين بلاد العرب وأيرلندة، على الرغم من أن العرب كانوا أكثر تنظيما، وأكثر دماثة وأكثر تقدما، وبطبيعة الحال تعكس حضارتهم زمنا أحدث عن زمن الأسطورة الأيرلندية الأكثر قدما. وإذا نظرنا إلى أسلوب الحياة في رومانس «عنتر وعبلة» وجدنا بيئة فروسية وتمييزا طبقيا، واحتراما للمرأة، وهي مكونات الفروسية الأوروبية المتأخرة. وعلى الرغم من أن المجتمع العربي لم يقم على شريعة الإقطاع المعروف في المجتمع الأوروبي، فإنه يرتكز على نظام الأسر الغنية المحلية التي يدين لها الغير بالولاء، ويمثل المنذر في سيرة عنترة هذه الطبقة. فالمنذر كان ابن ملك عربي كبير يحكم على ملوك أو زعماء محليين، وهو بدوره يدين بالولاء للملك الفارسي بوصفه تابعا له. وعلى كل، فإن ولاء العربي ينتقل من خلال قبيلته إلى كل زعيم قبلي أو ملك محلي يصل إلى هذا المنصب أحيانا، وليس دائما، عن طريق الوراثة؛ فقد كانت زعامة الرجل القادر من طبقة الفرسان، عاملا حاسما. فالمنذر وأسرته يمثلون الطبقة العليا، ولكنهم مدعومون من زعماء القبائل، وهؤلاء يستمدون قوتهم وثراءهم من خلال فرسانهم المسلحين الذي يتمتعون بما يميزهم عن الآخرين، أي عن الأعضاء المحاربين في المجتمع، ويلي هؤلاء الفقراء، وفي أسفل الدرج يأتي العبيد.

وإذا تحدثنا بلغة الاقتصاد نقول: إن أسباب العيش، كما نراها في رومانس «عنتر وعبلة» ترتكز على الدواب التي تعد ضرورة لعماد الحياة:

الخيول والجمال والأنعام والماعز وكذلك العبيد، والغنائم التي يُحصل عليها بين الحين والآخر مثل الأسلحة والمجوهرات والذهب والأردية الثمينة، فالحصول عليها بالغارات كما يدافع عنها من الغارات، وإن كانت حياة البدو تؤدي إلى تكديس الملكيات. فإذا عنت الحاجة إلى ثروة، خرج الفارس للفوز بها. ولهذا كان طبيعيا لكل من عنترة وعمارة، على سبيل المثال، أن يحصلا على المهر المطلوب بهذه الطريقة، ونحن نسمع في حكايات المهور الأخرى عن وقوع الجميع أسرى بمن فيهم العروس. وتتعدى مهمة الفرسان ذلك إلى القيام بغزوات لإنقاذ رجال القبيلة أو مساعدة الموالين لهم أو الهجوم على الأعداء. وكان لعشيرة عبس موطن أو حلة تقع على بعد مائة ميل إلى الشمال من المدينة، وكانت لهم فيه حقوق، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من البدو الرحل، حقوق الملكية فيما هو مشاع مثل المراعي والماء، وكذلك حق الإقامة فيها. وكان الملك زهير، زعيمهم، وأبناؤه يمتلكون أكثر من الأخيرين. وكان لكل منهم مائتا عبد، أي أنهم يمتلكون من الحقوق المشاعة أكثر من سائر أفراد القبيلة. أما الفقراء والأرامل واليتامى، ويدرجون في الغالب في مجموعة واحدة، فعلى الرغم من نقاء دمهم العربي، فلا سبيل إلى حقوقهم إلا وفقا للعرف السلوكي الذي يحمي القوي بمقتضاه الضعيف، والأقوياء هم الفرسان والخيالة من أعضاء القبيلة العاملين، أي الذين يقومون بالغزو. وتشبه هذه الأعراف على نحو مثير مثيلتها في أيرلندا، على نحو ما ورد في كتاب غارة الماشية، The Cattle of Raid of Couly التي يلعب فيها كوخولاين دور البطل. والراجح أن الحكاية نمت خلال القرون المسيحية الأولى، ولكنها دونت في النصف الأول من القرن الثامن. والمعروف أنها أحد مصادر الحكايات التي تدور حول الملك أرثر، على أن هناك تطابقا بين بعض الحكايات في الكتاب الأيرلندي وفي «عنتر وعبلة».

ومثال ذلك أن الماشية هي وسيلة للرزق. وليست الحكاية السابقة إلا واحدة من الحكايات الأيرلندية التي تحكى عن غزوات نهب القطيع. وكما هو الحال في «عنتر وعبلة»، تصور هذه الغزوات بوصفها الوسيلة الوحيدة للحياة، وهي الشغل الشاغل لكل شخص؛ فالخطط توضع والمعارك تدور تحت قيادة شيخ أو ملك (وهي هنا الملكة) من أجل امتلاك القطعان. وقد طال الجدل حول ما إذا كانت هذه المعارك تعتبر حروبا أم رياضة أم تجارة،

فلقد كانت شغلهم الشاغل على الدوام، ولابد أن القطعان الأيرلندية كانت عجفاء رشيقة مثل كلاب الصيد بسبب هذا الجري. ومرة أخرى نجد في حكايات البطولة الأيرلندية، كما هو الحال في سيرة عنترة أن القوي في عون الضعيف، وأن الطبقات الاجتماعية تعتمد على القوى المحاربة وهي نفسها القوى العاملة، وأن زعماء العشائر يتقلدون مناصبهم عن طريق الانتخاب من داخل الأسر الحاكمة. والمرأة لها احترامها في العشيرة، بل قد تكون حاكمة مثل مدب Medb أو مثل سكاتاك Scathac، إنهن رفيقات للرجال وأنداد لهم، ولهن ما يميزهن من قدرات كامنة قابلة للتحقق، كما يتمتعن بأشكال مختلفة من التحرر، ولكنهن لا يُعشقن عشقا آسرا، عشق عنترة لعبلة.

وهذا فارق جوهري بين الشرق والغرب قبل نهاية القرن الحادي عشر، عندما وصلت قصص الفروسية والحب إلى جنوب فرنسا عن طريق إسبانيا المسلمة؛ لقد كان للعرب اهتمام حسي بالنساء وتسليم بالحب الجنسي، وهو ما لم يعرفه الغرب. ويظهر هذا في قصة يوسف العربية. مقابل قصة يوسف الغربية، وفي قصة أوليمبياس ونكتانيبوس، وفي النوادر الفكاهية التي وردت في كتاب ألفو نصوص «مجالس المتعلمين» وفي حكايات ألف ليلة وليلة، وفي الحكايات والنوادر والتي وردت في الأدب الأوروبي في العصور الوسطى وافدة أصلا من شرق البحر الأبيض المتوسط. كانت عاطفة الحب الطاغية مظهرا من مظاهر الحياة الدمثة، وكان الغرب سعيدا بتبنيه من حضارة العرب المميزة جنبا إلى جنب مع استعارته لأحواض الاستحمام والطنافس، والقماش المطرز والمخمل والحرير، والبرتقال والسكر والبهار، والشطرنج والزجاج الملون، والمرايا، والألوان الجديدة (مثل الفستقي والأرجواني والقرمزي) وشعارات النبالة، وحدائق البيوت، والأحذية المدببة والرقصات الموريسكية والموسيقيين، والجيتار والعود والرباب والتروبادور، وبهذا تحولت العاطفة في أوروبا إلى الحب العفيف. ويزداد التشابه بين أوليات الفروسية الأيرلندية والفروسية العربية في نموذج البطل لدى كل منهما، على نحو ما رأينا في وجوه التشابه بين كوخولاين وعنترة. ومن الممكن أن نضيف إلى ذلك تفاصيل تنتمي في حد ذاتها إلى رومانس العصور الوسطى: فعينا عنترة تجحظان ويزداد توحشهما واحمرارهما إذا غضب.

أما كوخولاين فيمكنه، وهو يحمس نفسه للمعركة، أن يسحب إحدى العينين إلى الداخل ويدفع بالأخرى إلى الخارج مثل المرجل. أما عن معاركهما في زمن الشباب، التي سبقت الإشارة إليها: فكل منهما قامت بتربيته امرأة (زبيبة وسكاتاك). ولكن نظرا لمقدرتهما غير العادية، تولى الأقرباء مدّهما بالأسلحة، (والد عنترة، عم كوخولاين). وقد وُعد عنترة بالزواج من عبلة إذا حارب أعداء أبيها، وكذلك وعد كوخولاين بالزواج من فاند إذا ما حارب أعداء زوج أختها. وتصف سيرة عنترة وعبلة لقاء الأب بابنه قبل أن تحدث المواجهة بينهما وذلك عن طريق التعرف على سوار يرتديه الابن (قصة أسيد ونازح). وفي الحكاية الأيرلندية تقابل كوخولاين مع ابنه كونلا، وطعنه في معركة قبيل التعرف عليه من خلال خاتم. وكل هذه الموضوعات العربية والأيرلندية نجدها كذلك في مادة بريطانيا، أي حكايات العصور الوسطى البريطانية؛ فمن ملامح الغيلان المفزعة والعماليق، عيونهم البارزة الحمراء، وقد نُشّئ برسيفال والفرسان المعروفون معه وهم شباب، على أيدي نساء. وكانت الفتاة تُمنح للبطل في مقابل معاركه التي يخوضها (جارت ولايون)، وكانت معركة الأب مع ابنه وتعرف أحدهما على الآخر بعد ذلك، أو تعرف أحدهما على الآخر من دون معركة موضوعا عرفه العرب منذ زمن. ومثال ذلك المعركة الفاصلة في حكاية رستم وزهراب. ونخص بالذكر حادثتين أساسيتين تمثلان الذروة في ملحمة الملك أرثر، وهما لقاء أرثر بأخيه مودريد ولقاء كونسلوت بجلاهاد، وقد اختلطا بحكايات ليونل ولوت وجادين ونوك وأيدر. وفي كل هذه الأحداث يظهر الخاتم وسيلة للتعرف، وإذا كنا قد سجلنا أن التراث الأيرلندي يعتبر المصدر الأول لمادة بريطانيا، وأن بطولات كوخولاين تلعب دورا كبيرا في هذا المجال، بذلك نكون قد عقدنا التوازي بين حكاية عنترة والفروسية الغربية في مراحلها الأولى. وربما كان من الأوفق أن نسمي هذه المرحلة بمرحلة الفرسان التي تعد الإرهاص الحقيقي لنظام الفروسية، وأساس المثل والمؤسسات وقصص الرومانس التي نبع منها جميعا، وبناء على ذلك، فإن سيرة «عنترة وعبلة» تشارك التراث الأوروبي عناصر نصادفها عادة في حكايات الأبطال الشعبيين، الذين لم يصلوا بعد لمرحلة أبطال الفروسية، وفي مظاهر الفروسية. لقد تطور نظام الفرسان في أوروبا من سلاح الفرسان الضخم في زمن

جوستنيان، وكان الفرسان فيه يتسلحون بالرماح والأقواس، ويمثلون العمود الفقري للجيش الروماني، لكنهم كانوا يتصفون بالبطء وثقل الحركة وعدم الكفاءة في تعاملهم مع الغارات البربرية، حيث إن البرابرة كانوا بدأوا ينطلقون في حرية ويضربون ويفرون مسرعين، مسلحين بالأقواس والسهام. وعلى أنه في القرن التاسع، بدأ الغربيون يستخدمون في سلاح الفرسان الأسلحة الثقيلة التي تبنوها من الفرس الساسانيين (من القرن الثالث إلى السابع)، الذين تعلموا التقنية الصعبة من البارثيين. وقد استطاع الخيالة في دروعهم والخيول المسلحة بالزرديات، بعد هزيمتهم أن يقاوموا مضايقات البرابرة وغاراتهم المحلية، وبهذا توقف تقدم البرابرة. وقد انتقل هذا الأسلوب الحربي الجديد من الفرس إلى البيزنطيين، ثم من البيزنطيين إلى غرب أوروبا، حيث أصبح سلاح الفرسان المسلح، القوة الأولى للدفاع المحلي عن الأرض. لقد كان الفارس الأوروبي يقطع أرضا في زمن السلم، ويحارب على ظهر الفرس في الحرب. وكان مطلوبا منه أن يوفر للفرس معداته، وكانت عدة الفرس في القرن الثامن، الركاب الذي عرفته بلاد الفرس في زمن مبكر منذ القرن السابع، بعد أن جاءها من الشرق الأقصى. وقد سهل الركاب، بطبيعة الحال، لراكبي الخيول، أن يحاربوا بالرماح التي أصبحت عدة المعركة الحقيقية في الفروسية، ثم أصبحت فيما بعد الرياضة المرتبطة بها، وهي لعبة المنازلة، وكان الفارس يكافأ في بداية الأمر بأن يمنح اللقب، إما في البلاط أو في حقل المعركة في بعض الأحيان. على أن الألقاب أصبحت تورث منذ مشارف القرن الثالث عشر. لقد كان النبلاء هم الفوارس، والآن أصبحوا فوارس بالميلاد، وهم يمتلكون الأرض، وعلى ذلك أصبحت الأرض محصورة في طبقة واحدة. ومضى زمن العسكرية الشخصية وحل محلها عقد شرعي بين الفارس وأميره الإقطاعي، وأصبح الفارس منفذا للإدارة إلى جانب أنه جندي وهو مالك للأرض، وأدى به هذا الطريق إلى بلاط الملك في فرنسا وإلى البرلمان في إنجلترا.

وبحلول منتصف القرن الثالث عشر أصبح نظام الفرسان الأساس الذي قام عليه نظام الفروسية، أي أنه كان الأساس لأخلاقيات سلوك الفروسية، وقد تضمنت هذه الأخلاقيات التزامات نحو النظام الاجتماعي الذي يدعمها، ونعني بذلك الأرستقراطية الملكية والكنيسة، كما تضمنت أن يكون منبت

الفرسان اختبارا للنبل، ثم فكرة أن وضاعة الميلاد تعني وضاعة البواعث والأفعال. وقد ترتب على هذين البندين التحيز ضد كل من يتزوج من طبقة دون طبقته. ثم كان من أخلاقياتها أن يكون الفارس محاربا صليبيا، وأن يكون جوالا بهدف المغامرات الفروسية، ثم الحب العذري الذي يقوم على التودد واللطف بعيدا عن الجنس. وتدعو شريعة الفروسية إلى الإخلاص واللطف والكياسة واحترام المرأة والسخاء، بما في ذلك بذل المال والروح ثم الشهامة والصرامة والجرأة. ونحن نرى حقا في «عنترة وعبلة»، النموذج الأصلي لكثير من هذه الأخلاقيات؛ كان لعنترة أعداء كثيرون بسبب وضاعة مولده (مالك، شاس، عمارة، ربيعة، وآخرون)، وكان أولئك يشعرون أنه بسبب هذه الوضاعة لم يكن عنترة يساوي شيئا في جوهره. وفي الوقت نفسه كان محاربو عبس يزهون بنقاء دمهم الموروث الذي يعطيهم الحق في الفروسية، كما يعد الإخلاص لقبيلتهم شيئا جوهريا كليا، تشهد بذلك جميع المناوشات ومناسبات الوفادات كلها تقريبا. وذات مرة بلغ الأمر أن يُنفى عنترة إثر نشوب الخلافات بينه وبين قبيلة عبس، وقد تفهم عنترة الأمر وقبله، بل غفره لهم، وكان شهما كريما مرات عدة مع والد عبلة ومع والده بل حتى مع أعدائه الأمراء، مثل عمارة وربيعة عندما سألوه المغفرة. وكان عنترة يؤكد شهامته بأن يلفت أنظارهم لأفعاله التي لا تصدر إلا عن نبل المحتد. وكان يعتب على شيبوب عندما رفض ابن أمه أن يشاركه شهامته في التعامل مع شاس. وكان عنترة في المعركة، يصفح عن معارضيه الأفاضل مثل روضة. فإذا عاقب القائد فإنه يصفح عن أتباعه. وفيما يختص بحماية النساء، كانت سيرته تبدأ بهذا العمل وتنتهي به. ومن الواضح، وهو يسجل هذا حقا في قصائده، أن حبه لعبلة يعد القوة المشرقة في حياته، إذ كان هذا الحب مصدر إلهام لأفعاله العظيمة التي رفعته فيما بعد، بمعنى الكلمة، للمرتبة الأسمى. وكان إنجازه في اكتسابها زوجة له أكثر الأفعال اللافتة للنظر، حيث إنه كان في الأصل دونها منزلة، وكان يمثل الفروسية والكياسة، عندما رفض عرض الفارس الذي أنقذه، إذ قدم له بناته ليتزوج بإحداهن. وكان ودودا يسمو سلوكه فوق اللوم، عندما رفض الراقصات في بلاط أنوشروان الباهر، ثم أخذ يتغنى بعبلة. وقد حمى عنترة وحده نساء عبس، وأنقذهن عندما هوجمن وهن في طريق العودة من حفل زفاف،

فاندفع لنجدتهن عندما اقتحم أوزاك مضرب النساء في قبيلة مازن، كما أنقذ نساء عبس عندما أسرهن رجال طيء. وكم من مرة أنقذ عنترة عبلة، ولهذا اعترفت النسوة بأنه حاميهن، وأنشدت إحدى الفتيات قصيدة مدح فيه، ثم صفقن له عندما صفع عمارة. وكان عنترة كذلك نموذجا لبسالة الفروسية ونموذجا لتحققها العملي؛ فعندما وجه ضربته إلى أوزاك شقه هو وحصانه من قمة الرأس بحيث سقطا معا في أربعة أجزاء، وهو عمل بطولي يعكس عمل جاي وازيك، عندما قتل جس كوليراند وشق فرسه إلى شقين. وكذلك فعل الملك آرثر عندما ضرب عفريتا يمتطي صهوة جواد، وشقه إلى شقين بحيث تدلى كل شق من الحصان. وقد ورد موضوع إطلاق المنذر لسراح عنترة في مقابل مساعدته له ضد كسرى في حكايات الفروسية الأخرى. وفي حكاية جاي وازيك مرة أخرى، أسر ملك من الملوك السيد هيرود. وعندما علم بأنه يحتفظ لديه بفارس مشهور، أطلق سراحه في مقابل خدمته له، وفي كلتا الحالتين يقلب البطل الأمور لمصلحته. وهناك تتردد في حكايات الملك آرثر عن البطل الذي يبدو في شكل فارس فقير مجهول لا لشيء إلا ليقهر كل من يتعرض له، وهذا ما فعله عنترة عندما أنقذ نذيرا من قبيلة عامر. ومن النماذج الشائعة في حكايات الفروسية الزيارات إلى المزارات والأماكن المقدسة، ففي سيرة عنترة، رحل عنترة إلى الكعبة في مكة ليصلي لإله العالمين. وإلى جانب حكايات البحث عن الكأس المقدسة (grail)[*80]، وتسجل «رومانس» العصور الوسطى زيارات لا حصر لها مع الزهاد وغيرهم من الشخصيات المقدسة الشعبية. ولا يتشابه موضوع المرأة المحاربة الذي تمثله الجيداء في «عنتر وعبلة» كل التشابه مع دور ميدب Medb في حكاية تين Tain، بمعنى أن «ميدب» شخصية محورية، وهي حاكمة وقائدة حربية، بينما نجد الجيداء امرأة فارسة من بين الفرسان العديدين في السيرة، على أن الجيداء، تعد سابقة للنساء المحاربات اللاتي كن رفيقات للفرسان وعاشقات لهم في ملاحم عصر النهضة، ونخص بالذكر برامانتي في الملحمة الإيطالية أورلاندو فيوزو، وجيلديب في ملحمة تحرير أورشليم، وبريتومارت في ملحمة ملكة عبقر (ملحمة إنجليزية من تأليف إدموند سبنسر).

وهناك وجه آخر من وجوه التشابه في تلك الفقرة المختصرة التي تحكي

عن المترجم العربي الذي أسره عنترة مع الفرس، «ضحك عنترة من قول الرجل الفكاهي: كلما قتلت مرزبانا أتولى أنا نهب ممتلكاته»، وهي فكاهة تعود بنا إلى الإسكندر من قبل في استمتاعه بالنكتة وسرعة البديهة، وتستشرف شخصية الملك وبهلوله في المستقبل. إن كثيرا من مغامرات عنترة مغامرات فارس متجول، ومن ذلك تتبع عنترة الفارس الذي يمتطي صهوة الأبجر، ثم غنم من بعد، الفرس لنفسه. ومن ذلك حروبه مع المنذر، وعثوره على السيف الظامي. ويرتبط بهذا توزيع العطايا؛ فقد كان عنترة يهب العطايا كما كان يفعل ملوك العرب والفرس؛ لقد كان الفارس المتجول ظاهرة تاريخية في الشرق والغرب معا، ويذكر كلوستون اسم فارس رزم خاه ويعني الشخص الذي يخرج بحثا عن المغامرة، وهو يذكر فارسين جوالين من القرن الثامن هما أبو محمد البطال وجعفر الصادق[9]. وهناك عناصر أخرى (في السيرة) لها مقابل في القصص الغربي في العصور الوسطى، ومثال ذلك الإهانة التي لحقت بالمنذر في بلاط الفرس، فقد خطط خسروان وغيره من رجال البلاد أن ينتزعوا النوى من البلح ويضعوا مكانه اللوز، ومن ثم فقد أكلوا البلح كاملا. أما المنذر الذي كان يحاكيهم على نحو مهذب، فقد أكل البلح بنواه، فلما تكشفت له الحيلة، أدى هذا إلى ردة المنذر عن سلطة الفرس، كماأدى إلى قتل الخسرواني بيد عنترة. ونجد حكاية شبيهة بذلك في Disciplina Clericalis رقم ١**. إذ وضع مهرج في حفل أقامه الملك، كل العظام المتبقية من الأكل عند قدمي مهرج آخر، وقال عنه إنه التهم اللحم كله بما فيه من العظم. وعندئذ أجاب المهرج المتهم قائلا: «لقد كنت أتبع طبيعتي، أقصد الطبيعة الإنسانية، عندما أكلت اللحم وتركت العظم، ولكن صديقي جرى وراء طبعه الذي من الواضح أنه طبع كلابي، حيث إنه أكل اللحم والعظم معا. ومحاولات الإهانة هذه قديمة قدم جوزيفوس فيما حكاه عن هيركانوس[10]، ثم نسبت من بعد إلى كثيرين. ولكن من المحتم أنها ارتبطت في النهاية بما يروى عن دانتي في بلاط «كانْ المعظّم ديلاسكالا»، حيث رد كانْ على الشاعر ردا جارحا.

ويستشرف الشبح الذي يطالب بثأر قاتله، ظهور الشبح في هاملت. أما سخرية النساء من المتأنق عمارة (في السيرة) فربما يرجع في قدمه إلى المشاحنة بين هيلين وباريس في الإلياذة. وتجعل حادثة البدرموط الصراع

الإسلامي المسيحي في الحكاية على مستوى المعارك الفردية والبطولية موضوعا عالميا، وقد كان السوري هو البطل المحارب عن ملك الروم.

وعلى الرغم من أن ما ذكرناه يعد أحداثا في قصص الفروسية أكثر منه أحداثا في الحب العذري، فإن الحب العذري يتجلى في سيرة عنتر وعبلة في مظهرين: أحدهما غزل عنترة في عبلة بوصفه الشاعر والمنشد المرموق وما يصحب ذلك من وصفه لقوة حبه لها. وكانت قصائد عنترة تنبئ بالشعر الغنائي للتروبادور في القرن الثاني عشر، ثم الشعر الغربي بعد ذلك. ومن أمثلة ما خلفه شعر عنترة في هذا أو ذلك قوله: نظرات عينيها سهام تقتل الأبطال، ثم وجهها كالشمس أو كالقمر، ابتسامتها مثل الخمر أو العسل، قدها مثل شجرة الطرفاء أو مثل الغزال، هديل القمرية مثال للوفاء والحب وفراق الأحبة. بل إن الشعر الغنائي الشعبي يردد مثل هذا حتى اليوم:

«على قلبي قُمرية
تعلن أنني مت من أجل الحب»

وهي صورة قديمة تنتقل ارتجالا من أغنية لأخرى في الأغاني الشعبية الغربية، وصوت البلبل يشير إلى مقدم الربيع وكذلك المحبوبة. وفي قصيدة لعنترة وأخرى لعبلة يستدعيان فيها ريح الجنوب لتكون رسولا للحبيب، وربما كان شعرهما من أسلاف تلك الرباعية المشحونة بالدلالة مجهولة المؤلف، ومن أقدم أشعار الحب الإنجليزية:

«رياح الغرب... متى تهبين؟
ومتى تسقط قطرات المطر؟
يا ربي لو كان حبي بين ذراعي
ولو كنت في فراشي ثانية!»

إن موضوع الحب العذري بوصفه تراثا مشتركا بين الشرق والغرب، يملأ عدة مجلدات. وقد اكتفينا، في عرضنا لسيرة عنترة، بأن مررنا عليه مر الكرام. ومع ذلك فقد ركزنا على مظهرين في ذلك المجال الخلافي، لقيا قبولا من الباحثين، ويعد الشعر أحد المظهرين؛ فعن طريق إسبانيا قدم الشعر العربي القافية لأوروبا، وكانت الصيغ العربية هي أساس الخرجات المستعربة[*81] ومن ثم كانت إرهاصا بأغاني التروبادور. ويضع مرجع أساسي هو «دليل القارئ» في الفصل الخاص بالأدب الإسباني هذا

الموضوع الذي طال الجدل فيه موضع الحقيقة المعروفة، ففي عام 1948، كما يقول: «اكتشف س. م شتيرن في المعبد اليهودي في القاهرة عشرين قصيدة عبرية، الأبيات الأخيرة فيها باللغة الإسبانية، وترجع إلى 1040م، وبعد ذلك اكتشفت خمسون قصيدة من هذا النوع مكونة أقدم ديوان شعر غنائي معروف في اللغات الرومانية، وقد تولدت هذه الأبيات التي لا يعرف مؤلفها من خليط من الثقافة العربية والعبرية والإسبانية، ممثلة بداية مناسبة للأدب الإسباني الذي يتميز بجذوره الشعبية وبتأثره الشديد بالعرب طوال ثمانية قرون. وفيما يختص بموضوعها، تتغنى الأبيات ببكاء الفتاة الصغيرة على حبها الضائع وبنغمة ملؤها الحنين، وهي بذلك تقدم الحب بوصفه موضوعا مهما في الشعر الإسباني. وتشير وجوه التشابه بين شعر عنترة كما رأيناه، وشعر الغرب، إلى مدى تأثر الغرب بالعرب في هذا المجال، فعندما استخدم دانتي أغنيات التروبادور نموذجا للأسلوب الجميل الجديد، كان معناه أن العرب قد تغلغلوا بنجاح إلى قلب الأدب الأوروبي. أما المظهر الثاني للحب العفيف فيتمثل في مطلب عبلة بأن تكرم في حفل زفافها كما كرمت الجيداء، وهو نموذج للتبعات الخطرة التي يقوم بها البطل استجابة لهوى الحبيبة، وكان العاشق (عنترة) سعيدا بإنجاز هذه الخدمة لها، وإن هلك دونها. ويعد هذا المطلب جزءا من مظاهر ثقافة الإقطاع حيث تتحكم المرأة اجتماعيا، وهو عنصر له مغزاه في الحب العفيف. وفي حالة عنترة، نتج عن ذلك، كثير من المتاعب والمعارك. ويرتبط الانقطاع لخدمة المحبوب في شعر التروبادور كذلك بالتبعية في النظام الإقطاعي؛ فهناك أمثلة كثيرة في شعر التروبادور نجد فيها السيدة التي يخاطبها المحب بلقب «مولاتي». ولقد رأينا في حالة عنترة، أن القصاص كانت تفرضه عبلة أو يفرض من أجل عبلة، وذلك في إطار النظام الطبقي لقبيلة عبس. وكانت مكانة عنترة الرفيعة تخفف من هذه الأعباء، على أنه من الواضح أن الوضع الإقطاعي كما يصوره شعراء التروبادور، وكما تصوره قصائد عنترة في الحب، بكل ما تتضمنه من استعارات من الطبيعة والربيع، تعد مبشرة للشعر الغنائي .وبناء على ذلك فإن عنترة، يمكن أن يكون ممثلا للنموذج القديم للعالم الغربي ليس بوصفه بطلا فحسب، بل بوصفه شاعرا كذلك.

النص الغـربـي

ترويض الشرسة

كان هناك في الزمن الماضي امرأة غنية شابة، وكان كل الرجال يخشونها، فلا يطلبونها للزواج، ولكن كان هناك رجل في مناطق الغابات يحتاج إلى زوجة، فقرر أن يتقدم إليها. فامتطى صهوة حصانه وذهب إليها وتزوجها، وجعلها تركب خلفه وكان يضمر أن يلقنها درسا. وبينما كانا يسيران على ظهر الفرس، تعثر الفرس العجوز، وعندئذ نظر إلى الفرس نظرة استياء وقال له: «هذه واحدة». ثم استمرا في السير. وفجأة ظهر أرنب يعبر الطريق مسرعا، فجزع الفرس وتردد في السير. ونظر الرجل إليه مرة أخرى باستياء وقال له: «وهذه ثانية». واستمر في سيره حتى وصل بالفرس إلى مخاضة في خليج صغير. عندئذ توقف الفرس كليا. ونظر إليه الرجل وقال «هذه هي المرة الثالثة». وطلب من زوجته أن تترجل. ورفع السرج عن الفرس ووضعه على الأرض. ثم خطا خطوات نحو الفرس وأطلق عليه النار ببندقيته بين عينيه، فأرداه قتيلا.

أخذت المرأة تلوم زوجها لقتل الحصان المسكين، وصاحت فيه ثائرة. ولم ينطق الرجل ببنت شفة، ولكنه ظل يحمل البندقية المهيأة لأن تنطلق منها الرصاصة. وفي النهاية تعبت المرأة من الصياح وسكتت. ونظر إليها الرجل وقال لها: «وهذه واحدة». ثم قال لها: «والآن يحسن بنا أن نمضي، فلتحملي السرج وهيا بنا». وترددت المرأة. ونظر إليها الرجل وقال: «وهذه ثانية». وعندئذ حملت الزوجة السرج على كتفها وسارا نشيطين حتى وصلا إلى بيتهما وعاشا في سلام.

النص الشرقي

زيجة غير مرغوب فيها

كان في قديم الزمان رجل مغربي يتمتع باحترام الجميع، وكان له ابن واحد من خيرة الشباب ولم يكن الأب وابنه على درجة كبيرة من الثراء. وكان هناك رجل آخر من المغاربة أغنى من الأول بكثير، وله ابنة وحيدة ذات مزاج حاد، لا يشجع أحدا للزواج بها. إلا أن الشاب شاء أن يتزوج من الابنة حتى يتمتع بثرائها. تزوج الاثنان وحملت العروس إلى البيت، وظل الأصدقاء

والأقارب ينتظرون في شغف ما يحدث بينهما. وذات يوم جلس الزوجان للعشاء، ونظر الزوج إلى كلب الحراسة بجانبه وقال له: احضر لي ماء لكي أغسل يديّ. ولم يعر الكلب بالا لأمر السيد بطبيعة الحال. فنهض الزوج ثائرا وسحب سيفه ووجه طعنة وحشية إلى الكلب وقطع رأسه، ثم عاد ملوثا ببقع الدم وجلس مرة أخرى إلى المائدة. وعندئذ أبصر القط وقال له: أحمل لي الماء كي أغسل يديّ. ولم يعره القط التفاتا فصرخ في وجهه قائلا: أيها الحيوان الخائن، ألم تر ما فعلته بالكلب؟ إذا أنت لم تطع أوامري في هذه اللحظة فسوف ينالك حظه. وظل القط المسكين دون حراك، فأمسكه السيد من قدميه وقذفه بشدة فارتطم بالحائط. ثم لمح في ثورة غضبه فرسه وناداه في غلظة أن يحضر له الماء. ولما لم يستجب الفرس صرخ قائلا: «ما هذا الذي يحدث؟ هل تتصور أنك، لأنك فرسي الوحيد، يمكنك أن تضرب بأوامري عرض الحائط؟ ثم فصل رأسه عن جسده. ثم جلس الرجل إلى المائدة وهو يقسم أن يقتل ألف فرس وألف رجل وامرأة إذا ما عصاه أولئك جميعا. ثم نظر حوله وأمر زوجته أن تحضر الماء. ونهضت المرأة على الفور وأحضرت الماء. ومضى الليل عليهما وهي لا تجرؤ على الكلام معه، بل تطيعه بكل دقة. وبعد أن راحت في النوم فترة قصيرة أيقظها قائلا: همي وخذي حذرك ألا يوقظني أحد .وفي صباح اليوم التالي، جاء الأقارب يتسللون إلى بابهما، فخرجت إليهما في حذر وصرخت فيهم: «أيها الأوغاد، ماذا تفعلون هنا. اسكتوا وإلا فستقطع رؤوسكم جميعا». وتعجب الناس مما سمعوه من المرأة، ولكنهم عندما علموا ما حدث، قدروا الشاب كل تقدير حيث إنه بدأ حياته الزوجية بهذه الهمة. ومنذ ذلك اليوم أذعنت الزوجة لطاعته وقبلت أوامره جميعا وبهذا عاش الزوجان سعيدين. وبعد ذلك بأيام قليلة، شاء حماه أن يحاكيه، فقتل فرسا ليخيف زوجته،ولكنها قالت له: «يا صديقي العزيز، لقد تأخرت كثيرا في أن تبدأ الآن، ولن يجدي قتلك مائة من الأفراس، فأحدنا يعرف الآخر معرفة جيدة».

5 مجالس المتعلمين(*)

The Disciplina Clericalis

هناك كتابان متميزان من الكتب العربية التي تركت أثرا كبيرا بيننا، وكلا الكتابين، كل بطريقته وفي حينه، قدم حكايات للعالم الغربي بدت جديدة على نحو مذهل، بل إنها بدت حكايات ساحرة وتشتمل على بذور التطور القصصي في المستقبل.

وأقرب الكتابين إلى زماننا هو كتاب «ألف ليلة وليلة» الذي ترجم لأول مرة إلى الفرنسية في عام 1704م، ثم أصبح بعد ذلك مألوفا للجميع على وجه التقريب. ولكن من ذا الذي قد سمع عن كتاب مجالس المتعلمين؟ فما إن ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية عقب عام 1106، حتى كان لحكاياته تأثير كبير في الأدب الأوروبي يفوق تأثير حكايات ألف ليلة وليلة.

ومصنف هذه الحكايات ويدعى بيتروس ألفونصص كان رجلا فريدا، إذ كان متعدد المواهب والاتجاهات في تفكيره وفي ملابسات حياته. وإذا بدأنا بملابسات حياته، نشير إلى أنه ولد في عام 1062 بمقاطعة ويسكا أراجون من أب يهودي، وكان اسمه في الأصل موشي سيفاردي. وقد ظلت ويسكا

تحت الحكم العربي حتى عام 1035 وازدهرت فيها الدراسات العربية، وهناك تلقى ألفونصص ثقافته العبرية واللاتينية والإسبانية، حتى حصل بوصفه عالما، على مكانة بارزة بين العلماء. وبوصفه طبيبا ملكيا، كانت له مكانته في البلاط الملكي، أولا عند ألفونس الأول في أرجوان ثم عند هنري الأول في إنجلترا. ثم عمّد بوصفه مسيحيا وهو في قمة نشاطه العلمي في عام 1106، واتخذ لنفسه اسم أبيه في العماد وهو ألفونصو الأول. وبعد ذلك مباشرة هاجر إلى إنجلترا حيث ألف كتاب Disciplina. وهكذا كان في موقع مميز لأن ينقل التراث العربي إلى الغرب بعامة، وإلى إسبانيا وإنجلترا بخاصة. وقد تم له ذلك لأن مواهبه الفذة كانت مميزة على نحو ما كانت مواهبه العلمية.

كان اليهود، من دون سكان أوروبا، هم الذين يعرفون العربية واللاتينية، وكانت اللاتينية وحدها، وهي اللغة العامة الوحيدة للقارة الأوروبية بأسرها آنذاك، يمكن أن تنقل المعلومات من أي نوع إلى اللغات العامية المختلفة. ولقد أشار جوزيف بيديه[1]، وكثير غيره من بعده، إلى الدور الفريد في عملية النقل التي تمت عن طريق اليهود في بلاط ملوك إسبانيا في فترة الحكم العربي. وبناء على ذلك، كان بيتروس ألفونصص، الرجل المتعدد الثقافات والواسع الخبرة والعالم بلغات متعددة، ويتمتع، بوصفه طبيبا، بالرعاية الملكية الحميمة. كان هو الرجل الذي يناغم بين الثقافتين، العربية والغربية، وقد دفعته معرفته بالعلوم العربية، لأن يلفت إليها نظر العلماء اللاتينيين، كما قدم لهم الجداول الجديدة في علوم الفلك العربية، وتحديد خريطة العالم الكوزموجرافي[2*] الجديد. وقام بنفسه برسم خرائط للمناخ مبينا عليها هذا التحديد الكوزموجرافي، كما حاضر في انجلترا عن اكتشافات عربية متعددة، ومثال ذلك تعيين الحدود الفاصلة بين الشرق والغرب، والنقطة التي تحسب منها خطوط الطول، واختلاف التوقيت وفقا للمكان الذي ترصد فيه الساعة، والصلة بين ظهور علامات دائرة البروج، وملاحظة كسوف القمر وخسوف الشمس. وكيف أن المناطق الاستوائية مسكونة بالناس، على عكس ما كان يعتقد في هذا العصر[2].

وكان علم اللاهوت وعلم الفلسفة من مجال اهتماماته الأخرى، وهما اللذان أوصلاه إلى اعتناق المسيحية على نحو ما شرحه في كتابه «حوار مع

اليهودية»، وهو كتاب يقوم على المقارنة والمقابلة بين المسيحية واليهودية. وقد وصف عرضا في كتابه، الجنة الإسلامية بوصفها جنة المتعة. ومنذ ذلك الحين كانت الكتابات المبكرة عنها باللغة اللاتينية تعد مصدرا للكتابات الغربية التالية في هذا الموضوع.

على أن شهرة ألفونصص الواسعة ترجع إلى كتابه الصغير «مجالس المتعلمين»، حيث أثبت فيه الباحث والطبيب والعالم والفيلسوف المتنصر حديثا، أنه كذلك قصاص حكايات شعبية بليغ ومليء بالحيوية. وقد استمد حكاياته، كما يقول لنا في كتابه، «بعضها من حكايات الفلاسفة وتحذيراتهم، وبعضها من الأمثال العربية والنصائح العربية، ومن القصص والأشعار، وبعضها من حكايات الحيوان والطيور». وكان اختياره ينصب على الحكايات التي توضح الأقوال المأثورة والنصائح على أمل أنه، بإدخاله المتعة على الدروس المستفادة منها، لا يدع الملل يعتري القراء والمستمعين، بل يجدون الإثارة للاستماع إليها والاحتفاظ بمغزاها. كان بيتروس ألفونصص يتبع في كل الأشكال التي أتى بها في كتابه نماذج أدبية عربية قائمة وسوف نشير إلى كثير منها فيما بعد.

وعلى كل، يعد بيتروس ألفونصص مبتكرا بوصفه الكاتب الأوروبي الأول الذي استورد الثقافة العربية عن عمد. ولقد أصبحت الأبنية الفكرية للشرق الأدنى وبردياته في متناول الغرب لأول مرة بكل بساطة، بفضل ترجمته لها إلى اللغة اللاتينية، التي كانت اللغة العالمية للأوروبيين المتعلمين. وحيث إن صفة المتعلم Cleric قد تنطبق على رجل الدين وغيره، فإن كتاب مجالس المتعلمين فيما يبدو، كان يهدف إلى كليهما: فالجانب العلماني في الكتاب تمثله مجموعة من القصص الجيدة المنتقاة على يد خبير متمكن من تقنية فن القص، في حين يجد فيها الواعظ الديني مصدرا لقواعد السلوك الموضحة من خلال حكايات وأمثولات يمكن استخدامها في المواعظ. ومن ثمّ فإن كلمة disciplina يمكن أن تترجم إلى معان شتى: فقد تعني النظام والالتزام، وقد تعني الإرشاد والتعليم، وربما كان أفضل ترجمة لها هي «دراسة أو التدريب، فهل تعني دراسة من أجل القارئ؟

لقي الكتاب نجاحا، فما تزال توجد له مخطوطات مبكرة يبلغ عددها ثلاثة وستين مخطوطا. ذلك أن الكتاب سرعان ما التقط فور صدوره،

واستنسخ وترجم إلى اللغات العامية، ثم استخدمت نصوصه للوعظ بهذه اللغات، ثم قُلّد في كل أنحاء أوروبا. فأصبح أصل السلسلة المتلاحقة الطويلة لكتب الأمثولات التي صارت أكثر النماذج الأدبية شهرة في العصور الوسطى، وحقق بذلك مثالا للمواعظ المسجلة التي لم تكن تدهش الناس آنذاك كما يمكن أن تدهشنا اليوم. وحيث إن حكايات مجالس المتعلمين وما تبعها بعد ذلك، كانت دنيوية قبل كل شيء، وكانت مختارة لتضفي الحيوية على الدروس التي تشرحها، كان من الطبيعي كذلك أن يكون لها انتشار كبير في الكتابات غير الدينية، وقد عدد شوفان المستشرق الفرنسي الكبير منذ ما يربو على مائة عام ما يقرب من خمسين عملا من الأعمال الرئيسية والكتاب الرئيسيين فحسب، الذين استعاروا من بيتروس ألفونصص[3]. من بين هؤلاء بانديلّو وبو كاشيو وتشوسر، وكينثيو، ثم مآثر الرومان، والفابليو وجيرا الدى، وجوور، وهيبل، وليدجيت، ثم إيسلاندسك وإلكوندو لوكانور، وكاتسپل وإيڤينتيري، وماري دي فرانس، وهانز ساكس، وباولي، وسير كامبي، وستراباrولا وبالميلارتر وأوڤيل وإلنوڤيلينو وتيمونيدا، وفينسنت دي بوفوه. ومن الممكن أن نضيف لهؤلاء سيرفانتس، وجوبيوس، وشكسبير. ويعلق جونزاليس بالينسيا، ناشر كتاب مجالس المتعلمين على هذا العدد من أسماء الشخوص والأعمال بقوله: «هذه الأسماء وهذا العدد من المخطوطات التي تعيش لكتاب مجالس المتعلمين، تكفي لأن تبرهن على مدى تأثيرها في القص الخيالي على مستوى العالم»[4]. وربما كان كافيا أن نقول، إن الحكايات التي استخدمت فيما بعد، بوصفها أمثولات، أصبحت فيما بعد حكايات قصيرة في إيطاليا، وفابولا في فرنسا وأدبا إنجليزيا في إنجلترا.

على أن هذا الكتاب لم يقتصر على قص حكايات جيدة، بل أضفى عليها درجة من الجدية، ولقد أثبت الكتاب أن مثل هذه الملح الطريفة غير الدينية الموزعة بين الحكايات الدنيوية والهزلية، يمكن أن تحكى بحرية في الكنائس إذا ما استشهد بها بوصفها تحذيرا من الخروج على الأخلاق. على أن كل ذلك كان قد اكتشف من قبل في البلاد الإسلامية.

فقبل ذلك كله كان هناك في الشرق الأدنى ما يعرف بأدب الحكمة يتضمن أقوال الحكماء وتعاليمهم. وفي ضوء هذا يمكن أن تسمى الوصايا العشر أدب حكمة. على أن الأقوال المأثورة يمكن تتبعها إلى العصر الفرعوني

والعصر البابلي، وكان المسلمون يعجبون كثيرا بأدب الحكمة. ويعزز هذا تلك الشخوص الدينية التي عرفها المسلمون مثل النبي سليمان، ومن الفلسفة الإغريقية مثل سقراط وديوجينيس، وأرسطو، ومن تراث ما قبل الإسلام مثل إدريس ولقمان. كانت الصيغة الأدبية لأدب الحكمة تعليمية دائما، وهي غالبا ما ترد في شكل حوار مختصر مكون من سؤال وجواب، سؤال يوجهه الأستاذ إلى الطالب أو الأب إلى الابن. ثم ازدهرت في القرنين الثامن والتاسع حركة في الفنون القولية تعنى بما عرف بالأدب، وهي الحركة التي حررت الكتابة من المسائل الدينية البحتة (علم الدين). وكان الأدب يقسم إلى عشرة أجزاء، وأكثرها تميزا الجزء العاشر، وهو «معرفة الحكايات التي كان الناس يحكونها في تجمعاتهم الودية»، وقد أصبح الكتاب الذين ساروا على درب الجاحظ، مؤسس علم الأدب (776 ـ 865)، أصبحوا منذ ذلك الوقت أحرارا في استخدام الحكايات المرحة التي تروى من التراث الشفاهي لتوسيع دائرة نصوص الحكمة. وبهذا المعنى يكون للعرب الفضل في إبداع الحكايات بوصفها أدبا، وبهذا ثبتوا شكل «القص الخيالي المصور للحياة».

وبهذا القدر من التطور لمفهوم القص، تطورت الحكاية الإطار منذ البدايات الأولى للآداب الشرقية في الهند. وحكايات الإطار هي تلك الحكايات الممتدة التي توفر الاستمرارية خلال العمل الكلي. ففي داخل الحكاية الإطار، يمكن أن تتلاءم حكايات قصيرة منفصلا بعضها عن بعض تماما، ولا يربطها في الحقيقة سوى أن كلا منها يوضح نصيحة. ويتمثل النموذج الأصلي لهذا الشكل الأدبي في حكايات «جاتاكا»، أو حكايات ميلاد بوذا التي ترجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد. وقد استخدمت حكايات الإطار لإبراز القيم الأخلاقية في شعر ينسب إلى بوذا. ويكفي أن نشير إلى أشهر شكل لهذه الحكايات الإطارية، وهو البانتشاتنترا الهندية العظيمة التي ألفت في غضون الخمسمائة عام الأولى بعد الميلاد. ففي هذا العمل كان يلقَّن أبناء الملك الجهلة التعليم على نحو مهذب من خلال شرح لقواعد السلوك ومن خلال القصص التمثيلي. وقد ترجمت البانتشاتنترا من الفهلوية (فارسية العصور الوسطى) إلى العربية في القرن الثامن تحت عنوان كليلة ودمنة، وانتشرت في الصيغة التي هي عليها، انتشارا واسعا في الشرق

والغرب، بخاصة في أثناء المد الإسلامي. وفي الوقت نفسه، ومن خلال المدرسة نفسها، نقلت حكايات «جاتاكا» وغيرها من الأعمال التي تحكى عن حياة بوذا الأسطورية بعد أن تم توفيقها إلى اللغة الفهلوية نقلا عن السنسكريتية، ثم نقلت إلى العربية تحت عنوان «بلوهر وبوداساف». (في الغرب سميت برلام وجوسافات). وفي هذه المجموعة يعظ الزاهد المقدس بلوهر أبناء الملك من خلال حكايات تمثيلية. كما أن كتاب السندباد الذي ترجم كذلك إلى العربية في القرن الثامن، كان بنسخه العديدة المنقحة، مجالا للتوسع في موضوع زوجة بوطيفار (عزيز مصر) على المستوى الشعبي. ففي هذا الكتاب يتجادل الملك وزوجة الأب المتهمة عن طريق الأمثلة الموضحة للحجج المؤيدة والحجج المعارضة لخيانة النساء. وبهذا تكون الحكاية الإطار مبررا، على نحو نموذجي، للجمع بين مجموعة من الحكايات الجيدة، ولأن تكون الحكاية الإطار خاضعة للحكايات المفردة.

وبهذا المعنى كذلك تتبع حكايات مجالس المتعلمين النموذج الشرقي السابق عليها، إلا أن الإطار فيها قليل الأهمية، فهي تحكي أن أبا عربيا أو مدرسا عربيا يوجه لابنه أو لتلميذه النصائح فيما يختص بمشكلات الحياة وشرور العالم. ويجيب الابن في الغالب بتعليق، ثم يسأل سؤالا يؤدي، إن عاجلا أو آجلا، إلى حكايات أخرى خاصة بالسلوك أو حكاية تمثيلية أخرى. وهي في الواقع التقنية نفسها التي تستخدمها ألف ليلة وليلة في تعليق القارئ.

وبناء عليه نجد في الكتاب تالية طويلة بعض الشيء لحقائق مقررة بين كل أمثولة وأخرى. فالكتاب يحتوي على ست وعشرين قطعة من هذه الأقوال المأثورة، وهي لا تعد ضمن حكايات الكتاب، أما الحكايات فيبلغ عددها الثلاثين حكاية ومرقمة، وهي التي تكون جسم الكتاب.

وهكذا قدم الكتاب الحكاية الإطار في صيغة مخففة إلى أوروبا وكانت جديدة عليها، بل كانت صيغة خيالية بعيدة التأثير في الوقت المناسب، ومهدت الطريق إلى عدد من أكثر القصص الغربي شيوعا وهي الديكاميرون وحكايات كانتربيري، ورواية البكاريسك (البطل المتجول)، ثم وجدت طريقها إلى شرلوك هولمز وبيروت وبوارو ضابط المباحث في روايات أجاثا كريستي، ثم إلى مسلسلات الإذاعة والتليفزيون.

وعلى ذلك، فإن الكتاب يقدم أربعة نماذج أدبية جديدة من الشرق وليس نموذجا واحدا، وهي: 1 ـ كتاب الأمثولات بوصفها جنسا أدبيا، 2 ـ حكايات أخلاقية، 3 ـ حكاية التسلية بوصفها مثالا أو توضيحا للدرس، ثم 4 ـ الحكاية الإطار.

وإلى هنا اقتصرت معالجتنا للكتاب على ناحية الشكل، أي على الحيل البنائية التي لم يسبق أن عرفها الغرب، وأتى بها الكتاب من الآداب الشرقية. على أن ما هو أكبر قيمة من كل هذا هو محتوى حكاياتها. وعلى الرغم من أن هذه الحكايات بعينها كانت جزءا من أعمال عربية مدونة، فإنها كانت لا تزال تروى بوصفها حكايات عربية شعبية تنتقل عن طريق المشافهة. وبعض هذه الحكايات وثّقت بوصفها حكايات وردت في كتب عربية عرفها بيتروس ألفونصص. منها كليلة ودمنة التي أخذت عن البانشاتنترا السنسكريتية المترجمة إلى الفارسية ومنها إلى العربية في القرن الثامن. ثم كتاب سندباد (العنوان العربي الوزراء السبعة)، وقد ترجم كذلك في القرن الثامن. ثم مجموعة الأدب التي جمعها حنين بن إسحق في القرن التاسع باسم أدب الفلاسفة[5]. ومن المحتمل كذلك أن النموذج الأصلي لألف ليلة وليلة الذي يعتمد على هزار أفسانه الفارسية، (الألف حكاية) كان كذلك في متناول يد ألفونصص بالعربية، وقد أشير إليه في إسبانيا في القرن الثالث عشر. ولعل هناك كتبا أخرى فقدنا نحن الصلة بينها وبين ألفونصص، كانت معروفة لديه، وربما لم يكن قد قرأ بعض حكايات ومن مصادر أخرى، بل سمعها في شبابه تروى بين الشعب العربي في أسواق ويسكا. إن الحكايات التي استخدمها ألفونصص كانت جديدة على أوروبا غير المسلمة، كانت من ذخيرة التراث الفولكلوري العالمي القديم، من الهند وبلاد الفرس والسوريانيين والعبريين والهلينيين ثم من المخزون العربي. ولأن هذه الثروة التراثية كانت تتناقل في ربوع البلاد الإسلامية شفاها، يمكن أن تكون بعض هذه الحكايات قد تسربت قبل أيامه إلى التراث الشفاهي في أماكن اتصال العرب بالغرب مثل إسبانيا والبروفنس وإيطاليا. وبعض القصص من المخزون نفسه لا تزال في الحقيقة شائعة بوصفها حكايات شعبية في الشرق والغرب. ولكن هذا الفولكلور في العموم وجد طريقه إلى الأدب الغربي من خلال كتاب مجالس المتعلمين، ثم أصبح جزءا من الرصيد

الأولي للثقافة الأوروبية. وأخذ هذا الرصيد يتزايد وينتشر عبر السنين في أدب العالم الغربي، وفي الفولكلور الأوروبي على حد سواء، ففي الوقت الذي كانت الحكايات المدونة في كتاب مجالس المتعلمين تدور في الكتابات الأخرى، كانت تستخدم بوصفها حكايات رمزية ذات مغزى أخلاقي في مواعظ دينية لا حصر لها، وبهذا كانت تتناقل وتتضاعف كذلك على المستوى الشعبي. وهذا الانتشار المزدوج جعل تأثيرها كبيرا للغاية.

على أن كتاب مجالس المتعلمين لم يصبح من ممتلكات الغرب المألوفة اليوم من ناحية الشكل فحسب، بل من ناحية المحتوى كذلك، فكثير مما نظنه من تراثنا لا نكاد نقبل أنه أتى إلينا من الشرق. ومثال ذلك المؤثرات الكبيرة التي مصدرها الإنجيل. (فكل شخصيات الإنجيل ورواة الأناجيل كانوا من الشرق). وليس غريبا أننا لا ندرك كذلك كم من نتاج الفكر وكم من التراث، والمدركات التي يمكن أن نظن أنها راسخة في الجينات الغربية وحدها، قد تشكلت من خلال الفولكلور الشرقي. لقد كان الفولكلور العالمي للشرق الأدنى في الحقيقة هو الفولكلور العام للعالم المتحضر، وكان لبيتروس ألفونصص الفضل الكبير في أنه جعله كذلك.

ونعود إلى محتوى الكتاب لنقول، إنه على الرغم من أن اسم كتاب Disciplina Clericalis قد لا يكون معروفا اليوم، فإن حكاياته على العكس من ذلك، مألوفة لنا؛ فنحن نعرف الحكايات منفصلة وليست مرتبطة بالكتاب في أذهاننا. إنها جزء من حكمة كل يوم وقصص ونكات تعيش في محيطنا الغربي. ونظرة سريعة إلى الكتاب تبين أن هناك صلة ما بيننا وبين أمثولاته جميعها على وجه التقريب. ومثال ذلك الحكاية رقم (١) بعنوان «النصف صديق»، وهي تقدم مثالا لما نعرفه، وهي أنك لا تعرف أصدقاءك حتى تجربهم. ففيها نصح أب عربي ابنه أن يختبر الأصدقاء الكثيرين الذين يدعي أنهم أصدقاء له. وقال له حيث «إنني أكبر منك بكثير، ولم أحصل بعد إلا على نصف صديق». فوضع الابن ذبيحة عجل في جوال، وأخبر أصدقاءه أنه قتل رجلا. ورفض الجميع مساعدته في إخفاء الجثة، فيما عدا صديق أبيه النصف الذي ساعده على حفر قبر وارى فيه الجثة المزعومة. وربما يرجع تردد هذه الحكاية في الفولكلور العربي وغيره إلى انتشارها بوصفها أمثولة من أمثولات «برلام وجوزيفات»، ولكنها كانت في

متناول بيتروس ألفونصص، كما رأينا، في الترجمات العربية التي ترجع إلى القرن الثامن.

والحكاية الثانية هي أمثولة «الصديق المخلص»، وهي مستقاة من الفولكلور العربي المدون في المجموعات الأدبية التي تضم الحكايات الشائعة. وتحكي الحكاية أن تاجرا زار صديقه في مصر ثم وقع في حب خطيبة هذا الصديق. وبدافع الصداقة الخالصة، قدم الصديق المصري فتاته إليه. ثم حدث أن المصري فقد كل ثروته فيما بعد، وانتابه الحزن الشديد إلى درجة أنه قدم نفسه إلى القضاء زاعما أنه ارتكب جريمة قتل، ولكي ينقذه التاجر، مثل أمام القضاء، وأعلن أنه هو القاتل. وتأثر مرتكب الجريمة الحقيقي بهذه الصداقة الحميمة بين التاجر وصديقه واعترف بجريمته. وكلا الموضوعين، التخلي عن الخطيبة والتضحية بالنفس من أجل صديق، كلاهما مألوف في القصص العربي. ومن الممكن تتبع الموضوع الثاني في الكتابات اليونانية الرومانية الأولى التي تشير إلى عصر شيشرون، وذلك في حكاية «دامون وفيثياس السراكيوزي»، حيث قدم أحدهما حياته ضمانا لحياة الآخر. وكان كل منهما حريصا على أن يخلّص صديقه إلى درجة أن الحاكم ديونيسوس أطلق سراح المسيء. إلا أن حكاية الصديق المخلص شاعت في الغرب في شكلها الشرقي من خلال كتاب ألفونصص، أكثر من شيوعها من خلال رواية شيشرون؛ فبوكاشيو استعار هذه الحكاية من الكتاب، وكانت معالجته لها ذات أثر في شكل الحكاية فيما بعد. وقد عرفت الحكاية باسم نيتو وجيبسي، وكانت من أشهر حكاياته. وهناك على الأقل خمس وثلاثون نسخة منقحة أو محاكية لها، أخذت من الكتابات الأوروبية في عام 1910[(6)]. ومن دون شك ظهر أكثر من هذا منذ ذلك الحين (ولن نذكر المؤلفين المفكرين السابقين لبوكاشيو وحكاياتهم المتفرعة عنها). ثم أصبحت روايات آمون وفيثياس للحكاية مضرب الأمثال، ولا تزال كذلك منذ عصر النهضة وإعادة اكتشاف الكتاب الرومان؛ ففي أمريكا، على سبيل المثال، هناك ناد وطني أخوي يضم مئات الآلاف من الأعضاء ويسمون أنفسهم «فرسان فيثياس». وقد أصبحت حكاية الصديق المخلص مألوفة في الآداب الأوروبية.

على أننا ننظر نظرة أكثر درامية لشيوع حكايات ألفونصص، إذا ما قارنا سلالتها الغربية بما هو أقدم منها. فحيث إن الحاجة إلى إبراز

الدرس الأخلاقي بهتت مع مرور الزمن، أصبحت الحكايات التي كانت توظف في شكل أمثولات تحكى بكل بساطة بوصفها حكايات مسلية، ولكن أمثولاته الجادة ما زال لها رواياتها السائرة في وفرة. وها هي ذي بعض الروايات في ثوبها الحديث نتبعها بحكاية بيتروس ألفونصص بكلماته.

حلم الخبز

كان رجل إسكتلندي وآخر أيرلندي وثالث يهودي يسافرون معا ثم فرغ ما معهم من طعام، ولم يبق منه سوى رغيف واحد من الخبز. فقرروا أن من يحلم منهم أروع حلم يأخذ الرغيف لنفسه. ثم أخلدوا إلى النوم. وعندما استيقظوا قال الإسكتلندي: «حلمت أن الملائكة قادتني إلى أبواب الجنة التي فتحت أمامي». وقال الرجل الأيرلندي: «وأنا رأيت في المنام أن الملائكة أخذتني إلى أبواب الجحيم ثم أطلعتني على ما بداخلها». ورد اليهودي قائلا: «وأنا عندما رأيت أحدكم في الجنة والآخر في الجحيم، استيقظت وأكلت الخبز».

الأمثولة رقم 19
رجلا المدينة ورجل الريف

اجتمع رجلان من المدينة ورجل من الريف وهم في طريقهم إلى مكة للحج. وكان الثلاثة يتناولون الطعام معا حتى فرغ ما لديهم من مؤن، وهم على مقربة من مكة، ولم يبق معهم سوى بعض الدقيق الذي يمكن أن يصنعوا منه رغيفا صغيرا واحدا.

ولما رأى رجلا المدينة تلك الحال، قال أحدهما للآخر: «لم يبق لدينا سوى خبز قليل ورفيقنا يأكل بنهم، فلنفكر في طريقة نستطيع بها أن نحصل على نصيبه من الخبز لنأكله نحن الاثنان».

اتفق الثلاثة على الخطة التالية: أن يخبزوا الرغيف ويتركوه ينضج ويذهبوا للنوم في أثناء ذلك، ومن يرى منهم حلما غريبا يكون الرغيف من نصيبه. قال رجلا المدينة ذلك على سبيل التحايل على الريفي، إذ ظنا أنه من الغباء بحيث يمكن أن يصدق مثل هذه الكذبة، فخبزا الرغيف، ثم وضعاه على النار وأخلدا للنوم.

ولكن رجل الريف أدرك الحيلة وأخذ الرغيف وهو نصف ناضج من فوق النار، بينما كان زميلاه نائمين، وأكله.

ثم نهض أحد زميليه كما لو كان منزعجا من حلم رآه وصاح على زميله، فرد عليه زميله ساكن المدينة وسأله: ماذا حدث؟ فقال له: لقد رأيت حلما مدهشا: لقد بدا لي أن ملاكين يفتحان أبواب الجنة، ثم أخذاني واصطحباني إلى حضرة الله عز وجل.

فرد عليه صديقه قائلا: «إن هذا الحلم حقا عجيب، ولكنني حلمت أن الملاكين يسوقانني إلى فوهة في الأرض وهناك أُخذت إلى الجحيم».

وسمع الفلاح كل هذا الكلام وما زال يتظاهر بأنه نائم. ولكن رجلي المدينة جازت عليهما الخدعة فصرخا بالريفي ليستيقظ. واصطنع رجل الريف الماكر أنه قد أصابه الفزع وسأل: «من ذا الذي يصرخ بي؟ قالا له: «نحن رفيقاك». فسألهما: «وهل عدتما؟» فقال له: «وهل ذهبنا إلى أي مكان حتى نعود؟ فقال الريفي الساذج: «لقد رأيت في المنام أن ملكين يسوقان أحدكما ويفتحان له أبواب الجنة ويقدمانه للرب، كما رأيت ملكين آخرين يسوقان الآخر إلى فوهة في الأرض ودفعا به إلى الجحيم. وعندما رأيت هذا ظننت أنكما لن تعودا فقمت وأكلت الرغيف»[7].

صفّر للكلب لكي يدخل

كان رجل عجوز يجلس أمام النار ذات ليلة، ثم بدأ يتساءل عن حالة الجو في الخارج. فقال لزوجته: «اخرجي وانظري إذا كانت السماء تمطر». ولكن المرأة العجوز لم تحرك ساكنا. وقالت له: «لا داعي لأن نزعج أنفسنا كل هذا الإزعاج، فما عليك إلا أن تصفّر للكلب ليدخل ثم تتحسس ظهره».

الأمثولة رقم 37
نوادر العبد ميموندوس

أمره سيده ذات ليلة أن يغلق الباب. على أن ميموندس لم يستطع النهوض لكسله واكتفى بأن رد على سيده بأن الباب مغلق.

فلما كان الصباح قال له سيده: «ميموندس! افتح الباب»

وأجاب العبد: «سيدي لقد علمت مسبقا بأنك ستطلب مني فتحه اليوم،

ولهذا لم أغلقه الليلة الماضية». ولم يدرك السيد إلاّ في هذه اللحظة أن ميموندس لم يكن قد أغلق الباب بسبب كسله، ثم قال له: «انهض إذن واذهب إلى عملك، فلقد طلع النهار واقتربت الشمس من الظهيرة»، عندئذ أجاب العبد: «سيدي إذا كانت الشمس قد أوشكت على الظهيرة، فلتعطني شيئا آكله». فأجاب السيد: «يا أسوأ العبيد، هل تريد أن تأكل وما زال الكون مظلما؟»

فقال العبد: «إذا كان الكون لا يزال مظلما، فلتدعني أنام».

وفي مناسبة أخرى، قال له السيد ذات ليلة: «انهض يا ميموندس وأخبرني إذا كان الجو ممطرا أم لا». عندئذ نادى ميموندس على الكلب الذي كان مستلقيا خارج الباب، وعندما حضر الكلب، وتحسس قدمه ووجدها جافة، قال: سيدي: «إن الجوّ ليس ممطرا»[8].

هكذا ترتبت الأمور

حدث منذ زمن طويل أن اضطر صاحب مزرعة في جنوب كارولينا، أن يسافر إلى نيويورك أو إلى مكان آخر في الشمال في زيارة طويلة. وعند عودته وكان على مقربة من منزله، التقى بأحد أتباعه، ويدعى سام في طريق في الغابة بعيدا عن مرأى البيت.

فقال له: حسنا يا سام، كيف تسير الأمور في البيت؟

فأجاب سام: ليس على ما يرام فيما أظن.

فقال السيد: وماذا تعني أنها ليست على ما يرام؟

فرد قائلا: حسنا إن كلبك الجميل جو مات.

فقال الرجل: مات ! ما الذي حدث له؟

فأجاب: احترق.

فقال الرجل: وكيف حدث ذلك؟

أجاب: كان في الشونة عندما اشتعلت به النار.

فسأله: وكيف اشتعلت النار في الشونة؟

أجاب: أمسكت النار في الشونة إذ انتقلت إليها من البيت الكبير.

فسأل: تقصد أن البيت الكبير احترق؟

أجاب: نعم يا سيدي.

فسأل: وكيف احترق؟

أجاب: سرت فيه النار من إحدى ستائر الدانتيلا.

فسأل: وما الذي أوصل النار إلى الستائر؟

أجاب: من شمعة.

فسأل السيد: وما شأن الشمعة بالستائر؟

أجاب: كانت الشموع مشتعلة على تابوت حماتك ثم طوّح الهواء بستارة نحو إحدى الشمعات، فأمسكت بها النار.

قال السيد دون أن يبدي أي علامة على الانزعاج: تعني أن حماتي قد ماتت؟

قال: نعم يا سيدي.

سأل: وما الذي حدث لها؟

قال: لقد ترتبت الأمور على النحو التالي: هربت زوجتك مع ملاحظ العمال، واستشاطت أمها غضبا وحزنت لذلك كل الحزن حتى ماتت(9).

الأمثولة رقم 37

من نوادر ميموندس العبد

كان سيده عائدا من السوق وكان سعيدا لأنه حقق مكسبا كبيرا. وخرج ميموندس لمقابلته. وحذره سيده من أن يخبره بأخبار سيئة. ووافق الخادم، ولكنه قال:

«ولكن كلبك الصغير بيسبلا مات».

وسأل السيد: «وكيف مات»؟».

ورد العبد: انتاب بغلنا الفزع، ففك لجامه، وجرى مسرعا وداس على الكلب، فمات.

فسأل السيد: وما الذي حدث للبغل؟

أجاب: سقط في البئر ومات.

فسأل السيد: وما الذي أفزع البغل؟

أجاب العبد: سقط ابنك من الشرفة ومات. فكان هذا سببا في انزعاج البغل.

فسأل السيد: وما الذي حدث لأم الولد؟

أجاب: ماتت حزنا على ابنها.

فسأل السيد: ومن الذي يرعى البيت؟

أجاب العبد: لا أحد لأن البيت وما فيه قد احترق وأصبح رمادا.

فسأل السيد: وكيف احترق البيت؟

أجاب العبد: في الليلة التي ماتت فيها سيدتي، كانت الخادمة تجلس بجانب جسدها المسجى، ونسيت الشمعة مشتعلة في حجرة النوم، فاشتعل البيت كله».

فسأل السيد: وأين الخادمة؟

أجاب العبد: حاولت إطفاء النار، وفي أثناء ذلك سقطت عارضة خشبية على أم رأسها فماتت.

وسأل السيد: وكيف نجوت أنت، وأنت على هذا النحو من الكسل؟

وأجاب العبد: عندما رأيت أن الخادمة قد ماتت، هربت.

وما زالت نوادر ميموندس وحكاية حلم الخبز شائعة في الأدب الغربي وفي النكات الشعبية السائرة. وهناك رواية أخرى تهمنا بوصفها شاهدا على نمو هذه الحكايات واستمراريتها في الفولكلور العربي. والرواية التي نقدمها تختلف عن الروايات البسيطة التي سبق ذكرها، ولم تؤخذ من كتاب مجالس المتعلمين بل سجلت في عام 1800 أي بعد هذا الكتاب بتسعمائة عام. وهنا نرى كيف تنحرف نصوصنا الغربية عن نصوص بيتروس ألفونصص إذا ما قورنت بالرواية الأكثر تطورا، والأكثر اتزانا، والتي ترجع إلى مصدر عربي متأخر.

بدأ عربي يشعر بالجوع في أثناء سفره في الصحراء، عندما صادف رجلا يأكل وقد طرح رداءه بجانبه على الطريق، فحياه العربي وجلس بجواره على أمل أن يدعوه للمشاركة في الطعام مدعيا أنه قادم من بلدته. فسأل الرجلُ العربيَّ:

- هل رأيت منزلي؟
- نعم وإنه بيت متين وأنيق.
- وهل رأيت الكلب الذي يرعى غنمي؟
- بالتأكيد وهو يحرس قطعانك وماشيتك جيدا.
- وهل رأيت ابني خالدا؟

ـ لكي تتأكد من أنه بخير، كان في المدرسة ويقرأ القرآن في اجتهاد.

ـ وكيف حال أم خالد؟

ـ إنها حقا فاتنة، وليس هناك من يفوقها في كل البلاد العربية في إدارة شؤون بيتها أو في حديثها. وليس هناك من يفوقها شهرة في طيبتها ورعايتها للفقراء.

ـ وهل رأيت جملي؟

ـ نعم، وإنه في أحسن حال وأحسن صحة.

وسعد الرجل بكل هذه الأخبار المشجعة واستمر يأكل بشهية، ولكنه لم يدع العربي الجوعان إلى الطعام. فقال العربي لنفسه: لابد أن أخاطب هذا الشره البائس على نحو آخر. وفي هذه اللحظة مر كلب فقال:

ـ لو كان كلبك المسكين حيّا، لهزَّ ذيله على نحو ما يفعل هذا الكلب.

ـ يا للأسف، قال الرجل، وهل مات كلبي؟ وكيف مات؟

ـ مات لأنه شرب بول جملك.

ـ وهل مات جملي كذلك؟

ـ لا، ولكنهم ذبحوه ليصنعوا منه وليمة العزاء لأم خالد.

ـ يا للأسف! وهل أم خالد ماتت؟

ـ نعم

ـ وما المرض الذي ألّم بها؟

ـ لم تمرض، ولكنها أخذت تضرب رأسها على قبر خالد المسكين حتى ماتت من جروحها.

ـ آه. لقد مات ابني كذلك؟

ـ للأسف نعم، فلقد أطاحت هزة أرضية شديدة بيتك وتحطم البيت على ابنك ومات.

وعندما سمع الرجل النّهم الفظ كل هذا الكلام، عزف عن الطعام وتركه خلفه وأسرع إلى بيته، في حين جلس العربي واحتفل بغداء الرجل[10].

وإذا رجعنا إلى أمثولات أكثر جدة في كتاب مجالس المتعلمين، نجد نموذجا آخر للأدب الأوروبي في العصور الوسطى يعرف بـ «Ubisunt»[3*] الذي ينعى الإنسان فيه الحياة بعبارة على نحو «أين الذين كانوا قبلنا». ولا يمكن أن ندعي أن بيتروس ألفونصص هو الذي قدم هذا الفن، حيث

إنه يقوم على فكرة عالمية في الفلسفة المسيحية، ولكن ألفونصص طعّم هذا الفن بالمذاق الخاص للشرق الأدنى، وقد شكلت نصوصه فيما بعد أساس كثير من الترجمات إلى اللغات العامية. والنص يقع في الأمثولة رقم 34 عن الزاهد الذي ينعى نفسه على النحو التالي: «أين الملوك والأمراء؟ وأين الأغنياء الذين جمعوا الكنوز وكانوا فخورين بثروتهم؟ لقد فنوا جميعا وكأنهم ما عاشوا أبدا. الآن هم مثل الثمرة التي سقطت على الأرض ولا يمكن أن تعود مرة أخرى إلى الشجرة». وترتبط الأمثولتان 32, 33 بهذا الموضوع: الأولى تحكي عن شاهد قبر كتب عليه: «أنت يا من تمر بالقرب مني ولا تقول حتى وداعا. قف واحتفظ بكلماتي في صدرك، فأنا الآن من ستكون أنت فيما بعد». وتصف الأمثولة الثانية أقوال الفلاسفة التي دونوها على تابوت الإسكندر الذهبي، وهم يقرنون بين قوة الإسكندر وعظمته بالأمس، والتراب الذي آل إليه جسده اليوم. وكلا المثلين يعكس التراث السامي. وقد أدمج النص الثاني من خلال موسوعة Historia de Proeliis في رومانس الإسكندر. أما النص الأول وهو الكتابة على قبر أمير مات منذ زمن طويل، فهو يرد كثيرا في الكتابات العربية، وقد ورد عدة مرات في ألف ليلة وليلة وحدها، حيث تصور القبور منشورة في الصحراء أو في الأماكن النائية. ويعد موضوع تحدّي حجر القبر لمن يمر عليه موضوعا مألوفا في الشعر الإنجليزي الحديث، ابتداء من قصيدة ييتس، «أبيات على شاهد قبر» التي تعد مشتقة من قصيدة بايرون الساحرة بنفس العنوان، وكان بايرون بطبيعة الحال، على وعي بالنص اللاتيني والشرقي.

ويلخص ميتليتسكي الخيوط المتداخلة التي أنتجت أدب الزهد Ubisunt ودور بيتروس ألفونصص في نقلها على النحو التالي، يقول:

لقد وصلت النصوص الكلاسيكية في أدب الزهد من المصادر العربية التي تأثرت بدورها بمعالجة هذا الموضوع في الكنيسة الشرقية. وقد اقتُفي أثر هذا الموضوع في الشعر العربي إلى عصر ما قبل الإسلام في شعر عديّ بن زيد (600م). ونصوص الزهد التي يبدأ بها بيتروس ألفونصص هي بعينها الصياغة النثرية لشعر يعبر عن زوال القوة الأرضية، وينسبه التراث الإسلامي إلى عمر بن الخطاب الخليفة الثاني. كما ورد في خطبة الخليفة الأول أبي بكر الصديق. ومن الواضح أن شعراء العصور الوسطى الذين

طوروا هذا الموضوع في القرن الثالث عشر في إنجلترا، وكان يشغلهم التأمل في موضوع الموت. وقد وصلهم هذا الموضوع في لغة تكاد تكون مماثلة، من طريق المصادر الكلاسيكية عن طريق بيوثيوس Boethius وعن طريق العرب السابقين، من خلال بيتروس ألفونصص ومسلمي إسبانيا[11].

وقد أثرت ترجمات كتاب مجالس المتعلمين في فرنسية العصور الوسطى التي اتبعت كلمات بيتروس ألفونصص بدقة، أثرت بدورها في قصيدة لا تزال تعرف حتى اليوم في جميع أنحاء العالم، وهي للشاعر فرانسوا فييون وعنوانها «أين ذهبت سحب الزمن الغابر». أما بالنسبة لأطفال المدارس المتحدثين باللغة الإنجليزية، فتصلهم اليوم الرسالة العربية لكتاب ألفونصص من خلال قصيدة شبلي أوديمانديياس:

«قابلت مسافرا من البلاد القديمة
وقال: هناك ساقان راسختان الحجارة
مطروحتان في الصحراء... وبالقرب منهما على الرمال،
يستلقي وجه مبعثر مدفون نصفه في الرمال، تنبئنا
شفتاه العابستان والمجعدتان، وسخرية تصدر عن لغة آمرة باردة،
أن تمثاله يقرأ جيدا هذه العواطف التي لا تزال،
تعيش مطبوعة على هذه الأشياء التي لا حياة فيها،
وعلى اليدين اللتين تسخران منها ومن القلب الذي غذاها
وعلى قاعدة العامود تظهر هذه الكلمات...
اسمي أوزيماندياس، ملك الملوك
انظر إلى أعمالي وقوتي وبأسي
لا شيء يبقى بجانبي. فحول هذا الحطام الهائل البالي
يمتدر الرمل عاريا ومتوحدا إلى حدود لا نهاية لها».

ومن بين أمثولات الكتاب، وهي بالتأكيد أكثرها متعة، تلك التي تحكي عن النساء. وهي بوصفها حكايات تمثيلية، تنتزع الضحكة الحافلة بالذكريات من القراء، من الرجال الذين سمعوها من قبل بوصفها حكايات مرحة. ويقع سحر «الأدب» على وجه التحديد في هذا النوع في الدلالات الخفية. وقد كانت هذه الحكايات جزءا من مجموعة حكايات «كتاب السندباد». وهي بتعبير آخر كتابات ضد النساء، وهو أحد الموضوعات القديمة، إن لم

يكن أقدمها، وأكثرها انتشارا في فولكلور العالم. ويبدو أن فكاهة بيتروس ألفونصص الخاصة به عن النساء، يحيطها الغموض. وعلاوة على ذلك، تمتزج بها في حرية، مسحة السخرية الجادة التي يسمح بها «الأدب». ويعبر ألفونصص عن نقطة أساسية في مقدمته بقوله: «دع المعرفة تُتذكّر من رواسب النسيان عن طريق الأشياء التي تتضمنها هذه الكتابات».

وفي الحكاية التالية، يبدي مهارة ممتعة في أسطر ثاقبة تحمل المعنى المزدوج الذي لا يمكن أن يصدر عفوا.

الأمثولة رقم ١٥

المفرش الكِـتَّانِي

حُكي أن رجلا كان مسافرا في سفر طويل، فترك زوجته في رعاية أمها. وكانت الزوجة عاشقة لرجل آخر، وأخبرت أمها بذلك. ولما كانت الأم تدلل ابنتها، لم تمانع في ذلك، ودعت عشيقها إلى البيت، وجلست هي وابنتها معه إلى المائدة وفي أثناء ذلك عاد الزوج وقرع الباب فقامت الزوجة وأخفت عشيقها، وذهبت لفتح الباب لزوجها. وبمجرد أن دخل الزوج طلب أن يُعد له الفراش إذ كان متعبا ويريد أن يرتاح. واضطربت الزوجة، ولم تدر ما تفعل. ولما رأت أمها ما هي عليه من اضطراب، قالت لها، انتظري، لا تسرعي في إعداد الفراش حتى تُري زوجك المفرش الكتاني الذي صنعناه.

وأخذت المرأة العجوز مفرشا من الكتان وأمسكت بطرفه ورفعته إلى أعلى بقدر ما تستطيع وطلبت من الابنة أن ترفع الطرف الآخر. وبهذا ألهيا الزوج حتى هرب العشيق الذي كان مختفيا.

وبعد ذلك قالت الأم لابنتها: «قومي الآن وافرشي المفرش الذي صنعناه معا بأيدينا على سرير زوجك».

وقال الزوج لحماته: «وأنت يا سيدتي هل تتقنين نسج مثل هذا القماش من الكتان؟»

وردت الأم قائلة: «بل لقد صنعت العديد مثله يا بني»[12].

ثم انتقلت الحكاية من هذا الكتاب إلى نوادر الفابليو ثم إلى سرفانتس، واحتفظت بشعبيتها في الفولكلور العربي حتى العصر الحديث؛ فهناك نسخة مدونة من التراث الشعبي المصري الشفاهي 1880م، خبأت فيها

الزوجة عشيقها خلف قطعة من القماش بينما ربطت قطعة أخرى حول رأس زوجها الغيور. ثم أخذت تحكي له، في نوبة من الضحك، قصة الزوجة التي فعلت ما تفعله هي في تلك اللحظة مع زوجها، ولم يكن الزوج يرى أو يسمع شيئا وسط ضحكاتها وصراخه اليائس. واستمرت الزوجة تحكي لزوجها أن الزوجة الخائنة نادت على عشيقها المتخفي قائلة: «أينما كنت أنقذ نفسك، وحياة النبي. أنقذ نفسك» وفهم العشيق الحقيقي الإشارة وهرب. وعندما تخلص الزوج في النهاية من الرباط سألته زوجته وهي لا تزال تضحك: «هل أعجبتك قصتي؟ الآن انظر خلف القماش، إنك لا ترى شيئا»[13].

إن الخداع من خلال الاعتراف بالحقيقة موضوع مألوف في الحكايات الشعبية التي تحكى ضد المرأة. وفي إحدى الحكايات تحكي الزوجة الحقيقة على أنها حكاية متخيلة كما هو الحال في المثال السابق. وكان العشيق في تلك الحالة مختفيا في صندوق. ويوجد مثال لنموذج آخر في الكتاب يرد مصاحبا لحكاية المفرش الكتانيّ، يحكي عن جامع محصول العنب (أمثولة رقم 9)، الذي عاد إلى البيت في وقت غير متوقع، لأنه أصيب في إحدى عينيه. فغطت الزوجة له عينه السليمة بحجة ضرورة حمايتها وإلا فقدت القدرة على الإبصار. وبهذا تمكن عشيقها من الهرب دون أن يبصره أحد. وتتمتع هاتان الحيلتان المتماثلتان في الحكاية المصرية بمعنى من المعاني، فالزوجة تغطي العين في إحدى الحكايات، ولكنها تغطي الزوج بالقماش في الحكاية الأخرى. وربما كانت الحكايتان في الأصل حكاية واحدة.

وقد تعرف بيتروس ألفونصص على حكاية المفرش الكتّاني عن طريق ترجمة عربية للهيتوباريا الهندي، وهو كتاب يشكل جزءا من البانشاتنترا. وقد كان الكتابان في متناول يده بالعربية. ويتضح أن أصل أمثولات بيتروس ألفونصص عن النساء هو مجموعات «كتاب السندباد»، التي تتضمن الحكايات المتفرعة عنه مثل حكاية «الحكماء السبعة»، و «الأربعون وزيرا» وغيرها من الحكايات عن النساء وهي حكاية السيف (رقم 11) وحكاية البئر رقم [14] وحكاية الباكية (رقم 8). أما عن أصل الحكاية رقم (35) التي تحكي عن الزوج الكفيف والعشاق المختفين في شجرة الكمثرى، فلم يتحدد أصلها، وإن كان هناك احتمال نسبتها إلى أصل عربي أكثر من احتمال

نسبتها إلى أصل هندي. وكل هذه الحكايات التي نقلت عن طريق الكتاب أصبحت شائعة في الكتابات الغربية شيوعها في الكتابات الشرقية. وسوف نقابل حكايات السيف مرة أخرى في ألف ليلة وليلة. وتكرر رواية هذه الحكاية ومثلها حكاية البئر في الـ ديكاميرون (1353)، عن طريق ترجمة بيتروس ألفونصص، وبهذا مازجت التيار الرئيسي للأدب الأوروبي. أما حكاية «الكلبة الباكية»، فهي على الرغم من كونها جزءا من حكايات ألفونصص الأصلية، فلها تاريخ مستقل في إنجلترا مثل حكاية دام سيريث Dame Sirith وهي أقدم فابولا في الأدب الإنجليزي الوسيط.

وتبين الحكايات الثلاث التالية، كيف أن حكايات ألفونصص التمثيلية القصيرة الموجزة والحسية قد تطورت في كثير من الأعمال الغربية المألوفة. والحكاية الأولى هي البئر (أمثولة رقم 14)، ثم الرواية المعادة لها بقلم بوكاشيو التي يمكن إضافة حكايات أخرى موازية لها، بما في ذلك الحكايات التي وردت في صحافة القرن التاسع عشر بوصفها حوادث حقيقية حدثت في لويس وسوسكس في إنجلترا. والحكاية الثانية هي حكاية «الكلبة الباكية» (أمثولة رقم 8) وحكاية «دام سيريث» [14]. ثم أخيرا حكاية الرجل الأعمى والشاب المراهق (أمثولة رقم 35)، وحكاية العشاق في شجرة الكمثري التي ترجع إليها حكاية تشوسر الشهيرة المثيلة لها، وهي «حكاية التاجر».

الأمثولة رقم 14

البئـــر

كان هناك رجل شاب صرف كل جهده ووقته في تعلم كل أشكال إغواء النساء. ثم قرّر أن يتزوج، ولكنه قبل أن يفعل ذلك، ذهب يلتمس النصيحة من رجل حكيم في حيّه. وسأله كيف يمكنه أن يحرس المرأة التي يريد الزواج منها.

ونصحه الحكيم بعد أن استمع إلى سؤاله، بأن يبني بيتا يحيطه بأسوار حجرية عالية ويُسكن زوجته فيه، وأن يقدم لها الطعام الكافي، ولكن لا يعطيها ملابس أكثر من اللازم. وعليه أن يبني البيت ويجعل له بابا واحدا، ونافذة واحدة تطل منها الزوجة. وينبغي أن تكون النافذة عالية ومصممة بحيث لا تسمح لأحد بالدخول أو الخروج منها. ونفذ الرجل الشاب، بعد

سماعه لهذه النصائح، كل ما أشار إليه الرجل الحكيم. وكان كلما ترك البيت في الصباح. أغلق الباب، وكلما عاد أغلقه كذلك. فإذا نام أخفى المفاتيح تحت وسادته، وظل يفعل هذا لمدة طويلة.

وذات يوم، عندما خرج الرجل إلى السوق، أطلت الزوجة من الشباك كالعادة لتشاهد الناس في غدوهم ورواحهم. وذات مرة أبصرت شابا فارع الجسم وسيم الملامح، وفي الحال وقعت في حبه. ولما صارت تحترق عشقا بالشاب، وكانت حراستها محكمة كما ذكرت، بدأت تفكر في حيلة تمكنها من التحدث إلى الرجل الشاب الذي تعشقه. فقررت، استنادا إلى مهارتها وكفاءتها في الخداع، أن تسرق المفاتيح من زوجها في أثناء نومه، وقد فعلت هذا حقا. ثم كانت، في كل ليلة، تقدم الخمر لزوجها حتى يبلغ حد السكر، وعندئذ تتمكن من أن تذهب إلى عشيقها في أمان وتفعل ما تشاء. وبدأ الزوج الذي تعلم من الفلاسفة أن كل أفعال النساء تنطوي على الخداع، بدأ يتعجب من أن زوجته تعطيه شيئا ليشربه في كل ليلة. ولكي يكشف أفعاله تظاهر بأنه سكران. ولم تعلم الزوجة بهذا الأمر، فقامت من السرير وذهبت إلى الباب وفتحته ثم سلكت طريقها إلى عشيقها.

وقام الزوج في صمت في الظلام، وذهب إلى الباب وأغلقه ثم أحكم إغلاقه بالقفل ثم ذهب إلى الشباك ووقف به حتى يرى زوجته وهي عائدة في ثياب النوم. ولما وصلت الزوجة إلى البيت ووجدت الباب مغلقا، اضطربت للغاية، ومع ذلك أخذت تطرق الباب. وكان الزوج يراها ويسمعها، فسأل عن الطارق، وكأنه لا يعلم شيئا. فطلبت منه الزوجة أن يصفح عنها ووعدته بأنها لن تعود إلى هذا الفعل مرة أخرى. ولكن الزوجة لم تجد استجابة من الزوج، إذ قال لها غاضبا، إنه لن يسمح لها بالدخول، وسوف يخبر والديها بسلوكها. ولكن الزوجة قالت له وهي تصرخ بأعلى صوتها إنه إن لم يفتح لها الباب، فسوف ترمي نفسها في البئر الذي يقع بالقرب من البيت، وبذلك تنهي حياتها، وعندئذ عليه أن يبحث عن سبب لموتها يخبر به أصدقاءها وأقاربها، ولكن الزوج أهمل تهديداتها، ولم يدعها تدخل البيت.

والتقطت الزوجة الماهرة الخادعة حجرا ورمته في البئر، حتى إذا سمع زوجها صوت ارتطام الحجر في البئر، حسب أنها قد رمت بنفسها فيه. وبعد أن فعلت الزوجة ذلك، اختفت خلف البئر.

وعندما سمع الزوج البريء وغير الحذر، صوت ارتطام الحجر بالبئر، ظن أنه صوت سقوط زوجته في البئر، وفي الحال جرى بسرعة خارج البيت، وذهب إلى البئر. وعندما رأت الزوجة أن الباب قد فتح، دخلت البيت خلسة، وأغلقت الباب وراءها وصعدت إلى النافذة.

ولما رأى الزوج أنه استُغفل إلى هذا الحد، قال لها: «أيتها المرأة الخادعة المشبعة بحيل الشيطان، دعيني أدخل، وسوف أصفح عنك مهما كانت فعلتك معي. ولكن الزوجة أخذت تلعنه وتقسم ألا تسمح له بالدخول، وقالت له: «أيها الأحمق إنك تتسلل كل ليلة من البيت لزيارة العاهرات وتتركني. سوف أخبر والديك بأفعالك الحمقى». وقد فعلت الزوجة هذا حقا. وصدّق الوالدان هذا الكلام وأنّبوه بشدة على فعله. وبهذا تسببت بخداعها في إلقاء اللوم، الذي تستحقه هي، على زوجها الذي لم يجن إلا القليل في مقابل حراسته الشديدة لزوجته.

وفي الحقيقة لقد خسر الزوج الكثير، حيث إنه واجه سلسلة من الحظ العثر، وأصبح في رأي الناس يستحق ما عاناه؛ وقد ترتب على هذا أنه فقد ثروته، وفقد احترامه، وساءت سمعته بسبب تشويه زوجته لسمعته وادعائها عليه بأنه لقي جزاءه بسبب سلوكه المراهق[15].

ديكاميرون 4/7

كان هناك في أوتزو رجل غني يدعى «توفانو». وقد أتيحت الفرصة لهذا الرجل كي يتزوج بسيدة شقراء تدعى مدام غيتّا Ghita. وسرعان ما أصبح يغار على زوجته غيرة شديدة، دون أن يعرف لهذا سببا. وعندما أدركت الزوجة ذلك، كانت تنتابها ثورات غضب شديدة. وصارت تسأله عن سبب غيرته، ولكنه لم يستطع أن يقدم سببا محددا فيما عدا الأسباب العامة والتافهة. وعندئذ عنّ للمرأة أن تجعله يموت بالداء الذي يفزعه دون سبب يعقل. وبناء على ذلك شرعت سرّا في إنشاء علاقة مع رجل راق لها كثيرا، وكان هو نفسه يميل إليها. وتطورت هذه العلاقة بينهما إلى حد كبير، بحيث لم يبق سوى الأفعال التي تجعل للكلمات فعالية. ومن ثم أخذت تبحث عن الوسائل لتحقيق ذلك. وكانت قد لاحظت، أن من بين عادات زوجها المريضة أنه يسعد بشرب الخمر. فشرعت لا في إطراء هذه العادة

فحسب، بل كانت كثيرا ما تحرضه بمكر وحذق على التمادي فيها. واعتاد الرجل ذلك حتى أن المرأة كانت تسقيه الخمر حتى يسكر كلما رأت الوقت مناسبا، ثم تضعه في الفراش وعندما ترى أنه وصل إلى حالة السكر التام. وهكذا اجتمعت بعشيقها للمرة الأولى، ثم استمرت في اللقاء به عدة مرات في أمان تام. وقد وثقت بحالة السكر التي يصل إليها زوجها، إلى درجة أنها لم تتجرأ على إحضار عشيقها إلى البيت فحسب، بل ذهبت أبعد من ذلك في أن تمضي شطرا كبيرا من الليل في بيته الذي لم يكن يبعد كثيرا عن بيت زوجها.

واستمرت المرأة العاشقة على هذا الحال إلى أن خطر ببال الزوج البائس أن الزوجة، بينما كانت تغريه على الشرب لم تكن تتناول الخمر قط. وعندئذ ساوره الشك، وأوصله الحدس إلى درجة اليقين من أن زوجته توصله إلى حالة السكر لكي تفعل بعد ذلك ما يروق لها في أثناء نومه. ولما أراد أن يختبر صحة هذا الحدس، اصطنع في ليلة من الليالي تعمد فيها ألا يسكر فعلا، أنه في أقصى درجات السكر، محاكيا في ذلك حركات السكير ولغته. وعندئذ حملته الزوجة إلى السرير، ثم خرجت إلى بيت العاشق. أما بالنسبة لتوفانو، فبمجرد أن أدرك أن الزوجة تركت البيت، نهض لتوه، ومرّ على الأبواب وأغلقها من الداخل. ثم وقف عند الشباك ليراها عند عودتها ويبين لها أنه اكتشف ألاعيبها. وظل على هذا النحو واقفا ينتظر حتى موعد عودتها. ولما عادت ووجدت الأبواب مغلقة من الداخل، حلّ بها الخوف إلى أقصى درجة، وبدأت تحاول، ما وسعها ذلك، في فتح الأبواب بالقوة. وبعد أن صبر «توفانو» على ذلك فترة، قال لها: أيتها الزوجة، إنك تتعبين نفسك دون جدوى لأنك لن تستطيعي الدخول هنا مرة أخرى. فلتذهبي من حيث جئت، وتأكدي أنك لن تعودي إلى هنا أبدا. إلا في الوقت الذي أقدم لك فيه، فيما يختص بهذا الأمر، ذلك الشرف الذي يليق بك في حضرة أقربائك وجيرانك».

وأخذت السيدة تتوسل إليه من أجل الرب أن يفتح لها الباب، إذ إنها لم تكن في المكان الذي يظنه بل كانت تسهر مع جارة لها، إذ إن الليالي طويلة ولا تستطيع أن تنام أو أن تبقى وحيدة ساهرة. ولم تُجْدِ توسلات المرأة في شيء، ذلك أن البهيم زوجها كان مصمما على أن يعرف أهل البلد جميعا

عارها الذي لم يعرفوه بعد. ولما أدركت المرأة أن توسلاتها لم تعد تجدي، بدأت تهدد زوجها وقالت له: إذا لم تفتح لي الباب فسوف أجعلك أكبر بائس بين الأحياء، وسألها الزوج توفانو، وما الذي تستطيعين فعله معي؟ وأجابت السيدة التي كانت حاسة الحب قد شحذتها لتواجه زوجها، وقالت: بدلا من أن أظل أحمل الخزي الذي شئت خطأ أن تتهمني به، سأقذف بنفسي في البئر المجاور لنا. فإذا وُجدت ميتة، فلن يصدق أحد سببا لموتي سوى أنك رميت بي في البئر نتيجة سكرك، وعندئذ سوف يتعين عليك، إما أن تهرب وتخسر كل شيء تملكه، وتعيش في المنفى، أو أن يُقطع رأسك بسبب جريمتك، هذا فضلا عن أنك سوف تموت كمدا بعد أن تدرك الحقيقة.

ولم تحرك هذه الكلمات ساكنا في توفانو بأي حال، إذ كان مخبولا بما عزم عليه، مما جعل الزوجة تستأنف كلامها وقالت «الآن أصغ إليّ، إنني لا أستطيع أن أتحمل الوضع على هذا النحو، فليسامحك الله. إنك الآن تدفعني أن أترك عصا مغزلي في هذا المكان. قالت هذا وكان الليل مظلما بحيث لا يكاد إنسان يرى غيره. ثم اقتربت من البئر وتناولت حجرا كبيرا كان ملقى هناك وصرخت قائلة: اللهم اغفر لي. ورمت الحجر في البئر، وأحدث ارتطامه بالماء صوتا صاخبا. ولما سمع توفانو الصوت، تصور بحق أن زوجته قذفت بنفسها في البئر، فاندفع خارج البيت وفي يده الدلو والحبل، وجرى إلى البئر لينقذها. وكانت المرأة تختبئ بالقرب من باب البيت، مما مكنها من التسلل إلى الداخل بمجرد أن رأت زوجها يتجه نحو البئر، وأغلقت الباب وراءها. وأسرعت إلى الشباك وهتفت به قائلة: «ينبغي عليك أن تخفف خمرك بالماء عندما تحتسيها، ولكن ليس ليلا وبعد الشراب». وعندما سمع توفانو ذلك أدرك أنه استُغفل، وعاد إلى الباب، ولكنه لم يستطع أن يحصل على السماح له بالدخول. واستمر في التوسل إليها، ولكنها رفعت صوتها وتخلت عن النبرة المنخفضة التي كانت تتحدث بها. ثم بدأ صوتها يعلو صارخا وقالت له: «بحق المسيح وصليبه، أيها الأبله المتعب، لن تدخل البيت الليلة. لن أتحمل سلوكك هذا أكثر من ذلك. ولابد أن يرى الجميع أي نوع من الرجال أنت، وفي أي ساعة تعود إلى البيت بالليل. واستشاط توفانو غضبا وبدأ يقرعها ويصيح فيها. وعندئذ سمع الجيران

صوت الصياح واستيقظوا رجالا ونساء وأطلّوا من النوافذ وسألوا عن الأمر، وردت المرأة باكية: «إن هذا الرجل البائس ما زال يعود لي في المساء مخمورا.

وقد ينام في الخمّارة، ثم يعود بعد ذلك في هذه الساعة مما جعلني أعاني كثيرا ولما لم يُجد معه شيء، ولم أعد أستطيع أن أتحمل الأمر أكثر من ذلك، عنّ لي أن أُخجله أمام الناس، بأن أغلق دونه الأبواب وأتركه في الخارج حتى يصلح من أمر نفسه».

أما توفانو الحمار فقد أخبرهم من ناحيته عن حقيقة الأمر، وأخذ يتهددها وهو في شدة الغيظ.

ولكنها ردت وقالت للجيران: «انظروا الآن أي رجل هو؟ وماذا تقولون لو كنت أنا مكانه في الشارع وهو بداخل البيت؟ لا شك عندي في أنكم كنتم تصدقون كلامه، والآن، لكم أن تحكموا على ظرفه، إنه يتهمني الآن بجرمه هو، وهو يظن أنه يخيفني باتهامه لي بأني رميت شيئا في البئر لا أدري ما هو.

ولو أنه بحق اللّه قد رمى بنفسه فيه وغرق، لكان قد بلل الخمر الذي استمر في شربه حتى سكر. وبهذا أخذ الجيران رجالا ونساء يلومون توفانا محملين إياه الخطأ على ما ارتكب بحق المرأة. ولم يمض وقت طويل حتى ذاع الخبر من جار إلى جار حتى وصل إلى أقارب المرأة الذين حضروا إلى بيت الزوج. وبعد أن استمعوا إلى الموضوع من شخص لآخر من الجيران، أمسكوا بخناق «توفانو» وضربوه ضربا مبرحا حتى كسروا عظامه، ثم دخلوا البيت بعد ذلك وحملوا الزوجة مع أمتعتها معهم وهم يهددون توفانو بأسوأ العواقب. ولما وجد الرجل نفسه في هذا الوضع السيئ ورأى أن غيرته قد جرته إلى أسوأ العواقب، وكان ما يزال يحب زوجته كثيرا طلب من بعض أصدقائه، أن يتوسطوا له عند زوجته، ففعلوا وأصلحوا بينهما، وأعادوها إلى البيت، ووعدها هو ألا يبالغ في غيرته بعد ذلك. وفضلا عن هذا فإنه سمح لها بأن تفعل ما يسرها، شريطة أن يتم هذا سرا بحيث لا يصل إلى علمه منه شيء. وهكذا عقد معها صلحا وكأنه فلاح ساذج مخبول، وبعد الخسائر التي لحقت به. وهكذا فليعش الحب ولتمت الحرب وكل أنصارها(16).

الأمثولة رقم 13
الجــرو الباكــي

حُكي أن رجلا نبيلا متزوجا من امرأة طاهرة عفيفة وجميلة. وأراد ذات يوم أن يسافر إلى روما لكي يحج إلى الأماكن المقدسة، ولم يشأ أن يترك زوجته في حماية أي شخص خلاف حمايتها لنفسها، وذلك لثقته في عفافها وفي شرف استقامتها. وعندما أتم مرافقوه استعدادهم، رحل تاركا زوجته التي استمرت بعد ذلك في حياتها العفيفة وسلوكها المتعقل في كل شيء.

وحدث أن الزوجة اضطرت للخروج لقضاء حاجة من البيت المجاور لها. وفيما كانت عائدة بعد أن أنجزت مهمتها، رآها شاب، ووقع في حبها إلى درجة الجنون، وكان يرغب في أن تبادله الحب. وصار يتحرق إليها شوقا. فأرسل إليها كثيرا من الرسائل، ولكن الزوجة رفضت رسائله ورفضته كليا.

ولما رأى الرجل نفسه محتقرا منها تماما، انتابه المرض الشديد. ومع ذلك كان كثيرا ما يذهب إلى حيث يمكنه أن يراها وهي تغادر بيتها لعله يقابلها. ولكنه لم يستطع أن يؤثر فيها. وبينما كان يبكي على حاله، التقى امرأة عجوزا ترتدي زي الراهبة، فسألته عن سبب تعاسته، ولكن الشاب لم يكن متحمسا لأن يكشف لها ما يدور بخلده. عندئذ قالت له المرأة، «كلما تأخر الرجل المريض في الكشف عن مرضه للطبيب، زادت معاناته في المرض».

وعندما سمع الشاب ذلك، أخبر العجوز عن سره، وعما حدث له مع الزوجة، عندئذ قالت له العجوز «إنني بمعونة الله سأجد لك العلاج لما تعانيه». ثم تركته وعادت إلى بيتها. وهناك حبست جروا كان في منزلها وجعلته يصوم لمدة يومين. وفي اليوم الثالث أعطت الجرو الجائع كسرة من الخبز مسحتها بالخردل. وما إن أكل الجرو كسرة الخبز حتى دمعت عيناه بتأثير الخردل الحريف، ثم اصطحبت الجرو إلى بيت السيدة العفيفة التي يعشقها الشاب. واستقبلتها السيدة باحترام لمظهرها المتدين، وكان الجرو يتبع المرأة العجوز. وعندما رأت السيدة الجرو يبكي سألت العجوز عما به ولماذا يبكي.

وقالت لها السيدة العجوز: «عزيزتي، لا تسألي عما حدث للجرو، لأن الخطب جليل بحيث يصعب عليّ أن أتحدث عنه». عندئذ توسلت إليها المرأة بمزيد من الجدية أن تخبرها بالأمر.

وقالت المرأة العجوز: «هذا الجرو الذي تشاهدينه هو في الأصل ابنتي التي كانت شديدة العفة والتواضع. وكان يعشقها شاب، ولكنها كانت من العفة بحيث قاومته بازدراء، ورفضت حبه. وعندما ابتعد الرجل عنها، انتابه المرض الشديد. ولكن ابنتي البائسة، تحولت بسبب إثمها إلى جرو صغير». وما إن فرغت المرأة العجوز من كلامها حتى انفجرت في البكاء.

وعندئذ قالت لها المرأة المهذبة: «سيدتي العزيزة، ماذا أفعل؟ إنني مذنبة لارتكابي نفس الجريمة، لأن هناك شابا يحبني. ولكني احتقرته لميلي الشديد للطهر والعفاف، حتى ابتلي هو كذلك بالمرض».

وردت العجوز قائلة: «عزيزتي إنني أنصحك أن تشفقي عليه بأقصى سرعة، وأن تلبي مطلبه حتى لا تتحولي إلى جرو كما تحولت ابنتي. ولو أنني كنت قد علمت ما بين ابنتي والشاب من عشق لما تحولت ابنتي قط إلى جرو».

وقالت لها المرأة العفيفة: «إنني أتوسل إليك أن تنصحيني حتى لا أتحول إلى جرو، ويسلب مني شكلي الإنساني».

وقالت العجوز: «بكل ترحاب، من أجل حبي للّه، وخلاص روحي، ولأني أشعر بالأسف لحالك، فسوف أبحث عن الشاب، فإذا عثرت عليه فسوف أعود إليك». وشكرتها المرأة، وحافظت المرأة العجوز الماكرة على كلمتها وأحضرت لها الرجل كما وعدت، وبهذا جمعت بينهما[17].

السيدة سيريث

بينما كنت أسير في الطريق، سمعت قصة عن رجل وسيم يفيض بالحيوية، وكان مجدا وعالما، ووجيها وأنيقا في ملابسه، وقع في حب امرأة متزوجة، وما كان ينبغي له أن يفعل هذا، ولكن قلبه كان ملك يديها كليا إلى درجة أنه لم يجد الراحة قط. لقد كان حبه لها شديدا عنيفا.

وفكر الرجل مليا في كيفية اكتساب قلب المرأة. وحدث ذات يوم أن الزوج غادر منزله في رحلة عمل. فذهب العاشق إلى البيت الذي تسكن

فيه المرأة، وكان سكنا جميلا. ودخل عليها البهو حيث كانت تقف في أبهى ملابسها. وبدأ الكلام معها على النحو التالي:

«كان الرب القدير معنا».

وقالت الزوجة: «مرحبا بك، أسعدني حضورك». وإذا شئت أن تدخل وتجلس يا عزيزي، ثم تخبرني بما تريده. وبحق الإله العظيم، إله السماء، إذا كان في وسعي أن أفعل شيئا لإسعادك، فستجدني كريمة للغاية. سأكون في غاية السعادة لأن أفعل لك ما في وسعي، ومن دون أي حرج».

وقال الرجل: جزاك اللّه خيرا يا سيدتي إذا لم تطرديني أو تغضبي مني، فسوف أخبرك بأمري ولكنني أكره أن أغضبك لأمر ما قد فعلته».

وقالت السيدة: «لا ياويليكن، على الإطلاق، لن أكون وقحة في أي أمر يعنيني على الإطلاق، إن كنت ترغب فيه كل الرغبة. إنني لا أعرف شيئا من البخل والأثرة، وليس في نيتي أن أعرف عنهما شيئا. إنك تستطيع أن تقول ما تشاء وسوف أصغي إليك وأجلس صامتة وأنت تحكي. وإذا قلت ما هو حق فسوف ألبي مطلبك، ولتكن مطمئنا لذلك. أما إذا قلت شيئا يدعو للخجل، فلن ألومك على ما تقوله». وقال الرجل: «والآن وقد أذنت لي، من الخطأ أن أشعر بالتعاسة بعد ذلك حقا يا سيدتي. إنك تتحدثين بلطف وكرم، وسوف أصل إلى لب الموضوع وأخبرك بكل ما أريد، وعن السبب الذي دفعني إلى المجيء إليك، فلست من الرجال الذين يقولون الكذب، ولن أتفوه به قط. لقد أحببتك لسنوات طويلة، على الرغم من أنني لم أحضر إليك لأطلعك على حبي. فعندما يكون زوجك في البيت لا يستطيع أحد أن يبثك كلمة واحدة في كرامة. وبالأمس، بينما كنت أسير في الطريق سمعت أن زوجك سافر لحضور مهرجان في بوسطن في لانكوشاير. ولأني تأكدت أنه ليس في البيت، جهدت في التحدث معك. حقا إن من ينعم بخصوصية امتلاكه لمثلك، لابد أن يكون سعيدا للغاية. سيدتي إذا وافقت، فسوف أحبك سرا وفي هدوء».

وردت السيدة قائلة: «بحق الإله، إله السماوات العلا، لن أفعل ذلك مهما يكن الأمر، فلديّ سيدي الذي هو زوجي. سيدي الذي شرفني بإحضاري إلى هذا البيت وأنا عروس عذراء إنه يحبني وأنا أحبه كذلك، وحبنا صادق ومتين مثل الصلب دون شك. وإذا كان زوجي قد رحل في عمل، فمن الغباء

أن أتعلم في أثناء غيابه أن أكون عاهرة. لا، لن يحدث قط أن أرتكب مثل هذا الفعل الوضيع في الفراش أو في أي مكان آخر في البيت. إنني لم أتخذ أي رجل على وجه الأرض خليلا، لأن زوجي حي يرزق، وإذا كان زوجي مسافرا على بعد مئات الأميال من روما. فلن أفعل شيئا في غيابه.

وقال الرجل: «سيدتي، سيدتي، هلاّ غيّرت رأيك؟ لقد كنت دائما كريمة وستظلين كذلك. فبحق الإله الذي خلقنا، غيّري من مسلكك وفكرك وأشفقي عليّ»، وردت المرأة قائلة: «يا للهول ! وهل تظنني بلهاء. إنني مؤمنة، إيماني بميلاد المسيح، إنك سخيف. إنك لن تستطيع أن تغير رأيي. إن زوجي رجل مهذب ولطيف، وهو رجل ثري. وأنا امرأة فاضلة ووفية، بل ليس هناك من هي أوفى مني. ولهذا لن يأتي يوم أرتكب فيه الفعل المخزي سواء عن طريق الإغراء أو بسبب العجب والغرور».

وأجابها الرجل: «محبوبتي الحلوة، رفقا بي، إنني لا أعرض عليك ما يخزيك أو يحط من قدرك، بل أعرض حبا سريا بوصفي رجلا ينشد الحب الصادق والسعادة». قالت: «فلتذهب إلى بيتك يا أخي العزيز لأنني لا أريد حبك أو حب أي إنسان آخر، إنني لا أريد سوى حب زوجي الذي اقترنت به، ولن أتردد في أن أعلن هذا». وقال الرجل: «حقا يا سيدتي إنني آسف لذلك. وإنه لرجل حزين ذلك الذي يعمل جاهدا ويفشل في النهاية. فلن يكون له الخيار في شيء سوى أن يتشكى. إن هذا هو موقفي على وجه الدقة، موقف الذي يحب الحب الذي يتحتم عليه أن يفقده. والآن يا سيدتي أتمنى لك نهارا سعيدا وأتمنى من الله الذي يحكم الكون أن يهدي عقلك إلى أن يسلك سلوكا آخر، فلن أحزن عليك قط».

وخرج الرجل حزينا، وأخذ يفكر ليل نهار في طريقة يغير بها رأيها، ونصحه صديق بأن يطرح آلامه ويذهب لمقابلة السيدة الفاضلة مدام سيريث. وذهب إليها توا بأقصى ما في وسعه من سرعة، دون أن يقابل أحدا في طريقه، إذ كان مليئا بالحزن والأسى. وحيا الرجل السيدة تحية مهذبة بكلمات لطيفة وماكرة كذلك، وقال:

«باركك الله مدام سيريث، لقد جئت لأتحدث إليك بدافع الحاجة الشديدة إليك. فإذا استطعت مساعدتي، فسوف يكون لك، كما سوف ترين، مكافأة كبيرة».

قالت: «أهلا بك يا بني العزيز. وإذا عرفت أو استطعت أن أفعل شيئا لك على أي نحو، فسوف أبذل ما في وسعي. والآن أخبرني ماذا تريد مني»؟

وقال: «أيتها السيدة العجوز، الشفاء ! إن صحتي تسوء على نحو مستمر. إنني أعيش حياة البؤس والقلق».

إنني أعيش حياة ملؤها القلق
وكل هذا بسبب زوجة حلوة
اسمها مارجري
أحبها كثيرا ومنذ زمن
لكنها تقول لهذا الحب لا !
ولهذا جئت إليك،
وما لم تتغير وتشفق عليّ،
فسوف أفقد عقلي من الحزن،
أو أنحدر إلى الموت
لقد فكرت في الانتحار
ولكن صديقا دلّني على الطريق
إليك، لكي أعرض إليك أملي

لقد أخبرني الصديق أن بمقدورك، من غير توقع لفشل، أن تساعديني وتخرجيني من بؤسي بواسطة حيلك ووسائلك. ولسوف أعطيك مكافأة سخية إذا نجحت.

وردت المرأة قائلة: «فلتكن بركة الله هنا. إنك بفعلك هذا قد ارتكبت إثما كبيرا. إنني أتمنى، باسم الرب الكريم، ألا يلحق بك الخزي بسبب فعلك هذا. سوف تجني به غضب الرب إذا ما نسبت اللوم إليّ، فأنا امرأة عجوز مريضة ومقعدة، وقد جعلني المرض أليفة للغاية. باركك الله، باركك الله يا ابني العزيز حتى لا يزج بك إلى المتاعب بسبب الكذب التي افتروها عليّ، أنا العجوز المأزومة. إنني امرأة متدينة، ولا أعرف شيئا من السحر، إنما أعرف الصدقة التي يقدمها الرجال الطيبون ! أمضي النهار تلو النهار أتلو الصلوات والتسابيح لعل اللّه يساعد الناس إذا ما احتاجوا إلى المساعدة، وليحقق اللّه النجاح لأولئك الذين ساعدوني على الحياة، أما أولئك الذين

أرسلوك إليّ للقيام بهذا الفعل فخزيا لهم. ولينتقم لي اللّه من ذلك الذي تحدث عني بهذا الموضوع المخزي». ورد عليها الرجل قائلا: «يا سيدتي العجوز، دعي عنك ذلك، وكفاك لغوا، فالرجل الذي وجهني إليك، يعرف أنك تستطيعين أن تلمي شمل الناس بعضهم إلى بعض، فلتساعديني يا مدام سيريث في أن أتصالح مع محبوبتي، وسوف أعطيك هدية كبيرة حقا، كميات كبيرة من الدنانير، والملابس والأحذية الدافئة، إذا ما قضيت لي حاجتي وسوف تتباهين بثروة حقيقية إذا ما ساعدتني».

وقالت السيدة: «لا تكذب عليّ يا ويليكن. أستحلفك بإخلاصك هل أنت حقا صادق فيما تقول؟ وهل تحب مدام مارجيري حقا».

قال الشاب: نعم يا سيدتي، إنني حقا أحبها، وسوف يلحق بي الأذى إذا لم أنجح في حملها على الاستجابة لي.

وقالت العجوز: «حسنا يا ويليكن الطيب، إنني آسفة لألمك، وأدعو الرب أن يرفع عنك الكرب سريعا. على أنني إذا تأكدت أن الأمر سيبقى سرا بيننا فإنه يسعدني أن ألبي مطلبك على ضمانتك. فلتعدني وأنت ترفع يدك إلى أعلى، أنك سوف تخفي الأمر جيدا، وعندئذ سأحاول أن أخبر السيدة بأمرك. إنني لا أريد بأي حال من الأحوال أن يصل هذا الأمر إلى مسمع جماعة الرهبان، ولو حدث هذا، فسوف يحكم علي بالتجريس على ظهر حمار ويسوقني القسس ورجال الدين في خزي وعار».

«حقا سيدتي العجوز، إنني لا أود أن أكون السبب في أن تلحق بك المعاملة السيئة والخزي، فأنت تسدين إلي جميلا. إنني أعدك صادقا أنني - بحق الصليب - سأبذل ما في وسعي لأن أحفظ الأمر سرا بيننا».

قالت السيدة: «أهلا بك ياويليكن، لقد قدمت وعدا يسعدني. وتستطيع أن تبارك تلك اللحظة التي ستجعلك سعيدا للغاية. ولست بحاجة من اليوم أن تطلق التنهيدات. إنه من حسن طالعك أنك أتيت إليّ، لأنني سأذهب توا إلى المرأة وأحملها على أن تفهم الأمر، وسوف ألقنها درسا يجعلها تحبك أكثر مما ينال أي رجل في البلدة من حب».

فقال الرجل: «وبقدر ما أتمنى أن يشيع بداخلي سلام اللّه، وبقدر ما نطقت صدقا يا مدام سيريث، فإنك تستحقين المكسب الطيب. هاك عشرين شلنا أقدمها لك مكافأة مني لكي تشتري بها لك أغناما وخنازير».

وقالت السيدة: «وبحق ما تمنيت دوما أن يكون لي سقف فوق رأسي وأرضية كوخ تحت قدمي، ليس هناك وسيلة أفضل لإنفاق النقود من أن أحقق هذين الأمرين. إنني سوف أضطلع بالأمر، بل إنني سأقوم بحيلة رائعة، كما سوف ترى بحق».

ثم نادت على كلبها وقالت له: «والآن سوف أجعلك تأكل الفلفل والخردل حتى تسيل دموعك. إنني أعرف تماما متى وأين أختلق كذبة من عينيك اللتين ستجري منهما الدموع».

وقال الشاب: «وما الذي دهاك لأن تفكري في هذا، لابد أنك جننت، كيف تطعمين الكلب خردلا حريفا».

وردت المرأة عليه قائلة: «اسكت أيها الغبي. إنني بهذه الحيلة سوف أجعل حبها كله لك. إنني لن أجد الراحة ولا السلام حتى أخبرك بما تفعل. انتظرني هنا حتى أعود». قال: حسنا بحق زهرة الصيف لن أتحرك من هنا حتى تعودي».

وخرجت السيدة سيريث في هيئة المرأة التعيسة البائسة حتى وصلت إلى البيت الذي تسكنه المرأة. حتى إذا ما وصلت إلى الباب، بدأت تتحدث في نغمة تثير الشفقة للغاية وقالت: «يا إلهي يالبؤس هؤلاء النساء العجائز يعشن في فقر على الدوام. فليس هناك من يعاني من الحاجة مثلما تعاني امرأة فقيرة، وليس هناك من يستطيع أن يخبر بحالتي سواي، فأنا لا أستطيع أن أمشي أو أجلس، وكم أتمنى أن أموت. لقد قتلني الجوع والعطش، ولا أكاد أحرك شفتيّ من الجوع الشديد والعطش والبرد. فأي هدف تعيش مثل هذه البائسة؟ ولماذا لا ينتزع الله مني الروح؟»

الزوجة: ليخلصك اللّه مما أنت فيه أيتها السيدة الطيبة. سوف أجد لك طعام اليوم لوجه الرب. وكم يملؤني الأسى لبؤسك، فها أنذا أرى البؤس في ردائك ونعلك. هيا ادخلي، سوف أقدم لك الطعام حالا.

العجوز: «جزاك الله ملك السماوات والأرض خيرا، وجزاك سيدي الذي وضع على الصليب أربعين يوما صامها جميعها، ليجزك اللّه جزاء فعلك الخير».

الزوجة: «خذي هذا اللحم والخبز وخذي هذا القدح من الشراب وابتسمي».

العجوز: جزاك اللّه خيرا على عملك الطيب، ثم قالت: «لعنها اللّه! إنني أتعجب أنني ما زلت حية. إنني لأعفو عمن يقطع رأسي. ولكم أتمنى أن يريحني أحد من حياتي».

الزوجة: «وماذا حدث أيتها العجوز الطيبة»؟

العجوز: «يا للأسف، لقد كان عندي ابنة نبيلة وجميلة، ولا يمكن أن تتصوري فتاة أجمل منها، وكان لها زوج فاضل، لم يكن هناك من يفضله. وكانت ابنتي تحبه كل الحب كما كان يحبها. وحدث للأسف أن خرج الزوج ذات يوم، وكان هذا هو السبب فيما لحق بابنتي من الخزي. لقد خرج الزوج في رحلة خارج البلدة، وجاء رجل عالم أنيق مرتب إلى ابنتي ومنحها حبه، ولكنها لم تستطع أن تحقق له مطلبا. ولم يجد هو سبيلا لأن يجعلها تستجيب لرغباته فأخذ يمارس السحر، وحول ابنتي إلى جرو. وهذا الجرو الذي معي هو ابنتي التي أحكي لك عنها. لقد انكسر قلبي حزنا عليها. انظري كيف تتدفق دموعها وتسيل على خديها. ولا تتعجبي إذن يا سيدتي من أن قلبي قد تحطم. ومن الممكن أن يحدث هذا لأي امرأة شابة غيرها يعرض عليها شاب حبه، إذا لم تذعن له وتستجب لمطلبه».

ولما سمعت المرأة ذلك قالت: يا إلهي ماذا يمكنني أن أفعل؟ فقد أتاني طالب علم بالأمس بالذات، وعرض عليّ حبه بطريقته، ولكنني لم آبه به أبدا، وأعتقد أنه سوف يحولني أنا كذلك إلى جرو. والآن أين الخلاص فيما تظنين»؟

العجوز: «ليساعدك اللّه على ألا تتحولي إلى جرو أو يرقة. ولكن يا سيدتي العزيزة، إن جاءك طالب علم، وعرض عليك الحب، فإني أنصحك أن تعطيه ما يريد، وأن تصبحي وليفته، وإن لم تفعلي هذا فستكونين قد اخترت الخيار الأسوأ».

الزوجة: «يا إلهي. كم أنا آسفة على أن طالب العالم الذي أتاني، رحل قبل أن أمكنه من نفسي. إنني على استعداد لأن أمنحه أي شيء مقابل أن يعاشرني ليلة واحدة، وسأكون في خدمتك للأبد. يا سيدتي العجوز، إذا ما أحضرت لي ويليكن، وهو طالب العلم الذي حدثتك عنه، سوف أمنحك الهدايا التي تعينك على حالك بمشيئة اللّه».

العجوز: تأكدي يا سيدتي اللطيفة، إذا كنت أستطيع أن أفعل هذا دون

أن يقع عليّ لوم، فسوف أحاول بكل سرور. وإذا استطعت أن أقابله في أي مكان، فلن أتردد في أن أحضره لك. طاب يومك يا سيدتي، فسوف أرحل الآن».

الزوجة: «ولا تنسي أن تحققي لي ما طلبته منك، مهما يكن الأمر. إنني لن أستطيع الضحك أو الغناء ولن أكون سعيدة، إلا إذا أحضرت لي ويليكن».

العجوز: «بكل تأكيد يا سيدتي، سوف أحضره لك اليوم إن استطعت. وسأبذل قصارى جهدي». وخرجت العجوز وذهبت إلى البيت حيث وجدت ويليكن بمشيئة اللّه. وقالت له: «ياويليكن الجميل، لا تزعج نفسك. لقد أتممت كل شيء معها. والآن تعال إليها على وجه السرعة، لأنها أرسلتني في طلبك. ويمكنك الآن أن تكون سعيدا بكل تأكيد».

الشاب: «ليكافئك اللّه مالك السماوات والأرض يا عزيزتي العجوز».

ثم خرج الرجل الوسيم لتوه مع السيدة سيريث إلى محبوبته. وبدأت السيدة سيريث تتحدث إلى المرأة وتقسم لها باللّه أنها بحثت عنه في كل مكان حتى وجدته وقالت: «سيدتي، لقد أجهدني البحث عن ويليكن حتى وجدته، وها أنذا أحضره إليك».

الزوجة: «مرحبا ياويليكن عزيزي، إنني أرحب بك أكثر مما أرحب بالملك. وها أنذا أعدك بأن أقدم لك حبي لتفعل بي ما تشاء. لقد غيرت رأيي، إذ لا أرضى على الإطلاق أن تموت من العشق».

الشاب: «سيدتي، وبعد أن تأكدت من مشاعرك، فأنا على استعداد، بل إني شغوف لأن أفعل ما تأمرين به. والآن يا سيدتي العجوز. بحق الإله عليك أن ترحلي، واتركينا لنمتع أنفسنا».

العجوز: «اللّه يعلم كل شيء. وها أنذا أرحل، وافعل بها ما تريد. وسوف تندم إذا اقتصدت شيئا من رغباتك. وإذا كان هناك إنسان آخر غبي ليس في وسعه أن يغنم محبوبته بأي ثمن، دعني أساعده في حبه، ذلك إذا دفع لي، لأنني أعرف الطريق لإنجاح شؤون الحب»[18].

الأمثولة رقم 35[19]

الرجل الأعمى والشاب الزاني

كان هناك رجل أعمى متزوج من امرأة جميلة، وكان يحرس عفتها

بجهد جهيد، وبهذا تولدت الغيرة الشديدة في نفسه. وحدث ذات يوم أنهما كانا يجلسان معا في ظل شجرة كمثرى، ثم تسلقت هي الشجرة بموافقته، لتقطف بعض الثمار. ولأن الرجل كان أعمى، فقد تملكه الشك فقام واحتضن جذع الشجرة حتى لا يستطيع أحد أن يتسلق الشجرة في أثناء وجود زوجته بين فروعها.

ولكن لأن للشجرة فروعا كثيرة، كان هناك شاب مختبئ في فرع آخر منها، وكان قد تسلق من قبل، وصار ينتظر وصول زوجة الرجل الأعمى. فلما وصلت احتضنها في سعادة بالغة وبدأ يلعب معها لعبة فينوس. وبينما كانا يمارسان اللعبة سمع الرجل الكفيف الصوت، وكان صوت اثنين، واثنين معا. وعندئذ بدأ يصرخ بها في ألم شديد. «أيتها المرأة الملعونة! وحتى إذا كنت لا أبصر، فأنا أستطيع أن أشعر وأن أسمع. إن حواسي الأخرى قوية وشديدة الرهافة. إنني أعلم أن معك عشيقا، وإنني أتوسل إلى جوبيتر الإله القوي الذي يستطيع أن يملأ قلوب المحزونين بالسعادة، أن يرد إلى الأعمى بصره». وما أن فرغ من هذه الكلمات، حتى استرد الرجل الكفيف بصره واسترد معه نور الطبيعة. وعندئذ نظر إلى أعلى، ورأى الشاب المراهق مع زوجته، فصرخ في الحال «أيتها المرأة الخسيسة الخائنة! لماذا تخدعينني وتحتالين عليّ بينما أنا أصدق أنك مخلصة وطيبة؟ وا أسفاه، فمن الآن فصاعدا لن أنتظر منك أي فعل طيب». ولكن الزوجة، ما إن سمعت زوجها يصرخ بها على هذا النحو، وعلى الرغم من أنها كانت قد أصابها الفزع لأول وهلة، سرعان ما فكرت في حيلة خادعة، فردت عليه بوجه مبتسم وبصوت عال وقالت: «إنني أشكر الإلهة التي استجابت لصلواتي، وردت إلى زوجي المحبوب بصره. ولتعرف يا سيدي أن بصرك الذي رد إليك كان بسبب أمنياتي ودعواتي. فحتى هذه اللحظة كنت ما أزال أعالجك، دون جدوى، بالأدوية والوسائل الأخرى. وأخيرا تحولت إلى الآلهة أتضرع إليها وأرسل إليها توسلاتي لكي ترد إليك بصرك. وعندئذ ظهر لي الإله ميركوري مرسلا من قبل الملك جوبيتر في منامي، وأخبرني أن أتسلق شجرة الكمثرى، وألعب هناك لعبة فينوس مع رجل شاب، وبهذا يسترد زوجك نور عينيه. ولقد فعلت هذا من أجلك ومن أجل صحتك. ولهذا ينبغي أن تشكر الآلهة، وفوق كل شيء ينبغي أن تشكرني لأنك استرددت بصرك عن طريقي».

وصدق الرجل كلمات زوجته الخادعة. وتصالح معها وقبلها بوصفها امرأة فاضلة عندما تبين له أن عتابه لها لم يكن في محله. وبهذا شكرها وكافأها بهدايا ثمينة كما لو كانت قد أسدت له جميلا عظيما[20].

وهناك أمثولتان أخريان في «مجالس المتعلمين» تثيران الاهتمام لأنهما من الحكايات التي دخلت التراث الغربي منذ القدم، الأولى رقم (12) وعنوانها «الملك وراوي الحكايات». ثم الحكاية المفضلة رقم (13) وعنوانها «الذئب الموعود بالثيران وحكم الثعلب». الحكاية الأولى من النوع الذي ليس له نهاية على نمط الحكايات التي تعد فيها الأغنام لجلب النوم، وربما كانت هذه الحكاية أصل تلك العادة التي ما تزال تتبع في الغرب. وأما الحكاية الثانية فهي أفضل الفابولات في «مجالس المتعلمين» وعددها أربع فابولات فحسب، وهي البغل الذي يفخر بأجداده، وتعاليم الطير الثلاثة. والحية الغادرة التي قتلت الرجل الذي أنقذها (رقم 4، 12، 5)، ثم الحكاية التالية:

حكاية رقم 13
الملك وراوي الحكايات

كان لدى الملك قصاص يقص عليه كل ليلة خمس حكايات. وحدث في النهاية أن الملك الذي كان مثقلا بأعباء العمل، لم يستطع النوم، ولهذا طلب من القصاص أن يقص عليه مزيدا من الحكايات، وحكى له القصاص ثلاث حكايات إضافية، ولكنها كانت قصيرة. ولهذا طلب الملك المزيد. واعترض القصاص، لأنه، من وجهة نظره، قد حكى له الكثير. وأجاب الملك: «إنك حكيت لي الكثير، لكن الحكايات كانت قصيرة. أريدك أن تحكي لي حكاية طويلة وبعد ذلك سأتركك تنام».

ووافق القصاص وبدأ يحكي ويقول:

ذهب فلاح كان يملك ألف عملة فضية إلى السوق واشترى ألفي خروف، بستة دنانير. وعندما عاد من السوق، حدث أن النهر كان قد امتلأ بمياه الفيضان، ولم يكن يستطيع أن يعبر النهر على الجسر أو على لوح من الخشب. ولما احتار في الأمر أخذ يبحث عن مكان يستطيع أن يعبر منه بخرافه. وفي النهاية وجد قاربا صغيرا لا يسع إلاّ خروفين وهو معهما في الوقت نفسه. ولما كان مضطرا للعبور فقد وضع خروفين في القارب وعبر.

وبعد أن حكى الراوي هذا الحدث، راح في النوم.

وأيقظه الملك حتى يكمل الحكاية التي بدأها، فقال: «لقد كان النهر واسعا والقارب صغيرا جدا، وكانت الخراف كثيرة العدد. وعليك أن تجعل الفلاح يعبر بخرافه أولا، ثم أكمل لك الحكاية بعد ذلك».

وبهذا أسكت القصاص الملك الذي كان شغوفا لأن يسمع حكاية طويلة[21].

وإذا تحدثنا عن الأمثولات والخرافات، فإننا نذكر على الفور إيسوب. وهناك من بين الخليط الهائل للفابولات التي تنسب إليه منذ العصر القديم فصاعدا، حكاية تحكى عن الثعلب والعنزة في البئر. وفيها خلص الثعلب نفسه من الغرق بأن قفز على ظهر العنزة، واتفقا على أن يتناوبا الوضع في البئر. ولكن الثعلب بدلا من أن يفعل هذا قفز إلى الخارج وهو ينصح العنزة بأنها قبل أن تذهب إلى أي مكان، لابد أن تفكر كيف تخرج منه.

وربما كانت حكاية بيتروس ألفونصص تنتمي إلى تلك المجموعة العامة الكبيرة من الحكايات التي تحكى عن الحيوانات التي تسقط في البئر، ولكنها تختلف عنها في نهايتها الأخلاقية، إذ تقول: لا تترك الشيء المؤكد في مقابل شيء موعود. كما أن حبكتها أكثر تعقيدا، إذ تجعل الأولوية لعنصر الوعد السريع، وتبعه عنصر انعكاس قرص القمر الذي يشبه قرص الجبن، على صفحة الماء في البئر، ثم يلي ذلك حيلة الدلو. ووفقا لمصطلحات الفولكلور فإن هذه الأحداث تكوّن ثلاثة موضوعات منفصلة. ومن الممتع حقا أن رواية إيسوب تنتشر أساسا في شرق أوروبا وفي الشرق الأدنى، بينما قرص الجبن والدلو ينتشران في غرب أوروبا. ولابد أن يعكس هذا، على الأقل جزئيا، التأثير الجغرافي لكتاب ألفونصص.

الحكاية رقم 23

الثيران التي وُعد بها الذئب ومحكمة الثعلب

يحكى أن فلاحا كان يحرث الأرض. ولما وجد أن ثيرانه لم تستطع أن تحفر ثلْما مباشرا في الأرض، قال لها: إن الذئاب يمكن أن تأكلك.

وسمع ذئب هذا الكلام وسعد به. وعندما مالت الشمس للغروب وحلّ الفلاح الثيران عن المحراث، جاءه الذئب وقال له: «أعطني الثيران التي وعدتني بها».

وقال له الفلاح: «على الرغم من أنني قلت هذا، لكنني لم أقسم بذلك». وجادله الذئب قائلا: «لكنني سآخذها لأنك وعدت بذلك». وفي النهاية اتفقا على أن يرفعا أمرهما إلى القضاء. وفي الطريق تقابلا مع ثعلب سألهما: «إلى أين أنتما ذاهبان؟» فأخبراه بما حدث. وعندئذ قال الثعلب: لا داعي لأن تبحثا عن قاض آخر، لأنني سأقدم لكما حكما عادلا. ولكن قبل أن أقدم هذا الحكم، اسمحا لي بأن أقابل كل واحد منكما على حدة». وتحدث الثعلب مع الفلاح أولا، وقال له: «أعطني دجاجتين واحدة لي والأخرى لزوجتي، وسوف تحصل إثر ذلك على ثيرانك». ووافق الفلاح. وبعد ذلك تحدث الثعلب مع الذئب وقال له: «أصغ إليّ يا صديقي، لقد تحدثت مع الفلاح ووافق على أنك إذا تركت الثيران في سلام، فسوف يعطيك قطعة من الجبن في حجم الدرع» ووافق الذئب. ثم قال له الثعلب: «الآن اترك الفلاح يقود ثيرانه بعيدا وأنا سأصحبك إلى المكان الذي ستجد فيه الجبن». وانخدع الذئب بكلمات الثعلب الحاذقة، وترك الفلاح يرحل بثيرانه. ثم قاده الثعلب بعيدا. ولما اقترب الظلام قاده إلى بئر عميقة وأطلعه، وهو واقف على حافة البئر، على قرص القمر ينعكس على صفحة البئر في منتصف الشهر القمري، وقال له: هذه هي الجبن التي وعدتك بها، الآن انزل إلى البئر إذا شئت وكلها. وقال له الذئب: «بل انزل أنت أولا، وإذا لم تستطع أن تحضرها وحدك، ناد عليّ لمساعدتك وأنا سأفعل ما تطلبه».

وبينما هما يتكلمان، أبصرا حبلا متدليا في البئر وكان يتدلى في كل من طرفيه دلو. وكان الدلوان معلقين بحيث يرتفع أحد الدلوين إلى أعلى إذا كان الآخر يتجه إلى أسفل. وما إن رأى الثعلب ذلك، حتى نزل إلى أحد الدلوين، كما لو كان يتبع تعليمات الذئب، وهبط به الدلو إلى أسفل وسعد الذئب بذلك وقال له: «ولماذا لا تحضر لي الجبن الآن»؟

وأجاب الثعلب: «لا أستطيع أن أفعل هذا لأن القرص كبير الحجم. اهبط الآن في الدلو الثاني وتعال لمساعدتي، كما وعدت».

ونزل الذئب إلى الدلو الآخر. وحيث إن هذا الدلو أصبح الآن أثقل من الآخر، فقد هبط إلى أسفل في حين صعد الدلو الذي به الثلعب إلى أعلى لأنه أخف وزنا. وعندما وصل الثعلب إلى حافة البئر، قفز خارجها تاركا

الذئب بداخلها، وبهذا خسر الذئب الثيران والجبن معا، لأنه ترك ما هو حاضر في مقابل أن يحصل على ما لم يأت بعد[22]. يعد النموذج رقم 23 نموذجا آخر من مخزون الفولكلور العالمي. وانتشار هذا النموذج في التراث العربي على نحو مستمر، يصدّق عليه كل من شوفان[23] وجونزاليس بالينثيا اللذين قررا أنهما سمعاه في الرباط عام 1948، نقلا عن بيتروس ألفونصص[24]. ثم أصبح نمطا كلاسيكيا في فرنسا بفضل طريق الاستعارة الذي بدأ مع كتاب ألفونصص، وأصبح شائعا كذلك عن طريق ماري دي فرانس ولافونتين. كما أن الحكاية بقيت مع التراث الشفاهي للشعوب المتحدثة بالإنجليزية. وتتضمن فابولات أفونسي التي أصدرها كاكستون (1484)، وفيها ينتهي الحوار بين الثعلب وهو يصعد في الدلو، والذئب وهو يهبط إلى البئر على النحو التالي:

الذئب: مع تمنياتي الطيبة لك، أنت تذهب أولا.

الثعلب: «إن ما تقوله هو الحق لأنه هو نفسه ما يحدث في الحياة، فإذا هبط شخص صعد الآخر». وقد ظهرت الحكاية من دون موضوع الجبن في حكايات حول تشاندلر هاريس تحت عنوان «حكايات العم ريموس» وذلك في الحكايتين تحت عنوان، السيد الأرنب العجوز ويحل الأرنب محل الثعلب بوصفه البطل، كما يحل الثعلب محل الذئب. وكانت الحكاية لا تزال شائعة في متشجن بين الزنوج في الخمسينيات. وهذه الحكاية الأخيرة تحتفظ بالأبيات التي تنتهي بها حكاية العم ريموس تقريبا دون تغيير. وقد بدأت منذ أيام كاكستون على أقل تقدير على النحو التالي:

مع السلامة يا أخ ثعلب، وتنبه يا صديقي العزيز،
هكذا تكون الأمور في الحياة،
البعض يصعد والبعض يهبط،
وأنت الآن تهبط إلى القاع.

النص الغربي

انهض وأغلق الباب

كان هناك رجل اسمه بلانت،
يعيش في واد صغير.

وكان مشهورا بطهو اللحم وتخمير الجعة،
ويتمتع بسمعة طيبة.
وذات ليلة هبت الريح
وفاحت رائحة الشواء.
فقال لزوجته: انهضي يالوكي العجوز،
وأغلقي الباب.
ولم تستجب له الزوجة واتخذت موقف العناد.
فاتفقا فيما بينهما،
وأقسما على الالتزام بذاك الاتفاق،
وهو أن من يتحدث منهما أولا،
هو الذي ينهض ويغلق الباب.
ووفد عليهما ثلاثة من المسافرين،
كانوا قد جاءوا عبر التلال،
ولما أبصروا ضوءا مشعا من بيت بلانت،
لم يترددوا في دخوله.
وأبصروا الزوجة وحيوها،
ولكنها لم تأبه بهم وظلت مستلقية.
فجذبوها وطرحوها على الأرض،
ولكن الزوجة لم تنطق بكلمة وظلت مستلقية على الأرض.
ولكن الزوج كلمهم قائلا: لقد أكلتم خبزي وشربتم جعتي،
والآن تريدون أن ترتكبوا الإثم مع زوجتي.
عندئذ نطقت الزوجة ، وقالت:
آه يابلانت، لقد نطقت قبلي،
فانهض إذن وأغلق الباب.

النص الشرقي
الزوجان الصامتان

طلب رجل سيىء الطباع من زوجته ذات مساء أن تسرع وتعد له العشاء. فلبت الزوجة مطلبه، وأعدت له العشاء ومعه خبز مقدد. فقال لها الزوج:

«وهل يستطيع الشيطان أن يأكل مثل هذا الخبز المقدد؟ انهضي وبّليه بالماء». فقالت الزوجة: «بلّ انهض أنت وبلّه». ورد الزوج: «بلّ أنت التي ستبلّينه». وقالت الزوجة: «لن أبلّه ولو شنقت، إني متعبة، ولن أتحرك قيد أنملة».

وتصاعد العناد بينهما حتى انتهيا معا إلى قرار التزما به، وهو أن من يتفوه بكلمة قبل الآخر، فهو الذي ينهض في الحال ويبلّ الخبز.

وظلا على هذا الموقف الطريف صامتين، عندما دخل عليهما جار في غير ميعاد، وكان هذا الجار على علاقة خفية بزوجته. فنظر الزوجان إليه نظرة تنم عن مجاملة، ولكن أحدهما لم يتفوه بكلمة. فحياهما الزائر قائلا: «طاب مساؤكما» ولكنهما لم يردا التحية. فقال متسائلا: «ماذا حدث لكما؟» ولماذا أنتما صامتان هكذا؟» ولكن الزوج وزوجته ظلا صامتين. وعندئذ حدس الجار أنهما قد تراهنا على أن يظلا صامتين. فقال للزوج: «ولكنك أنت الرجل، فلماذا لا تتكلم؟» ولكن الزوج لم ينطق. فتقدم الجار وقبّل الزوجة، ولكن الزوج لم يتفوّه بكلمة فخطا الجار خطوة أخرى وفعل بالزوجة ما يمتهنها، ولكن الزوج لم يتحرك وظل صامتا. فصفعه الجار على خده، ومع ذلك لم تندّ عن الزوج أي حركة ولم يتفوه بكلمة.

فلما بلغ الضيق بالجار مبلغه، رفع شكوى ضد الزوج في القضاء مدعيا عليه التزامه الصمت وعدم احترامه له، وحكم على الزوج بالسجن، ولم ينطق الزوج بكلمة. عندئذ أمر القاضي بشنقه لتمرده وعصيانه. ولما حان ميعاد الحكم، جاءت الزوجة تصرخ بصوت مليء بالشفقة على زوجها، وتقول: «يا للأسف يا زوجي التعيس ! وعندئذ نطق الزوج قائلا: «أيتها الشيطانة عودي إلى البيت وبلّلي الخبز المقدد».

6 ألف ليلة وليلة

لا يمكن لنص أن يعبر عن مدى انتشار ألف ليلة وليلة في جميع أنحاء العالم أكثر من فقرة من رواية Huckleberry Finn لمارك توين، ففي هذه الفقرة يشرح هِلّ، الفتى الأمي للعبد الزنجي جِيمّ، وهما ينحدران مع مجرى نهر المسيسبي في أربعينيات القرن الماضي 1840، يشرح له سلوك الملك هنري الثامن فيقول:

«يا عزيزي، كان ينبغي أن ترى هنري الثامن العجوز عندما كان في عز شبابه مليئا بالحيوية. وكان يتزوج زوجة جديدة كل ليلة ويقطع رأسها في صباح اليوم التالي. وكان يفعل هذا دون اكتراث كما لو كان يهشم بيضا. يقول: أحضروا لي «نل جوين». ويحضرونها له. وفي الصباح يقول: «اقطعوا رأسها». ويقطعون رأسها. ثم يقول: أحضروا لي «جين شاير». وتأتي جين شاير. وفي الصباح يقول: «اقطعوا رأسها». ويقطعون رأسها. ويقول: «دقوا الجرس لروزمون الحسناء». وتلبي روزمون الحسناء نداء الجرس وفي الصباح التالي يقول: «اقطعو رأسها». وكان يجعل كلا منهن تحكي له حكاية كل ليلة. ثم أخذ يجمع الحكايات حتى بلغت ألف حكاية وحكاية وضمها في كتاب وأسماه كتاب القيامة.

وكان اسما حسنا يعبر حقا عن الحالة».

وإذا صرفنا النظر عن شهرزاد وعن التاريخ الإنجليزي، فإن ألف ليلة وليلة عرفت بين الأميين بحكايتها الإطار، كما عرفت بوصفها كتابا ضم حكايات شهرزاد، وهو ما حدث لقلة من الكتب التي قدر لها مثل هذا الشيوع. وإذا كان هذا حدث على أطراف أمريكا، فقد حدث في أماكن أخرى من العالم كذلك.

أما بالنسبة لمن يعرفون القراءة، فقد عرفت ألف ليلة وليلة في الغرب منذ 1704، عندما انتشرت ترجمة أنطوان جالاند بالفرنسية ثم بالإنجليزية، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت في العالم الغربي بمنزلة المدخل للعالم العربي. فهناك أجيال من القراء كونوا فكرتهم عن الشرق من خلالها، وقد هزت أوروبا منذ البداية عندما ظهر لها أربع طبعات باللغة الإنجليزية قبل عام 1713، ونشرت مسلسلة في صحيفة لندن نيوز واستغرق ذلك ثلاث سنوات بدءا من عام 1723. وعن شهرتها في إنجلترا قال جيمس بيتي في 1783: «إنه كتاب يعرفه الصغار والكبار». وفي غضون مائتي عام كان الكتاب قد طبع أكثر من أربعمائة مرة بلغات غرب أوروبا. وأسهمت ألف ليلة وليلة في القرن الثامن عشر في الاهتمام بالدراسات الشرقية، كما كانت دافعا على تطور الفولكلور والقص بوصفهما حقلا للدراسة. أما في مجال الخيال فقد أدت إلى نشأة مدرسة كاملة لما سمي بالروايات والحكايات الشرقية. ويمكننا أن نصف تأثير الليالي على الحركة الرومانسية في القرن التاسع عشر بأنه كان هائلا. وقد حدث هذا في الوقت الذي كان فيه العرب لا يحتفلون بألف ليلة، بوصفها نمطا من الكتابة يشذ عن الكتابة العربية وغير جديرة بالاحترام، لأنها عامية وسوقية وليست أدبا بأي حال من الأحوال، بل هي خليط من فولكلور الشارع صيغ بلغة سوقية. حقا إن ألف ليلة وليلة تنتمي إلى الفولكلور، واستمرت الحكايات تروى حتى قرننا هذا لجمهور المقاهي وفي الأسواق في القاهرة وبغداد. أما في الغرب، فقد غيرت الترجمة تلك السوقية، ولم تصبح ألف ليلة وليلة أدبا فحسب، ولم تصبح أدبنا، بل أصبحت في الحقيقة إحدى كلاسيكياتنا. لقد أعيدت طبعاتها وأخذت عنها مسرحيات ورقصات باليه وأوبرات وأفلام ومسرح عرائس وبانتومايم، بصفة خاصة للصغار. وبفضل الترجمات المبكرة التي

كانت تؤثر حكاياتها الخرافية ورحلاتها الغريبة ومغامراتها، على حكاياتها الواقعية، أصبح الكتاب مرادفا لما هو عجيب وورومانسي. على أن المجموعة الكاملة تحتوي كذلك على أشكال أخرى كثيرة من القصص، فهي تتضمن حكايات حب، وحكايات المغامرات، وحكايات المحتالين والمجرمين، ونوادر، وقصص الحيوان، وحكايات تعليمية، وحكايات عن النساك، وحكايات عن الشياطين. ومجموعة نوادر عن هارون الرشيد، وقصص عن الأزواج والزوجات، وحكايات مبنية على الحروب الصليبية وقصص رومانسية طويلة تشبه الملاحم التي تحكي عن المعارك، وتعليقات قصيرة على المواقف وحكايات إطار داخل حكايات إطار أخرى. بل إنها تحتوي على كتاب كامل هو كتاب السندباد (ويسمى في الليالي العربية حكاية الوزراء السبعة). ولهذا الكتاب تاريخ سابق ومستقل في حد ذاته، إضافة إلى القصائد الشعرية التي تبلغ في بعض الأحيان حدا من الطول والتعقيد، وترد في ثنايا الحكايات.

ويحتاج مصطلح «المجموعة الكاملة» إلى تحديد، حيث إن كتاب ألف ليلة وليلة مثل كل المجموعات الفولكلورية، ليس له شكل واحد ونهائي، وقد طبعت الحكايات بأعداد مختلفة ونظام مختلف. حسبما تراءى للمترجم. ويعني الرقم 1001 أي عدد كبير، أكثر مما يعني العدد المحدد. وقد استخدم جالاند الذي كان موظفا في الخدمة الدبلوماسية الفرنسية(*)، استخدم مخطوطا سوريّا لألف ليلة وليلة، كما استخدم فيما بعد مصادر أخرى. على أن المكمل الرئيسي لكل هذا كان رجلا سوريا يعيش في باريس، وحكى له حكايات شعبية عربية تتضمن الدرتين، علاء الدين، وعلي بابا. وقد تبين أن حكايات الأطفال والبيوت للأخوين جريم التي ظهرت بعد ذلك بمائة عام (1812)، وتعد البداية لجمع الحكايات الشعبية مباشرة من أفواه الشعب في العصر الحديث، تحتوي على روايتين ألمانيتين لهاتين القصتين. وظلت ترجمة جالاند هي الأساس لكل الطبعات الأوروبية النموذجية لألف ليلة وليلة لأكثر من مائة عام، بل إن أجزاء منها ترجمت إلى العربية، وبحلول القرن التاسع عشر، عثر على مخطوطات أخرى عربية ونشرت. أما أساس النصوص الأوروبية التي تلت ذلك فكانت النسخة المصرية لطبعة بولاق، وقد ظهرت ترجمة إدوارد لين الإنجليزية لهذه الطبعة مبكرا فيما بين 1838 ـ 1840. وأفضل ترجمة بالإنجليزية لهذه الطبعة هي ترجمة جون باين التي

نشرت في عام 1880، وقد نقل عنها ريتشارد بيرتون حرفيا في بعض الأحيان في ترجمته الأشهر، وإن تكن أقل قيمة من ترجمة جون باين. على أن أفضل نسخة حديثة هي ترجمة إينوليتمان الألمانية (1920). وإذا كانت ترجمة بيرتون تطابق إلى حد ما في بعض المواضع، ترجمة باين، فإنه فيما عدا هذا، لا تتفق ترجمتان من الترجمات الست أو النسخ العلمية المعتمدة مع بعضها البعض. ولكن إذا أخذناها معا، بما في ذلك الأجزاء الإضافية لنسخة باين وبيرتون التي أضافت مادة من النص الذي اكتشف فيما بعد، وهو مخطوط كلكتا (1814 ـ 18) ومخطوط بروسلاو (1825 ـ 43)، فإنها معا تكوّن مجموعة ألف ليلة وليلة المعتمدة بصفة عامة. وعلى الرغم من ذلك، فقلما نحصل على مجموعة الليالي كاملة في أي نسخة مفردة، في الوقت الذي تظهر فيه على نحو مستمر، مختارات من الحكايات. وقلة قليلة من القراء اليوم يعرفون التنوع المذهل الذي يحتوي عليه الكتاب بوصفه كلا.

ومما يزيد الأمر تعقيدا ذلك التنوع الجغرافي الشاسع لأصل محتواها، فقد اقتفى أثر بعض العناصر القصصية في الهند في القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الثالث بعد الميلاد. وكذلك في إيران والعراق ومصر وتركيا واليونان، بالإضافة إلى مصادر يهودية ومصادر عربية قبل الإسلام، وكل هذا انصهر في خلفية إسلامية. وربما كانت حكاية شهرزاد الإطار ذات أصل هندي، بالإضافة إلى أسماء شخوص فارسية، وربما كانت مأخوذة من رواية فارسية لكتاب إستير الإنجيلي الذي يرجع إلى القرن الثالث بعد الميلاد. وقد وردت أول إشارة باسم ألف ليلة وليلة في مجموعة «هزار أفسانه»، مخطوطة باللغة الفارسية ترجع إلى القرن التاسع، وتلا ذلك في القرن العاشر ذكر شخصيات الحكاية الإطار في كتاب مروج الذهب للمسعودي، ويذهب الباحثون إلى أن في العمل نفسه عدة طبعات تبدأ من الترجمة العربية لـ «هزار أفسانه» في القرن الثامن، ثم أضيف إليها في القرن التاسع حكايات أخرى من بينها حكاية السندباد البحري. وفي القرن العاشر تكون من كل هذا مجموعة تحتوي على أربعمائة وثمانين حكاية، جمعها شخص يسمى أبو عبدوس. وفي القرن الثاني عشر أضيف إلى المجموعة حكايات مصرية. أما الصيغة الأخيرة للكتاب، فقد امتدت إلى القرن السادس عشر لتحتوي على موضوعات من الحروب الصليبية وحروب

المغول عندما دخلوا بغداد، ثم حكايات من سيرة بيبرس ثم غزو الأتراك لمصر. وحيث إن ألف ليلة وليلة مجموعة مركبة من حكايات منفصلة حكيت شفاها عبر قرون طويلة، فإنها، على حد كلمات فانس راندولف الخالدة: «تشكلت وصقلت من خلال المصادفة وطبيعة الانتقال الشفاهي، فقد أضيفت مواد أو اختزلت مواد إمّا عن طريق المصادفة أو توافق الظروف. ولكن لكي تعيش الحكاية لابد أن تلقى قبولا من المستمعين الذين يحفظونها ويصبحون من بعد رواتها. وبهذا يكون الملايين من المستمعين عبر السنين قد ساهموا في تشكيل الحكايات في حين صقلها الرواة».

على أن هذه التغييرات العادية اللازمة لطبيعة الفولكلور نتج عنها تغيرات في المخطوطات الأساسية، يجب الفصل بينها والتغيرات المتعمدة التي أدخلها المحررون عندما أصبحت ألف ليلة وليلة جزءا من الأدب الغربي. ومنذ 1704م حذف المحررون أو المترجمون الكثير من النصوص التي تعرض للجنس، أو أضافوا حكايات بعد أن أعيد تنظيمها. ولأن كل قارئ يقبل ما يقرؤه بوصفه الكتاب الحقيقي، فلابد أن تتولد عند القراء انطباعات مختلفة. وقد سبق أن ذكرنا التصور الأول لها بوصفها حكايات عجائبية ورومانسية، ولكنها عادت وقدمت إلى أوروبا عدة شواهد قصصية ساخرة سبق أن ظهرت في مجموعة حكايات. وتتضمن هذه النماذج حكايات: السيف، والكلبة الباكية، والمصرفيّ الكاذب، والمودعون الأربعة، وبراميل الزيت. وربما كان تعبير «إعادة التقديم» غير دقيق على أي حال، لأن هذه الحكايات انتشرت في الغرب خلال ستمائة عام منذ أن ظهرت مجموعة الحكايات هذه، وكثير من حكايات ألف ليلة وليلة الواقعية والنوادر التي تشبه النوفيلا والملح، كانت معروفة في أوروبا قبل عام 1704 لدى بوكاشيو ومن تلاه، إن لم يكن في الأدب، ففي الفولكلور. والواقع أن المترجمين جذبتهم الحكايات الخرافية في الليالي العربية في القرن الثامن عشر، لأنها كانت جديدة بالنسبة لهم، بينما كانت نماذج الحكايات التي تشبه النوفيلا، سواء كانت من النمط المرح، أو من نمط الحكايات الجنسية، كانت مألوفة لديهم بالسماع، إن لم يكن بالقراءة.

وخطتنا هنا أن نقدم حكايات من ألف ليلة وليلة تعيش في التراث الغربي، إما لأنها استمدت من الليالي العربية أو من مخزون من القص

استمدت منه الليالي كذلك مثل غيرها، وهو مخزون الفولكلور العالمي للشرقين الأدنى والأوسط والذي سبقت الإشارة إليه، والذي فقد الغرب الاتصال به بعد العصور الوسطى. على أن هناك في الحقيقة درجة عالية من الشيوع بحيث يمثل الاختيار مشكلة.

فلابد من غض النظر عن كثير من شواهد التوازي الواضحة، ومثال ذلك موضوعات فولكلورية مثل تحدي السحرة لبعضهم البعض في اتخاذهم أشكالا مختلفة. ثم موضوع الشجرتين اللتين تنموان عند قبر حبيبين ثم تتحدان في شجرة واحدة.

ثم موضوع الساحرة التي تطير على آلة، وموضوع استيقاظ النائم (الذي يعرفه الغرب في مجموعة Vida es Suena في حكاية شلوك ويان، أو ترويض الشرسة، ثم حكاية العذراء البجعة وأسرها عن طريق إخفاء ريشها، وعندما عثرت عليه هربت. وموضوع الاحتيال على العفريت لكي يدخل الزجاجة مرة أخرى، وحكاية بوليفيموس المأخوذة عن الأوديسا، ثم نموذج المحبوسة أو المسافة الرائعة الذي يستخدم فيه نفق سري لخداع الزوج، ثم موضوع The Peeping Tom أو النظر من خلال ثقب الباب، وموضوع الزوجة الصابرة المفترى عليها، والثعلب الذي يتظاهر بالموت، والطيران السحري، والبساط السحري، والسيف الذي يوضع بين المحبين رمزا للعفة، وحكاية الأختين اللتين تحسدان الأخت الصغرى، وحكاية ملاك الموت، وموضوع قلب الغول في بيضة، ثم موضوع بربارا آلن عن الفتاة المتكبرة التي دفعت محبوبها إلى الموت ثم ماتت عند قبره، وموضوع السمكة الضخمة التي يظن أنها جزيرة، على نحو ما ظهر في رحلة سانت برندان، والقلعة ذات الحجرات المحرمة كما في حكاية ذي اللحية الزرقاء. والكثير الكثير من الأشياء السحرية.

وحيث إن حكاية رحلات السندباد، وحكاية علاء الدين، وحكاية علي بابا، أشهر من أن نذكّر بها فلن نقدمها هنا، كما أننا لن نقدم حكايات العجائب، وإنما نقدم بدلا من ذلك حكايات قصيرة من النوع الواقعي، وسنضمّن الاختيار حكاية أو حكايتين تدهشاننا باتفاقهما مع المزاج الغربي اليوم، وإن لم يكن لهما نظير في القصص العربي، وكذلك لأنهما يمثلان مراحل مختلفة للتنوع الموسوعي الذي نحن بصدده.

من ألف ليلة وليلة:

1 ـ حكاية الحلاق عن أخيه الخامس.

حكاية بائعة اللبن ودلوها.

2 ـ الحلم.

الكنز على الجسر.

3 ـ التاجر والمحتالان.

تشوسر «حكاية القسيس».

4 ـ المودعون المتبرمون.

القاضي نوى.

5 ـ عدل الملك أنوشروان.

عجين لحصان الملك.

6 ـ كسرى وشيرين مع الصياد.

الرجل الذي ولد ابنا.

7 ـ خداع النساء.

8 ـ الرجل الذي رأى ليلة القدر.

الرغبات الثلاث.

9 ـ زوجة التاجر والببغاء.

تشوسر: ضابط التوريدات The Maciples Tale.

10 ـ الملك وزوجة الوزير

Vineyard I was and Vineyard I am

كرمة كنت وكرمة ما زلت.

11 ـ السيدة ومحبوباها.

صراع الزوج والمحبوب.

12 ـ حكاية الرجل الحكيم وأبنائه الثلاث.

وصية المخمور.

13 ـ السيدة وخطابها الخمسة.

The Friar in the Well

القس في البئر.

حكاية الحلاق عن أخيه الخامس[*2]

وأما أخي الخامس فإنه كان مقطوع الأذنين يا أمير المؤمنين، وكان رجلا فقيرا يسأل الناس ليلا، وينفق ما يحصله بالسؤال نهارا، وكان والدنا شيخا كبيرا طاعنا في السن، فخلف لنا سبعمائة درهم، فأخذ كل واحد منا مائة درهم. وأما أخي الخامس هذا، فإنه لما أخذ حصته، تحيّر ولم يدر ما يصنع بها. فبينما هو كذلك، إذ وقع في خاطره أنه يأخذ بها زجاجا من كل نوع ليتجر فيه ويربح. فاشترى بالمائة درهم زجاجا وجعله في قفص كبير، وقعد في موضع ليبيع ذلك الزجاج وبجانبه حائط. فأسند ظهره إلى الحائط وقعد متفكرا في نفسه، وقال إن رأس مالي في هذا الزجاج مائة درهم. أنا أبيعه بمائتي درهم، ثم أشتري بالمائتي درهم زجاجا أبيعه بأربعمائة درهم. ولا أزال أبيع وأشتري إلى أن يبقى معي مال كثير، فأشتري به من جميع المتاجر والعطريات حتى أربح ربحا عظيما. وبعد ذلك أشتري دارا حسنة واشترى الممالك والخيل والسروج المذهبة وآكل وأشرب، ولا أخلي مغنية في المدينة حتى أجيء بها إلى بيتي وأسمع مغانيها. هذا كله وهو يحسب في نفسه وقفص الزجاج قدامه. ثم قال: وأبعث جميع الخاطبات في خطبة بنات الملوك والوزراء، وأخطب بنت الوزير، فقد بلغني أنها كاملة الحسن بديعة الجمال، وأمهرها بألف دينار. فإن رضي أبوها حصل المراد، وإن لم يرض أخذتها قهرا على رغم أنفه. فإن حَصُلْت على داري، أشتري عشرة خدام صغار ثم أشتري لي كسوة الملوك والسلاطين وأصوغ لي سرجا من الذهب مرصعا بالجوهر، ثم أركب ومعي المماليك يمشون حولي وقدامي وخلفي، حتى إذا رآني الوزير قام إجلالا لي وأقعدني مكانه، ويقعد هو دوني لأنه صهري، ويكون معي خادمان بكيسين في كل كيس ألف دينار، فأعطيه ألف دينار مهر ابنته، وأهدي إليه الألف الثاني إنعاما، حتى تظهر له مروءتي وكرمي وصغر الدنيا في عيني. ثم أنصرف إلى داري. فإذا جاء أحد من جهة امرأتي، وهبت له دارهم، وخلعت له خلعة. وإن أرسل إليّ الوزير هدية رددتها عليه ولو كانت نفيسة، ولم أقبل منه، حتى يعلموا أني عزيز النفس، ولا أخلّي نفسي إلا في أعلى مكانة، ثم أطلب منهم إصلاح شأني وتعظيمي، فإذا فعلوا ذلك أمرتهم بزفافها. ثم أصلح داري إصلاحا بينا. فإذا جاء وقت الجلاء، لبست أفخر ثيابي وقعدت على مرتبة من

الديباج لا ألتفت يمينا ولا شمالا لكبر عقلي ورزانة فهمي. وتجيء امرأتي وهي كالبدر في حليها وحللها، وأنا لا أنظر إليها عجبا وتيها حتى يقول جميع من حضر: يا سيدي امرأتك وجاريتك قائمة بين يديك، فأنعم عليها بالنظر، فقد أضرّ بها القيام، ثم يقبلون الأرض قدامي مرارا. فعند ذلك أرفع رأسي وأنظر إليها نظرة واحدة ثم أطرق برأسي إلى الأرض فيمضون بها، وأقوم أنا أغيّر ثيابي وألبس أحسن مما كان عليّ. فإذا جاءوا بالعروس المرة الثانية، لا أنظر إليها حتى يسألوني مرارا. فأنظر إليها، ثم أطرق إلى الأرض. ولم أزل كذلك حتى يتم جلاؤها. (ثم) إني آمر بعض الخدامين أن يرمي كيسا فيه خمسمائة دينار للمواشط. فإذا أخذنه آمرهن أن يدخلنني عليها، فإذا أدخلنني عليها لا أنظر إليها ولا أكلمها احتقارا لها لأجل أن يقال إني عزيز النفس. حتى تجيء أمها وتقبل رأسي ويدي وتقول لي يا سيدي انظر جاريتك، فإنها تشتهي قربك، فاجبر خاطرها بكلمة. فلم أرد عليها جوابا، ولم تزل كذلك تستعطفني حتى تقوم وتقبل يدي ورجلي مرارا، ثم تقول: يا سيدي إن ابنتي صبية مليحة، ما رأت رجلا، فإذا رأت منك الانقباض انكسر خاطرها، فمل إليها وكلّمها. ثم إنها تقوم وتحضر لي قدحا فيه شراب، ثم إن ابنتها تأخذ القدح لتعطيني إياه. فإذا جاءتني تركتها قائمة بين يدي وأنا متكئ على مخدة مزركشة بالذهب لأنظر إليها من كبر نفسي وجلالة قدري، حتى تظن في نفسها أني سلطان عظيم الشأن. فتقول يا سيدي بحق الله عليك لا تردَّ القدح من يد جاريتك، فإني جاريتك. فلا أكلمها، فتلحّ علي فتقول لابد من شربه، وتقدمه إلى فمي فأنفض يدي في وجهها وأرفسها، وأعمل هكذا. ثم رفس أخي برجله فجاءت في قفص الزجاج، وكان في مكان مرتفع، فنزل على الأرض، فتكسر كل ما فيه. ثم صار أخي بعد ذلك يلطم على وجهه ومزق ثيابه وجعل يبكي ويلطم على وجهه، والناس ينظرون إليه وهم رائحون إلى صلاة الجمعة. فمنهم من يرمقه، ومنهم من لم يفكر فيه، وهو على تلك الحالة، وراح منه رأس المال والربح[1].

لقد تعجب ماكس مولر الباحث العظيم في الأساطير المقارنة، من أن يقاوم هذا النموذج القصصي البسيط الزمن، في حين أن حكايات أهم كثيرا من هذه الحكاية طواها النسيان، فما زال يحكى للأطفال في البيوت

والمدارس في الشرق والغرب. والمعروف في الغرب أن هذا النموذج ينسب في العادة إلى إيسوب، وهو في الحقيقة مستمد من حكاية لافونتين، اللبّانة وإناء اللبن، التي نشرت في عام 1678[2]. وهناك رواية نموذجية «لبائعة اللبن والدلو» وردت في نص مدرسي للمستوى الثالث للأطفال في أمريكا ويقول: كانت بائعة اللبن تسير بوعاء ممتلئ باللبن فوق رأسها، وتغني في مرح. وكانت تفكر في النقود التي ستجنيها من بيع اللبن، إذ إنها كانت تحمله إلى المدينة لتبيعه هناك. وقالت لنفسها: إن عندي ثمانية أرطال من اللبن. وأستطيع أن أشتري من النقود التي أبيعها بها، ثلاثين بيضة. وأستطيع أن أقول باطمئنان إن الثلاثين بيضة خمسا وعشرين منها على الأقل ستمدني بخمسة وعشرين فرخا. وسوف تكبر هذه الفراخ وأعرضها في السوق في عيد الميلاد وأحصل من بيعها ثمنا طيبا قد يصل على الأقل إلى خمسة عشر دولارا أو عشرين. وبهذه النقود أشتري رداء جديدا وقبعة جديدة، سوف أرتديهما وأنا ذاهبة إلى الكنيسة. وسوف يرغب كل شاب في أن يصطحبني إلى البيت، ولكنني لن آبه بأي واحد منهم. لا، لست أنا التي تفعل ذلك. ثم دفعت رأسها إلى الوراء في كبرياء. وكانت قد نسيت كليا أن على رأسها وعاء اللبن، فسقط الوعاء وانسكب اللبن وسال على الأرض[3].

وقد توافرت الدرسة على هذا النموذج الذي عرف لدى الفولكلوريين بنموذج «بناء القلاع في الهواء»، كما عرفه الناس بصفة عامة تحت عنوان، «لا تعد الفراريج قبل أن تفقس» وهناك روايتان لهذا النموذج في ألف ليلة وليلة، وإحدى هاتين الروايتين تحكى على سبيل الاختصار عن فقير مسكين ملأ وعاء من الفخار بالزبد، وأخذ يحلم بمكسب يمكنه من أن يتزوج. ثم يولد له ولد تنسى أمه أن ترعاه ذات يوم فيركلها بسبب ذلك. وبينما كان يحاكي حركة الركل، ضرب الوعاء فتهشم وتناثر الزبد.

وقد جاء اختيار رجل ليمثل الشخصية الرئيسية في الحكاية على مثال أقدم الأشكال المدونة لهذا النموذج في كليلة ودمنة، التي ترجمت عن أصل سنسكريتي إلى العربية في القرن الثامن. وتحكى هذه الحكاية عن رجل من البراهمة كان عنده جرة من العسل. وعندما ظهرت هذه الحكاية في دليل الحياة الإنسانية لجاك دي فيتري، كانت بطلتها امرأة، على الرغم من أن المؤلف كان أسقف عكا فيما بين 1216 ـ 1227، مما يشير إلى أن الحكاية

كانت قد استقرت على هذا الشكل في التراث الغربي. وتظهر المرأة في الكتاب الإسباني الكوند لوكانور، تأليف دون جوان مانوال، (1282 ـ 1347) حاملة لوعاء من العسل. وعند رابيليه (1532)، يحمل الإسكافي وعاء اللبن. وكثيرا ما يعبّر الرجل وزوجته معا عن حلم اليقظة في روايات ألمانية متأخرة. وفي إنجلترا، كانت حكاية بائعة اللبن مألوفة منذ بداية القرن الخامس عشر. عندما أشير إليها في مسرحية الراعي، وهي الأولى في «حلقات ويكفيلد»[3*]. وعلى الرغم من كل ذلك، وعلى الرغم من أن كليلة ودمنة العربية كانت من أوسع الكتب العالمية انتشارا، إذ ترجمت إلى اللغات الأوروبية، وغيرها من اللغات عدة مرات. (مثال ذلك Hans Sachs و John of Cupua وغيرهما) تعد بالنسبة للغرب الحديث، رواية لافونتين للحكاية، الصيغة التي شكلت عليها مثيلاتها.

ويعد تاريخ كليلة ودمنة السابق مُهمّا لما نعني بالفولكلور العالمي للشرق الأوسط. ونحن نتعامل هنا مع وثائق، وبالتالي ندخل في تاريخ الأدب كذلك. على أنه ينبغي علينا أن نتذكر أن هذه المخطوطات المبكرة بكل بساطة فولكلور مدون. وأن الأصل السابق عليها البانتشاتنترا (الأسفار الخمسة)، وتسمى في إنجلترا في بعض الأحيان حكايات بيدبا، وهي مجموعة حكايات كتبت باللغة السنسكريتية، وترجع إلى القرن الثالث. وقد فقد الأصل الأول منها، وكذلك كل ما نسخ عنها من القرن الثالث إلى القرن الخامس. وتروي الأساطير أن إحدى هذه النسخ ترجمت إلى الفارسية في القرن الرابع، إذ أرسل الملك العادل كسرى أنو شروان ملك الفرس الذي ورد ذكره في سيرة عنترة وسوف ترد له نوادر كثيرة فيما بعد، أرسل عالمه الأكبر برزويه إلى الهند ليتعلم الحكمة الهندية، وبعد سنوات عدة من الجهد الضائع، سأل برزويه ملك الهند إذا كان من الممكن أن يطلع على البانتشاتنترا. ولم يكن لها سوى نسخة واحدة حفظت وأغلق عليها بالقفل والمفتاح. وقال له الملك، إنه لن يستطيع أن يأخذها أو ينسخها، ولكنه يستطيع أن يأتي كل يوم ويقرأ فيها. وكان برزويه يحفظ ما يقرأه ويكتبه في المساء. ولما فرغ من قراءتها وكتابتها عاد إلى بلاد الفرس. وسواء تمت هذه العملية عن طريق برزويه أم لم تتم عن طريقه، فقد ظهرت ترجمة سريانية عن الفهلوية (اللغة الفارسية الوسيطة) في القرن السادس الميلادي، كما ظهرت ترجمة عربية في القرن

الثامن. وهذه الترجمة الأخيرة هي الأهم بالنسبة للعالم الغربي. وقد سميت كليلة ودمنة نسبة إلى ابني آوى اللذين يحكيان الحكايات في البانتشاتنترا.

ومع انتشار الإسلام، انتقلت هذه النسخة العربية إلى الشرق حيث اختلطت بالحكايات التي كانت موجودة آنذاك، وإلى الغرب حيث ترجمها بالدو إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر، ثم ترجمت إلى الإسبانية في القرن الثالث عشر، ثم أعيدت ترجمتها في هذا القرن إلى اللاتينية بقلم جون كابوا تحت اسم دليل حياة الإنسان، حيث اندرجت في التيار الرئيسي لدائرة الحكايات الوعظية والأدب الشعبي، ثم انتشرت بعد ذلك في كل مكان، على الأقل في أوروبا، في الفولكلور والأدب.

ويهمنا أن نذكر الأعمال التي أخذت عن كليلة ودمنة، وهي تتضمن المجموعة اليونانية خرافات إيسوب (القرن الثالث عشر)، وديكاميرون الإيطالية من القرن الرابع عشر، ثم حكاية الوزراء الأربعين التركية، ثم مآثر الرومانيين من القرن الخامس عشر. وفي إنجلترا ظهرت فلسفة دوفي الأخلاقية في القرن السادس عشر. وكذلك أنوار كانوبس في القرن التاسع عشر. وتعد هذه الأعمال من سلالات كليلة ودمنة أكثر من أن تكون مستعارة منها، فهي تعكس استمراريتها في الإنجليزية والتغييرات المحيرة التي اعترت عنوانها.

2 ـ الحلم

ويحكى كذلك أن رجلا في بغداد كان يمتلك ثروة طائلة وغنى وافرا. ولكنه فقد ثروته فيما بعد، وسرعان ما تغير حاله وأصبح معدوما إلى حد أنه لم يكن يستطيع أن يحصل على ما يقيم أوده إلا بمشقة بالغة. ونام ذات ليلة وهو حزين مهموم، فرأى في منامه شخصا يقول له: إن حظك من دون ريب في القاهرة، فاذهب وابحث عنه وأصلح به حالك. فشدّ الرجل الرحال إلى القاهرة. وعندما وصلها كان الليل قد حل، فبات في مسجد، وشاءت مشيئة اللّه، تعالى اسمه، أن دلفت جماعة من اللصوص إلى المسجد قاصدة البيت المجاور. واستيقظ أصحاب البيت على حركة اللصوص ورفعوا أصواتهم بالصراخ، مما جعل الوالي يخف إلى نجدتهم مع أتباعه، ولكن اللصوص كانوا قد هربوا من البيت. عندئذ دخل الوالي المسجد حيث وجد

الرجل البغدادي نائما هناك، فأمسك بخناقه وانهال عليه ضربا حتى أشرف الرجل على الموت، ثم أخذه في الحبس.

وظل الرجل في السجن ثلاثة أيام، وبعدها استدعاه الوالي وسأله: من أي البلاد أنت؟ فأجاب: من بغداد. فسأله: وما السبب الذي دعاك للحضور إلى القاهرة؟ فأجاب: «لقد رأيت في منامي من يقول لي: إن حظك من دون ريب في القاهرة، فأسرع إليه. وعندما جئت إلى القاهرة وجدت حظي في تلك الصفعات التي نلتها منك».

وعندئذ ضحك الوالي ملء شدقيه حتى بانت أسنانه وقال له: يا قليل العقل، لقد رأيت في منامي ثلاث مرات رجلا يقول لي، يوجد في بغداد من دون ريب منزل في حيّ كذا وأوصافه كذا، وله حديقة في فنائه، تقع في نهايتها نافورة يستقر فيها ثروة بكميات طائلة، فأسرع إليها وخذها. ولكنني لم أذهب. وأنت تسافر، بسبب قلة عقلك، من بلد إلى بلد بسبب رؤيا ولم يكن هذا سوى أضغاث أحلام.

ثم أعطاه بعض النقود، وقال له: أعن نفسك بها حتى تعود إلى بلدك. فأخذها الرجل وعاد إلى بغداد. ولم يكن البيت الذي وصفه الوالي له سوى بيت ذلك الرجل. فلما وصل إليه أخذ يحفر أسفل النافورة حيث عثر على الكنز. وبهذا أغناه اللّه وآزره، وكان ذلك عن طريق المصادفة العجيبة»[4].

وهذه حكاية ذاعت وانتشرت على نطاق واسع، وعرفت في أوروبا قبل جالاند وترجمته لألف ليلة وليلة بزمن طويل. وقد جمعت في بريطانيا منذ ذلك الوقت، وظلت تجمع حتى العصر الحديث. وتحكي الروايات الإنجليزية عن بائع يدعى جون شابمان أو جون رول، رأى في منامه كنزا يقع في حديقة البائع نفسه التي تختلف أماكنها حسب الروايات، فهي تقع في سوافهام في نورفولك: أو في لونكستون في كورنوال، أو في بسال في يوركشاير. وذهب البائع وحفر في حديقته واستخرج الكنز. وهناك إضافة لهذه الحكاية، وهي أن الكنز كان في داخل صندوق به كتابة باللغة اللاتينية تقول عند ترجمتها: «تحتي تجد شيئا أثمن مني». أو كلمات تحمل هذا المعنى. وأخذ البائع يحفر مرة أخرى حتى عثر على كنز أكبر بكثير من الكنز الأول.

وفي رواية منقحة حكيت في مقاطعة كبرى في أيرلندا في حوالي سنة

1950، ويدعى البطل كذلك جون أوّ شون حسب التسمية الأيرلندية. ويعرف كذلك بجاك أو جاك الفقير صاحب شجرة الشوك. أما الجسر فيقع في ليميريك. وفي هذه الحكاية، يسأل رجل جاك عن سبب سيره على الجسر جيئة وذهابا لمدة ثلاثة أيام، وحكى له جاك شون عن الموضوع. فرد عليه الرجل قائلا: «آه أيها المسكين الغبي لا تضيع وقتك في الوهم. لقد حلمت أنا كذلك بكنز يفترض أنه مخبأ في مزرعة صغيرة تقع في مقاطعة كيري، وأسفل أجمة من أشجار البيضاء خلف بيت يملكه رجل يدعى جاك المسكين صاحب شجرة الشوك. ولا أعتقد أن هناك رجلا بهذا الاسم. ورحل جاك شون إلى بيته، وأخذ يحفر حتى استخرج الكنز. ثم ترجم له طالب فقير فيما بعد النص اللاتيني الذي قاده إلى الكنز الثاني. وبذلك أصبح شون أغنى رجل في مقاطعة كبرى[5].

وفي هذه الحكاية تتمثل الفلسفة الشرقية، وهي أن الإنسان يسير حيث ترسله إرادة الله؛ فما يظن أنه المكان الخطأ، يكون في الحقيقة خطوة للمكان الصحيح. وهكذا كان مكان اللقاء في سامراء في حكاية الحلم السالفة التي يستمتع فيها القارئ بمحاضرة الموظف المسؤول الذي يدعي العلم بكل شيء، وتأتي في النهاية مطعمة بالطرفة، إذ تنتهي بأن يضحك القارئ أو المستمع عليه هو نفسه.

3 ـ التاجر والمحتالان:

كان هناك في بلدة تسمى سندة تاجر غني كان قد رحل إليها بعد أن جهز بضاعته على أمل أن يبيعها في هذه البلدة. وهناك تبعه محتالان أخذا يجمعان البضائع التي يمكن أن يشترياها منه في أكياس، وأوهماه أنهما تاجران مثله، ومن ثم ظلا مرافقين له في الطريق. ثم اتفقا فيما بينهما عند أول مكان توقفا فيه بمفردهما، على أن يحتالا عليه ليسرقا منه بضاعته. وفي الوقت نفسه، أضمر كل واحد منهما أن يحتال لسرقة الآخر، وقال كل في نفسه: «إذا استطعت أن أخدع زميلي فسيكون ذلك في مصلحتي لأنني سأفوز بالغنيمة كلها لنفسي». وبناء على ذلك أخذ كل منهما على حدة طعاما ووضع فيه السم وقدمه لرفيقه. ثم أكل كل منهما الطعام المسموم فماتا معا. فلما طال غيابهما عن التاجر، وكانا يجلسان ويتحدثان

معه، خرج ليبحث عنهما فوجدهما ميتين. وعندئذ علم أنهما محتالان احتالا عليه لخداعه، ولكن خدعتهما ارتدت إليهما. وبهذا نجا التاجر من مكرهما واسترد ما أخذاه منه[6].

إن المثال الكلاسيكي الموازي لهذه الحكاية هو حكاية تشوسر، حكاية القس، ولكن النموذج الأقدم كتابة يقع في كتاب «جاتاكا» أو «حكايات ميلاد بوذا»، ويرجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد. وبهذا تكون الحكاية دخلت مبكرا في تيار الحكايات الشعبية في الشرق الأوسط ومنها وصلت إلى أوروبا. ونجد معالجات حديثة للحكاية في كتاب كبلنج، كتاب الأدغال الثاني، وفي كتاب جاك لندن «عندما تضحك الآلهة»[7] وحكاية الجزاء العادل، وفي كتاب روبرت م كوتس بعنوان صيد الشتاء، حيث تحل بوليصات تأمين لشريكين مستفيدين منها بالتبادل فيما بينهما محل البضائع، كما تحل البندقية وبلطة كسر الثلج محل السم[8]. أما الرواية الأكثر انتشارا بطبيعة الحال، فهي نص الفيلم الذي عرض في عام 1948 تحت عنوان كنز سيرا فادري الذي أخذ عن رواية نشرها ب. تراڤن (1927)، وهو بولندي يكتب بالألمانية. وفي هذه الرواية عثر ثلاثة من المغامرين على ذهب خام وأسر الهنود أحدهما، فخطط الآخران للفوز بنصيبه. ثم أطلق الشرير منهما النار على رفيقه. ولكن هذا الشرير قتله قطاع الطرق واستولوا على الذهب الذي معه ولكنهم ظنوا أنه رمل فبعثروه. وفي كل هذه الأحوال، سواء كانت الحكاية تشمل ثلاثة أشخاص أو أكثر، فإنها لا تحتاج إلا إلى شخصين لإتمام حبكتها. أما الشخص الثالث، وإن يكن الشخص البريء الذي يحصد الغنيمة، فإنه يكون فائضا عن البحكة وكذلك المكافأة.

على أن رواية تشوسر تحتوي على شخصية أخرى هي شخصية الرجل العجوز؛ فقد طلب إليه المعربدون الثلاثة الذين كانوا يسعون إلى قتل الموت لكي يقضوا على الوباء، أن يقودهم إلى الموت. ففعل ذلك بأن أرشدهم إلى شجرة بلوط ترقد تحتها العملات الذهبية المشؤومة. ويقترب تشوسر في هذه الجزئية كثيرا من النص العربي المشابه له؛ ففي نص تشوسر حذر عيسى (يسوع) أتباعه من أن العثور على الذهب في مكان منعزل سوف يتسبب في قتل المسافرين الثلاثة. وقد تلا هذا القتل المتبادل. ولكن عيسى (يسوع) أعاد إليهم الحياة. وقد انتقل هذا الموضوع بصفة خاصة عن الرجل

المقدس الذي يرشد إلى الذهب، ويحذر في الوقت نفسه من الموت، انتقل إلى إيطاليا وظهر في قصص النوفيلا وفي مسرحية قديمة عن معجزات للقديس أنتوني[9]. وربما ارتكز تشوسر في حكايته هذه على أصول شفاهية لهذه الحكاية الشائعة. على أنه يعتقد أن هناك مجموعة إيطالية واحدة على الأقل قد كتبت في القرن الثالث عشر، وهي قديمة قدما كافيا لأن تكون جسرا أدبيا من الشرق الأدنى إلى حكاية تشوسر.

4 ـ المودعون المتضامنون[*4]:

«اشترك أربعة من التجار في ألف دينار وقد خلطوها بينهم، وجعلوها في كيس واحد، وذهبوا بها ليشتروا بضاعة، فلقوا في طريقهم بستانا حسنا، فدخلوه، وتركوا الكيس عند حارسة ذلك البستان، وقالوا لها، لا تدفعي هذا الكيس إلا إذا حضرنا جميعا. فلما دخلوا توجهوا إلى ناحية من البستان، وأكلوا، وشربوا، وانشرحوا. فقال واحد منهم. أنا معي طيب، تعالوا نغسل رؤوسنا في هذا الماء الجاري ونتطيب. وقال آخر: نحتاج إلى مشط. وقال آخر: نسأل الحارسة لعل أن يكون عندها مشط. فقام واحد منهم إلى الحارسة وقال لها: ادفعي الكيس. فقالت له: حتى تحضروا كلكم أو يأمرني رفقاؤك أن أعطيك إياه. وكان رفقاؤه في مكان بحيث تراهم الحارسة وتسمع كلامهم. فقال الرجل لرفقائه. ما هي راضية أن تعطيني شيئا. فقالوا لها: أعطيه. فلما سمعت كلامهم أعطته الكيس، فأخذه الرجل وخرج هاربا منهم. فلما أبطأ عليهم جاءوا إلى الحارسة وقالوا لها: مالك لم تعطه المشط؟ قالت لهم: ما طلب مني. وقالت لهم: ما طلب مني إلا الكيس ولم أعطه إياه إلا بإذنكم، وخرج من هنا إلى حال سبيله. فلما سمعوا كلام الحارسة لطموا على وجوههم وقبضوا عليها، ودفعوها إلى القاضي فلما حضروا بين يديه، قصوا عليه القصة، فألزم الحارسة بالكيس وألزم بها جماعة من غرمائها. وخرجت الجارية وهي حيرانة لم تعرف طريقا، فلقيها صبي له من العمر خمس سنوات، فلما رآها الغلام وهي حيرانة، قال لها مابالك يا أماه، فلم ترد عليه جوابا، واستحقرته لصغر سنه. فكرر عليها الكلام أولا وثانيا وثالثا. فقالت له: إن جماعة دخلوا عليّ البستان ووضعوا عندي كيسا فيه ألف دينار، وشرطوا عليّ ألا أعطى أحدا

الكيس إلا بحضورهم كلهم، ثم دخلوا البستان يتفرجون ويتنزهون فيه. فخرج واحد منهم وقال لي أعطني الكيس، فقلت له: حتى يحضر رفقاؤك. فقال لي: قد أخذتُ الإذن منهم. فلم أرض أن أعطيه الكيس. فصاح على رفقائه، وقال لهم، ما هي راضية أن تعطيني شيئا فقالوا لي: أعطيه. وكانوا بالقرب مني فأعطيته الكيس، فأخذه وخرج إلى حال سبيله. فاستبطأه رفقاؤه، فخرجوا إليّ وقالوا: لأي شيء لم تعطه المشط؟ فقلت لهم: ما ذكر لي مشطا وما ذكر لي إلا الكيس فقبضوا عليّ ودفعوني إلى القاضي وألزمني بالكيس. فقال لها الغلام أعطيني درهما أشتري به حلاوة، وأنا أقول لك شيئا يكون فيه الخلاص. فأعطته درهما وقالت له: ما عندك من القول؟ فقال لها الغلام: ارجعي إلى القاضي وقولي له: كان بيني وبينهم أني لا أعطيهم الكيس إلا بحضورهم الأربعة. قال، فرجعت الحارسة إلى القاضي وقالت له ما قاله لها الغلام. فقال لهم القاضي: أكان بينكم وبينها هكذا؟ قالوا: نعم، فقال لهم القاضي: أحضروا إليّ رفيقكم وخذوا الكيس. فخرجت الحارسة سالمة ولم يحصل لها ضرر وانصرفت إلى حال سبيلها»[10].

ومن الغريب حقا، أن هذه الحكاية حكيت عن Attorney General Noy في عهد حكم جيمس الثاني، وفيها يرد رعاة الماشية بدلا من التجار، وحارس الخان بدلا من حارسة الحديقة. أما الذي يبلغ من العمر خمس سنوات، فهو وليام نوي الذي عمل محاميا في بداية عمله، وأصبحت له سمعة طيبة كما يرد في هذه الحكاية. وربما كان هذا صحيحا. وربما لم يكن، فليس لدينا أي مصدر معتمد غير هذه المجموعة من النوادر. لكن الطريف أن نجد حكاية دائرة كهذه، تبحث عن أصل بعيدا عن موطنها (Asiatic Journal N.S. Vol. xxx p.230 .).

5 ـ عدالة الملك أنو شروان

يحكى أن الملك أنو شروان خشي على نفسه من المرض، فأمر حاشيته وأتباعه أن يتجولوا في الأقاليم في مملكته، وفي الضواحي، ليبحثوا له عن حجر متعفن بين حطام قرية، ليستعمله دواء، مدعيا أن أطباءه وصفوه له. فخرج رجاله وتجولوا في جميع الأقاليم وفي كل البلاد التي تقع في مملكته، ثم عادوا، وقالوا له: «لم نجد في مملكتك أي مكان متهدم. ولم نجد حجارة

قديمة متعفنة».

عندئذ سعد الملك، ووجه الشكر للّه وهو يقول: «إنني قصدت أن أتأكد من حال مملكتي وأختبر أحوال إمبراطوريتي، وذلك بأن أعرف ما إذا كان يوجد بها مكان خرب أو مهجور فيها يمكنني إعادة العمار له. ولكن حيث إنه ليس هناك مكان غير مأهول، فإن هذا يعني أن أحوال المملكة منظمة للغاية وعلى أتم وجه، وأن الرخاء فيها قد وصل إلى حد الكمال[11].

هناك رواية غريبة من حكايات الحياة اليومية شبيهة بهذه الحكاية. ويحكى فيها أن ملكا طيبا (لا يذكر اسمه) كان يبحث عن زوجة. فأعلن أن خادمه سيقود الجواد الملكي ويتجول به في أنحاء البلاد، ويسأل كل فتاة تقابله عما إذا كان لديها بقية من عجين لتطعم الجواد. ولما كان موضوع الزواج بالملك مثيرا للفتيات، فقد أخذت كل فتاة تنافس الأخرى في تقديم أكبر قدر من العجين. ثم وصل الخادم بطريق المصادفة إلى بيت ريفي صغير، حيث صرخت الفتاة التي تسكنه وقد تورد وجهها، أنها لا تمتلك بقايا من العجين، لأنها استخدمته كله في الخبيز. ولما سمع الملك ما قالته الفتاة، قال: هذه عروسي. وفي رواية مصدرها ولاية نورث كارولينا (1928) تحت عنوان «البحث عن زوجة» استبدل بالملك رجل عادي[12].

وجدير بالذكر أن هناك حكاية أخرى لأنو شروان في ألف ليلة وليلة، ترتبط بهذه الحكاية على نحو ما.

وتقول الحكاية[*5]:

«ومما يحكى أن الملك العادل كسرى أنو شروان ركب يوما إلى الصيد، فانفرد عن عسكره. فبينما هو ساع خلف ظبي، رأى ضيعة قريبة منه، وكان قد عطش عطشا شديدا، فتوجه إلى تلك الضيعة وقصد دار قوم في طريقه، فطلب ماء ليشرب، فخرجت له صبية، فأبصرته ثم عادت إلى البيت وعصرت له عودا واحدا من قصب السكر، ومزجت ما عصرته منه بالماء ووضعته في قدح، ووضعت عليه شيئا من الطيب يشبه التراب، ثم سلمته إلى أنو شروان. فنظر في القدح فرأى فيه شيئا يشبه التراب، فجعل يشرب منه قليلا حتى انتهى إلى آخره. ثم قال للصبية: أيتها الصبية، نعْم الماء ما أحلاه، لولا ذلك القذى الذي فيه، فإنه كدّره. فقالت الصبية أيها الضيف، أنا عمدا ألقيت فيه هذا القذى الذي كدّره. فقال الملك: ولم فعلت

ذلك؟ فقالت لأني رأيتك شديد العطش، وخفت أن تشربه نهلة واحدة، فيضرَّ بك. فلو لم يكن فيه قذى لكنت شربته بسرعة نهلة واحدة، وكان يضرك شربه على هذه الطريقة. فتعجب الملك العادل أنو شروان من كلامها وذكاء عقلها وعلم أن ما قالته ناشئ عن ذكاء وفطنة وجودة عقل. فقال لها: من كم عود عصرت ذلك الماء، فقالت: من عود واحد. فتعجب أنو شروان وطلب جريدة الخراج الذي يُحَصل من تلك القرية، فرأى خراجها قليلا، فأضمر في نفسه أنه إذا عاد إلى تخته يزيد في خراج تلك القرية، وقال قرية يكون في عود واحد منها هذا الماء، كيف يكون خراجها هذا القدر القليل؟ ثم انصرف عن تلك القرية إلى الصيد. وفي آخر النهار رجع إليها واجتاز على ذلك الباب منفردا وطلب الماء ليشرب فخرجت تلك الصبية بعينها فرأته فعرفته. ثم عادت لتخرج له الماء، فأبطأت عليه فاستعجلها أنو شروان وقال: لأي شيء أبطأت؟ فقالت له لأنه لم يخرج من عود واحد قدر حاجتك فعصرّت ثلاثة أعواد، ولم يخرج منها ما كان يخرج من عود واحد. فقال الملك أنو شروان: وما سبب ذلك؟ فقالت: سببه أن نيَّة السلطان قد تغيرت. فقال لها: من أين جاءك؟ قالت: سمعنا من العقلاء أنه إذا تغيرت نية السلطان على قوم زالت بركتهم وقلّت خيراتهم. فضحك أنوشروان وأزال من نفسه ما كان أضمر لهم عليه، وتزوج بتلك الصبية حالا حيث أعجبه فرط ذكائها وفطنتها وحسن كلامها»[13].

والموضوع الرئيسي في كل هذه الحكايات هو التوحد بين الملك ومملكته، كما يتضح في المثال الأخير. فالحجر المتعفن وفتات العجين علامات على العوز، وعلى الرغم من التظاهر بأن الملك أو جواده في حاجة إليها، فإن غيابها يكون مدعاة للبهجة والمكافأة.

6 ـ كسرى وشيرين مع الصياد

كان الملك خسرو، ملك الفرس، يحب أكل السمك. وذات يوم عندما كان جالسا في صالونه هو وزوجته شيرين، جاءهما صياد يحمل معه سمكة كبيرة، فقدمها للملك الذي كان سعيدا بها، ومن ثم أمر للصياد بأربعة آلاف درهم. وعندما رحل الصياد، قالت شيرين للملك: لقد أسأت التصرف، فأجابها الملك «علام أسأت التصرف؟» فأجابت: «لأنك إذا أعطيت مبلغا

مماثلا لأحد رجال حاشيتك فسوف يحتقره ويقول: إنه لم يعطني سوى المبلغ الذي أعطاه للصياد. فإذا أعطيته أقل منه فسوف يقول: إن الملك يستهزئ بي لأنه أعطاني أقل مما أعطى الصياد». وأجابها كسرى: إنك على حق، ولكن الموضوع قد انتهى وسوف يسوؤني أن أرجع عن كلمتي. وردت شيرين قائلة بل إنك ستفعل، وسوف أخبرك بوسيلة تسترجع بها أموالك منه. فسألها. وكيف يكون ذلك؟ فقالت: استدع الصياد مرة أخرى، واسأله عما إذا كانت السمكة ذكرا أم أنثى؟ فإذا أجاب بأنها ذكر، قل له: كنا نريدها أنثى. وإذا قال: إنها أنثى، فقل له: كنا نريدها ذكرا.

فأرسل الملك في طلب الصياد الذي كان يتمتع بسرعة البديهة وحسن الفطنة وقال له: هل السمكة التي أهديتها لي ذكر أم أنثى؟ فقبّل الصياد الأرض وقال: «إن السمكة خنثى، فلا هي ذكر ولا هي أنثى. وضحك الملك وأمر له بأربعة آلاف درهم أخرى. وذهب الصياد إلى الخازن وتسلم منه ثمانية آلاف درهم، ووضعها في حقيبة كانت معه وطرح الحقيبة وراء ظهره. وبينما كان يستعد للعودة إلى بيته سقط منه درهم. وعندئذ وضع الحقيبة عن ظهره وانحنى ليلتقط الدرهم. وكان الملك وزوجته شيرين يرقبان الرجل. فقالت الزوجة: «أيها الملك، هل لاحظت بخل الرجل وشراهته؟ فقد أبى إلا أن ينحني ويلتقط درهما واحدا ولم ترض نفسه أن يتركه لأحد خدام الملك». وعندما سمع الملك هذا الكلام صار غاضبا من الصياد وقال لزوجته: «إنك على حق، يا شيرين». واستدعى الصياد مرة أخرى وقال له: «أيها الرجل القليل العقل. إنك لست برجل. كيف يتسنى لك أن تضع الحقيبة الملأى بالنقود عن ظهرك، وتنحني وتلتقط درهما، وأبيت على نفسك أن تتركه حيث هو؟» وقبل الصياد الأرض أمام الملك وأجاب: «أطال اللّه عمر الملك. إنني حقا لم ألتقط الدرهم لقيمته في نظري، بل لأن صورة الملك مرسومة في وجه منه واسمه منقوش في الوجه الآخر. وقد خفت أن تطأ قدم على الدرهم، وعندئذ إما أن تهين الاسم أو الصورة وأكون أنا السبب في هذه الإهانة». وتعجب الملك من سرعة بديهته وحسمه للإجابة في ثقة، وأمر له بأربعة آلاف درهم ثالثة. وأكثر من هذا فقد أمر أن ينادى في المملكة: أنه لا ينصح أحدا بأن يخضع لمشورة امرأة، لأن من يتبع نصيحتها يفقد إلى جانب الدرهم الواحد، درهمين آخرين[14].

كان الملك كسرى حفيد أنو شروان، وهو الملك العادل الذي كان يحكم عندما ولد الرسول عليه السلام. وكان هو «الملك الشمس» في الشرق، وكان اسمه مرادفا لكل ما هو عظيم وطيب في المملكة، ثم اغتصب عمه العرش منه، لكنه استطاع بمساعدة موريس الإمبراطور الإغريقي في الشرق أن يسترد عرشه، وتزوج من ابنته وكانت تدعى إيرين، ولكنها كانت تعرف بشيرين (أي الحلوة)، وقد تغنى بجمالها الشاعر نظامي. وفي الواقع تسمى هذه الحكاية عادة «لا تأخذ بمشورة النساء» أما في حكايتنا فإن الزوجين رفيعي القدر، قُدّما في ضوء عادي شحيح وتشكلا وفقا للأخلاقيات المتوارثة. وشرف ظهور صورة الملك على العملة له ما يوازيه في إنجلترا، حيث تحمل كل طوابع البريد صورة رأس الملك. ولا يجوز احتراما للملك، أن يلصق طابع البريد مقلوبا.

أما فيما يختص بالعزوف عن مشورة النساء، فهو تحذير مطروق في النصائح الشرقية ومرتبط بكثير من الحكايات الشارحة لهذا الموضوع، وحكايتنا هذه ليست سوى واحدة من هذه الحكايات. وفي حكاية أخرى أكثر شيوعا، يمني رجل نفسه بأن يفوز برضاء حاكم محلي بأن يحضر إليه سلة مملوءة بالفاكهة. فلما سأل الملك زوجته أي فاكهة تختار، اقترحت عليه الرمان، وعلى أساس مبدأ رفض أي نصيحة من المرأة، طلب من الرجل أن يحضر له التين. ولما حمل الرجل التين إلى الملك وهو فاكهة رخيصة، قابلته حاشية الملك وسخروا منه ورموه به. ولكن الرجل عزّى نفسه قائلا: حمدا للّه أنه لم يكن رمانا.

7 ـ حكاية القاضي الذي ولد بنتا

كان في أيام حكم هارون الرشيد قاض على مدينة طرابلس في سورية، وكان يمارس عمله بقسوة اشتهر بها. وكانت خادمته الوحيدة، بل المرأة الوحيدة في جريمة جارية سوداء مثل عجل البحر. أما عن بخل الرجل فكان مساويا في قسوته، قسوة أحكامه. لعنة الله عليه! فعلى الرغم من ثرائه الفاحش، كان يعيش على الخبز المقدد والبصل. وكان بخله يسير كذلك جنبا إلى جنب مع التباهي بكرمه. فإذا زاره جار في وقت تناول وجبة الطعام، نادى على جاريته السوداء وقال: ابسطي المفرش ذا الأهداب الذهبية!

على أنه لم يحدث أن دعا شخصا لتناول الطعام بعد ذلك. وبدلا من أن يصبح المفرش ذو الأهداب الذهبية علامة على السخاء، أصبح مضرب الأمثال في البخل، بحيث إن من يواجه بخدمة سيئة في حفل يقول: لقد أكلت على مفرش القاضي ذي الأهداب الذهبية. وسوف ترى أن هذا الرجل العجوز البائس الذي أعطاه الله الغنى والشرف معا، كان يعيش عيشة تمرض الكلب الجائع. أحرقه الله في جهنم!

وذات يوم قال له جماعة من الناس الذين شاءوا أن يؤثروا عليه في إصدار حكم في مصلحتهم: «يا سيدنا، لماذا لا تتخذ زوجة لك؟ إن الجارية السوداء لا تليق بك». فرد القاضي قائلا: ومن الذي يأتيني بزوجة؟» وأجاب أحدهم: عندي ابنة رائعة الجمال. وهي خادمتك التي يشرفها كل الشرف أن تأخذها إلى بيتك». وقبل القاضي عرضه في الحال، وتم الزواج على الفور وحملت الزوجة إلى بيت الزوج في المساء. ولما كانت الزوجة كتومة وطيبة، فقد عزمت عن أن تبدي دهشتها لعدم تقديم الطعام للمدعوين، بل إنها أبت أن تلمح بذلك. وظل الضيوف والشهود منتظرين بعض الوقت على أمل أن يقدم الطعام، ولكن لما وجدوا أن نار المطبخ لم توقد أصلا، عادوا إلى بيوتهم وهم يلعنون بخل الزوج.

وبدأت الزوجة الشابة تشعر بالجوع عندما سمعت الزوج ينادي على الجارية السوداء أن تبسط المفرش ذا الأهداب الذهبية. ولما كانت قد تعودت على الطعام الوفير الفاخر في بيت أبيها، فقد تحركت في شغف بمجرد أن بسط المفرش لتكتشف أن الطبق الوحيد كان يحتوي على ثلاث قطع من الخبز المقدد وثلاث بصلات. وأبدت المرأة دهشتها، أما القاضي فقد أخذ قطعة من الخبز وأعطى مثلها للجارية وطلب من الزوجة أن تأكل نصيبها، وقال لها: احمدي الله على نعمه! ثم ابتلع نصيبه في شراهة بالغة، كما ازدردت الجارية وجبتها في فم واحد، إذ كانت الوجبة الأولى في هذا النهار. أما عن الزوجة سيئة الحظ، فعلى الرغم من طيبتها، فلم تستطع أن تزدرد هذا الطعام الذي وصل إلى أقصى حد من الفظاعة. فتركت المنضدة وصامت عن الطعام وهي تنعى حظها الأسود. ومضت ثلاثة أيام على ذلك كان المفرش ذو الأهداب الذهبية يبسط فيها كل يوم، ويوضع فوقه الخبز الأسود والبصل التعيس. وفي اليوم الرابع، سمع القاضي صراخا صادرا

من عند الحريم، فذهب ليستطلع الأمر، فإذا بالجارية السوداء تقابله وتقول له إن سيدتها ثارت على حياتها في البيت وذهبت إلى أبيها.

وراح القاضي وأرجع زوجته إلى البيت وهناك أخذ يلعنها وعيناه يشع منهما شرار الغضب، واتهمها بالإغواء، وقص لها شعرها بالقوة ثم طلقها طلقة بائنة، وطردها إلى الشارع وأغلق الباب وراءها في عنف. لعن الله هذا الرجل الوضيع العجوز!

وبعد أيام قليلة، وجد هذا البخيل ابن البخيل زوجة ثانية، وكانت ابنة لرجل شاء أن يكون على علاقة طيبة به. وتزوج الرجل مرة ثانية. ولكن الفتاة المسكينة، بعد أن مر عليها ثلاثة أيام تأكل فيها البصل، ثارت عليه وطلقها. ومع ذلك فإن ما حدث في هاتين المرتين، لم يلقن الناس درسا، هؤلاء الذين كانوا يخطبون وُدَّ هذا الرجل المزعج، إذ إنه تزوج بعد ذلك كثيرا من الفتيات وعاملهن نفس المعاملة، وكان يطرد كلا منهن بعد الزواج بأيام لأنها لم تحتمل البصل والخبز المقدد. ولكن حان الوقت الذي أحدث طلاق القاضي لزوجاته صدى قويا خارج بيته، ثم أصبح هذا الموضوع مادة الحديث بين الحريم. فاجتمعت العقيلات وأصدرن حكمهن بأن هذا الرجل البخيل لا يصلح لأن يكون زوجا.

ولما لم يجد القاضي من يتزوج بها بعد ذلك، بدأ يتعذب بثروة أبيه. وكان كثيرا ما يتجول لإخماد ثورة عذابه. وذات مساء، رأى امرأة تقترب منه ممتطية صهوة جواد رمادي اللون. وأُخذ الرجل كثيرا بثراء ملابسها، وتملكه الإحساس بإمكانية الاقتراب منها، فلوى الأطراف الحزينة لشنبه، وانحنى أمامها في احترام وهو يسألها: «من أين أنتِ آتية أيتها السيدة النبيلة؟» وردت المرأة قائلة: «من هذا الطريق». وأجاب القاضي بضحكة خافتة «أعلم هذا، أعلم هذا، ولكن من أي بلد؟». قالت: «من الموصل». وسأل القاضي: وهل أنت متزوجة أم عزباء؟» فأجابت: «إني عزباء». فقال: «هل ترغبين في أن تكوني زوجة؟ إنني سأتفق معك على أن أكون زوجا لك». عندئذ قالت له المرأة: «فلتخبرني أين تقيم وأنا سأبلغك قراري غدا». وأخبرها القاضي بمحل سكنه، وكانت تعرفه من قبل. وعندئذ تركته بنظرات ساحرة من جانب عينيها.

وفي صباح اليوم التالي، أرسلت رسالة إلى القاضي تقول له فيها، إنها

موافقة على أن تتزوجه، إذا ما تسلمت منه خمسين دينارا. وعاش الرجل البائس صراعا مع نفسه، ولكنه أرسل لها الخمسين دينارا، ثم طلب من الجارية السوداء أن تحضر الفتاة إليه، ثم عقد القران في حضرة الشهود وانصرف الشهود بعد ذلك.

وفي الحال نادى القاضي على الجارية، وقال لها: ابسطي المفرش ذا الأهداب الذهبية. وعندما وُضع الصحن وفيه ثلاث قطع من الخبز المقدد وثلاث بصلات، أخذت العروس الجديدة نصيبها، وأكلته بشهية، وقالت: إنني أشكر الله لهذه الوجبة الرائعة. ثم ابتسمت في امتنان إلى القاضي فقال لها متهللا: «وأنا أحمد الله أن أرسل إليّ بكرمه امرأة كاملة، تقتنع اليوم، بكل تعقل، بالقليل وفي الغد بالكثير. ولم يدر الخنزير الأعمى، المصير الذي يدبره العقل الماكر للمرأة الجميلة.

وفي صباح اليوم التالي، عندما خرج الزوج إلى الديوان، أخذت المرأة تفتش كل حجرات البيت، حتى وصلت إلى حجرة بابها مغلق بثلاثة أقفال كبيرة تدعمها ثلاثة دعامات حديدية. ولما نظرت خلال الثقب، تملكها الفرح عندما وقع بصرها على كنز الذهب والفضة الذي جمعه القاضي، وكان الكنز يطل من جرار نحاسية مفتوحة ملقاة على الأرض. ولما أصرت على استغلال هذا الكشف، أحضرت جريدة نخل ودهنت طرفها بمادة لزجة، ومررتها خلال الثقب ثم لَوَتْها لتدخلها في فم الجرة وبهذا أمسكت الجريدة بقطع من النقود فسحبتها، وهي تشعر بزهوة الانتصار. وعندما عادت إلى حجرتها، أعطت الجاريةالسوداء نقودا وقالت لها: «اذهبي إلى السوق واشتري لنا أقراصا مرشوشا عليها السمسم وبعض الأرز بالعصفر، وبعض لحم الضأن الطري، وفاكهة طازجة والفطائر التي تجدينها». وخرجت الجارية وقد تملكتها الدهشة، واشترت كل هذه الأشياء الرائعة لسيدتها التي أعطتها نصيبها منها. فصرخت المرأة العجوز المسكينة وهي تقول: «اللهم أنر عقلي، واجعل هذا السخاء يعود على بدنها سمنة بيضاء جميلة. إنني لم أتناول قط مثل هذه الأكلة». فردت عليها سيدتها قائلة: «وسوف تأكلينها كل يوم، إذا أنت التزمت الصمت ولم تذكري شيئا للقاضي» عندئذ قبلت الجارية يدها، ووعدتها بالكتمان التام. ولما عاد القاضي إلى البيت ظهرا نادى على زوجته وطلب منها أن تضع المفرش ذا الأهداب الذهبية.

ولكن الزوجة قدمت له بقايا الوجبة الرائعة، وأكل الرجل بشراهة حتى امتلأ. وبعد ذلك سأل عن مصدر هذا الطعام. فقالت له الزوجة: «سيدي العزيز، إن لي صداقات كثيرة في هذا البلد. وقد أرسلت لي إحدى صديقاتي هذه الأطباق. ولم أكن لآبه بها لولا أنني سعدت بمشاركتك». وسعد القاضي في قرارة نفسه لأنه تزوج مثل هذه الزوجة. وفي صباح اليوم التالي لم تكن حصيلة جريدة النخل أقل نجاحا من اليوم السابق، بحيث إن الزوجة كان في إمكانها شراء خروف محشو بالفستق، وغير ذلك من المأكولات الشهية. ثم دعت بعض جيرانها لتناول الغداء معها، وأخذ الجميع يستمتع بتناول الطعام حتى حانت ساعة عودة القاضي. وما إن خرج الضيوف، حاملين معهم الوعد بتكرار مثل هذه الزيارة التي تمت في هذا الصباح الممتع، حتى دخل القاضي، وطلب من الجارية أن تبسط المفرش ذا الأهداب الذهبية. ولما وجد القاضي أنه يقدم إليه طعام يفوق اليوم السابق في لذته، وتعدد أنواع لحومه، انتابه القلق، وسأل زوجته كيف حصلت على هذه الأطعمة الفاخرة. وردت المرأة التي كانت تقف بنفسها على خدمته في أثناء تناوله الطعام، دون تردد: «سيدي العزيز، لا تعط بالا بعد ذلك لغذائنا. إن إحدى عماتي أرسلت لي هذه الأطباق القليلة التافهة. وإني لسعيدة إذا كان سيدي قد شبع». ومرة أخرى هنأ القاضي نفسه بزواجه من هذه المرأة الأصيلة المدبرة. وصار يحشو نفسه بالأكل بأكبر طاقة عنده.

ومر عام على هذا الأسلوب في المعيشة. وفي نهايته أصبح القاضي ضخم الجثة منتفخ البطن إلى درجة أن أصبح مضرب الأمثال، فيقال ضخم مثل بطن القاضي أو عجيب مثل بطن القاضي. ولم يكن يدور بخلد هذا الغبي المسكين أن زوجته قد أقسمت أن تنتقم للفتيات البائسات اللاتي كان يجوّعهن ويذهب برونقهن ثم يرمي بهن خارج بيته، وسوف ترى كيف نفذت خطتها بمهارة.

وكان من بين الجيران الذين كانت ترعاهم بالأكل، زوجة حمّال محتاج وكانت حاملا وهي بالفعل أم لخمسة أطفال. وذات يوم قالت لها الزوجة المضيفة لها، «جارتي العزيزة، حيث إن الله قد أعطاك أسرة كثيرة العدد، ولم يعطك شيئا آخر إلا القليل، فهل ترغبين في أن تسلمي لي طفلك عند ولادته، فأرعاه، أنا العقيم، وأعده ابنا لي؟ وإذا وافقت وتعهدت بكتمان

الأمر، فسوف أعمل على أنك وأبناءك لا تذوقون مرارة الفقر بعد ذلك». وقبلت زوجة الحمال هذا العرض، ووعدت بكتمان الأمر كليا. وفي اليوم الذي حدده الله للولادة، ولدت زوجة الحمال ابنا حجمه ضعف حجم المولود العادي، وتسلمت زوجة القاضي هذا الابن من أمه.

وفي صباح هذا اليوم، أعدت الزوجة طبقا يحتوي على الفاصوليا والبازلاء واللوبيا، والعدس والكرنب والبصل والثوم وكل الحبوب المختلفة الثقيلة على المعدة، وخلطتها بالبهار. وكانت معدة القاضي الضخمة فارغة تماما عندما عاد لتناول وجبة الغداء، فظل يأخذ من هذا الخليط شيئا فشيئا حتى أتى عليه كله وقال لزوجته: «اصنعي لي هذا الطبق كل يوم. إن مذاقه جميل وسهل الانزلاق في البلعوم» وردت المرأة قائلة: «هنيئا مريئا لك».

وهنأ القاضي نفسه، كما فعل ذلك مرارا من قبل، على اختياره الرائع لهذه الزوجة. ولكن معدته بدأت بعد ساعة من تناول الطعام تنتفخ بشكل محسوس. وبدأت تُسمع من داخله أصوات مثل أصوات عاصفة تأتي من بعيد. ثم انتابته هزّة كما لو كانت صادرة عن هدير وهزات رعد من بعيد. وبدأ يتلوى على الأرض وهو يئن وقد أمسك بطنه بيديه، وهو يصرخ: يا الله يا الله، إن بداخلي عاصفة مفزعة، فمن يخلصني منها؟ وسرعان ما تحجرت بطنه وأصبحت مثل القرعة. وجاءت زوجته تجري على صراخه، فجعلته يبتلع مسحوق الينسون والشمر الذي يؤتي تأثيره سريعا. ثم أخذت، على سبيل مواساته وتشجيعه، تدعك له المكان وتربت عليه، كما لو كان طفلا صغيرا مريضا. وفجأة كفت عن الحركة بيدها وأطلقت صرخة مدوية: «أدركوني... إنها معجزة، معجزة. آه يا سيدي». ولوى القاضي وجهه بشدة وقال وهو يتلعثم: «ما الحكاية؟ وما هي المعجزة؟ ولكن الزوجة لم تزد على قولها: يوه ـ! يوه ـ! آه يا سيدي». وصرخ الرجل: «ما الحكاية؟» ومررت الزوجة يدها مرة أخرى على البطن الثائرة كالعاصفة، وأجابت: «باسم اللّه العليّ القدير! إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ! من ذا الذي يستطيع أن يكتشف سر أفعاله يا سيدي؟ «وقال القاضي لاهثا بين صرختين: «لعنك اللّه بسبب تعذيبك لي على هذا النحو، ما هي الحكاية؟ أخبريني في الحال». «فقالت زوجته: يا سيدي العزيز، إن أمره نافذ، إنك حامل في

طفل، وقد حان وقت الولادة».

ونهض القاضي عندما سمع هذه الكلمات العجيبة وصرخ، «هل جننت يا امرأة؟ كيف يمكن لرجل أن يحمل في طفل». وقالت الزوجة: «وحياة اللّه لا أعرف، ولكن هناك طفلا يتحرك في بطنك. إنني أحسه وهو يركل ويتحرك. صل على النبي يا زوجي». وأخذ القاضي يئن في اضطرابه ثم قال: «لتحل عليه إذن بركة اللّه».

وظلت آلامه تتزايد حتى سقط على الأرض وهو يصرخ من الألم المبرح، وفجأة جاء الفرج، لقد خرج منه صوت رعدي ممتد كاد يهز أساس البيت ودفع به في قوة إلى الأمام إلى درجة أن أغمي عليه. ثم أعقب ذلك عدة أصوات تخرج من بطنه ثم تخفت تدريجيا، ولكنها ظلت تتوالى ويسمع صداها في هذا الجو المتعب. وفي النهاية سمع انفجار يصم الآذان، ثم هدأ كل شيء.

وعندما أفاق القاضي، وجد بجانبه مرتبة وعليها وليد ملفوف في القماط وهو يصرخ ويعبس. وانحنت المرأة على الطفل، وهي تقول: «حمدا للّه ولرسوله لهذه الولادة السعيدة». وأخذت تتمتم بالأسماء المقدسة على رأس زوجها ورأس الطفل إلى أن اختلط الأمر على القاضي، وأصبح لا يعرف ما إذا كان يحلم أم أن متاعبه التي عانى منها وشيكا قد أدارت رأسه. ولكنه عندما بدأ يتدبر الأمر في هدوء، دفعه مرأى الطفل، والألم الذي تلاشى، ثم تذكره للعاصفة التي انطلقت من جوفه، كل هذا دفعه لأن يؤمن بهذا الميلاد المعجز، ثم إن عاطفة الأمومة دفعته لأن يقبل الطفل، وقال: «حقا إن الإله يخلق الناس وفقا لمشيئته، وحتى الرجل يمكن أن يحمل طفلا في الميعاد المناسب، إذا شاء اللّه ذلك. وعليك يا زوجتي العزيزة أن تبحثي للطفل عن مرضعة لترضع الطفل لأنني لن أستطيع إرضاعه»، وأجابت المرأة: «لقد فكرت في هذا الأمر، وعندي مرضعة تنتظر مع الحريم. ولكن أليس لبن الأم أفضل لبن للطفل؟ وهل أنت متأكد من أن ثدييك لم يتضخما».

وتحسّس الرجل ثدييه في شغف وقال: «لا، لم يحدث بهما شيء».

وسعدت المرأة بنجاح خطتها، وأخبرت القاضي بضرورة التزامه للسرير أربعين يوما وأربعين ليلة، أعطته في أثنائها الدواء اللازم لهذه الحالات، وربتت عليه إلى أن أغفى. ولما كان قد أرهقه المغص، فقد نام مدة طويلة.

وعندما استيقظ وجد جسمه وعقله متعبين.

وكان همه الأول أن يأمر زوجته بالسرّية التامة لهذا الموضوع، وقال لها: «سوف أضيع إلى الأبد إذا ما عرف الشعب أن القاضي قد ولد طفلا حقيقيا»، وبدلا من أن تصادق المرأة على قوله، أجابت: «لسنا وحدنا نعرف بهذه المعجزة السعيدة، بل إن الجيران جميعهم قد علموا بها عن طريق القابلة وإني أخشى أنه من الصعوبة بمكان أن نمنع الأخبار من أن تنتشر في أنحاء المدينة، تماما كما يصعب الإمساك بلسان القابلة في المقام الأول، إنهم جميعا ثرثارون».

وقضى القاضي الأربعين يوما في السرير في عذاب متواصل، ولم يكن يجرؤ على التحرك خوفا من مضاعفات ما بعد الولادة، وخوفا من حدوث نزيف. وكان يطيل التفكير طوال الوقت في هذه الحادثة المهولة. وقال في نفسه: «بكل تأكيد سوف يتهمني أعدائي بأشياء سخيفة، وسوف يقولون إنني تركت نفسي لأن أغتصب على نحو شاذ ويحق لي أن أكون قاسيا في الحكم على نفسي، بعد أن سلمت نفسي لمثل هذه الأعمال اللاأخلاقية الغريبة التي أدت إلى أن ألد طفلا. وحياة اللّه؛ إنني على يقين أنهم سوف يتهمونني باللواط، أنا قاضيهم الفاضل! لقد كدت أنسى كل شيء عن مهنتي».

وعلى هذا النحو، ظل القاضي يفكر وهو لا يعي إلا قليلا أن بخله كان السبب في كل هذه المصائب. وكان كلما تدبر أمره، تراءى له موقفه أشَد حُلكة ومدعاة للشفقة. وعندما أخبرته زوجته أنه يمكنه أن يترك الفراش دون خوف من مضاعفات الولادة، قام واستحم في البيت لأنه لم يكن يجرؤ أن يذهب إلى الحمام الشعبي. وأخيرا قرر أن يغادر مدينة طرابلس لأن هذا أفضل من أن يغامر بتعرف الناس عليه في الشوارع. فأخبر زوجته بعزمه على الرحيل وتظاهرت الزوجة بعميق الحزن من أنه مضطر لأن يهجر عمله الكبير. على أنها لم تفعل سوى أن ثبتت في عقله فكرة الهروب، وقالت له: «إن الألسن بكل تأكيد ستلوك سيرتك الآن، ولكن الأمر سينسى بسرعة بتركك المدينة. فإذا عدت فإنك تكرّس حياتك لتربية الطفل. وأعتقد أنه من الأفضل أن نسميه الطفل المعجزة فقال القاضي: «سمّه ما شئت». ورحل في جنح الليل من المدينة خلسة، تاركا زوجته في رعاية البيت

والطفل، واتخذ طريقه إلى دمشق.

ووصل القاضي إلى دمشق متعبا، ولكنه كان سعيدا بأنه ليس هناك من يعرف اسمه أو قصته. ومع ذلك، ففي غضون ساعات قليلة من وصوله، بدأ يسمع حكايته يرويها الناس بعضهم لبعض في الأماكن العامة في المدينة. وأكثر من هذا، فقد وجد أن كل راو جديد للحكاية يضيف بعض التفاصيل الجديدة ليثير الضحك عند المستمعين، وهو ينسب إلى القاضي صفات عضوية غريبة، ويستعمل كل صيغ ذلك الاسم التي لم يكن يجرؤ على أن ينطق بها حتى لنفسه. ولكن لحسن الحظ أن أحدا لم يكن يعرف وجهه، ولهذا كان قادرا على أن يمشي في طريقه دون أن يتعرف عليه أحد. ثم أصبح أكثر صلابة لأن يقف في الأمسيات ويستمع إلى قصته. وعندما سمع أنه اتهم بأنه لم يلد في الحقيقة ابنا واحدا بل أسرة كاملة، لم يتمالك نفسه من الضحك وتمتم: «ليقولوا ما شاء لهم ما داموا لا يعرفونني».

وعلى الرغم من أنه كان يعيش حياة أكثر بؤسا من ذي قبل، فإن ما دبره من المال نفد واضطر لبيع ملابسه ليشتري خبزا. وفي النهاية، عمل أجيرا عند بناء يحمل له مواد البناء، وذلك بدلا من أن يرسل رسالة لزوجته يخبرها فيها عن كنزه المختبئ.

ومضت السنون، وأصبح القاضي العجوز الذي كانت تتجمع حوله لعنات الناس في طرابلس في الأمسيات، أصبح هزيلا مثل قطة محبوسة في جرن. وفي النهاية لما تأكد أن السنين كفيلة بأن تُنسي قصته، ترك دمشق وعاد جلدا على عظم إلى بلدته. وعندما مر خلال بوابة المدينة أبصر مجموعة من الأطفال يلعبون معا، وسمع أحدهما يقول للآخرين: كيف تتوقع أن تكسب وأنت ولدت في السنة التي ولد فيها القاضي، القاضي الذي ولد ابنا؟ وتمتم القاضي في سعادة وقال: «أحمد اللّه أنه جعل حكايتي تنسى، فقد لاحظ أن هناك قاضيا آخر أصبح مثلا في فم الأطفال. فقد ذهب إلى الصبي الذي كان يتحدث وسأله: «من هو القاضي الذي تسميه الوالد الذي ولد طفلا؟» فرد الطفل قائلا: «إن هذا هو اسمه لأنه ذات مرة أطلق رياحا وأصواتا من أسفله وجعلته الزوجة يظن...» ولم تكن هناك جدوى من تكرار الحكاية المؤسفة.

ولأول مرة أدرك القاضي أن امرأته استغفلته، فترك الأطفال وأسرع

إلى البيت. ولكن أبواب البيت كانت مفتوحة للريح، وكانت الأرض مهشمة والحيطان مهدمة. ولم يكن هناك في حطام حجرة الكنز قطعة واحدة من الذهب أو الفضة، أو أي إشارة أو رائحة للكنز. وعندما سمعه الجيران وهو يصرخ، أخبروه والضحك يملؤهم، أن امرأته أعلنت موته، ورحلت بكل ما في البيت عن المدينة. وقبل أن يجيب بشيء، استدار وترك المدينة. ولم يسمع عنه شيء بعد ذلك. ولا تزال الحكاية تحكى حتى اليوم.

8ـ حكاية الرجل الذي ولد طفلا

يحكى أنه كان هناك رجل يرى أن النساء كثيرا ما يبالغن في الحديث عن متاعب وضع الأطفال. وكان يقول إنه طبيعي أن تدفع المرأة بالجنين، ولا يُحدث لها هذا أي ألم أكثر من أنها تتخلص من دودة شريطية. وقد دفع هذا الكلام زوجة الرجل إلى حافة الجنون وقالت لزوجها: «حسنا، سوف أدبر الأمر مع الطبيب بحيث تلد أنت الابن التالي، وسوف ترى كيف يروقك هذا الأمر». سخر الزوج، وقال إن هذا من قبيل العدل، وإنهما سيتناوبان ولادة الأطفال بعد ذلك.

وذات مرة شرب الزوج حتى وصل إلى حالة السكر فحملوه إلى السرير وربطوه بالأربطة، وأعطوه حب الملوك (نبات) ليحدث له إسهالا، ثم ثبّت له الطبيب شريطا سميكا سَدَّ فتحة الشرج. وفي صباح اليوم التالي، كانت بطن الرجل قد انتفخت وأصبحت مثل البالون، وأصبح صراخه يملأ البلد. وقال له الطبيب: «هون عليك إن هذه الآلام لن تستغرق أكثر من أربع أو خمس ساعات». ثم بدأ الرجل يتلوى بشدة ويقيم الدنيا ويقعدها، حتى اضطرت الأسرة بأكملها أن تربطه في السرير. وفي النهاية أحضر الطبيب قردا وليدا ودسه في فراش الرجل، ثم أزاح الشريط السميك من فتحة الشرج، وعندئذ شهق الرجل وقذف كل ما في أمعائه، وإذا بالسرير قد امتلأ بالبراز الذي غطَّى سجاد الحجرة. وفي هذه اللحظة ظهر له قرد صغير يمسح عينيه، وهو يهذر. وبمجرد أن رأى الرجل القرد بدأ يصيح صياحا أعلى من صياحه الأول وقال: «وماذا يقصد ابن الزنا هذا وهو يضحك مثل العبيط بينما تحتضر أمه المسكينة؟ وابتسم الطبيب ابتسامة عريضة، أما الزوجة التي كانت بالقرب منه، فقد انتابتها نوبة انفجار في

الضحك.

وبعد أن رحل الطبيب مع قرده، كان على الناس أن ينظفوا البيت طوال النهار. وأن يعيدوا الأشياء إلى مكانها الطبيعي. وعندما عاد الرجل إلى حالة الاتزان، كان كل شخص يقول، لابد أنه كان يحلم بكل ما جرى. ونصحه الطبيب أن يخفف من الشرب. وقد كف الرجل عن شرب المسكر بعد ذلك لمدة طويلة. كما أنه كف عن الكلام عن أن النساء لا يبذلن أي جهد في وضع أطفالهن[16].

إن أكثر الصيغ الأوروبية المألوفة لهذه الحكاية تأتي على شكل حكاية هزلية تحكي عن قسيس أو كاهن. ومثال ذلك الحكاية الروسية. «القسُّ والعجل» وحكاية «القس الذي ولد عجلا» وغير ذلك من الحكايات التي تنوع في الظروف التي تجعل القس حاملا. أما في الأدب، فإن بوكاشيو في «دي كاميرون» (الجزء التاسع 3)، لا يجعل الكاية تتعامل مع قس بل مع رجل غبي خدع عندما أعملت فيه الحيلة أول الأمر، فصدق أنه حامل، ثم أعملت معه الحيلة بعد ذلك فصدق أنه أجهض. وقد قلد هانز ساكس، ونيكولا دي ترو، وسترابورال هذا النموذج. وعلى الرغم من ذلك فإن صيغة دي كاميرون لهذا النموذج، لم تكن هي المتسلطة. ويبدو أن خروج الأصوات والروائح من البطن بوصفها علامات للولادة، وصلت إلى الكتابات الغربية عن طريق البنتاميرون، أقاصيص باتستابازيلي في نابولي 1643 (اليوم الثاني حكاية 3)، عندما ظن الغول الغبيّ في حكاية تختلف تماما عن النموذج الأول، أنه ولد ابنة صغيرة. وعلى كل فإن النمط الفكاهي حول هذا الموضوع، عالمي، وقد عرفه الإغريق الكلاسيكيون كذلك وإن يكن بطريقة أكثر حذقا. ومثال ذلك «برلمان النساء» لأريستوفانيس، حيث تضرع رجل انقبضت أمعاؤه إلى آلهة الولادة، لكي تخفف عنه تعبه.

9ـ حيل النساء

وفي الليلة التالية قالت دنيازاد إلى أمتها شهرزاد: يا أختي نحن لا نريد النوم، احكي لنا حكاية نزجي بها وقت مراقبتنا لساعات الليل. قالت: مع الرحب والسرور. بلغني أيها الملك الرشيد ذو الرأي السديد، أنه كان في سالف العصور والأوان في مدينة بغداد شاب وسيم أصيل وواسع المعروف،

ذو قد ممشوق، وجسم نحيل، وكان اسمه علاء الدين، وكان شاهبندر أولاد التجار، وله دكان يبيع ويشتري فيه. وذات يوم، بينما كان يجلس في دكانه، مرت أمامه فتاة مرحة. ولما رفعت رأسها وألقت نظرة على التاجر الشاب، رأت مكتوبا على رأس باب دكانه هذه الكلمات: «كيد الرجال يغلب كيد النساء». فلما تمعنت في هذا الكلام، تملكها الغضب وتحاورت مع نفسها وقالت: «وحياة رأسي، لن يعنيني شيء سوى أن أريه حيلة عجيبة من حيل النساء وأبطل كتابته». وعند ذلك أسرعت إلى بيتها. وفي الصباح تهيأت ولبست أجمل ثوب، وزينت نفسها بأجمل زينة وأغلاها، وخضبت يدها بالحناء. ثم نشرت شالها على كتفها وخرجت تتمخطر في غنج وتنظر نظرة عاشقة، تتبعها خادمتها وهي تحمل لها لفة حتى وصلت إلى دكان التاجر وجلست عنده بحجة البحث عن قماش. ثم ألقت عليه السلام وطلبت منه بعض الأقمشة. فأحضر لها التاجر أشكالا متعددة، فأخذتها وقلبتها وتحدثت معه بعض الوقت ثم قالت له: «انظر إلى شكلي ومظهري، هل ترى فيه أي خطأ؟» وأجاب: لا لا يا سيدتي». فاستأنفت الكلام وقالت: هل من العدل أن يحتقرني ويقول إنني حدباء؟ «ثم كشفت عن جزء من صدرها، وعندما أبصره التاجر طار عقله من رأسه وانفتح صدره لها وصرخ: «استري صدرك سترك الله. فقالت: «وهل من العدل أن ينكر أحد سحري؟». فرد قائلا: «وكيف ينكر أحد سحرك، وأنت إشراقة الحب؟» ثم قالت: «هل من حق أحد أن يتقوّل عليّ بأنني مبتورة اليدين؟ «ثم شمرت عن أكمامها فأطلعته على جزء من ذراعها الناصع البياض مثل البللور. ثم نزعت البرقع من على وجهها، فبدا وجهها قمر ليلة الرابع عشر. ثم قالت له: «هل من العدل والحق أن يدعي أن وجهي مليء بحفر الجدري أو أنني عوراء أو مقطوعة الأذنين؟ «وقال لها: يا سيدتي ماذا جعلك تحدسين أنني لن أكون أكثر غراما بوجهك الجميل، وأذرعك البضة عندما يكونان مستورين ومحروسين؟ أخبريني عن حقيقة الأمر، جعلني الله فداءك، ثم أنشد فيها الشعر. عندئذ قالت الفتاة للشاب التاجر: «اعلم يا سيدي أنني فتاة أصابها القهر من قبل الرجل الذي أتعلق به. إنه يتحدث إليّ ويقول، إن منظرك كريه وبغيض، ولا يلائمك أن ترتدي الثياب الغنية لأنك والجاريات سواء بسواء، فليس هناك فرق بينك وبينهن. والآن أصبح من الأثرياء وأصبح

يمتلك كنزا كبيرا من المال. ولا أقول هذا لأنه على الرغم من ثرائه بخيل ويضن بإنفاق النقود فحسب، ولكن لأنه يرفض الزواج بي لئلا يضطر إلى إنفاق بعض المال على هذا الزواج. وعلى الرغم من أن الله القوي القدير كان كريما معه بحيث أصبح مرموقا في عصره، فإنه تنقصه أصالة من يدرك معنى الخير في الحياة».

وعندئذ سألها الشاب: من أبوك وما هي أحواله؟ «قالت: إنه قاضي قضاة المحكمة العليا المشهورة، وتحت يده كل القضاة الذين يتولون القضاء في هذا البلد». وصدقها التاجر، ثم حيته وغادرت المتجر، بعد أن تركت في قلبه ألف حسرة، وبعد أن ملك حبها على نفسه، ولم يكن يعرف كيف يفوز بها وهو المتيم بها، المشتت العقل بحبها، والذي لم يعد يعرف إن كان حيا أم ميتا. ولكنه، بعد أن رحلت الفتاة، أغلق دكانه وذهب مباشرة إلى المحكمة العليا، حيث قابل قاضي القضاة وحياه. ورد قاضي القضاة التحية، وعامله معاملة مميزة وجعله يجلس بجانبه. وبعد ذلك قال له علاء الدين: «لقد جئت إليك أطلب القرب منك، لأني أرغب في طلب يد ابنتك النبيلة». ورد القاضي قائلا: «يا سيدي التاجر، مرحبا بك وألف مرحبا، ولكن ابنتي في الحقيقة لا تناسب رجلا مثلك، ولا تليق بها ملاحة شبابك، ولا رجاحة عقلك ولا حلاوة حديثك». ولكن علاء الدين أجاب: «إن هذا الكلام لا يليق بك، وغير ملائم لأن يصدر عنك. فإذا كنت مقتنعا بي، فما الذي يضيرك أنني أتزوج بها؟» وعندئذ اقتنع القاضي وتوصلا إلى اتفاق وأنهيا عقد الزواج بالاتفاق على خمسة أكياس من النقود للمهر المقدم، وخمسين كيسا للمؤخر حتى يصعب عليه طلاقها. وحذره أبوها منها ولكنه لم يقبل التحذير. وعندئذ كتبا وثيقة الزواج وقال التاجر: «إنني أرغب في أن أدخل بها في هذه الليلة. وبناء على ذلك حملوها إليه في موكب في هذه الليلة. وصلى علاء الدين صلاة العشاء ودخل حجرة النوم التي أعدت لهما، ولكنه عندما رفع الخمار عن وجهها، أبصر وجها قبيحا يثير الغثيان بحق، لا أراك الله مثله أبدا ! إذ إنه وجه قبيح لا يحيط الوصف بقبحه، إذ كان يرى فيه كل العيوب التي يمكن أن توجد في كل الوجوه القبيحة. وندم التاجر حيث لا ينفع الندم، وعلم أن الفتاة خدعته. وعاشر التاجر البائس العروس القبيحة معاشرة الأزواج، وهو يعاني من قهر دفعه لأن يفعل ما هو ضد

مزاجه وميله الفطري، وقضى الليل متعب العقل كما لو كان حبيس سجن الديلم. وما كاد النهار يشرق بنوره حتى هب من جانبها وأخذ نفسه إلى أحد الحمامات حيث أغفى بعض الوقت بعد أن قام بغسيل الطهر الطقوسي من الدنس. ثم لبس ثيابه اليومية، وذهب إلى المقهى حيث شرب فنجانا من القهوة، وبعدها عاد إلى متجره، وفتح بابه وجلس وقد بدا الهم والغم على ملامحه. وبعد مرور ساعة أو أكثر بدأ يتوافد عليه أصدقاؤه ومحبوه من التجار ورجال السوق زرافات ووحدانا، ليباركوا له الزواج وقالوا له وهم يضحكون: «مبارك عليك العروس وأين اللحم الذيذ وأين القهوة؟ يبدو أنك قد نسيتنا، بل نسيت كل شيء فيما عدا سحر العروس الذي غلب على خاطرك وأخذ بلبك، وكان الله في عونك. ولقد جئنا لنشاركك السعادة». ثم أخذوا يضحكون وهو ملتزم الصمت أمامهم، ويكاد يمزق عنه ملابسه، ويسكب الدموع من الحزن. ثم تركه أصحابه وابتعدوا عنه. وعندما حانت ساعة الظهيرة، جاءته سيدته، تلك الفتاة اللعوب وهي تجرجر أذيالها وتتمايل يمنة ويسرة في مشيتها، كما لو كانت غصن بان في حديقة من الورد. لقد كانت ترتدي ملابس أكثر ثراء من المرة الأولى وأبهى زينة. وكانت أكثر جاذبية وغنجا في تناسقها ونظرتها، إلى درجة أنها استوقفت المارة ودفعتهم لأن يقفوا ويحملقون فيها. وعندما وصلت إلى متجر علاء الدين جلست، وقالت له: «نهارك مبارك عليك يا سيدي علاء الدين. أغناك الله وباركك ولتكن موفور السعادة، وليكن زواجك خيرا وبركة عليك». وقطب علاء الدين ما بين حاجبيه، وكشر وجهه، ثم سألها: «أي واجب حجبته عنك، وأي أذى ألحقته بك حتى إنك تقضي عليّ بهذه الطريقة؟» وأجابت الفتاة: «إنك لم تكن متخلفا في أدائك الواجب، ولكن كتابتك التي كتبتها على باب متجرك هي التي أغاظتني وملأت قلبي حنقا منك. وإذا واتتك الشجاعة لأن تغيرها وتكتب عكسها، فسوف أخلصك من ورطتك». وأجاب الرجل: «إن مطلبك سهل للغاية، على العين والرأس». وما إن نطق بهذا الكلام، حتى أخرج دينارا ذهبيا من جيبه، ونادى على أحد مماليكه وقال له: «اذهب إلى الخطاط الفلاني. واطلب منه أن يكتب لنا عبارة مأثورة مزينة بالذهب واللازورد تقول: ليس هناك حيل سوى حيل النساء، لأن حيلهم عظيمة وكيدهن فوق كيد الرجال». وقالت الفتاة للخادم: «هيا أسرع». وذهب الخادم

إلى الخطاط الذي كتب العبارة على الرّق، وأحضرها لسيده الذي رفعها إلى أعلى باب متجره. ثم سأل الفتاة: «هل اطمأن قلبك؟» وأجابت: «نعم، هيا انهض على التو، واذهب إلى المكان المقابل للقلعة، حيث تجتمع بكل الدجالين والقرداتية والمعلمين والطبّالين والزمارين، واطلب منهم أن يَحْضُروا لك في الصباح الباكر بطبولهم وآلاتهم، في الوقت الذي تشرب فيه القهوة مع حميك القاضي. واجعلهم يهنئونك ويتمنون لك السعادة ويقولون: «مبارك يا بن العم، إنك ضَيّ عيوننا، ونحن نبتهج لك، حتى إن كنت تخجل منا. إننا بحق نتباهى بك، ولهذا فإنك إذا تخليت عنا، فإننا لن نتخلى عنك». وعليك بعد ذلك أن تنثر عليهم الدنانير والدراهم. وعندئذ سوف يسألك القاضي عن الأمر، وأنت سوف تجيبه، قائلا: «إن أبي كان قرداتيا، وهكذا كنا في الأصل، ولكن الله فتح علينا باب الحظ، وأصبح لنا اسم بين التجار ورؤساء الأحياء». عندئذ سيكون رده: «أنت إذن شيخ القرداتية في قبيلة الدجالين؟» وسيكون ردك: «إنني لا أنكر أصلي بأي حال من الأحوال من أجل ابنتك ومن أجل خاطرها». وسيقول القاضي: «ولا يكون ذلك على حساب أن تتزوج ابنة الشيخ الذي يجلس على عرش القضاء، والذي يرتفع نسبه إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام. ولا يجوز أن تكون ابنته في ذمة رجل قرداتي مغن». وعند ذلك تجيب: «لا يا أفندي، إن ابنتك زوجتي على شرع الله ورسوله، وكل شعرة فيها تساوي حياة الآلاف من الناس، وأنا لن أستغني عنها ولو منحت ملك الدنيا. وفي النهاية سيدفعك الكلام لأن تنطق بلفظ الطلاق، وبهذا يبطل الزواج ويفترق أحدكما عن الآخر».

عند ذاك قال علاء الدين: «لقد قلت الصدق حقا». ثم أغلق متجره وذهب إلى الساحة المواجهة للقلعة، واجتمع بالرقاصين والطبالين والزمارين، ووجه إليهم تعليماته بما ينبغي عمله ووعدهم بجائزة سخية. واستقبل هؤلاء كلمته بالسمع والطاعة. وفي صباح اليوم التالي وبعد صلاة الفجر، ذهب لمقابلة القاضي الذي استقبله بترحاب متواضع وأجلسه بجانبه، ثم أخذ يحادثه ويسأله عن أحوال البيع والشراء، وعن أسعار البضاعة المختلفة التي تحمل من بغداد إلى سائر الضواحي، وكان زوج ابنته يجيب عن كل أسئلته. وبينما كانا يتحدثان، ظهر الرقاصون والطبالون بطبولهم والزمارون

بزماميرهم، يتقدمهم أحدهم يحمل الراية في يده وهو يلعب بكل ألعاب المهرّجين بصوته وحركاته. وعندما وصلوا إلى بيت الحكم، صرخ القاضي قائلا: «الحماية بحق الله من هؤلاء الشياطين البعداء!» وضحك التاجر الشاب ولم يقل شيئا. ودخل الجمع وحيُّوا القاضي المبجل، وقبلوا يد علاء الدين وقالوا: «مبارك عليك يابن العم. حقا إنك تثلج صدورنا بكل ما تفعله ونحن نتضرع إلى الله أن يحفظ لسيدي القاضي عظمته، الذي شرفنا بقبولك في نسبه، ومنحنا وخلع علينا نصيبا من شرف مهنته». وعندما سمع القاضي هذا الكلام، أصيب بالذهول، وشعر بالدوار، واحمر وجهه غضبا. ثم تحدث إلى زوج ابنته وقال: «ما معنى هذه الكلمات؟» وقال التاجر: «آه يا سيدي، إن هذه هي قبيلتي، وهذا الرجل هو ابن عمي، والآخر ابن خالي. وإذا كنت أُعد تاجرا بين التجار، فذلك من قبيل المجاملة. «وعندما سمع القاضي هذه الكلمات تغير لونه، وشعر بالاضطراب وتملكه غيظ مكتوم، ووصل به الغضب إلى قمته، إلى درجة أنه كاد يتفجر من ضغطه عليه وقال له: «ليجنبنا الله هذا الشر، إذ كيف يجوز أن ابنة قاضي المسلمين تُبنى برجل من قبيلة الرقاصين منحطي الأصل. واللّه إن لم تطلقها على الفور، سأضربك وأرميك في السجن، وهناك أعذبك حتى الموت. ولو أنني عرفت أنك واحد منهم، لما كلفت نفسي أن أقربك إليّ، بل كنت صفعتك على وجهك، لأنك نجس بل أنجس من الكلب والخنزير. ثم ركله وأوقعه من مكانه ثم أمره أن يطلقها. ولكن علاء الدين قال له: «كن شفوقا عليّ يا أفندي، فاللّه شفوق رحيم، ولا تتعجل عليّ، إنني لن أطلق زوجتي، ولو أعطيتني ملك العراق». ووقع القاضي في حيرة، وعلم أن الإكراه غير مسموح به في شرع اللّه، ولهذا تلطف في محادثته لعلاء الدين، وقال له: «استرني يسترك اللّه، إذا لم تطلقها فإن الخزي سوف يلحق بي إلى الأبد» ثم غلبت غضبته حيلته وصرخ قائلا: «إذا لم تطلقها بمحض إرادتك، فسوف أقطع رأسك على الفور، ثم أقتل نفسي، فنار جهنم أرحم من الخزي» وتدبر التاجر أمره بعض الوقت ثم أعلن طلاقها، وقدم للقاضي ورقة الطلاق على الملأ وبهذه الطريقة حرر نفسه من قلق غير مرغوب فيه.

وبعد ذلك عاد إلى متجره، وجدّ في البحث عن والد تلك الفتاة اللعوب التي كانت ابنة شيخ طائفة الحدادين، وتزوجها وعاشا معا أسعد وأمتع

حياة إلى أن وافاهما الموت، والحمد للّه رب العالمين[17].

هذه الحكاية عاشت في القرن الخامس عشر الميلادي مدونة في كتاب «فاكهة الخلفاء» لعرب شاه، ومن هذا الكتاب اتخذت طريقها إلى طبعة برسلاو لألف ليلة وليلة. على أن ليسكاليه كان ضمنها كتابه «رحلات السندباد» (1814)، نقلا عن عرب شاه مرة أخرى قبل أن يعرف نص برسلاو بزمن طويل. (طبعة برسلاو هي التي استخدمها بيرتون في ملحقه لألف ليلة وليلة)[*6].

15 ـ الرجل الذي رأى ليلة القدر[*7]

بلغني أيها الملك أنه كان رجل يتمنى من عمره أن يرى ليلة القدر، فنظر ليلة من الليالي إلى السماء، فرأى الملائكة وأبواب السماء قد فتحت، ورأى كل شيء ساجدا في محله. فلما رأى ذلك، قال لزوجته: «يا فلانة إن الله قد أراني ليلة القدر، ونذرت إن رأيتها أدعو ثلاث دعوات مستجابات. فأنا أشاورك فماذا أقول؟». فقالت المرأة: «ادعُ أن يكبر عضوك». فقال ذلك. فكبر ذكره حتى صار لا يستطيع القيام به، وكرهت زوجته أن يجامعها، وصارت تتهرب منه. فقال لها الرجل: «كيف العمل، فهذه كانت أمنيتك». فقالت له: «أنا ما أشتهي أن يبقى بهذا الطول»: فتمنى الرجل أن يتخلص من عضوه. فصار ممسوحا ليس له ذكر. فلما رأته زوجته قالت له: «ليس لي بك حاجة حيث صرت بلا ذكر». فقال لها: «هذا كله من شؤم رأيك وسوء تدبيرك. كان لي ثلاث دعوات أنال بها خير الدسنيا والآخرة، فذهبت دعوتان وبقيت دعوة واحدة. فقالت: «ادع بأن تعود إلى ما كنت عليه أولا». فدعا بذلك فعاد كما كان. وهكذا فقد الرجل الرغبات الثلاث بسبب سوء المشورة وقلة عقل المرأة[18].

إنها حكاية قابلة للتنوع الكبير تعيش في كل مكان وعبر تاريخ طويل. وهي تتعلق برغبات سخيفة أو رغبات تمنح في أشكال غير مقبولة، ويتحتم أن تلغيها رغبات أخرى تتحقق بعد ذلك. وشبيه بهذه الحكاية نجدها في البانشاتنترا، ويعتقد في العموم أنها ذات أصل هندي كليا. لكن أول من سجلها هو فيدروس في القرن الأول بعد الميلاد، وهو الكاتب الروماني المنقح لحكايات أيسوب: فقد روى لها رواية «الإله ميركوري والمرأتان».

وفيها يمنح الإله ميركوري أمنية لكل من المرأتين، أما الأولى فكان عندها ابن صغير، وكانت تتمنى أن تراه عندما تنمو لحيته. وأما المرأة الأخرى فتمنت أن كل ما تلمسه يتبعها. والنتيجة أن اللحية نبتت للطفل الصغير عند المرأة الأولى، أما المرأة الثانية، فعندما لمست أنفها في غفلة منها، أخذت الأنف تتبعها وهي تخبط في الأرض. وحكايات الأمنيات التي تضيع هباء، شأنها شأن حكايات أيسوب الأخرى، عاشت في المخزون العالمي لفولكلور الشرق الأدنى، قبل أن تظهر عند فيدروس بزمن طويل، وربما تطورت إلى حكاية ليلة القدر قبل أن تصل إلى ألف ليلة وليلة. ولكن هذه الحكاية تمتاز برواياتها المتعددة لفكرتها الأساسية؛ فقد تكون هناك أمنية واحدة لشخص واحد أو لشخصين أو لثلاثة شخوص، وقد تكون هناك أمنيات ثلاث لشخص واحد، أو ثلاث أمنيات لزوج وزوجته، وهو الغالب، وعندئذ نجد الزوجة تبدد الأمنية الأولى، والرجل يغضب ويبدد الأمنية الثانية. أما الأمنية الثالثة فتعود بالزوجين إلى الحالة الأولى.

وهناك موضوع يرد بانتظام في الروايات المختلفة وهو أن الأماني يمنحها الرب أو تمنحها كائنات خارقة على نحو أو آخر مثل ملكة الجنيات، أو أرواح الغابة أو الشيطان. وهناك صيغة شائعة في أوروبا وهي أن الأمنيات يمنحها المسيح والقديس بطرس، وهما يحققان أماني الفلاح الفقير الذي استضافهما وأكرمهما. وقد جمعت صيغة عربية حديثة من تونس منذ زمن قريب لهذه الحكاية، وتحكي عن زوج منحه اللّه ثلاث أمنيات، فأعطى زوجته واحدة، وقد تمنت دون تردد، أن تكون أجمل امرأة في العالم، على أمل أن يمكنها عندئذ أن تترك زوجها. أما الزوج فقد تمنى أن تتحول زوجته إلى كلب، ولكن أبناءه اعترضوا وطلبوا منه أن يتمنى الأمنية الثالثة، وهي أن ترتد الزوجة إلى حالتها الإنسانية الأولى[19].

وتأثير الحكاية، كما تروى، واضح في الروايات الغربية، ولكنها تتحول، كما هو مألوف، إلى شيء آخر، وإن ظلت تابعة لها. وموضوع «حلوى البودنج» يرجع تاريخه على الأقل إلى مجموعات بيروه، خزانة الجنيات.

الأمنيات الثلاث

مر زوجان مسنان بوقت عسير انتهى بافتقارهما إلى الطعام. ومع ذلك

فعندما قرع متسول باب بيتهما، وقال إنه جائع، أعطياه آخر لقمة كانت لديهما، فشكرهما، وقال لهما وهو يترك البيت: «إنني ملك في بلاد بعيدة، وفي وسعكما أن تطلبا ثلاث رغبات وسوف تتحقق لكما». ضحك الزوجان المسنان، وقالت الزوجة: «أليس جميلا أن تتحقق الرغبات؟ إنني أرغب في مهلبية سوداء». وهوب! نزلت من المدخنة مهلبية سوداء واستقرت أمامهما. فصرخ الزوج قائلا: «أيتها الغبية، كان في وسعك أن تطلبي أي شيء آخر، ولكن كل ما طلبته مهلبية سوداء. إنني أتمنى أن تلتصق المهلبية بأنفك». وهوب! كانت المهلبية ملتصقة بأنفها. أما الرغبة الثالثة فقد استخدمت في إزالة المهلبية من أنفها.

ولم يكن في وسعهما أن يفعلا شيئا سوى أن يأكلا المهلبية، وهذا ما فعلاه.

تسربت قصة وليم جاكوب القصيرة بعنوان «كف القرد» ـ The Mon key's Paw في انتشار جديد حاز شهرة في الغرب، وإن تكن حكايته تشيع منها النغمة الحزينة المقبضة. وفيها حصل الأب على النقود التي تمناها، بموت ابنه الوحيد وكان مؤمنا على حياته. فلما تمنت الأم عودة ابنها بجسده من المقبرة، ألغى الأب هذه الأمنية بأمنية ثالثة، وهي أن يترك الابن في سلام في قبره. وربما كان جاكوب متأثرا في هذه الحكاية بالبلاد الإنجليزية القديمة تحت عنوان «المرأة والبئر» The Wife of Well، التي تتمنى فيها الأم عودة الحياة إلى أجساد أبنائها الثلاث الذين ماتوا غرقى، ولو لليلة واحدة. وعلى كل فإن موضوع عودة الموتى يرد في كثير من البلاد الأوروبية والأساطير. ولكنها ليست جزءا من جوهر نموذجنا الذي يتميز بأنه نموذج مرح بكل ما للكلمة من معنى.

11 ـ زوجة التاجر والببغاء(*8)

بلغني أيها الملك أن تاجرا كان كثير الأسفار، وكانت له زوجة جميلة يحبها ويغار عليها من كثرة المحبة. فاشترى لها درة، فكانت الدرة تُعَلّم سيدها بما يجري في غيبته. فلما كان في بعض أسفاره تعلقت امرأة التاجر بغلام كان يدخل عليها فتكرمه وتواصله مدة غياب زوجها. فلما قدم زوجها من سفره أعلمته الدُّرة بما جرى، وقالت له: يا سيدي غلام تركي

كان يدخل على زوجتك في غيابك فتكرمه غاية الإكرام. فهَمَّ الرجل بقتل زوجته. فلما سمعت الزوجة ذلك قالت له: «يا رجل اتق الله وارجع إلى عقلك. هل يكون لطير عقل أو فهم. وإن أردت أن أبين لك ذلك لتعرف كذبها من صدقها، فامض هذه الليلة، ونم عند بعض أصدقائك. فإذا أصبحت فتعال واسألها حتى تعلم هل تصدق هي فيما تقول، أو تكذب. فقام الرجل وذهب إلى بعض أصدقائه فبات عنده. فلما كان الليل عمدت زوجة الرجل إلى قطعة نطع غطت به قفص الدرة، وجعلت ترش على ذلك النطع شيئا من الماء وتروّح عليه بمروحة وتقرب إليها السراج على صورة لمعان البرق، وصارت تدير الرحى إلى أن أصبح الصباح. فلما جاء زوجها قالت له «يا مولاي، اسأل الدرة». فجاء زوجها إلى الدرة يحدثها، ويسألها عن ليلتها الماضية. فقالت له الدرة: «ومن كان ينظر أو يسمع في الليلة الماضية؟»، فقال لها: «لأي شيء؟»، فقالت: «يا سيدي من كثرة المطر والريح والرعد والبرق». فقال لها: «كذبت. إن الليلة التي مضت ما كان فيها شيء من ذلك. فقالت الدرة: «ما أخبرتك إلا بما عاينت وشاهدت وسمعت». فكذّبها في جميع ما قالته عن زوجته. وأراد أن يصالح زوجته، فقالت: «والله ما أصطلح حتى تذبح هذه الدُّرة التي كذبت عليّ». فقام الرجل إلى الدُّرة وذبحها ثم أقام بعد ذلك مع زوجته مدة أيام قلائل. ثم رأى في بعض الأيام ذلك الغلام التركي وهو خارج من بيته، فعلم صدق قول الدرة، وكذب زوجته، فندم على ذبح الدرة. ودخل من وقته وساعته على زوجته وذبحها وأقسم على نفسه أنه لا يتزوج بعدها امرأة مدة حياته[20].

يبدو أن «كتاب السندباد» يمثل صورة مصغرة للشوفينية الذكورية، فهو يعتمد أولا على موضوع زوجة الأب الشهوانية والشاب العفيف. وتعد الحكايات التي تعالج هذا الموضوع من أقدم الحكايات وأكثرها طعنا في النساء. ولمزيد من التفاصيل عن موضوع زوجة الأب الشهوانية يُرجع فصل يوسف وزوجة بوطيفار. وفضلا عن هذا فإن هذه الحكاية التي تطعن، في حد ذاتها، في النساء أصبحت في «كتاب السندباد» الذي ربما يرجع في أصله الهندي إلى القرن الخامس قبل الميلاد، الحكاية الإطار. وبهذه الطريقة لم يكن انتشار موضوع زوجة الأب الشهوانية مستمرا ومضاعفا فحسب، بل ظل سائدا في انتظام حاملا معه نماذج أخرى ضد المرأة وصل انتشارها

إلى أقصى حد.

و «كتاب السندباد» فرعان، شرقي وغربي. ويعرف الفرع الغربي بكتاب «الحكماء السبعة» أو حكماء روما السبعة. وكلا الفرعين وصل أوروبا. وفي الفرع الشرقي يمثل السندباد مستشار الأمير الذي اتهم زورا من قبل زوجة أبيه. أما في الفرع الغربي فإن للأمير سبعة مستشارين يحكون، أو يحكي كل منهم حكايات عن خيانة النساء[*9]، بينما تثأر زوجة الأب بحكايات مقابلة عن رجال السوء. ولسنا في حاجة إلى أن نقول إن الرجال لديهم في العموم أفضل الحكايات. ويختلف عدد الحكايات في الكتابين، كما أن الحكايات المفردة تختلف كذلك. وليس هناك اتفاق في النسختين سوى في أربع حكايات وهي: ذكر الخنزير الذي يفوقه الراعي أو القرد في حيلته، ثم حكاية وكيل الأمير الإقطاعي. وحكاية الكلب الذي أنقذ الطفل ثم قتل (انظر كذلك الحكاية التي سترد وشيكا، بث جيلبرت)، ثم حكاية الرجل وزوجته والطير الذي يفشي السر، وهي هنا حكايتنا «زوجة التاجر والببغاء». وهذه الحكاية الأخيرة تظهر في كل كتاب مهم للقصص في العصور الوسطى على وجه التقريب، وتتخذ شاهدا في كل البلاد الأوروبية على خداع النساء.

وإذا اتخذنا مثالا لذلك حكايات كنتربري، نجد أن تشوسر عرف هذه الحكاية في شكلين. والصيغة الأساسية عنده هي حكاية ضابط التوريدات، والطائر في هذه الحكاية غراب أبيض. أما الزوج فهو فيبوس الذي قتل زوجته، ثم حول لون الغراب إلى أسود عقابا له، ومنذ ذلك الوقت أصبح لون الغراب أسود. أما في حكايته الثانية التي ترويها زوجة من مدينة باث، فيشير تشوسر إلى حكاية «الزوجة الحكيمة التي تعرف مصلحتها»، وهذه الزوجة تقنع زوجها بأن الطائر مجنون، وتشهد على ذلك خادمتها. وبعبارة أخرى، إن تشوسر يحيل إلى الحكاية النموذج.

12 - الملك وزوجة الوزير[*10]

بلغني أيها الملك أنه كان ملك من ملوك الزمان مغرما بحب النساء. فبينما هو مختلٍ في قصره يوما من الأيام، إذ وقعت عينه على جارية وهي في سطح بيتها، وهي ذات حسن وجمال. فلما رآها لم يتمالك نفسه من المحبة، فسأل عن ذلك البيت، فقالوا له هذا بيت وزيرك فلان. فقام من

ساعته وأرسل إلى الوزير. فلما حضر بين يديه، أمره أن يسافر إلى بعض جهات المملكة ليطلع عليها ثم يعود. فسافر الوزير كما أمره الملك. فبعد أن سافر، تحايل الملك حتى دخل بيت الوزير. فلما رأته الجارية عرفته. فوثبت قائمة على قدميها وقبلت يديه ورجليه، ورحبت به، ثم وقفت بعيدا عنه مشتغلة بخدمته. ثم قالت: «يا مولانا، ما سبب القدوم المبارك ومثلي لا يكون له ذلك؟» فقال: «سببه أن عشقك والشوق إليك قد حملاني على ذلك، فقبلت الأرض بين يديه ثانيا، وقالت له: «يا مولانا أنا لا أصلح أن أكون جارية لبعض خدام الملك، فمن أين يكون لي عندك هذا الحظ حتى صرت عندك بهذه المنزلة». فمد الملك يده إليها، فقالت: «هذا الأمر لا يفوتنا، ولكن صبرا أيها الملك وأقم عندي هذا اليوم كله حتى أصنع لك شيئا تأكله. فجلس الملك على مرتبة وزيره، ثم نهضت قائمة وأتته بكتاب فيه المواعظ والأدب ليقرأ فيه حتى تجهز الطعام. فأخذه الملك وجعل يقرأ فيه، فوجد فيه من المواعظ والحكم ما زجره عن الزنا وكسر همته عن ارتكاب المعاصي. فلما جهزت له الطعام قدمته بين يديه، وكان عدد الصحون تسعين صحنا، فجعل الملك يأكل من كل صحن ملعقة والطعام أنواع مختلفة وطعمها واحد فتعجب الملك من ذلك غاية العجب، ثم قال: «أيتها الجارية، أرى هذه الأنواع كثيرة وطعمها واحد». فقالت له الجارية: «أسعد الله الملك، هذا مثل ضربته لك لتعتبر به». فقال لها: «وما سببه»؟ فقالت: «أصلح الله حال مولانا الملك، إن في قصرك تسعين محظية مختلفات الألوان وطعمهن واحد». فلما سمع الملك هذا الكلام خجل منها وقام من وقته، وخرج من المنزل، ولم يتعرض لها بسوء. ومن خجله نسي خاتمه عندها تحت الوسادة. ثم توجه إلى قصره. فلما جلس الملك في قصره وحضر الوزير في ذلك الوقت وتقدم إلى الملك، وقبل الأرض بين يديه، وأعلمه بحال ما أرسله إليه. ثم سار الوزير إلى أن دخل بيته وقعد على مرتبته، ومد يده تحت الوسادة فلقي خاتم الملك تحتها، فرفعه الوزير وحمله على قلبه، وانعزل عن الجارية مدة سنة كاملة ولم يكلمها، وهي لا تعلم ما سبب غيظه. فلما طال بها المطال، ولم تعلم ما سبب ذلك، أرسلت إلى أبيها وأعلمته بما جرى لها معه من انعزاله عنها مدة سنة كاملة. فقال لها أبوها: «إني أشكوه حين نكون بحضرة الملك». فدخل يوما من الأيام فوجده (أي زوج ابنته) بحضرة الملك

وبين يديه قاضي العسكر، فادعى عليه، فقال: «أصلح الله تعالى حال الملك: إنه كان لي روضة حسنة غرستها بيدي، وأنفقت عليها مالي، حتى أثمرت وطاب جناها، فأهديتها لوزيرك هذا، فأكل منها ما طاب له، ثم رفضها، ولم يسقها فيبس زهرها، وذهب رونقها وتغيرت حالتها». فقال الوزير: «أيها الملك صدق هذا في مقالته. إنيّ كنت أحفظها وآكل منها، فذهبتُ يوما إليها، فرأيت أثر الأسد هناك، فخفت على نفسي، فنزلت نفسي عنها». ففهم الملك أن الأثر الذي وجده الوزير هو خاتم الملك الذي نسيه في البيت. فقال الملك عند ذلك لوزيره: «ارجع أيها الوزير لروضتك وأنت آمن مطمئن، فإن الأسد لم يقربها. وقد بلغني أنه وصل إليها ولكن لم يتعرض لها بسوء، وحرمة آبائي وأجدادي». فقال الوزير عند ذلك. «سمعا وطاعة. ثم إن الوزير رجع إلى بيته، وأرسل إلى زوجته وصالحها ووثق بصيانتها».

كرمة كنت، كرمة ما زلت
عن «جيسبي برنوني»
من تراث فينيسيا الشعبي
1875ـ1877

كان هناك ملك يكره الزواج، فأمر ياوره أن يظل أعزب. على أن الياور وقع بصره ذات يوم على فتاة جميلة تدعى فينا وتزوجها سرا. وعلى الرغم من أنه لم يجعلها تتجاوز باب حجرتها، إلا أن الملك شك في الأمر، فأرسله بعيدا في مهمة. وبعد أن رحل، دخل الملك شقة ياوره، ووقع بصره على زوجته وكانت نائمة. ولم يزعجها الملك، ولكنه عند تركه الحجرة سقط منه قفازه سهوا على السرير. ولما عاد الزوج، وجد القفاز، فاحتفظ به في صمت. ولكنه لم يعد يبدي عاطفة نحو زوجته، ظنا منه أنها خانته.

على أن الملك تاق إلى رؤية المرأة الجميلة مرة أخرى، فأقام حفلا وأمر ياوره أن يحضر زوجته. وحاول الياور أن ينكر أنه متزوج. ولكن دون جدوى.

وفي النهاية أحضر زوجته إلى الحفل. وفي الوقت الذي كان فيه الضيوف يتبادلون الحديث في مرح، كانت الزوجة صامتة. ولاحظها الملك، وسألها عن سبب صمتها. فأجابت متلاعبة باسمها وقالت: «كرمة كنت،

وكرمة ما زلت، كنت محبوبة ولكن لم أعد اليوم مطلوبة، ولست أدري لأي سبب فقدت الكرمة موسم إثمارها».

ولما سمع زوجها كلامها أجاب: «كرمة كنت، وكرمة ما زلت. لقد كنت محبوبة ولم تعودي كذلك. لقد فقدت الكرمة موسم إثمارها بسبب مخلب أسد». وأجاب الملك الذي فهم مغزى كلامه وقال: «لقد دخلت بستان الكرم ولمست أوراقه، لكني أقسم بتاجي أنني لم أذق طعم الفاكهة». وعندئذ فهم الياور أن زوجته بريئة، وتصالح معها وعاشا معا في سعادة ورضا[22].

إن كلتا الحكايتين تعودان في النهاية إلى مجموعة «السندباد». وهناك رواية أخرى للحكاية وردت في مجموعة الكونت لوكانور تشتمل على حفل مُمل، وكذلك على أثر الأسد على نحو ما ورد في حكاية الملك وزوجة الوزير. وتحتفظ دي كاميرون بموضوع «كل النساء سواء»، ولكنها لا تحتفظ بموضوع الأسد. ومما يجدر بالذكر أن الحكاية توجد في الروايات الشرقية «للحكماء السبعة» (وهي في العربية، الوزراء السبعة)، ولكنها لا توجد في المجموعات الغربية المستمدة كذلك من «كتاب السندباد». والرواية الوحيدة التي عاشت «للوزراء السبعة هي في الحقيقة تلك التي ظهرت في ألف ليلة وليلة. وهناك شاهد على أن ألف ليلة وليلة كانت معروفة في إسبانيا العربية منذ القرن الثالث عشر، وربما استخدمها وليّ العهد دون مانويل في مجموعة الكونت لوكانور الإيطالية، حيث إن دون جوان الذي كان يقرأ العربية، اعتمد على حكايات أمثال عربية وصلت إلى فينيسيا وفلورنسا، وكلتاهما كانتا نقطتي التقاء لتجارة الشرق.

13 ـ السيدة وعاشقاها[*11]

بلغني أيها الملك عن كيد النساء أن رجلا كان يعمل سيافا عند ملك من الملوك. وكان لذلك السياف جارية يهواها. فبعث إليها يوما من الأيام علامة برسالة مع غلام على العادة بينهما. فجلس الغلام عندها ولاعبها، فمالت إليه وضمته إلى صدرها، فطلب منها المجامعة فطاوعته. فبينما هما كذلك، وإذا بسيد الغلام قد طرق الباب. فأخذت الغلام ورمته في طابق عندها ثم فتحت الباب، فدخل وسيفه بيده، فجلس على فراش المرأة، فأقبلت عليه تمازجه وتلاعبه وتضمه إلى صدرها وتقبله. فقام الرجل إليها وجامعها.

وإذا بزوجها يدق على الباب. فقال لها: من هذا؟ قالت: زوجي. فقال لها: كيف أفعل وكيف الحيلة في ذلك؟ فقالت له: قم سل سيفك وقف في الدهليز ثم سبني واشتمني. فإذا دخل زوجي عليك، فاذهب وامض إلى حال سبيلك. ففعل ذلك. فلما دخل زوجها، رأى خازندار الملك واقفا وسيفه مسلول بيده وهو يشتم زوجته ويهددها. فلما رآه الخازندار استحى وأغمد سيفه وخرج من البيت. فقال الرجل لزوجته ما سبب ذلك؟ فقالت له: يا رجل، ما أبرك هذه الساعة التي أتيت فيها؟ قد أعتقت نفسا مؤمنة من القتل، وما ذاك إلا أنني كنت فوق السطح أغزل، وإذا بغلام قد دخل عليّ مطرودا ذاهب العقل، وهو يلهث خوفا من القتل، وهذا الرجل مجرد سيفه وهو يسرع وراءه ويجد في طلبه. فوقع الغلام عليّ وقبل يدي ورجلي، وقال يا سيدتي أعتقيني ممن يريد قتلي ظلما. فخبأته في الطابق الذي عندنا. فلما رأيت هذا الرجل قد دخل وسيفه مسلول، أنكرته منه حين طلبه مني، فصار يشتمني ويهددني كما رأيت. والحمد لله الذي ساقك لي، فإني كنت حائرة وليس عندي أحد ينقذني. فقال لها زوجها: نعم ما فعلت يا مرأة، أجرك على الله فيجازيك بفعلك خيرا. ثم إن زوجها ذهب إلى الطابق ونادى الغلام، وقال له: اطلع لا بأس عليك. فطلع من الطابق وهو خائف والرجل يقول له: أرح نفسك لا بأس عليك وصار يتوجع لما أصابه، والغلام يدعو لذلك الرجل، ثم خرجا جميعا ولم يكن أحد منهما يعلم بما دبرته هذه المرأة[23].

هذه الحكاية الكلاسيكية تعرف في سلسلة نسب الحكايات، بحكاية السيف أو De gladio وذلك نقلا عن أول كتابة تظهر فيها في الغرب في النموذج الحادي عشر من كتاب مجالس المتعلمين. أما أن هذه الحكاية يحتوي عليها ذلك الكتاب عدو المرأة «كتاب السندباد»، فهو أمر لا يكاد يحتاج إلى دليل. كما أنها ظهرت في Hitopadesa وفي Sukasaptati ثم في مجموعة حكايات النساء، ومن الطريف أنه على الرغم من أن هذه الحكاية لها مكان في كل الروايات الشرقية لمجموعة «السندباد»، مثل «حكاية الملك وزوجة الوزير »، فإن حكاية السيف، لم تظهر في الروايات الغربية لمجموعة السندباد. وإنما نقلت إلى الديكاميرون جـ6/3 عن طريق كتاب مجالس المتعلمين، ومن هنا اتخذت مسارها إلى الغرب. وتعد فابولا Le lai deص

Epervier رواية قريبة من الرواية العربية التي أصبحت شائعة شيوعا كبيرا، ولها كثير من الروايات الشعبية الأوروبية والشرقية على السواء. وفي بعض الأحيان ترد المرأة بوصفها زوجة الرجل المغفل جحا نصر الدين.

وقد أورد باست في كتابه «العشيق والزوج المخدوع» رواية تركية تكاد تكون ممثلة للروايات الغربية كذلك، وتقول: كان رجل يحب زوجة جحا، وكان له غلام صغير لطيف لم تنبت له لحية بعد. وذات يوم قال الرجل لغلامه: «اذهب لزوجة جحا وأخبرها أن تستعد لزيارتي». وذهب الغلام إليها، ولم تتمالك المرأة نفسها من الفرحة فأخذته بين أحضانها وأخذت تقبله حتى حققت منه غرضها. وبينما كان الغلام يمضي الوقت مع زوجة جحا، أدرك سيده أنه قد تأخر، فخرج ليبحث عنه، ودخل بيت جحا. وعندما رأته الزوجة خبأت الغلام تحت السرير، واستقبلت السيد على النحو المعتاد. وفي هذه اللحظة قرع جحا الباب، فقالت لعاشقها: «انهض واخرج إلى البهو واحمل سيفا واشرعه»، ففعل. فلما دخل جحا سأل زوجته: «ماذا يفعل هذا الرجل هنا؟» وأجابت: «يا زوجي العزيز إنه جارنا، وقد هرب منه خادمه ولجأ إلينا. فاندفع سيده وراءه ليقتله، ولكنني خبأته تحت السرير» وقال جحا للغلام: «اخرج يا بني وادع اللّه أن يجازي تلك السيدة المحترمة التي أسدت إليك مثل هذه الخدمة الكبيرة»(24).

14 ـ حكاية الحكيم وأبنائه الثلاثة

كان هناك حكيم من الحكماء له ثلاثة أبناء وأبناء أبناء. وعندما تكاثر الأبناء وتضاعف عددهم نشب الخلاف بينهم. عندئذ جمعهم الحكيم وقال لهم: «كونوا يدا واحدة ضد الآخرين ولا يستصغر أحدكم الآخر، لئلا يستصغركم الناس، واعلموا أن مثلكم مثل الرجل والحبل، فالرجل كان يسهل عليه أن يقطع الحبل إذا كان مفردا، أما إذا كان مزدوجا فإنه لم يكن يستطيع قطعه. وعلى هذا النحو تكون الفُرقة والاتحاد. وحذار أن تطلبوا مساعدة الآخرين ضدكم وإلا سقطتم في الضياع، إذ مهما يكن مكسبكم من وراء ذلك، فإن مطالبكم ستكون في أيديهم وستكون كلمتهم أعلى من كلمتكم. والآن أقول لكم إن عندي مالا سوف أدفنه في مكان معين فيكون لكم ذخرا ضد الزمن والحاجة». ولما قال لهم الرجل هذا الكلام تركه

الأبناء وتفرقوا. ولكن أحد الأبناء تجسس على والده وهو يدفن ماله، ورآه يدفنه خارج المدينة. أما الأب فعندما فرغ من دفن ماله عاد إلى بيته. وما إن أشرق صباح اليوم التالي حتى عاد الابن إلى المكان الذي رأى فيه الأب يدفن ماله، وحفر في الأرض واستولى على ما عثر عليه ورحل. ولما شعر الأب بقرب أجله، دعا أبناءه واصطحبهم إلى المكان الذي دفن فيه ماله. ولما وافاه الأجل، ذهب الأبناء وحفروا حتى اهتدوا إلى ثروة طائلة، ذلك أن المال كان ابنه الأول قد أخذه لنفسه خلسة، لم يكن يمثل سوى الطبقة السطحية منه، ولم يكن يعلم أنه تحت هذه الطبقة كان لا يزال مدفونا الكثير من المال. فحمل الأبناء المال ووزعوه بينهم، وأخذ الابن الأول نصيبه كذلك، وضمه إلى ما سبق أن استولى عليه من وراء أبيه وإخوته. ثم تزوج هذا الابن ابنة عمه، وبورك الزواج بإنجاب ابن كان أجمل أقرانه في عصره. ولما كبر الابن، خشي الأب عليه من الفاقة فقال له: «يا ابني العزيز، اعلم أنني في شبابي خدعت إخوتي في تركة والدنا. وإني أراك في خير وسعادة، ولكن إذا أصابك العوز، فلا تسأل أحدا منهم ولا تسأل غيرهم، لأنني تركت لك في الحجرة البعيدة كنزا. ولكن لا تفتحه إلا إذا عجزت عن أن تحصل على قوت يومك». ثم مات الرجل وورث ابنه أمواله الطائلة. ولكن الابن لم يكن لينتظر حتى يحتاج، فهب من فوره وفتح الحجرة، ولكنه لم ير إلا فراغا وسط الجدران البيضاء. على أنه رأى في وسطها حبلا يتدلى كما يتدلى حبل الدلو. كما رأى عشر قوالب من الطوب وقد وضعت على الأرض. ثم رأى لفيفة من الورق كتب عليها: «ليس هناك مفر من الموت فعلق نفسك ولا تستنجد بأحد، بل اركل القوالب بقدمك، حتى لا يكون هناك مهرب لحياتك، وعندئذ ستجد الراحة من الأعداء والحساد ومرارة التوسل». وعندما رأى الشاب هذا، تعجب مما فعله أبوه وقال: «إنّ هذا إلا كنز تعيس»، ثم مضى لحاله. وظل مستغرقا مع الناس في الأكل والشرب حتى لم يبق له شيء. ثم مضى عليه يومان لم يذق فيهما طعاما. وفي النهاية أخذ منديلا وباعه بدرهمين، واشترى خبزا ولبنا بثمنهما، وتركهما على الرف وخرج. وفي أثناء غيابه، جاء كلب وجذب الخبز ولوث اللبن. وعندما عاد الشاب ورأى ذلك، لطم على وجهه وخرج هائما على وجهه. فتقابل مصادفة مع صديق أخبره بما حدث فقال له الصديق: «ألا تخجل

مما تقوله؟ كيف تبدد كل ما كان لديك من ثروة لتخبرني بأكاذيب، وتقول: إن الكلب قفز على الرف، وتتحدث بمثل هذه السخافات». ثم تركه الصديق لحاله، وعاد الشاب إلى بيته، وكانت الدنيا قد أظلمت حقا في وجهه فصرخ قائلا: «إن ما قاله أبي كان حقا». ثم فتح باب الحجرة، وجمع قوالب الطوب وجعلها تحت رجله، ووضع الحبل حول عنقه، ثم ركل القوالب برجله، وظل يتأرجح في الهواء. وفي هذه اللحظة قطع الحبل وسقط الشاب على الأرض، في الوقت الذي انفلق فيه السقف، وأخذت فلقاته تتباعد ومن فتحاتها أخذت النقود تتساقط عليه. عندئذ علم أن والده كان يقصد بفعله هذا تأديبه. فطلب له الرحمة، وراح واشترى مرة أخرى ما كان قد باعه من الأراضي والعقار، كما اشترى غيرها، وأصبح مرة أخرى في أحسن حال، كما عاد إليه أصحابه، فأدخل عليهم السرور بعض الوقت، وذات يوم قال لهم: «كان لدينا خبز وجاء الجراد وأكله، فوضعنا مكانه حجرا طوله ذراع وعرضه ذراع، وجاء الجراد وقضم الحجر لأنه اشتم فيه رائحة الخبز». وعندئذ قال له أحد أصدقائه (وكان هو ذلك الصديق بعينه الذي كذّبه في موضوع الكلب والخبز واللبن): «لا تتعجب من ذلك، لأن الجرذان والفئران تفعل أكثر من هذا». عندئذ رد عليه الشاب قائلا: «هيا عد إلى بيتك. لقد كنتُ كاذبا أيام أن كنت فقيرا، عندما أخبرتك أن الكلب قفز على الرف وأكل الخبز ولوث اللبن. واليوم، لأني عدت غنيا مرة أخرى، فإني أقول الصدق عندما أخبرك أن الجراد التهم حجرا طوله ذراع وعرضه ذراع». وخجل الأصدقاء من كلامه، وقاموا لتوهم وغادروا بيته، أما الشاب فقد أصبح وافر الثراء وانصلح حاله[25].

تتضمن مجموعة فرانز جيمس تِشَيِّلد العمدة في قصائد البالاد الإنجليزية التراثية، The English and Scottish Popular Ballads (بوسطن 1814 ـ 98)، تتضمن ذلك النموذج القصصي الذي يسمى عادة في الدراسات الشعبية، «كنز السقف». وفيما يختص برقم 267 عند تشيلد تحت عنوان The Heir of Linne، فالصيغ المنظومة عنه لا تشبه حكاية ألف ليلة وليلة إلا في عمومياتها؛ فالشاب المبذر تَذكّر في النهاية رسالة أبيه بعد أن بعثر ثروته وأملاكه. ثم عثر على كنز جديد، واستعاد ممتلكاته كما استعاد وضعه الاجتماعي. ولكن مجموعة تشيلد تحتوي كذلك على حكاية هابطة

ومبالغة في عاطفيتها، وتقترب على نحو ما من حكايتنا هي حكاية «ميراث سكير» التي ترجع إلى القرن الثامن عشر. ويمتلك كلاوستون نسخة شعبية للحكاية نفسها في صيغة ترجع كذلك إلى القرن الثامن عشر. وقد استعار كلاوستون من حكاية تشيلد العنوان الذي يلخص أحداثها وهو ميراث سكير. وتقع هذه القصة الأخيرة في أربعة أجزاء: الأول ويحكي عن رجل نبيل وابنه الفاسد. ولما تنبأ الأب أن الفقر مستقبل ابنه، بنى كوخا له باب واحد وكان يغلقه على الدوام. وعندما رقد الأب على فراش الموت، أخذ على ابنه العهد ألا يفتح الكوخ إلا إذا أصبح فقيرا معدما، ووعد الابن أن ينفذ وصية أبيه. أما الجزء الثاني فيحكي عن هذا الابن الشاب الذي رهن ممتلكاته لتاجر خمور. ولما وجد تاجر الخمور أن الابن أصبح معدما، طرده. ثم رأى الابن أن الوقت مناسب لأن يطلع على ميراثه من أبيه، فكسر باب الكوخ، ولكنه بدلا من أن يجد النقود، وجد مشنقة ورسنا، فوضع الرسن حول رقبته ثم قفز من فوق المقعد، فانكسرت المشنقة وانهالت على رأسه ألف جنيه كانت مخبأة في السقف. ويحكي الجزء الثالث عن استعادة الشاب لأملاكه وخداعه لتاجر الخمور في مائتي جنيه. ولما أصبح تاجر الخمور موضع سخرية من جيرانه، تخلص من حياته بقطع رقبته. ويحكي الجزء الأخير عن انصلاح حال الشاب[26].

كانت حكاية «ميراث السكير» واسعة الانتشار، وكان لها رواياتها المماثلة في فرنسا وألمانيا وإيطاليا واليونان. ويذكر تشيلد إشارات لها تعود إلى القرن السادس عشر، وترد في كتب قصص إنجليزية، ولدى كتّاب الفابولا من الفرنسيين. وفي النهاية يمكننا تتبع أصل هذه الحكاية في مجموعة «السندباد».

15 ـ السيدة وخطابها الخمسة[*12]

وقد بلغني حديث امرأة فعلت مع أرباب الدولة مكيدة ما سبقها بمثلها أحد قط. فقال الملك: وكيف كان ذلك؟ قال الوزير: بلغني أيها الملك أن امرأة من بنات التجار كان لها زوج كثير الأسفار، فسافر زوجها إلى بلاد بعيدة وأطال الغيبة. فزاد عليها الحال، فعشقت غلاما ظريفا من أولاد التجار، وكانت تحبه ويحبها محبة عظيمة. ففي بعض الأيام تنازع الغلام

مع رجل، فشكاه الرجل إلى والي تلك البلدة فسجنه. فبلغ خبره زوجة التاجر معشوقته، فطار عقلها عليه، فقامت ولبست أفخر ملبوسها ومضت إلى منزل الوالي فسلمت عليه ودفعت له ورقة تقول له فيها: «إن الذي سجنته وحبسته هو أخي فلان الذي تنازع مع فلان، والجماعة الذين شهدوا عليه قد شهدوا باطلا، وقد سجن في سجنك وهو مظلوم، وليس عندي من يدخل عليّ ويقوم بحالي غيره، وأسأل من فضل مولانا إطلاقه من السجن». فلما قرأ الوالي الورقة. ثم نظر إليها فعشقها، وقال لها: ادخلي المنزل حتى أحضره بين يدي. ثم أرسل إليك فتأخذيه. فقالت له: يا مولانا ليس لي أحد إلا الله تعالى، وأنا امرأة غريبة لا أقدر على دخول منزل أحد. فقال لها الوالي: لا أطلقه لك حتى تدخلي المنزل وأقضي حاجتي منك. فقالت له: إن أردت ذلك، فلابد أن تحضر عندي في منزلي، وتقعد وتنام وتستريح نهارك كله. فقال لها: وأين منزلك؟ فقالت له: في الموضع الفلاني. ثم خرجت من عنده وقد اشتعل قلب الوالي. فلما خرجت، دخلت على قاضي البلد، وقالت له: يا سيدنا القاضي، قال لها نعم: قالت له: انظر في أمري وأجرك على الله. فقال لها: من ظلمك؟ قالت له: يا سيدي: لي أخ، وليس لي أحد غيره، وهو الذي كلفني الخروج إليك، لأن الوالي قد سجنه وشهدوا عليه بالباطل أنه ظالم. وإنما أطلب منك أن تشفع لي عند الوالي. فلما نظرها القاضي عشقها. فقال لها: ادخلي المنزل عند الجواري، واستريحي معنا ساعة ونحن نرسل إلى الوالي بأن يطلق أخاك. ولو كنا نعرف الدراهم التي عليه كنا دفعناها من عندنا لأجل قضاء حاجتنا لأنك أعجبتِنا من حسن كلامك. فقالت له: إذا كنت أنت يا مولانا تفعل ذلك، فما نلوم الغير. فقال لها القاضي: إن لم تدخلي منزلنا، فاخرجي إلى حال سبيلك. فقالت له: إن أردت ذلك يا مولانا، فيكون عندي في منزلي أستر وأحسن من منزلك، فإن فيه الجواري والخدم والداخل والخارج، وأنا امرأة ما أعرف شيئا من هذا الأمر، لكن الضرورة تُحوج. فقال لها القاضي: وأين منزلك؟ فقالت له: في الموضع الفلاني. وواعدته على اليوم الذي وعدت فيه الوالي.

ثم خرجت من عند القاضي إلى منزل الوزير، فرفعت إليه قصتها وشكت إليه ضرورة أخيها، وأنه سجنه الوالي. فراودها الوزير عن نفسها، فقال لها: نقضي حاجتنا منك ونطلق لك أخاك. فقالت له: إن أردت ذلك

فيكون عندي في منزلي، فإنه أستر لي ولك، ولأن المنزل ليس بعيدا، وأنت تعرف ما نحتاج إليه من النظافة والظرافة. فقال لها الوزير: وأين منزلك؟ فقالت له: في الموضع الفلاني. وواعدته على ذلك اليوم. ثم خرجت من عنده إلى ملك تلك المدينة، ورفعت إليه قصتها وسألته إطلاق أخيها. فقال لها: من حبسه؟ قالت له: حبسه الوالي. فلما سمع الملك كلامها رشقته بسهام العشق في قلبه. فأمرها أن تدخل معه القصر حتى يرسل إلى الوالي ويخلص أخاها فقالت له: أيها الملك: هذا أمر يسهل عليك إما باختيار وإما قهرا عني، فإن كان الملك أراد ذلك مني، فإنه من سعد حظي، ولكن إذا جاء إلى منزلي يشرفني بنقل خطواته الكرام كما قال الشاعر:

خليليّ هل أبصرتما أو سمعتما

زيارة من جَلّت مكارمه عندي

فقال لها الملك: لا نخالف لك أمرا، فواعدته في اليوم الذي واعدت فيه غيره وعرفته منزلها ثم خرجت من عنده. فجاءت إلى رجل نجار، وقالت له: أريد منك أن تصنع لي خزانة بأربع طبقات بعضها فوق بعض. كل طبقة بباب يُقفل عليها. وأخبرني بقدر أجرتك فأعطيك. فقال لها: أربعة دنانير. وإن أنعمت عليّ أيتها السيدة المصونة بالوصال فهو الذي أريد ولا آخذ منك شيئا. فقالت له: إن كان ولابد، فاعمل لي خمس طبقات بأقفالها. فقال لها: حبا وكرامة. وواعدته أن يحضر لها الخزانة في ذلك اليوم بعينه فقال لها النجار: يا سيدتي اقعدي حتى تأخذي حاجتك في هذه الساعة، وأنا بعد ذلك أجيء على مهلي. فقعدت عنده حتى عمل لها الخزانة بخمس طبقات وانصرفت إلى منزلها، فوضعتها في المحل الذي فيه الجلوس. ثم أخذت أربعة ثياب وحملتها إلى الصباغ، فصبغ كل ثوب لونا وكل لون خلاف الآخر، وأقبلت على تجهيز المأكول والمشروب والمشموم والفواكه والطيب.

فلما جاء يوم الميعاد لبست أفخر ملبوسها، وتزينت وتطيبت، ثم فرشت المجلس بأنواع البسط الفاخرة وجلست تنتظر من يأتي. وإذا بالقاضي دخل عليها قبل الجماعة. فلما رأته، قامت واقفة على قدميها، وقبلت الأرض بين يديه، وأخذته على ذلك الفراش ونامت معه ولاعبته. فأراد منها قضاء الحاجة، فقالت له: يا سيدي، اخلع ثيابك وعمامتك والبس هذه الغلالة الصفراء، واجعل هذا القناع على رأسك حتى نحضر المأكول

والمشروب، وبعد ذلك تقضي حاجتك. ثم أخذت ثيابه وعمامته، ولبس الغلالة والقناع، وإذا بطارق يطرق الباب، فقال لها القاضي: من هذا الذي يطرق الباب؟ فقالت له: هذا زوجي. فقال لها: وكيف العمل؟ وأين أروح أنا؟ فقالت له: لا تخف، فإني أدخلك هذه الخزانة. فقال لها: افعلي ما بدا لك. فأخذته من يده وأدخلته في الطبقة السفلى، وأقفلت عليه.

ثم إنها خرجت إلى الباب وفتحته، وإذا هو الوالي. فلما رأته قبلت الأرض بين يديه وأخذته بيدها وأجلسته على ذلك الفراش، وقالت له يا سيدي إن الموضع موضعك والمحل محلك، وأنا جاريتك ومن بعض خدامك. وأنت تقيم هذا النهار عندي، فاخلع ما عليك من الملبوس والبس هذا الثوب الأحمر، فإنه ثوب النوم. وقد جعلت على رأسه خلقا من خرقة كانت عندها. فلما أخذت ثيابه أتت إليه في الفراش ولاعبته ولاعبها. فلما مد يده إليها، قالت له: يا مولانا، هذا النهار نهارك، ولا أحد يشاركك فيه، ولكن من فضلك وإحسانك، تكتب لي ورقة بإطلاق أخي من السجن حتى يطمئن خاطري. فقال لها: السمع والطاعة على الرأس والعين. وكتب كتابا إلى خازنداره يقول له فيه: ساعة وصول هذه المكاتبة إليك تطلق فلانا من غير إمهال ولا إهمال، ولا تراجع حاملها بكلمة. ثم ختمها وأخذتها منه. ثم أقبلت تلاعبه على الفراش، وإذا بطارق يطرق الباب. فقال لها: من هذا؟ قالت: زوجي قال؛ كيف أعمل؟ فقالت له: ادخل هذه الخزانة حتى أصرفه وأعود إليك. فأخذته وأدخلته في الطبقة الثانية، وأقفلت عليه. كل هذا والقاضي يسمع كلامها.

ثم خرج إلى الباب وفتحته، فإذا الوزير قد أقبل. فلما رأته، قبلت الأرض بين يديه وتلقته وخدمته. وقالت له: يا سيدي، لقد شرفتنا بقدومك في منزلنا يا مولانا، فلا أعدمنا الله هذه الطلعة. ثم أجلسته على الفراش، وقالت له: اخلع ثيابك وعمامتك والبس هذه التخفيفة. فخلع ما كان عليه، وألبسته غلالة زرقاء وطرطورا أحمر. وقالت له: يا مولانا، هذه ثياب المنادمة والبسط والنوم. فلما لبسها الوزير لاعبته على الفراش ولاعبها وهو يريد قضاء الحاجة وهي تمنعه، وتقول له: يا سيدي، هذا ما يفوتنا. فبينما هم في الكلام، وإذا بطارق يطرق الباب، فقال لها: من هذا؟ فقالت له: زوجي. فقال لها: كيف التدبير؟ فقالت له، قم وادخل هذه الخزانة حتى أصرف

زوجي وأعود إليك ولا تخف. ثم إنها أدخلته الطبقة الثالثة وأقفلت عليه وخرجت، وفتحت الباب فإذا هو الملك.

فلما رأته قبلت الأرض بين يديه، وأخذته بيده، وأدخلته في صدر المكان وأجلسته على الفراش، وقالت له: شرفتنا أيها الملك، ولو قدمنا لك الدنيا وما فيها ما تساوي خطوة من خطواتك إلينا. فلما جلس على الفراش، قالت له. أعطني إذنا حتى أكلمك كلمة واحدة. فقال لها: تكلمي مهما شئت. فقالت له: استرح يا سيدي واخلع ثيابك وعمامتك. وكانت ثيابه في ذلك الوقت تساوي ألف دينار، فلما خلعها ألبسته ثوبا خلقا قيمته عشرة دراهم بلا زيادة. وأقبلت تؤانسه وتلاعبه. هذا كله والجماعة الذين في الخزانة يسمعون ما يحصل منها، ولا يقدر أحد أن يتكلم. فلما مد الملك يده إلى عنقها، وأراد أن يقضي حاجته منها، قالت له: هذا الأمر لا يفوتنا وقد كنت قبل الآن وعدت حضرتك بهذا المجلس، فلك عندي ما يسرك. فبينما هما يتحدثان. وإذا بطارق يطرق الباب. فقال لها: من هذا؟ قالت: زوجي، فقال لها: اصرفيه عنا كرما منه، وإلا فأطلع إليه أصرفه قهرا. فقالت له: لا يكون ذلك يا مولانا بل اصبر حتى أصرفه بحسن معرفتي. فقال لها: وكيف أفعل أنا؟ فأخذته من يده وأدخلته في الطبقة الرابعة وأقفلت عليه. ثم خرجت إلى الباب ففتحته، وإذا هو النجار فلما. دخل وسلم عليها قالت له: أي شيء هذه الخزائن التي عملتها؟ فقال لها: ما لها يا سيدتي؟ فقالت له: إن هذه الطبقة ضيقة. فقال لها: هذه واسعة. فقالت له: ادخل وانظرها فإنها لا تسعك. فقال لها: هذه تسع أربعة، ثم دخل النجار. فلما دخل قفلت عليه الطبقة الخامسة. ثم إنها قامت وأخذت ورقة الوالي ومضت بها إلى الخازندار. فلما أخذها، قبلها، وأطلق لها الرجل عشيقها من الحبس، وأخبرته بما فعلته. فقال لها: وكيف تفعلين هذا؟ قالت له نخرج من هذه المدينة إلى مدينة أخرى، وليس لنا بعد هذا الفعل إقامة هنا. ثم جهزا ما كان عندهما وحملاه على الجمال وسافرا من ساعتهما إلى مدينة أخرى.

وأما القوم فإنهم أقاموا في طبقات الخزانة ثلاثة أيام بلا أكل، فانحصروا لأن لهم ثلاثة أيام لم يتبولوا، فبال النجار على رأس السلطان، وبال السلطان على رأس الوزير وبال الوزير على رأس الوالي، وبال الوالي على رأس القاضي وقال: أي شيء هذه النجاسة، أما يكفينا ما نحن فيه حتى تبولوا

علينا، فرفع الوالي صوته، وقال: عظم الله أجرك أيها القاضي. فلما سمعه عرف أنه الوالي. ثم إن الوالي رفع صوته وقال، ما بال هذه النجاسة، فرفع الوزير صوته، وقال: عظم الله أجرك أيها الوالي، فلما سمعه الوالي عرف أنه الوزير، ثم إن الوزير رفع صوته. وقال: ما بال هذه النجاسة، فرفع الملك صوته. وقال: عظم الله أجرك أيها الوزير. ثم إن الملك لما سمع كلام الوزير عرفه ثم سكت وكتم أمره. ثم إن الوزير قال: لعن الله هذه المرأة بما فعلت معنا، أحضرت جميع أرباب الدولة عندها ما عدا الملك. فلما سمعهم الملك. قال لهم: استوا، فأنا أول من وقع في شبكة هذه العاهرة الفاجرة. فلما سمع النجار قولهم، قال لهم، وأنا أي شيء ذنبي، قد عملت لها خزانة بأربعة دنانير ذهبا، وجئت أطلب الأجرة فاحتالت عليّ، وأدخلتني هذه الطبقة وأقفلتها عليّ. ثم إنهم صاروا يتحدثون مع بعضهم وسلّوا الملك بالحديث وأزالوا ما عنده من الانقباض.

فجاء جيران هذا المنزل فرأوه خاليا فقال بعضهم لبعض، بالأمس كانت جارتنا زوجة فلان فيه، والآن لم نسمع في هذا الموضع صوت أحد، ولا نرى فيه إنسيا، فاكسروا هذه الأبواب، وانظروا حقيقة الأمر لئلا يسمع الوالي أو الملك فيسجنا، فنكون ناديمن على أمر لم نفعله قبل ذلك. ثم إن الجيران كسروا الأبواب ودخلوا فرأوا خزانة من خشب، ووجدوا فيها رجالا تئن من الجوع، والعطش، فقال بعضهم لبعض: هل هناك جني في هذه الخزانة؟ فقال واحد منهم، نجمع لها حطبا ونحرقها بالنار. فصاح عليهم القاضي، وقال: لا تفعلوا ذلك. فقال الجيران بعضهم لبعض إن الجن يتصورون ويتكلمون بكلام الإنس. فلما سمعهم القاضي قرأ شيئا من القرآن العظيم. ثم قال للجيران: ادنوا من الخزانة التي نحن فيها. فلما دنوا منها قال لهم: أنا فلان، وهو فلان وفلان، ونحن هنا جماعة، فقال الجيران للقاضي: ومن جاء بك هنا فأعلمنا بالخبر، فأعلمهم بالخبر من أوله إلى آخره. فأحضروا لهم نجارا، ففتح للقاضي خزانته وكذلك الوالي والوزير، والملك والنجار، وكل منهم بالملبوس الذي عليه، فلما طلعوا نظر بعضهم لبعض، وصار كل منهم يضحك على الآخر. ثم إنهم خرجوا وطلبوا المرأة، فلم يقفوا لها على خبر، وقد أخذت جميع ما كان عليهم فأرسل كل جماعة منهم إلى جماعته يطلب ثيابا، فأحضروا لهم ملبوسا ثم خرجوا مستورين

به على الناس[27].

ترد هذه الحكاية مرتين في ألف ليلة وليلة. وتتحدث الصيغة الثانية عن أربعة رجال يلاحقون زوجة فاضلة، وتدبر هي وزوجها حيلة للتخلص منهم. فتدعوهم الزوجة واحدا تلو الآخر إلى بيتها. ويأتي كل واحد منهم ومعه هدية، ثم يُجرد من ملابسه ويستبدل بها لباسا مزركشا. وفي هذه اللحظة يقطع الموقف وصول الضيف التالي. أما الضيف السابق فيحبس في حجرة. وآخر من يصل هو الزوج، وتخبره أنها قابلت أربعة من المهرجين في السوق. وكان على الضحايا بعد ذلك أن يقوموا بحركات بهلوانية ويحكي كل منهم حكاية يسلي بها الزوج. ثم يُطلق سراحهم بعد ذلك[28].

وهذه الحكاية، شأنها شأن كثير من الأقاصيص لها تاريخ غني، فهي تظهر في المجموعة السنسكريتية كاثاساريتاجرا أو محيط ينابيع الحكايات التي جمعها سومادیفا، وهي مجموعة ضخمة من الحكايات التي ظلت متداولة حوالي ألف سنة بعد الميلاد، لكنها أصبحت لازمة ومألوفة اليوم. وتتضمن حكايات أكثر قدما بكثير. وهناك نقش بارز يرجع إلى القرن الثالث قبل الميلاد في «برهوت»، يرجح أنه تصوير لهذه الحكاية، مما يدعم افتراض أن أصلها بوذي. ولهذه الحكاية تنويعات مختلفة في الكتب الفارسية توتي نامه وبحارى دانش، ثم ألف يوم ويوم، وكذلك في النص العربي لكتاب السندباد الذي يسمى الوزراء السبعة. وفي الكتاب التركي تاريخ الوزراء الأربعين، وفي حكايات فرنسا الخرافية عند كونستان دي هامل، ومآثر الرومان gesta Romanorum، إلى غير ذلك. وأفضل رواية إنجليزية يظن أنها تركز على حكاية العقاب De Castitate التي ترد في المآثر، (من المحتمل أنها كتبت في إنجلترا) هي حكاية «زوجة الصانع الطاهرة» التي كتبها آدم كوبسام في 1462».

في هذه الحكاية لا يقدم الصانع لزوجته مهرا، بل طاقة من الورد الذي يظل محتفظا بلونه ما دامت الزوجة وفية. ويبني العامل لزوجته حجرة في برج حتى لا يفسدها أحد، ولهذه الحجرة باب سري يقود إلى جب. ثم يرسله سيده لبناء بهو، وبذلك يتقرر غيابه عن زوجته شهرين أو ثلاثة شهور. ويسأله السيد عن طاقة الورد، ويشرح له العامل الأمر. وبعد ذلك يذهب السيد سرا إلى الزوجة ليحاول أن يراودها عن نفسها. فأبدى لها

حبه ومنحها أربعين ماركا. فتأخذ الزوجة النقود وترسله إلى الحجرة السرية حيث يقع في الجب. وعلى الرغم من توسلاته، ترفض الزوجة تخليصه قبل أن يراه زوجها. وكان عليه، لكي يحصل على طعام، أن يغزل الكتان. ثم يأتي تابع السيد ويسأل الزوجة عن سيده. وعندما يلاحظ طاقة الورد، يقرر هو كذلك أن يراود المرأة، ولكنه يواجه المصير نفسه بعد أن خسر عشرين ماركا. ويتكرر الأمر مع وكيل الكنيسة الذي حضر للسؤال ويتكرر معه الشيء نفسه (عشرين ماركا). وعندما يعود الزوج تخبره الزوجة بأن الرجال الثلاثة عمال جاءوا لمساعدتها، ولن تتركهم يرحلون إلا بعد أن تأتي زوجة السيد وتسمع قصتهم جميعا. ولما رأتهم زوجه السيد ضحكت، وأطلقت سراح زوجها مع من معه بعد أن جمعت المال الذي دفعه الرجال الثلاثة وقدمته للزوجة.

وتلقي هذه الحكاية، بمقارنتها بالحكاية السابقة في مآثر الرومان، مزيدا من الضوء على استخدام مثل هذه الحكايات في المواعظ بوصفها حكايات تمثيلية. ففي حكاية المآثر، يُعطي الزوج النجار قميصا بدلا من طاقة الورد. وهذا القميص لا يحتاج إلى غسيل إلا إذا ثبت أنه هو أو زوجته خائن. أما الطامعون في الزوجة فكانوا ثلاثة من الفرسان الذين يُحبسون ولا يتناولون طعاما سوى الخبز والماء، ولا يجبرون على العمل. ولا تظهر زوجة السيد في هذه الحكاية. ولكن الهدف الأخلاقي يؤول كاملا على النحو التالي: فالزوجة تمثل الكنيسة، الأم المقدسة، والنجار يمثل المسيحي الصادق. والقميص يمثل الإيمان. أما الفرسان فيمثلون على التوالي غرور الحياة وشهوة العينين وشهوة الجسد التي يتحتم عليك حبسها في حجرة العقاب إلى أن تلقى المكافأة الأبدية... ولتتضرع بعد ذلك إلى اللّه»[29].

إن نموذج المآثر وكذلك نموذج الزوجة العفيفة يقومان على دليل العفة. وهي لا تظهر في حكايتي ألف ليلة وليلة مما يميز الحكايات المتفرعة عن هذا النمط، أما الروايات الأخرى فتميز بحادثة مألوفة في هذا النمط بوجه عام، وهي حادثة طلاب المرأة الذين وقعوا في المصيدة. وكلا الشكلين تضمهما في الواقع المجموعة الهندية.

ويظهر موضوع دليل العفّة في حكايات ديفاسمينا (اسم المرأة)، حيث يعطي الإله «سيِفَا» المرأة وزوجها زهرتي لوتس حمراوين عندما يضطر

الزوج التاجر إلى أن يسافر إلى بلد آخر للتجارة. ويسمع أربعة من شباب التجار حكاية زهرتي اللوتس، فيقررون إغراء الزوجة ديفا سميتا. فرحلوا إلى المدينة حيث تعيش الزوجة، ورشوا امرأة زاهدة استخدمت حيلة الجرو الباكي لإقناع المرأة بأنها تبالغ في عفتها. ولكن ديفا سميتا تكشف الحيلة وترتب الأمر بحيث تدفع كل واحد منهم بدوره، عندما يزورها، إلى حالة السكر ثم تسمهم بالكيّ، ثم ترسلهم بعد ذلك إلى زوجها. وعندما رأى الزوج العلامات التي وسم بها الرجال بالكيّ، كان في إمكانه أن يدعي أن الرجال الأربعة عبيد لزوجته، وكانوا يريدون الهرب منها. ولكن الحقيقة اتضحت بعد ذلك، ودُفعت فدية للتجار، وعادت الزوجة مع زوجها، إلى بيتها مكرمين للغاية.

أما أصل الحكاية في كاثا ساريتساجرا الذي يخلو من موضوع إمارة العفة، فهي حكاية الزوجة الفاضلة أوباكوزا؛ ففي هذه الحكاية جرد الخطاب الثلاثة من ملابسهم ودهنت أجسامهم بسناج المصابيح، وحبسوا في سلة. وكان الموعد الرابع لرجل يعمل في بنك يحتفظ معه بنقود لزوجها، وقال إنه سوف ينكر النقود إذا لم تخضع له. ثم وعدها بأن يسلم لها المال في الحال في نهاية زيارته لها. وهذا بدوره جرد من ملابسه وظل كذلك حتى الفجر ثم ألقي به في الشارع، وذهبت أوباكوزا في الحال إلى الملك، وادعت أن الرجل سرق مالها. فلما أنكر، قالت إن آلهة البيت التي تحتفظ بها في السلة تشهد على صدق قولها. وقد شهد لها الرجال الثلاثة من داخل السلة بدلا من أن يعرضوا أنفسهم للفضيحة. ولما طلب الملك رؤية آلهة البيت، مثل أمامه المجرمون وسخر منهم الحاضرون، وعندئذ عرفت حكايتهم كاملة.

بينما خلدت حكايات توتي نامة الفارسية إمارة العفة، نقلت حكاية الوزراء السبعة العربية موضوع حبس الخطاب مستقلا، وهو الموضوع الذي اتسع ليشمل الروايتين الواردتين في ألف ليلة وليلة، وقد ورد موضوع الخزانة المقسمة في حكاية «الوزراء السبعة» من قبل. وهكذا فإن ما فعلته المرأة في الحقيقة كان بدافع إنقاذ عاشقها من السجن، وليس من أجل حماية حقوق الزوج. وما زال عنصر الغائط في حادثة الحبس في الخزانة موضوعا سائدا في الفكاهة الشعبية، على نحو ما يرد في النادرة الأمريكية، السيناتور

بانكي، وهي التي تحكي عن طقوس الدخول في نوادي الرجال[30]، وإمارة العفة له بطبيعة الحال تاريخ منفصل في الحكايات الأخرى. وأكثر الصيغ انتشارا تلك التي يرد فيها ذكر القميص أو العباءة على نحو ما ورد في البالاد الإنجليزي بعنوان «الولد والعباءة» The Boy and the Mantle، وكذلك في Fabliau eort Mantel وما ورد مشابها لذلك في النرويج وعند الألمان والأيرلنديين.

ويتفق مع طبيعة ألف ليلة وليلة التي تمثل الفولكلور العربي بقدر ما تمثل طرق الحياة المختلفة التي يتبناها العرب، وما تشتمل عليه من حضارة مختلفة التفاصيل وممثلة لوجهات نظر الطبقات الاجتماعية المختلفة بالنسبة للفكاهة والعار وغير ذلك، يتفق معها، أنها تطور بالضرورة روايتين لافتتين لحكاية شائعة واحدة.

وإذا شئنا أن نقدم رواية حديثة لهذه الحكاية نعود إلى النظر في الحكاية الغنائية الشعبية (البالاد). ويرى تشيلد أن حكاية الراهب في البئر مستخلصة من نموذج حبس المراودين للمرأة. وهو يقول إن هذه الحكاية:

«ليست غريبة على قدرات التخيل عند الغربيين، ولكن وجود بئر مفتوحة داخل البيت الإنجليزي على الأقل شيء غير مألوف. وإذا وجدنا شيئا من هذا القبيل في حكاية شرقية، فإن استعارة هذا الموضوع تكون أكثر ترجيحا من تأليفه. فهناك عدد كبير من حكايات معظمها شرقي يرد فيها أن المرأة العفيفة تسبب الفضيحة لاثنين أو أكثر من مراوديها. وفي مجموعة الحكايات الفارسية «توتي نامه»، وضعت المرأة فراشا على بئر جافة، ودعت مراوديها للجلوس عليه، فسقطوا في البئر، ومن المعقول أن نفترض أننا هـهنا نجد المصدر البعيد لهذه الحيلة في أغانينا القصصية الشعبية.

الراهب في البئر

بينما كنت مستغرقا في تأملي، فالالالا
فكرت في طرفة فالالالا
فلتصغ قليلا فسوف أحكيها لك،
عن راهب وقع في حب فتاة جميلة.

فا لا لا لا
فجاء إلى الفتاة وهي في فراشها،
راغبا في فض عذريتها.
واستنكرت الفتاة رغبته،
وقالت له إنها تخاف عذاب الجحيم.
هس: قال الراهب، لست في حاجة لأن تَشْكّي،
إذا ذهبتِ إلى الجحيم فسوف أخرجك منه.
حسنا، قالت الفتاة، فلك رغبتك.
وسعد الراهب سعادة الثعلب في وكره
ولكن شيئا واحدا أرغبه: قالت الفتاة،
قبل أن تحقق رغبتك.
فقبل أن تفعل ما تريده،
أحضر لي مبلغا من المال.
ها، ها قال الراهب، ونحن متفقان،
فلا مال يحول بيني وبين حبي.
فأنا على استعداد، لو أراك في حاجة إلى المال،
أن أخلع عباءتي الرمادية من على ظهري وأرهنها.
وفكرت الفتاة لحظة،
لتدبير مؤامرة تضلل بها الراهب.
فلما رحل، وأنا أحكي لكم الصدق،
علقت قطعة من القماش أمام بئر.
وعاد الراهب حسب الاتفاق
ووضع النقود أمام محبوبته. وقال:
صباح الخير. يا فتاتي الجميلة
وردت: صباح الخير. قال:
هاكِ النقود التي وعدتك بها.
وشكرت الفتاة الراهب وأخذت النقود وقالت:
هيا بنا إذن يا محبوبي،
آه: انتظر، قالت، هل لنا أن نرجئ الأمر قليلا

إن أبي آت ليأخذني
قال الراهب: يا حسرتي. أين أجري إذن؟
أين أختبئ إلى أن يرحل؟
هناك خلف القماش المنشور: قالت الفتاة،
وهناك لن يستطيع أبي رؤيتك.
وخطا الراهب خلف الستار
وفجأة وجد نفسه في البئر.
يا للأسف قال: إنني وقعت في البئر.
قالت الفتاة: ما عليك أن تقع في الجحيم.
ألم تخبرني أنك تستطيع خلاصي من الجحيم؟
الآن أنقذ نفسك من البئر.
وغنى الراهب بصوت حزين يدعو إلى الشفقة،
وقال: أنقذيني وإلا غرقت،
أنقذيني من أجل القديس فرنسيس الحبيب،
ولتأخذك الشفقة عليّ.
قالت الفتاة: إن القديس فرنسيس لم يُعَلّم
تلاميذه أن يخدعوا الفتيات الصغيرات لارتكاب الإثم.
وأخذ الراهب يتوسل إليها،
أن تساعده في الخروج من البئر.
وسمعته وهو يصدر أنات تدعو إلى الشفقة،
فساعدته وأخرجته من البئر وأمرته أن يرحل.
قال لها: وهل لي أن أسترد نقودي،
التي أخذتها مني سلفا؟
قالت: يا سيدي الطيب: ليس لك شيء عندي،
فهي ثمن تلويثك لماء البئر.
وسار الراهب في طريقه،
وقطرات الماء تتساقط منه،
مثل الخروف بلله الماء وشيكا.
وامتدح الكبير والصغير الفتاة،

لأنها لعبت على الراهب مثل هذه المزحة الذكية.

بيث جيليرت أو قبر الكلب السلوقي[1]

النــص الغربــي

سمع الرمّاح صوت البوق،
وكان الصباح باسما مشرقا،
فاستجابت كلاب الصيد جميعها،
لصوت البوق ينفخ فيه لويلين.
آه... أين يتجول جيليرت الوفي،
الزهرة اليانعة لسلالته،
الوفي الشجاع الذي يبدو حملا في البيت،
وأسدا في الطراد.
والحق أنه كلب صيد منقطع النظير،
هدية الملك جون.
والآن لا أثر لجيليرت،
وقد خف الجميع للصيد.
أسرع لويلين مكدرا عائدا إلى البيت.
وبالقرب من مدخل القصر،
لمح من بعيد كلبه الغائب جيليرت
يقفز نحو سيده لتحيته
لكن عندما وصل إلى بوابة قلعته،
توقف لويلين مصدوما؛
كان الكلب كله ملطخا بالدم،
يسيل الدم من فكيه.
وخطا لويلين في سرعة نحو جيليرت،
وأسرع الكلب إليه.
وأينما اتجه لويلين ولاحقه ببصره،
صدمته قطرات الدم التي تسقط من جسده.
قلّب فراش وليده الصغير،
فرأى الغطاء ممزقا ملطخا بالدم،

والدم ينتشر على الأرض والجدران.
نادى على الطفل ولكن لا أحد يجيب.
وأخذ يبحث عنه في لهاث وفزع،
ولا شيء غير الدم... الدم في كل مكان،
ولا أثر للطفل.
«أيها الكلب الملعون، لقد التهمت طفلي».
صرخ الأب في هياج شديد،
وأمسك بمقبض سيفه،
ودفع به في جانب الكلب جيليرت.
نظر إليه الكلب نظرات متضرعة وهو يسقط منبطحا على الأرض،
ولم يبد صاحبه له أي شفقة.
ومع ذلك كان لاحتضار الكلب
وقع ثقيل على قلبه.
صحا الطفل على عويل الكلب المحتضر،
وندّ عنه صوت نائم يصحو،
وما أشد سعادة الأب،
لسماعه صوت الطفل.
كان الطفل راقدا تحت كومة من الأغطية،
ولم يكن الأب ليجده في بحثه المتعجل.
حمل الأب الطفل المتورد من النوم،
واحتضنه وقبله.
ولم يرد لشدة دهشته أي أذى بالطفل أو علامات فزع.
ورأى تحت سريره،
ذئبا كالحا ممزق الجسم قتيلا،
كان ضخما حتى في موته.
وياله من ألم عانى منه لويلين،
إذ قد اتضحت الآن الحقيقة.
لقد قتل كلبه الشهم الذئب،
لينقذ طفل لويلين.

وذهبت تفجعات لويلين هباء؛
قال: وداعا يا خير صديق،
لقد قتلتك الضربة المسعورة،
وسوف يأسف قلبي عليك للأبد.
شيدوا للكلب قبرا فاخرا،
تزينه النقوش غالية التكاليف،
وعلى الرخام نقشت التعاويذ،
لتحمي عظام جيليرت المسكين.
ولا يمر بالقبر صياد،
أو حطاب، دون أن يثير قبر جيليرت شجونه.
وتظل دموع لويلين متناثرة على العشب،
شاهدا على حزنه.
وما دامت صخور جبل سودون العظيمة،
باقية في وجه العواصف العاتية،
ستظل هذه البقعة الغالية،
تحمل اسم قبر جيليرت(2).

النص الشرقي

الفعل المتسرع

عندما حان ميعاد الوضع، ولدت زوجة البرهمي ابنا يحمل علامات اليُمن. وبعد مرور عشرة أيام على الوضع، أجرى الأب طقوس تسمية الطفل. ثم تركت الأم الابن في عناية الأب، وخرجت لتتطهر في النهر المجاور، وتغسل ملابسها الملوثة. وظل الأب يحرس الطفل ويقوم بواجبه نحوه، حيث إنه كان فقيرا، ولم يكن يملك أجر خادم.

ثم حدث أن كان ذلك اليوم يوافق يوم تغيّر القمر، فأرسلت الملكة الرئيسة خادمة من قصر الملك لتحضر لها قارئا للنصوص المقدسة، فذهبت الخادمة تستدعي البرهمي. فلما بلغه أمر الملكة، قال في نفسه: «إن أنا لم أذهب في الحال، فسوف يذهب شخص آخر ويفوز بالقربان، ولكن ليس هناك من يرعى الطفل إذا تركته». ثم وردت على باله خاطرة أن يترك النمس الذي

رباه، وكان بمنزلة ابنه، ليحرس الطفل، فأدخله في حجرة الطفل حيث كانت تشتعل النار المقدسة وقدم له طعاما من الحبوب وغيرها. ثم ترك البرهمي البيت.

وسرعان ما أبصر النمس ثعبان الكوبرا يخرج من جحر في الأرض ويزحف مقتربا من الطفل. وفي الحال اشتعلت عينا النمس غضبا وارتعشت أسنانه وفكاه، وقفز في الحال وهاجم ثعبان الكوبرا ومزقه إربا. وعندما أبصر البرهمي عائدا، جرى نحوه سعيدا ليريه شواهد فعله التي تبدو على فمه وفكيه وهما ما زالا يقطران دما. وعندما رأى البرهمي المتسرع النمس وخطمه ينساب من فمه ممتزجا بالدم، تساءل، ماذا حدث؟ هل أكل النمس الطفل؟ وانهال على النمس ضربا بعصاه حتى خر النمس صريعا. وبعد ذلك دخل البرهمي البيت، وأبصر الطفل مستلقيا بلا أذى، كما أبصر ثعبان الكوبرا ممزقا بالقرب منه. وأخذ البرهمي يضرب على صدره وهو يصرخ؛ آه وا أسفاه، كم أنا غبي! يا له من فعل أحمق ارتكبته !

7 النجــم العربــي عن واشـنطـن إيرفنــج قـصــــر الحمـــراء (١٨٣٢)

كان واشنطن إيرفنج أول أديب أمريكي، وأكثر أدباء أمريكا أسفارا. وكان حيثما حل يجمع مقتطفات من الأساطير ليستخدمها في كتاباته. وكان ما يهمه في كل مكان يزوره، بدءا بسليبي هولو في نيويورك، إلى قصر بريسبردج في إنجلترا، إلى غرناطة في إسبانيا، هو الآثار القديمة وتأثيرها الرومانسي فيه، وبصفة خاصة في إسبانيا حيث كان منبهرا بماضيها العربي. وقد أقام بالفعل في قصر الحمراء (بناء على تصريح من حاكم المدينة) من شهر مايو إلى شهر يوليو عام 1829. وفي مذكرات سجلها في ذلك الوقت، كتب إيرفنج عن استماعه لرواة الحكايات الشعبية من أمثال ماتيو حمينس، الذي كان يتذكر حكايات حكاها له جده الذي ولد قبل ذلك بمائة عام، عن كتاب عربي في السحر، وعن تراث العرب المغاربة، وعن الكنوز المدفونة التي يحرسها رجل مسحور.

وقد اعترف إيرفنج بأنه مدين لكتاب نفح الطيب

للمقري، وذلك بعد أن أصبح مؤلفه الجامع الذي يضم معلومات أدبية وتاريخية كتبت في أوائل القرن السابع عشر، في متناول اليد من خلال الترجمة الإنجليزية التي صدرت في 1840، ويعد كتاب نفح الطيب المصدر العربي الوحيد المتبقي عن إسبانيا الإسلامية، ويحتوي على رسائل وأشعار ومقتطفات من مؤلفات تعد اليوم مفقودة. كتب إيرفنج في مجال مناقشته لقصة «المنجم العربي» يقول: «ينقل المقري في كتابه تاريخ الحكام المسلمين في إسبانيا عن كاتب عربي آخر، حكاية عن طلّسم على شكل تمثال صغير، تشبه على نحو ما، حكاية «المنجم العربي». ثم يقدم إيرفنج ملخصا لتلك الحكاية بما يفيد أنه كان هناك فيما سلف برج مربع في قادش يقوم على قمته تمثال لرجل يحمل عصا في يده اليمنى، بينما يشير بيده اليسرى إلى مضيق جبل طارق. وكان المسلمون في ذلك المكان يعتقدون أنه طلسم يفرض سحره على البحار. وقد غزت الساحل جيوش من القراصنة مسترشدين به. وفي النهاية، أمر أمير البحر المسلم بإنزاله، عندما سمع أن التمثال مصنوع من الذهب الخالص. ولكن عندما هُشم ثبت أنه ليس سوى تمثال من النحاس المطلي بالذهب، وعلى كل، فمنذ ذلك الحين، كف القراصنة عن غزو الساحل.

ويمكن التعرف بسهولة على الخواص الشرقية في الموتيفات، أي الموضوعات الرئيسية في حكاية «المنجم العربي»؛ فالمنجم الساحر ومصر مركز الحكمة والعلوم الخفية، والتماثيل البرونزية التي تشير للأعداء وهم في طريقهم لغزو الساحل، ومدينة إرم (ذات العماد) والجنة التي تحت الأرض، والأميرة الأجنبية الغامضة التي تشكل سببا في النزاع. ويدرك القراء أن هذه الموضوعات عربية، من دون هوامش إيرفينج، لأنها ترد كذلك في ألف ليلة وليلة كما ترد في الكتب السابقة عليها مثل رومانس الإسكندر؛ ففي كلا الكتابين نسمع عن تمثال قادش الذي وضعه الإسكندر في مكان التقاء البحر الأبيض المتوسط ببحر الظلمات. وتقع مدينة النحاس كذلك في الغرب البعيد بالقرب من بحر الظلمات. ويشير وينسيك إلى مأثورات تراثية مرتبطة بالإسكندر تتحدث عن صورة نحاسية ومدينة نحاسية بوصفهما علامتين لحدود الغرب. والمدينة مزودة بقباب وأبراج براقة، وهي مكان مليء بكل الأشياء الثمينة، ولكنها مكان للموت[1]. ويذكرنا

هذا كذلك مع صور نيكتانيبوس وتماثيله السحرية وقت أن كان يحكم في مصر، كما يرد ذلك في كتاب حكماء روما السبع، بطلّسم صنعه فرجيل، وهو عبارة عن تمثال ضخم يحمل تفاحة ذهبية وتحيط به تماثيل صغيرة، كل تمثال يحمل إقليما رومانيا. وكل تمثال يحمل جرسا في يده تصدر عنه إشارة إلى التمثال الرئيسي عندما تحدث ثورة في إقليم من الأقاليم[2]. وفي حلقات حكايات الملك سليمان، يبدو سليمان النموذج الأصلي للساحر المصري الذي يرقد إلى الأبد في جنة تحت الأرض.

وهناك منعطف طريف عن «المنجم العربي»، إذ أعاد ألكسندر بوشكين (1799 ـ 1837) صياغة حبكة هذه الحكاية في شعر روسي، وذلك في قصته «حكاية الديك الذهبي الصغير» التي ذاعت بوصفها حكاية روسية، مما أدى إلى انتشارها على هذا النحو المزيف. وتقدم رواية بوشكين الحكاية من دون خلفية عربية مغربية فيما عدا ذكرها مرة واحدة أن المنجم كان يرتدي قلنسوة عربية؛ فالقيصر دودون يحكم في بلاد غير معروفة وتمثال الفارس على جواده، تحول إلى ديك صغير ذهبي (على نحو ما كان الطلسم عند إيرفنج في رواية مبكرة). ويقتل الديك الملك دودون عند رفضه أن يعطي الأميرة إلى المنجم. وفيما عدا هذا، فإن حكاية الملك والمنجم والطلسم، والوعد المخلوف، ثم اختفاء الأميرة، كلها موضوعات ترد على نحو ما وردت في الرواية الأصلية. على أن النقاد السوفييت المحدثين، باعتراضهم على الرأي القائل، إن الكتاب الروسيين ربما استقوا مادتهم من أصول أجنبية، اتهموا الفولكلوريين الذين أثبتوا العلاقة بين بوشكين و«إيرفنج» من قبيل التبعية للغرب. وعلى أي الأحوال، فإن الغربيين اليوم، فيما يختص بهذا العمل بصفة خاصة، أكثر ألفة لرواية بوشكين منهم لرواية إيرفنج، وذلك بعد أن قدم ريمسكي كورساكوف أوبرا «الديك الذهبي»، مستخدما في ذلك حكاية بوشكين والألحان الروسية الشعبية. فهذه الصيغة الروسية للحكاية هي الأكثر ذيوعا اليوم. ومع ذلك فالفضل يرجع إلى إيرفنج أنه صنع من مزيج من موضوعات الحكايات الشعبية العربية نمط حكاية شرقية تقليدية. وهي حكاية الساحر المسحور. وإذا لم تكن هناك حكاية شرقية بعينها تماثلها في مجملها، فإن أجزاءها ـ جزءا جزءا ـ تظهر في حكايات مماثلة.

وتكمن المفارقة في أن إيرفنج ينهي عمله من خلال تقديم الثقافة الشرقية، أما الثقافة الغربية فتتمثل في حكاية «الديك الذهبي».

المنجـم العربــي

كان هناك في الزمن القديم، ومنذ مئات السنين، ملك عربي مغربي اسمه ابن حبوس وكان يحكم مملكة غرناطة. وبعد أن أصبح محاربا متقاعدا، وبلغ به الهرم مبلغه، لم يعد يرغب في شيء أكثر من أن يعيش في سلام، وأن يتمتع في هدوء بما اغتصبه من جيرانه.

على أنه حدث أنه كان مضطرا لأن يتعامل مع شباب ينافسونه، وكانوا إما أمراء بينه وبينهم حزازات يسوّون فيها حساباتهم، أو جماعة من أتباعه ثائرين عليه من رعايا مملكته. ومما زاد الأمر سوءا أن غرناطة كانت محاطة بسلسلة من جبال وعرة كثيرة الصخور، تخفي وراءها مقدم العدو، مما جعل ابن حبوس المسكين يعيش على الدوام في حالة قلق.

كان من غير المجدي بناء قلاع المراقبة ونقاط الحراسة، إذ كان أعداؤه اليقظون يبطلون كل التدابير الوقائية، ويهاجمون من خلال ممرات في الجبال لم ترد على بال أحد، ثم يغزون أراضيه تحت سمعه وبصره، ثم يعودون بالأسرى والغنائم. فهل يمكن أن يكون هناك محارب متقاعد يعيش في مأزق أشد قلقا من هذا؟

كان الملك يعيش منزعجا بهذه الأمور عندما وصل إلى بلاطه طبيب عربي. تتدلى لحيته الشهباء حتى منطقته، ويبدو عليه أنه طاعن في السن. ومع ذلك فقد جاءه من مصر، سائرا على قدميه طوال الطريق على وجه التقريب. كانت شهرة الطبيب تسبقه، وكان اسمه إبراهيم بن أبي أيوب، ويقال إنه عاش منذ أيام محمد (عليه السلام)، وأن أباه أبا أيوب هو آخر من عاش من صحابة الرسول عليه السلام. وقد صاحب إبراهيم في طفولته الجيش الإسلامي الذي فتح مصر ومكث فيها عدة سنين، يدرس على أيدي الكهنة المصريين العلوم الخفية وفنون السحر خاصة. ويقال، فضلا عن هذا، إنه قد اكتشف سر إطالة العمر، وبهذا وصل به العمر إلى ما يربو على قرنين من الزمان. ولكنه لم يكتشف هذا السر إلا وهو طاعن في السن، فلم يملك إلا أن يستمر في الحياة بشعره الأشيب، وتجاعيد وجهه.

كان هذا الرجل العجوز الرائع يتمتع باحترام الملك وشاء الملك أن يسكنه في قصره، لكن المنجم فضل أن يعيش في كهف على جانب التل الذي يشرف على مدينة غرناطة، وهو الموقع الذي بُني فيه قصر الحمراء منذ ذلك الحين. على أنه طالب بتوسيع الكهف حتى تحول إلى بهو واسع عالي السقف، ينتهي بتجويف دائري في قمته، ويستطيع أن يرى السماء من خلاله، كما لو كان ينظر في بئر، ويرى النجوم حتى في رائعة النهار. وكانت جدران هذا البهو مغطاة بالكتابات المصرية الهيروغليفية، وبصور للنجوم ورموز الأبراج. ثم زود البهو بكثير من أدوات من صنع عمال مهرة في غرناطة تحت إشرافه، بحيث لم يكن يعرف خصائصها السحرية سواه. وفي خلال مدة وجيزة أصبح الحكيم إبراهيم مستشارا حميما للملك الذي كان يلجأ إليه طالبا النصح في كل ملمة. وذات يوم كان ابن حبوس يندد لإبراهيم بجيرانه ويندب جهده في التزام اليقظة الدائبة لحماية مملكته من الغزو. وبعد أن فرغ الملك من شكواه، ظل المنجم صامتا لحظة، ثم قال له: لتعلم أيها الملك، أنني بينما كنت في مصر، عثرت على وصية عجيبة كتبتها كاهنة وثنية عجوز، تقول فيها: إن هناك على جبل يطل على الوادي العظيم لنهر النيل تمثال لكبش يحمل فوق رأسه تمثالا لدِيك. وكلا التمثالين من النحاس المصبوب وكلاهما يتحرك على محور. وعندما يكون البلد مهددا بغزو، يتحرك الكبش في اتجاه العدو، ويصيح الديك، وعندئذ يعلم الناس بالخطر، ويتخذون حذرهم في الوقت المناسب.

وصرخ ابن حبوس قائلا: «اللّه أكبر! يا له من كنز أن يكون لي مثل هذا الكبش، ليظل ساهرا على الجبال المحيطة بي، ديك يصيح وقت الخطر! اللّه أكبر! كم أكون آمنا وأنا نائم في قصري، وهذان الحارسان يقفان على قمة الجبال؟ قال المنجم في تؤدة: «اصغ إليّ أيها الملك، لقد كنت هناك وفحصت الطلسم ودرست سره، وفي وسعي أن أصنع لك تمثالا مثله، بل أكبر منه قيمة».

وقال الملك متهللا: «أيها الحكيم ابن أبي أيوب، إن هذا الطلّسم أفضل من كل أبراج المراقبة على التلال، ومن حراس الحدود. أعطني مثل هذا الأمان وكنوزي الغالية تحت أمرك».

وبدأ المنجم العمل في الحال بعد أن حبس نفسه داخل بهوه. واستدعى

لمساعدته أرواح نهر النيل وشياطينه، الذين حملوا إليه، وبناء على طلبه، مومياء من حجرة تقع في قلب أحد الأهرام، وكانت مومياء الكاهن الذي بنى الطلّسم بفن سحره.

فتح المنجم التوابيت الخارجية للمومياء، وانتزع أربطتها المتعددة، فوجد على صدر الجسد كتابا مكتوبا بحروف قديمة، فأمسكه بيد مرتعشة، ثم أعاد المومياء إلى حالتها الأولى، وأمر الشياطين أن تعيدها إلى حجرتها المظلمة الساكنة في بطن الهرم.

جاء فيما ورد من تراث أن هذا الكتاب هو كتاب المعرفة الذي سلمه اللّه إلى آدم بعد هبوطه إلى الأرض، وكان أن تسلمته الأجيال من بعده، جيلا بعد جيل، حتى وصل إلى الملك سليمان الحكيم. وقد استطاع سليمان، مستعينا بأسرار السحر والفنون العجيبة التي يكشف عنها الكتاب، أن يبني معبد أورشليم. أما كيف وصل الكتاب إلى حوزة بناة الأهرام، فعلم ذلك عند علاّم الغيوب.

ووفقا لتعليمات الكتاب والجن المؤتمرين بأمره، شيد المنجم على وجه السرعة برجا ضخما على سطح قصر ابن حبوس. وقد بنى هذا البرج بأحجار أحضرت له من مصر، ويقال إنها أخذت من أحد الأهرام. وفي الجزء العلوي من البرج كان هناك بهو دائري له نوافذ تطل على كل اتجاهات البوصلة. وأمام كل شباك وضعت منضدة صُفت عليها، كما لو كانت لوحة شطرنج، نماذج لجيش من الفرسان والمشاة ومعها تمثال للملك الذي يحكم البلاد التي تقع في ذلك الاتجاه. وكل هذه الأشكال صنعت من الخشب. ويتصل بكل منضدة من هذه المناضد رمح صغير لا يتعدى حجم الإبرة، محفورة عليه كتابات غامضة، وللبهو بوابة من النحاس لها قفل ضخم من الفولاذ مفتاحه في حوزة الملك.

وعلى قمة البرج يقف تمثال من النحاس لفارس مغربي مثبت على محور ويحمل درعا على ذراعيه، ويشهر حربة في مستوى عمودي في يده الأخرى، ويتجه بوجهه نحو المدينة، كما لو كان مكلفا بحراستها. فإذا حدث أن اقترب عدو منها، اتجه التمثال نحوه محركا الحربة في وضع أفقي كما لو كان يتأهب للقتال.

وبعد أن فرغ المنجم من صنع الطلسم، كان ابن حبوس شديد الحماس

لتجربة فعاليته. وسرعان ما تحققت رغبته؛ فقد أتته الأخبار في صباح يوم باكر، بأن وجه الفارس البرونزي اتجه نحو «ممر لوب»، وصوب سلاحه في ذلك الاتجاه.

وقال ابن حبوس: «أطلقوا الطبول والأبواق لتصل أصواتها إلى سمع الجيش». ورد عليه المنجم قائلا: «أيها الملك، لا تزعج مدينتك، ولا تدعُ محاربيك لحمل السلاح، فلسنا في حاجة إلى قوة تخلصك من أعدائك. الآن اصرف أتباعك، ودعنا نتقدم بمفردنا إلى البهو السري للبرج».

وتسلق ابن حبوس العجوز سلم البرج مستندا إلى ذراع من هو أكثر هرما منه، وهو إبراهيم بن أبي أيوب. وفتحا الباب النحاسي ودخلا. وكان الشباك المطل على ممر لوب مفتوحا. وقال المنجم: «من هذا الاتجاه يأتي الخطر، أيها الملك وانظر إلى سحر المنضدة».

وتقدم الملك إلى لوحة المنضدة التي بدت كأنها لوحة شطرنج رتبت عليها قطع التماثيل الخشبية الصغيرة، وكانت جميعها، لفرط ذهوله، تتحرك. كانت الخيول تثب وتناور، وكان المحاربون يلوحون بسلاحهم، وكانت هناك أصوات الطبول والأبواق، وقعقعة الأسلحة وصهيل الخيول، ولكنها أصوات لا تتجاوز صوت طنين النحل.

وقال المنجم: «انظر أيها الملك. إن هذا دليل على أن أعداءك نزلوا إلى ميدان القتال، ولابد أنهم تقدموا عبر الجبال هناك عند ممر لوب، فإذا شئت أن تصيبهم بالذعر والفوضى. وتضطرهم إلى إرجاء معركتهم والانسحاب دون خسائر في الأرواح، فاضرب هذه التماثيل الصغيرة بعقب هذا الرمح السحري. ولكن إن شئت أن تجعلها معركة دموية وأن تحدث مذبحة بين صفوفهم، فاضرب بالطرف الأعلى من الرمح».

امتقع وجه ابن حبوس لحظة، وأمسك بالحربة المقلدة وهو يرتعد بشغف، وخطا نحو المنضدة، وقال ولحيته الشيباء ترتعش بضحكة خافتة تنمّ عن إحساس غامر بالقوة: «هيا فلنسفك قليلا من الدماء». وطعن بطرف سلاحه السحري عدوا من تلك التماثيل الصغيرة ودفع الأخرى بعقبه فسقطت الأولى على اللوحة، في حين تحركت الأخرى تجاه بعضها البعض، وأخذ يضرب بعضها بعضا على نحو عشوائي. واستطاع إبراهيم بصعوبة أن يوقف يد الملك ويمنعه من إبادة أعدائه كلية. وفي النهاية أقنعه بأن يغادر

البرج وأن يرسل الكشافين إلى الجبال عبر ممر لوب.

وعاد الكشافون بأخبار تفيد بأن جيش المتمردين كان قد تقدم. وما كاد يصل إلى مشارف غرناطة، حتى دب الخلاف بين رجاله، فحولوا أسلحتهم بعضهم تجاه بعض. وبعد سقوط كثير من القتلى عادوا أدراجهم عبر الحدود.

وامتلأ ابن حبوس بالسعادة عندما ثبتت لديه فعالية الطلسم. وفي النهاية قال: «الآن حان لي أن أعيش في هدوء وأن أملك ناصية أعدائي في يدي. ويابن أبي أيوب الحكيم، ماذا تطلب مكافأة لك على مثل هذا الفعل المبارك؟»

وقال المنجم: «ليس عندي سوى مطلب رجل عجوز فيلسوف. وهو مطلب ضئيل وبسيط. امنحني الوسيلة لأن أعد صومعتي بما يتلاءم مع حياة عابد، وسأكون مقتنعا بذلك».

وهتف ابن حبوس قائلا: «ياله من تواضع نبيل لرجل حكيم حقا». وكان في سره سعيدا لرخص هذه المكافأة. واستدعى خازنه وطلب منه أن ينفق أي قدر من الأموال يطلبها إبراهيم لإعداد صومعته وتأسيسها.

وأعطى المنجم أوامره بأن تنحت له في الصخر الصلب حجرات مختلفة، بحيث تكوّن سلسلة من الغرف المرتبطة ببهو التنجيم. ثم أمر أن تؤثث هذه الغرف بالنمارق والأرائك الفاخرة، كما أمر أن تغطى الجدران بستائر من أغنى الحرير الدمشقي وقال: «إنني رجل مسن ولم أعد أتحمل أن أريح عظامي على الأرائك الحجرية، كما أن هذه الجدران الرطبة في حاجة إلى غطاء».

وأمر كذلك أن تشيد له الحمامات وأن تزود بكل صنوف العطور والزيوت المعطرة، «لأن الحمام، كما قال، ضروري لمقاومة تصلب العمر، ويعيد النضرة والليونة للهيكل الذي ذبل من طول العكوف على الدرس».

وأمر بعدد كبير من القناديل البللورية والفضية تتدلى في غرفة، بعد أن ملئت بزيت معطر، أعده وفقا لوصفة اكتشفها بنفسه في مصر. ويتميز هذا الزيت بأنه بطبيعته لا ينفد وبأنه ينشر عبيرا رقيقا، وقال: «إن ضوء الشمس حار وقاس لعيني رجل عجوز، أما ضوء القناديل فهو أكثر ملاءمة للفيلسوف الباحث».

وضج خازن الملك بسبب المبالغ التي تطلب منه يوميا لتهيئة الصومعة،

وحمل شكواه إلى الملك. ولكن الملك هز كتفيه وقال كلمته الملكية: «لابد لنا من أن نتحلى بالصبر، لكل شيء نهاية، وكذلك تأثيث هذا الكهف له نهاية».

وكان الملك على حق، فقد اكتملت الصومعة في النهاية وتحولت إلى قصر فخم تحت الأرض. وقال إبراهيم بن أبي أيوب للخازن: «الآن أشعر بالسعادة. وسوف أحبس نفسي في صومعتي وأنفق كل وقتي في البحث. إنني لا أطمع في شيء أكثر من هذا، لا شيء سوى تسلية صغيرة تروح عن نفسي في ساعات الراحة من العمل الذهني». ورد الخازن قائلا: «اسأل يا إبراهيم الحكيم ما تشاء، فإنني ملزم بأن أزودك كل ما هو ضروري لعزلتك».

وقال الفيلسوف: «يسعدني إذن أن يكون لديَّ عدد قليل من الراقصات». وصرخ الخازن في دهشة وقال: «راقصات !». ورد الحكيم في نغمة جدية: «نعم راقصات، ويكفيني القليل منهن، أنا رجل عجوز وفيلسوف، وتكفيني العادات البسيطة والميسرة. ولتختر لي، على كل حال، صغارهن وأجملهن، فرؤية الشباب والجمال تنعش في السن الكبير».

وبينما كان إبراهيم الفيلسوف يمضي الوقت على هذا النحو من الحكمة في صومعته، كان ابن حبوس المتمتع بالسلام، يقوم بغزواته الغاضبة بمساعدة التماثيل الصغيرة في البرج. كان الأمر مبهجا لرجل مُسن مثله، وصاحب عادات هادئة، أن يخوض حربا بهذه السهولة، وأن يُسلي نفسه في حجرته من دون اكتراث بجيوش بأكملها، كما لو كان يلهو بعدد هائل من جيوش الذباب. وظل وقتا يعربد منغمسا في هواياته، بل كان يسخر من جيرانه وهو يغريهم بغزو أراضيه. ولكنهم بالتدريج أصابهم التعب من تكرار الكوارث التي تحل بهم، حتى لم يعد هناك من يجرؤ على غزو بلاده. وظل الفارس النحاسي لشهور عدة شاهرا سلاحه في الهواء دون حراك، وبدأ الملك العجوز يتبرم من قلة ممارسته رياضته التي تعود عليها، ويزداد تبرما بهدوئه الممل.

وفي النهاية، غيّر الطلسم اتجاهه فجأة ثم توقف شاهرا سلاحه في اتجاه جبال جوديكس وأسرع ابن حبوس إلى البرج، ولكن منضدة السحر التي تقع في ذلك الاتجاه ظلت ساكنة. ولم يتحرك عليها محارب واحد. فأرسل الملك، في حيرته، قافلة من الفرسان يستكشفون الجبال. وعادت القافلة بعد غياب دام ثلاثة أيام، وخاطب رضوان قائد القافلة الملك قائلا:

«لقد فتشنا ممرات الجبال جميعها، ولكننا لم نر أثرا لخوذة أو رمح. وكل ما عثرنا عليه فتاة إسبانية ذات جمال أخاذ نائمة في الظهيرة بجوار نافورة، فأخذناها أسيرة وأحضرناها معنا».

وهتف ابن حبوس: «فتاة ذات جمال أخاذ ! أحضروها إليّ !».

ورد رضوان قائلا: «عفوا أيها الملك، ولكن الحرب في الوقت الراهن شحيحة وهي لا تغل إلا قليلا. وأتمنى أن هذه اللقية التي وقعنا عليها مصادفة تمنح لي جزاء لي على خدمتي».

وصرخ الملك قائلا: «لقية! مصادفة! ماذا تقول: فتاة ذات جمال أخاذ! وحياة رأس أبي إنها ثمرة نادرة من ثمار الحرب. ولا تحفظ هذه الثمرة إلا في الصون الملكي. دع الفتاة تحضر إلى هنا على الفور!».

وبناء على ذلك سيقت الفتاة وأدخلت إلى حضرته. وكانت ترتدي ثيابا على الطراز القوطي وتزدان بروائع الحلي التي كانت منتشرة بين الإسبان القوط أيام غزو العرب لبلادهم. كانت اللآلئ ذات البياض الذي يغشي البصر تتضافر مع ضفائرها السوداء، والجواهر تتلألأ فوق جبهتها، منافسة بريق عينيها. وفي عنقها سلسلة ذهبية تتدلى منها إلى جانب الفتاة، قيثارة من الفضة.

أشعلت نظرات عينيها نارا انطلقت في صدر ابن حبوس الواهن فصاح في وجهها في نشوة: «يا أجمل النساء! من أنت، ومن تكونين؟».

قالت: «إنني ابنة أمير قوطي حكم هذه البلاد حتى زمن قريب، ولقد دُمر جيش أبي بين هذه الجبال كما لو كان قد دمر بطريق السحر، وسيق أبي إلى المنفى في حين أصبحت ابنته أمة».

وقال لها الملك: «لتهدئي أيتها الأميرة الجميلة، إنك لن تكوني بعد أمة، بل أصبحت ملكة. انظري بعين الرحمة إلى ابن حبوس، وكوني حاكمة عليه وعلى مملكته».

وهمس له إبراهيم بن أبي أيوب: «لتأخذ حذرك أيها الملك فربما كانت هذه المرأة من الأرواح دبرها القوط، وأرسلوها لخرابك. وربما كانت ساحرة من بلاد الشمال، ويبدو لي أنني أقرأ السحر في عينيها، والشعوذة في كل حركة من حركاتها. فخذ حذرك، فلابد أن تكون هي العدو الذي يشير إليه الطلسم».

وأجاب الملك: «يابن أبي أيوب: إنك رجل حكيم وساحر، إنني أسلّم بهذا، ولكنك قليل الخبرة بالنساء. إنني لن أركن إلى الرجال عموما في معرفتي بهن، ولا حتى لسليمان الحكيم نفسه، على الرغم من كثرة زوجاته. أما عن الفتاة، فسأجد عندها كثيرا من السلوى في أيام شيخوختي». وقال المنجم، وقد تغيرت نبرة صوته فجأة: «أصغ إليّ أيها الملك، إنني قدّمت إليك النصر كثيرا على أعدائك، وكان ذلك بفضل طلسمي، ومع ذلك لم تمنحني نصيبي من الغنائم قط. امنحني هذه الأسيرة الشاردة لتروح عني في عزلتي وسأكتفي بذلك».

وصرخ ابن حبوس في وجهه وقال: «ماذا تقول؟ هل تريد مزيدا من النساء؟ ألم تصلك من قبل نساء راقصات للترويح؟ ماذا تريد أكثر من ذلك؟». وقال المنجم: «نعم لدي راقصات ولكنني لا أمتلك مغنية. والموسيقى بلسم في خريف العمر. وهذه الأسيرة، فيما أرى، تحمل قيثارة فضية ولابد أنها ماهرة في الغناء، فلتعطها لي، أتوسل إليك».

واستشاط الملك غضبا، وأثقل في لوم الفيلسوف، فقرر الأخير أن يعتزل في صومعته. ولكنه قبل أن يرحل، نصح الملك أن يحذر الأسيرة الجميلة. ولكن أين في الحقيقة ذلك العجوز الذي يصغي إلى مثل هذه النصيحة؟ لقد شعر ابن حبوس بالقوة الآسرة لسحر العينين. وكان كلما نظر إليهما ازداد وقوعه في الأسر.

أطلق الملك العنان لعاطفته. وكان كل ما يشغله هو كيف يجعل نفسه محبوبا في عيون الجميلة القوطية. حقا إنه لا يملك الشباب، ولكنه يملك الثراء. فغرناطة سوق لأثمن بضاعة ترد من الشرق: الحرير، والجواهر الثمينة، والروائح الخلابة. وكل ما تجود به آسيا وأفريقيا من أشياء ثرية ونادرة، يمنحها بسخاء للأميرة. وكانت هي تستقبل كل هذا بوصفه حقا من حقوقها، بل كانت تنظر إليه في غير اكتراث لتعودها حياة الترف. وكانت كل صنوف الفرجة والاحتفالات تبتكر من أجل تسليتها: الغناء والرقص، ومصارعة الثيران، ومبارزات الفرسان. وأضحت غرناطة لبعض الوقت مسرحا لمهرجان دائم. ويبدو أن الأميرة القوطية كانت تستمتع بالإنفاق عليها، كما لو كانت مكلفة بتبديد كنوز المملكة، فلم يكن هناك حدود لتبديدها المال. وعلى الرغم من كل هذا السخاء، فإن ابن حبوس لم يكن ليخدع نفسه

بأنه قد توصل إلى أدنى تأثير في قلبها. حقا إنها لم تعبس في وجهه، ولكنها كانت تمارس طريقة فريدة لصد ميله نحوها، فعندما يبدأ في التوسل إليها، تضرب على قيثارتها الفضية فيصدر عنها صوت. وعندما يسمعه الملك يتملكه نعاس لا يقاوم، فيستغرق في النوم. ومع ذلك ظل حلم حبه القوة الآسرة في نفسه، في الوقت الذي أخذت غرناطة تهزأ بافتتانه بالأميرة، وتتوجع لضياع الكنوز هباء.

وفي النهاية دق ناقوس الخطر على رأس ابن حبوس، ولم يعط الطلسم لذلك أي إنذار؛ فقد اقتحمت ثورة بقيادة الجريء رضوان، قلب المدينة، وحاصرت قصر الملك، ولم يتمكن الملك من قمعها إلا بصعوبة بالغة.

وفي هذه الظروف، وجد الملك نفسه مضطرا مرة أخرى إلى أن يسأل عون المنجم وقال له: «أيها الحكيم، أين أبو أيوب، إن ما تنبأت به قد حدث. لقد جلبت الأميرة القوطية عليّ المتاعب والخطر».

وأجاب المنجم: «وهل أصبح الملك ميّالا لأن يستغني عنها؟»

وقال الملك: «أهون عليّ أن أستغني عن المملكة».

وقال المنجم: «فيم إذن حاجتك إليّ؟».

وقال الملك: «يسعدني لو استفدت مرة أخرى من جهودك، من فنك السحري، دبر لنا وسيلة أكون بها آمنا من خيانة داخلية، بقدر ما أكون آمنا من غزو خارجي. دبر لي مكانا حيث أجد ملجأ أعيش فيه في سلام».

وفكر المنجم لحظة ثم قال: «لقد سمعتَ دون شك أيها الملك عن قصر إرم وجنتها، التي يرد لها ذكر في القرآن الكريم في سورة «الفجر».

قال الملك: «لقد سمعت عن هذه الجنة، وما يحكى عنها من عجائب يرويها حجاج مكة ولكني خلتها خيالات جامحة».

وقال المنجم: «أصغ إليّ أيها الملك، وسوف تعرف سر هذه الحديقة، لقد عشت في صغري في البلاد العربية السعيدة (اليمن) أرعى جمال أبي. وذات يوم شرد واحد منها وفقد. وأخذت أبحث عنه عدة أيام في الصحراء، إلى أن أصابني التعب والضعف فاستلقيت على الأرض ونمت تحت نخلة. وعندما أفقت وجدت نفسي أمام بوابة مدينة. فدخلت ورأيت شوارع منظمة وميادين وأسواقا، ولكنها كانت جميعا هادئة ولا يسكنها أحد. فأخذت أجول حتى وصلت إلى قصر ضخم تحيط به حديقة تزينها نافورة وبرك

للسمك، وأيكات، وأزهار وبستان فاكهة محملة أشجاره بالفواكه اللذيذة. ومع كل هذا لم يظهر لي أحد. ولما تملكني الخوف من الوحدة، أسرعت في ترك المكان. وما أن وصلت إلى بوابة المدينة واستدرت لألقي نظرة على المكان، لم أر له أثرا. لا شيء سوى صحراء ممتدة أمام عيني».

والتقيت في المنطقة المجاورة مع درويش عجوز وأخبرته بما حدث لي، فقال: «هذه جنة إرم ذات السمعة العريضة، إنها إحدى عجائب الصحراء التي لا تبدو إلا في بعض الأحيان لجائل مثلك، فتبهجه بمرأى الأبراج والقصور وبأسوارها التي تكسوها الأشجار المحملة بالفاكهة، ثم تختفي، ولا تترك وراءها أثرا سوى صحراء موحشة. وهذه هي قصتها. وفي الزمن القديم، شيد الملك شداد بن عاد، أحد أحفاد نوح العظام، شيد مدينة رائعة. ثم امتلأ قلبه بالكبر والغرور، وعزم على بناء قصر ملكي تحيط به الأشجار، ولكن لعنة السماء حلت عليه بسبب غروره فمحاه اللّه هو وقومه من الأرض. أما مدينته الرائعة وقصره وحديقته فوقعت في قبضة السحر الدائم الذي يخفيها عن أعين الناس».

ثم قال المنجم للملك: «هذه القصة، أيها الملك، وهذه العجائب التي شاهدتها ظلت تعيش في ذاكرتي. وبعد ذلك بسنوات طويلة، عندما رحلت إلى مصر وملكت ناصية كل صنوف الرقى السحرية، عزمت على أن أعود وأزور جنة إرم... وقد فعلت، فوجدتها بادية لمرأى المدّرب. نزلت في قصر شداد وأمضيت به عدة أيام، وخضع الجن المشرفون على المكان لقوة سحري، وأفشوا لي الرقى التي تجعل المكان كله خافيا عن العين. وهذه الرقى، أيها الملك، تقع فى نطاق فني. فماذا تقول؟ ألا ترغب في أن يكون لك قصر وجنة مثل تلك التي ذاعت في إرم وتملؤها كل صنوف المتع، ولكنها تختفي عن أعين البشر الفانين؟».

وهتف ابن حبوس وهو يرتعش شغفا وقال: «أيها الحكيم ابن أبي أيوب، اصنع لي مثل هذه الجنة، واطلب المكافأة التي تروقك حتى إن تكن نصف مملكتي» ورد المنجم قائلا: «بكل أسف أيها الملك، أنت تعرف أنني رجل عجوز وفيلسوف، ومن السهل أن أكون قنوعا. إن كل ما أطلبه من مكافأة هو أن تمنحني أول دابة تطأ قدمها بوابة القصر السحري بما فوق ظهرها من حمل». وافق الملك على هذا المطلب المتواضع بكل ارتياح، وبدأ المنجم

في العمل، وأمر بالبناء على قمة التل الكائن به كهنة، وبدأ ببناء بوابة كبيرة تنفتح في صدر برج قوي. وكان هناك رواق بأقواس وعقود، بداخله باب تؤمنه بوابات مصمتة. وعلى حجر عَقْد الباب رسم المنجم بيده شكل مفتاح ضخم، وعلى حجر عَقْد رواق البوابة، حفر شكل يد ماردة. وكانت هذه الأشكال هي الطلاسم الفعالة التي تلا عليها جملا كثيرة كررها مرارا بلسان غير معروف.

ولما فرغ من بناء البوابة حبس نفسه طيلة يومين في بهو تنجيمه، وهو مشغول بتلاوة الرقى. وفي اليوم الثالث، صعد التل وقضى يومه على قمته. وفي ساعة متأخرة من الليل نزل من التل وقدّم نفسه لابن حبوس، قائلا: «أخيرا أيها الملك أتممت عملي، فعلى قمة التل يقف أبهج قصر اخترعه إنسان أو تمناه قلب رجل. إنه يحتوي على أبهاء ثرية وأروقة، وحدائق غناء، ونوافير ذات مياه باردة، وحمامات ذات أريج، وباختصار لقد تحول الجبل كله إلى جنة يحميها السحر الأخاذ على نحو ما يحمي ذلك السحر جنة إرم، سحر كفيل بأن يخفيها عن أعين المتطفلين من البشر الفانين، فيما عدا من يملك سر طلاسمها».

صاح الملك متهللا: «كفى! في الصباح الباكر مع بريق الشمس سنصعد إليها، وننزل بها»، ولم ينم الملك ليلته هذه، وما إن رأى إشراقة أشعة الشمس الأولى، حتى امتطى مهرته وبدأ يصعد الطريق المنحدر الضيق بصحبة قلة مختارة من أتباعه. وإلى جانبه جواد صغير أبيض تمتطيه الأميرة القوطية. وكان رداؤها يشع بالجواهر وتتدلى من رقبتها قيثارتها الفضية. وفي الجانب الآخر للملك يسير المنجم متكئا على عصاه.

رمى ابن حبوس ببصره ليرى أبراج القصر الموعود وشرفاته وحدائقه، ولكن شيئا من ذلك لم يظهر للعين. فقال المنجم: «هذا هو سحر المكان وسرّ أمنه، فلا شيء يظهر حتى تعبر البوابة المسحورة، ثم تجد نفسك في حوزة القصر». ولما اقتربوا من قوس البوابة، توقف المنجم وأشار إلى اليد السحرية والمفتاح المحفور على الباب والقبو، وقال للملك: «هذه هي الطلاسم التي تحرس مدخل هذه الجنة. ولن تستطيع قوة بشرية أو قوة سحرية أن تسود سيد هذا الجبل، إلا إذا تدلت تلك اليد وقبضت على المفتاح».

وبينما كان الملك يحملق بفم مفتوح ودهشة صامتة في هذه الأشياء

السحرية، تقدم جواد الأميرة وهي على ظهره نحو البوابة ودخل بها إلى شرفة البرج. وصاح المنجم: «انظر أيها الملك ! هذه مكافأتي التي وعدتني بها، إنها الدابة الأولى التي تعبر طريق البوابة السحري بحملها».

وضحك ابن حبوس على ما اعتبره نكتة طريفة صدرت عن الرجل العجوز، ولكنه عندما وجده جادا، ارتعشت لحيته الشيباء من السخط، وقال بنغمة صارمة: «يابن أبي أيوب، ما هذا الذي تقوله؟ أنت تعرف بالضروة معنى وعدي أن تحصل على أول دابة بحملها، وتدخل في طريق البوابة، خذ أفضل جواد في حظائري، وحمّله بأغلى ما في خزينتي، كل هذا يصبح ملكا لك. ولكن لا تجرؤ على أن تمد فكرك لها وهي متعة قلبي». ورد ابن أبي أيوب «وما احتياجي للثروة؟ أليس عندي علم سليمان الحكيم، أتسلط به على كنوز الأرض الخفية، إن الأميرة ملكي بالحق والعدل. وكلمتك الملكية ضمان على ذلك. إنني أطالب بها لنفسي».

وكانت الأميرة تجلس على جوادها الصغير، وعلى ثغرها الوردي ابتسامة سخرية هادئة من هذا النقاش. واسترد الملك الغاضب بعض تعقله وصرخ قائلا: «يابن الصحراء الحقير، ربما كنت سيد كثير من الفنون، ولكن لتعترف أنني سيدك، ولا تجرؤ على أن تتلاعب بالملك».

وجاء صوت المنجم مدويا: «سيدي ومليكي، إن ملك هذا التل الخُلديّ هو من يملك طلسم سليمان. استودعك اللّه يابن حبوس، لتحكم الآن مملكة تافهة ولتعربد في جنة الحمقى، أما أنا فسوف أضحك».

قال هذا، وأمسك بلجام جواد الأميرة الصغير، وضرب الأرض بقوة بعصاه، وغاص مع الأميرة وسط البرج. وأغلقت الأرض عليهما ولم يبق هناك أثر للفتحة التي دلفا منها. وأخرست الدهشة لسان الملك. وعندما استعاد قدرته على الكلام أمر آلاف العمال أن يحفروا بالمعول والمجراف في الأرض. وحفروا وحفروا بلا جدوى. فكلما أزاحوا التراب، عاد وملأ الحفرة. وذهب ابن حبوس إلى النقش الذي في أسفل التل ويقود إلى قصر المنجم تحت الأرض، فلم يجد له أثرا، فمكان مدخله أصبح مصمتا، ذلك أنه مع اختفاء المنجّم كف الطلسم عن العمل. وقد ظل الفارس النحاسي ثابتا ووجهه للتل مشيرا برمحه إلى حيث اختفى إبراهيم. وبين الحين والآخر كان صوت موسيقى وأنغام صوت نسائي يسمعان في خفوت بين

أرجاء التل. وذات يوم وجد فلاح صدعا في صخرة استطاع أن يزحف خلاله. ولما نظر إلى أسفل، رأى بهوا عظيما يجلس فيه المنجّم على مقعد فاخر وقد هجع إلى أنغام قيثارة الأميرة الفضية.

وعندما بحث ابن حبوس عن الصدع، كان قد أغلق. أما قمة الجبل وهي مكان القصر الموعود والجنة الموعودة، فقد ظلت خرابا عاريا. وتراكمت المتاعب على ابن حبوس، إذ أدرك جيرانه أنه لم يعد بعد محميا بقوة الرقى السحرية، فهاجموه من كل جانب، وعاش ما تبقى من عمره يائسا.

وفي النهاية مات ابن حبوس ودفن. ومرت السنون تباعا، وشيد قصر الحمراء على الجبل. وما يزال الطريق إلى البوابة باقيا، وهو يكون المدخل العظيم لقصر الحمراء. وما زال مكتوبا أسفل البوابة: إن المنجم العجوز ينام في بهوه السحري تهدهده أنغام قيثارة الأميرة السحرية.

الهوامش والمراجع

I Joseph and Potiphar's Wife.

1. Ebied, R. Y. and M. J. L. Young (Eds and Trans.), The Story of Joseph in Arabic Verse, The Leeds Arabic Manuscript 347, Leiden, Bull, 1975 (Leeds University Oriental Society Annual, Supplement 3), pp. 40 ff.

The Emperor's New Clothes

1. Abridged from Hans Christian Andersen

2. Juan Manuel, Don, Count Lucanor (El Conde Lucanor) or The Fifty Pleasant Stories of Patronio, London, Pickering and Chatto, 1888, pp. 53-57. Abridged

II Solomon and the Queen of Sheba

1. Watson, Paul F., 'The Queen of Sheba in Christian Tradition, in Pritchard, James B. (Ed.), Solomon and Sheba, London, Phaidon, 1974, p. 11

2. Fraser, J. G., Folklore in the Old Testament, Vol. 2, London, 1918, p. 558.

3. Rodwell, J. M. (Trans.), The Koran, Sura XXVII, London, Dent 1909.

4. Basset, R., Mille et un contes, récits et legendes arabes, Vol. 1, Paris, 1924.

Trans. by E.L.R.

5. Watt, W. M., 'The Queen of Sheba in Islamic Tradition , in Pritchard, op. cit., p. 103.

6. Ibid., pp. 118 ff.

7. Ibid., p. 115.

8. Baring-Gould, Sabine, Curious Myths of the Middle Agest, London, Longmans, 1914, p. 384.

9. Pritchard, op. cit., pp. 136-38.

سبحت ضد التيار: الروايات الحديثة لهذه الحكاية ما زالت شائعة. وحكايتنا مأخوذة من Vance Rondolph, Hot Springs and Hell, Hatsboro, Pa, 1965.

وتقع هذه الحكاية تحت رقم 1365 من تصنيف آنتي آرني، ولها روايات متعددة في الشرق والغرب. وروايتنا الشرقية أخذناها من ت.ف. كريني تحت عنوان (أمثولة جاكوس دي فيتري: لندن 1890 ، 225). ويشير كريني إلى أنها أقدم نموذج. وكان فيتري أسقفا لصور، ومن ثم كانت لديه الفرصة لأن يكون على اتصال مباشر بالثقافة العربية. وعلى أي حال، فالحكاية تعد من فولكلور الشرق الأدنى الذي يعد المخزون العادي للفولكلور الغربي كذلك. وقد ارتبطت الحكاية بجحا ناصر الدين، كما ارتبطت بغيره.

III Alexander the Great

1. Tubach, Frederic C., Index Exemplorum, FFC, no. 204 (1969).

2. Campbell, Joseph, Flight of the Wild Gander, New York, 1969, p. 218.

3. Scott, Jonathan, Tales, Anecdotes and Letters, Shrewsbury, 1800, p. 329.

4. Cary, George, The Medieval Alexander, Cambridge, 1967, p. 120.

5. Wolohojian, Albert M., The Romance of Alexander the Great by Pseudo-Callisthenes, New York, Columbia University Press, pp. 23-57.

6. Ross, D. J. A., 'Alexander and the Faithless Lady: A Submrine Adventureص, Inaugural lecture delivered at Birkbeck College, London, 7 November 1967.

7. Michael, Ian, Alexander's Flying Machine, University of Southampton, 1974, pp. 14-15.

8. Ibid., p. 11.

9. Settis-Frugoni, Chiara, Historia Alexandri Elevati per Griphos ad Aerem, Roma, Istituto Storico Italiano per il Medio Evo, Studi Storici, fasc. 80-82, 1973, p. 331.

10. Ibid.

11. Mittwoch, E., 'Dhulkarnainص, in Encyclopedia of Islam, Vol 1, Leyden, 1913, p. 962.

الملك جون ورئيس دير الرهبان:

هذه الحكاية كانت موضوعا لدراسة شائعة قام بها والتر أندرسون 42. Kaiser u. Abt, FFC, N). ويشير أندرسون لهذه الحكاية، حكاية الملك ورئيس دير الرهبان، وقد أخذها عن ابن عبد الحكم. «فتوح مصر» الذي ترجمه تشارلز س. توري إلى الإنجليزية. (مجلة الجمعية الأمريكية للدراسات الشرقية جـ 20 ـ 1899، من 212 إلى 214). ويعلق توري على كتاب «فتوح مصر» بقوله إن هذا الكتاب لا يختص بالفتح الإسلامي لمصر وأفريقيا فحسب، بل يشمل إسبانيا كذلك. مما يشير إلى رواج الحكاية بين العرب والإسبان بصفة خاصة بدءا من القرن التاسع وهو ينتهي إلى أن حكاية «الملك وصانع الفخار» كانت منتشرة في إسبانيا، ومنها انتقلت إلى أوروبا. ويتعامل أندرسون في تحليله مع ستمائة رواية منها مائة وإحدى وخمسون رواية مكتوبة لهذه الحكاية. وهو يتفق مع توري في أن الأصل الأول للحكاية يأتي من الشرق الأدنى، ومن المحتمل من مصر. وهو يتتبع تاريخها في مراحل ثلاث (انظر سيث طومسون ـ الحكاية الشعبية، نيويورك ـ درايدن 1946 ص 162 إلى 430).

V The Disciplina Clericalis

1. Bedier, Joseph, Les Fabliaux, Paris, 1925, 1893, p. 84.

2. Milas, J. M., cited in Gonzales Palencia, Angel (Ed.) Disciplina Clericalis, Madrid, 1948, pp. ix-x.

3. Chauvin, Victor, Bibliographie des Ouvrages Arabes ... 1810-1885.

Vol. IX, Liège, 1905, p. 44.

4. Gonzales Palencia, op. cit., p. xxxiii

5. Schwarzbaum, Haim, 'International Folklore Motifs in Petrus Alfunsus Disciplina Clericalisص, Sefarad (XXI), 1961, pp. 270 ff.

6. Jones. F. N., Boccaccio and his Imitators. Chicago, 1910, p. 10.
7. Jones, J. R. and J. E. Keller, The Scholar's Guide, Toronto, Pontifical Institute of Mediaeval Studies, 1969, pp. 78-8-.
8. Ibid., p. 100.
9. 'Two Versions of a Hard-Luck Story , North Carolina Folklore, Vol. 2, 1954, pp. 16-17.
10. Scott, op. cit., pp. 341-44.
11. Metlitski, op. cit., p. 105.
12. Jones and Keller, op. cit., pp. 57-58.
13. Artin Pacha, S.E.Y., Contes populaires inédits de la vallée du Nil traduits de l'Arabe parlé, Paris, 1895, pp. 195-200.
14. Baring-Gould, op. cit., pp. 140-44.
15. Jones and Keller, op. cit., pp. 64-66.
16. Boccaccio, Giovanni, The Decamerone, trans. by John Payne, New York, 1931, pp. 333-35.
17. Jones and Keller, op. cit., pp. 61-63.
18. Brewer, Derek (Ed.), Medieval Comic Tales, Cambridge, 1972, pp. 44-48.
19. This Exemplum number (XXXV) follows Schwarzbaum, op. cit.
20. Gonzales Palencia, op. cit., pp. 230-32. Trans. by George Cardona.
21. Jones and Keller, op. cit., pp. 60-61.
22. Ibid., pp. 89-90.
23. Chauvin, op. cit., Vol. 3, p. 78.
24. Gonzales Palencia, op. cit., p. 25.
25. Harris, J. C., Uncle Remus, New York, 1924 C 1880, no. XVI, pp. 75-9.

انهض وأغلق الباب:

(1) فرانسيس تشايلد: البالاد الإنجليزي والاسكتلندي الشعبي: نيويورك 1965. جـ5 رقم 275. هذا النص مأخوذ من متحف جونسون الجزء الرابع سنة 1792 وأضاف إليه روبرت بيزنر. (2) بيليو، وليم Miscellanies الجزء الثالث (Oriental Apolog, London, 1995 45-56)، وفي مقدمة هذا الجزء يقول بيليو إن هذه الحكاية أخذها عن صديقه د. راسل الذي أحضر مجلدا صغيرا من حلب قرأ فيه. «إنه ترجمها في النهاية وأنا دونتها. ويعتقد بيلور أن هذه الحكاية لم تظهر من قبل في أي لغة أوروبية.

ملاحظة:

يلخص بول برويستر تاريخ قصة «رهان الصمت» على النحو التالي: إن جميع نصوص البلاد تتشابه. فهي تحتوي على العناصر التالية: جلسة المساء. الجزاء هو غلق الباب. الوصول إلى اتفاق. إهانة الزوجة وتهديد الزوج. أول من يتكلم هو الرجل. ومن ناحية أخرى فإن الروايات النثرية تختلف فيما بينها. وقد عثر على أقدمها في الكتاب الصيني Pai-yu-ching (كتاب الاعتذارات المائة) القرن الخامس بعد الميلاد. وفيها يثور النزاع حول الكعكة الثالثة. ويأتي اللصوص ويستولون على ممتلكات الزوج ويهمون بأخذ الزوجة، وعندئذ تصيح الزوجة تتهم زوجها بالغباء، وبذلك يحصل الزوج على الكعكة. (والمرأة هي التي تبدأ بالكلام في عدد من الحكايات النثرية الملخصة

في الكتاب ويتراوح عددها بين ست عشرة وثماني عشرة حكاية) ويعلق بروستر كذلك بأن الحكاية لا تروى في شكل البالاد إلاّ في الجزر البريطانية، أما فيما عدا هذا فهي تروى في شكل حكاية شعبية. (بول برويستر: رهان الصمت في البلاد والحكاية الشعبية 1971. السلسة الجديدة 21 من 363 ـ 376).

VI The Arabian Nights

1. Lane, E. W. (Trasns.), The Thousand and One Nights, Vol. 1, London, Charles Knight, 1889, pp. 396-404.

2. La Fontaine, Jean de, Fables, Vol. 7, fable 7.

3. Baker, Franklin T. and H. H. Thorndike, Everyday Classics, New York, 1920, pp. 35-36.

4. Lane, op. cit., Vol. 2, pp. 514-15.

5. Dorson, R. in Journal of American Folklore, Vol. 66, 1953, p. 464.

6. Payne, John (Trans.), The Book of the Thousand Nights and One Night, Vol. 3, London, 1882-84, p. 45.

7. London, Jack, When God Lughs, New York, 1911, pp. 93-128.

8. Woolf, Henry B., Modern Language Notes, Vol. 66, 1951, pp. 267-69.

9. Clouston, W. H., Popular Tales and Fictions, Vol. 2, New York, 1887, pp. 379 ff.

10. Lané, op. cit., Vol. 3, pp. 181-82.

11. Payne, op. cit., Vol. 5, pp. 8-9.

12. Frank C. Brown Collection of North Carolina Folklore, Vol. 1, Durham N. C., Duke University, 1952, pp. 702-703.

13. Payne, op. cit., Vol. 4, Night 390.

14. Ibid., pp. 230-32.

15. Mardrus, J. C., The Arabian Nights, The Book of the Thousand Nights and One Night, trans. by Powys Mathers, London, Routledge & Kegan Paul, pp. 136-47.

16. Randolph, Vance, Pissing in the Snow, University of Illinois, 1966, pp. 23-24.

17. Burton, Richard, Supplemental Nights, Vol. 9, pp. 341-48.

18. Payne, op. cit., Vol. 5, pp. 314-15.

19. Bedier, op. cit., p. 183, in a note referring to Liebrecht, Orient und Occident, Vol. 3, p. 378.

20. Payne, op. cit., Vol. 4, pp. 265-66.

21. Ibid., Vol 5, pp. 263-65.

22. From Crane, Thomas F., Italian Popular Tales, Boston, 1885, pp. 159-60, where the source is given as Bernoni, Giuseppe, Tradizioni Populair Veneziana, Venice, 1875-77, Part 1, p. 11.

23. Payne, op. cit., Vol. 5, pp. 270-72.

24. Basset, op. cit., Vol. 2, p. 143, trans. by E.L.R.

25. Burton, op. cit., Vol. 1, pp. 222-25.

26. Clouston, op. cit., p. 54.

27. Payne, op. cit., Vol. 5, pp. 306-13.

28. Burton, op. cit., Vol. 5, pp. 253 ff.

29. Pearson, C. H., cited in Furnival, Frederick T., The Wright's Chaste Wife, London, E.E.T.S., 1865, (no. 12) front page.

30. Randolph, op. cit., p. 20.

31. Child, op. cit., Vol. 1, pp. 257 ff.

32. Ibid., Vol. 5, p. 100 ff., no. 276.

بيث جيليرت
أو قبر كلب الصيد

(1) هذه الحكاية تشيع في قرية تقع عند سفح جبل سنودون في ويلز، حيث كان للويلين العظيم بيت. وكان الكلب الذي يدعى جيليرت، قد أهدي إليه من حمية الملك جون في عام 1205. وما زال هذا المكان يسمى حتى اليوم بيث ـ جيليرت أو قبر جيليرت.

(2) أخذنا النص عن: وليم سبنسر: قصائد بقلم المرحوم وليم سبنسر، لندن 1835 من 150 ـ 155 وقد أسقطت ستة مقاطع شعرية لم يكن لها ضرورة في حركة القصة.

(3) البانتشاتنترا: ترجمة فرانكلين إيدفيرتون، نيويورك ولندن 1965 (149 ـ 150).

ملاحظة:

لا تعيش حكاية الأب والابن والكلب المقتول في تسرع، في ويلز وحدها، بل تعيش في كل بلد في أوروبا على وجه التقريب. وهي تنتشر كذلك في الشرق مع تغيير الكلب إلى النمس بسبب ظهورها في البانتشاتنترا التي أخذت عنها النصوص الشرقية. وفي إشارات لنا من قبل، ذكرنا أن البانتشاتنترا ترجمت إلى العربية (بطريق غير مباشر عن الفهلوية) ومنها انتقلت هذه النادرة إلى «كتاب السندباد» الذي نقل كاملا، كما رأينا، إلى الأدب الغربي تحت عنوان «حكماء روما السبعة». ويلخص إيدجرتون تاريخ حكايتنا على النحو التالي: ولأن العرب لا يعرفون النمس فقد تحول إلى ابن عرس ثم إلى كلب. أما الحية فبقيت كما هي. ولأن الكلاب كانت مرتبطة بالفرسان، أصبح البرهماني الأصلي أو رجل الدين نبيلا. وقد أبقى نص ويلز «الحكماء السبعة» في كتاب «كتاب هيرجست الأحمر» الذي يرجع إلى القرن الرابع عشر، على الحية، ولكن الحكاية أصبحت بمفردها شائعة في فولكلور ويلز ومميزة عن الأدب، وفي هذا الفولكلور غيرت الحية في العصور الوسطى بجرأة إلى الذئب بوصفه حيوانا يحمل له الكلب عداء فطريا ويهاجمه. وقد جاء الربط بين الأمير لويلين التاريخي وكلبه المميز وما روي في التراث عن مقتل الكلب الوفي، جاء متأخرا (1793 ـ 1794)، عندما خلط صاحب حانة من ويلز الحكايتين معا. ومن المعروف أن و.ر. سبنسر الذي أشهرت قصيدته حكاية لويلين، زار الحانة قبل أن ينشر قصيدته في عام 1800 (ادجرثون. نفس المراجع 18 ـ 19).

ومهما تكن استقلالية النصين أحدهما عن الآخر فإن كلا منهما نص للويلين ونص البانتشاتنترا وارد حدوثه، فالتسرع الذي يؤدي إلى الخطأ قد يحدث كثيرا. وهناك وثيقة حقيقية عن نمس مقتول عثر عليه في حادث في الهند وترجع إلى 1920 Emenau, M. B., A Classical Indian Folk-rale as reported Modern Event, Proceedings of the American Philosophical Society, Vol 83 (1940) pp.

(13-503).

وأكثر من هذا فإن أقدم نص مشابه لحكايتنا ليس ذلك المدون في البانتشاتنترا السنسكريتية، بل في كتاب باوزانياس الإغريقي. (وهو أقدم من الكتاب الأول بقرنين أو ثلاثة قرون) ويحكي لنا باوزانياس في كتابه عن «فوكيس» عن أب تشكك في مؤامرة ضد ابنه، فخبأه في وعاء. وحاول ذئب الوصول إليه ولكن حية كانت تلتف حول الوعاء، أفزعته. ولما رأى الأب الحية رمى سلاحه نحوها وقتل كلا من الحية والابن. ثم أخبره الرعاة بعد ذلك أن الحية كانت حامية للطفل. وعندئذ أقام الأب جنازة للطفل والحية ودفنهما معا، ثم سميت مدينة أوفيتيا باسم الحية. ويلفت كيتردج النظر في دراسته عن «آرثر وجورلاجون» المنشورة في «دراسات في الفيلو لوجيا والأدب 83 (1903 ص 222 ـ 269)» إلى رأى باوزانياس وهارتلاند أن هناك رواية واحدة على الأقل للحكاية كانت معروفة في أوروبا مستقلة عن التيار الأدبي الذي تتبع الباحثون فيه تلك الأمثولة. وبناء عليه، فإن رواية لويلين يمكن أن تكون قد نمت من التراث الشفاهي الذي يرتكز إما على حادثة حقيقية عن الطفل والكلب والذئب، أو على حكاية شعبية نشأت بعد باوزانياس على وجه الاحتمال، ولم تنشأ عن المصادر الأدبية التي يقتفي أثرها إلى كليلة ودمنة والبانتشاتنترا.

VII The Arabian Astrologer

1. Cited in Gerhardt, Mia, The Art of Story- Telling, Leyden, Netherlands, 1963, p. 203.

2. Campbell, Joseph (Ed.), The Portable Arabian Nights, New York, Viking Press, 1952, pp. 322-54.

الحواشي

حواشي الفصل الأول

(*) يقصد المسيحيين الأوائل.

(*2) العهد القديم ـ سفر التكوين/ 39 ـ 19, 20 (المترجمة).

(1) نسبة إلى حيوان خرافي، نصفه على صورة رجل، ونصفه الآخر على صورة ثور (المترجمة).

(*3) التفسير الميدراشي هو تفسير قديم للتوراة تستخدم فيه الأساطير والرمز والتشبيه.

(*4) والهاجاداه: الجزء الأسطوري من التلمود. (المترجمة).

(*5) الأبوكريفا: أربعة عشر سفرا تلحق أحيانا بالعهد القديم ولكن البروتستانت لا يعترفون بصحتها. (المترجمة).

(*6) الثعلبي: كتاب قصص الأنبياء المسمى بالعرائس، تأليف الإمام أبي إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ـ المطبعة الميمنية، 1306هـ، قصة يوسف.

(*7) الكسائي، محمد بن عبدالله . تصحيح إسحق بن شاؤول ـ ايزنبرج ـ ليدن، 1922، قصة يوسف.

حواشي الفصل الثاني

(*) فرقة الفريسيين من أهم فرق اليهود وأكثرهم عددا، وهي تعترف بجميع أسفار العهد القديم والأحاديث الشفوية، وأسفار التلمود. بل إن فقهاءهم (الربانيين) هم الذين ألفوا التلمود، وكانوا من ألد أعداء المسيح، وهو الذي كشف عن كفرهم ونفاقهم وتحريفهم التوراة.

(علي عبدا الواحد وافي ـ اليهود واليهودية في ديانة اليهود وتاريخهم ونظامهم الاجتماعي والاقتصادي ـ مكتبة غريب 1970، ص84 (المترجمة).

(*2) هو اسم ملك بلاد الفرس حيث كانت تستقر طائفة من اليهود. وبالنسبة للمأدبة التي أقامها، ينظر: العهد القديم سفر أستير (المترجمة).

(*3) ليليت: روح شريرة في الميثولوجيا السامية تقيم في المواطن المهجورة وتهاجم الأطفال.

انظر: حاييم الزعفراني: ألف سنة من حياة اليهود في المغرب ـ ترجمة أحمد سحلان وعبد الغني أبو العزم. ط. أولى. الدار البيضاء 1987 (المترجمة).

(*4) الترجوم، كما رأينا سابقا هو الترجمة الآرامية للتوراة. أما المدراش فهو تفاسير وشروح ومواعظ لكبار الحاخامات تبتعد عن المعنى الحرفي وتستخدم التلاعب بالألفاظ والإضافات الأسطورية بهدف التأثير في القارئ.

(قاموس عبري ـ عربي للغة العبرية المعاصرة. دار شوكن للنشر ، أورشليم 1990)، (المترجمة).

(*5) يحيل المؤلف إلى ترجمة Ursula Lvons لقصص الأنبياء لكل من الكسائي والثعلبي. ونحن نأتي بالنصوص من مصادرها، أي من الكسائي والثعلبي مباشرة. (المترجمة).

(*6) ملكة من ملكات البرجوني في فرنسا. وهي شخصية لها جذور تاريخية في القرون الوسطى المبكرة، واشتهرت في التراث الشعبي الأسطوري بأن لها ساقي إوزة. وقد ذاعت شهرتها في المقاطعة بوصفها راعية لفنون المائدة وملذاتها. ولذا أطلق اسمها على الكثير من المطاعم والخانات وأنواع النبيذ (المترجمة).

حواشي الفصل الثالث

(*) مجدي وهبه: حكايات كنتربري (ترجمة) حكاية الإسكندر الهيئة العامة للكتاب (القاهرة) 1983 (المترجمة).

(*2) الرومانس قصة شعرية أو نثرية من قصص العصور الوسطى قوامها الحب الشريف أو المغامرات الفروسية أو الأسطورية (المترجمة).

(*3) إله حرب عند الإغريق (المترجمة).

(*4) أرمزاد هو آهورا مزدا إله الخير في الديانة الزرادشتية. وبعد أن غزا الإسكندر بلاد الفرس وانتصر على داريوس، وضع بذلك نهاية لحكم الأكمينيين الذين كان آخرهم داريوس الثالث، ولأن ملوك الأكمينيين كانوا يعدون أنفسهم أبناء الآلهة، فقد عدوا الإسكندر نفسه ابنا لاهورا مزدا إله الخير، وبهذا يكون الإسكندر ابنا للإله آهورا مزدا من ناحية، والإله آمون، من ناحية أخرى (المترجمة).

(*5) تريسيتس: شخصية تظهر في الإلياذة بوصفها مواطنا عاديا لا يسمح له حتى بالكلام ولاسيما في حضرة الملوك والأمراء، ومن ثم أصبح رمزا للشخصية التي يمارس عليها القهر (المترجمة).

(*6) نسبة إلى برزخ كورنث في اليونان أو إلى الألعاب التي كانت تقام فيه، وهي شبيهة بالألعاب الأوليمبية (المترجمة).

(*7) الغرفين: حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه أسد (المترجمة).

(*8) أشير إلى التشابه بين حكاية Iter ad Paradisum وحكاية الأرض الخراب في أسطورة الكأس المقدسة، بما في ذلك عنصر الرجل العجوز والقلعة المنعزلة التي كثيرا ما أحيطت بها المياه، والحجر العجيب هو بعينه حجر الفلاسفة في السيمياء، ويشير جوزيف تشابل إلى أن هذا الحجر بعينه يسمى أمنية الجنة، ويقوم مقام الكأس المقدسة في أسطورة بارسيفال لولفرام فون إيشاخ (المؤلف).

(*9) أسفار المكابيّين هي الأسفار التي لا وجود لها في التوراة وعدد أسفار المكابيّين أربعة. ويرجع هذا الاسم إلى أسرة مشهورة في التاريخ العبري (قاموس إبراهام بن شوشان، النسخة المختصرة، تل أبيب، 1969، مادة مكابيّين (المترجمة).

(*10) شعارات النبالة المحفورة على الدروع، على سبيل المثال (المترجمة).

(*11) Jerom's Vulgate Translator، أي الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس المعتمدة من الكنيسة الكاثوليكية (المترجمة).

(*12) Setuagint أي ترجمة التوراة السبعونية، وهي ترجمة يونانية للعهد القديم قام بها 72 عالما يهوديا في 72 يوما (المترجمة).

(*13) انظر فصل: الإسكندر الأكبر في الحكايات الشعبية في كتاب «أشكال التعبير في الأدب

الشعبي» للمترجمة، مكتبة غريب، الطبعة الرابعة 1992.

حواشي الفصل الرابع

(*) يطلق مصطلح مادة Matter على كتلة التراث الشعبي المروي الذي يمتلكه شعب من الشعوب. ومن ثم يقال على سبيل المثال Matter of Rome, Matter of Arab (المترجمة).

(*2) أغنية التمّ أو الإوز (Swan Song) هي الأغنية التي زعموا أن التم أو الإوز يغنيها عند موته. ويشار بهذا إلى آخر قول ينشده الشاعر قبل موته (المترجمة).

(*3) سوف نقدم النصوص التي يأتي بها المؤلف مترجمة عن كلاوستون من مصدرها الأصلي وهو السيرة. (المترجمة).

(*4) سيرة عنترة ، مجلد 1، ص 85.

(*5) السيرة: مجلد1 ص 89.

(*6) السيرة مجلد1 ص 89.

(*7) لسيرة: مجلد 1 ص90.

(*8) السيـرة: م1 ص95.

(*9) السيـرة: م1 ص100.

(*10) السيرة: المجلد الأول ص95, 96.

(*11) السيـرة: م1 ص130.

(*12) السيـرة: م1 ص 136.

(*13) السيـرة: م1 ص 155.

(*14) السيـرة م1 ص155 ـ 156.

(*15) السيـرة: م1 ص158.

(*16) السيـرة: م1 ص159.

(*17) السيـرة: م1 ص159.

(*18) السيـرة م1 ـ من 168 ـ 170.

(*19) السيـرة: م1 ص 176.

(*20) السيـرة م1 ص177.

(*21) السيـرة: م1 ص 173.

(*22) السيـرة م1 ص196, 197.

(*23) السيـرة م1 ص231.

(*24) المرجع السابق.

(*25) المرجع السابق نفسه.

(*26) مجلد1 ص 241.

(*27) مجلد1: ص252.

(*28) مجلد1 ص 253.

(*29) السيـرة م1 ص 257.

(*30) السيـرة م1 ص 270.

(*31) السيرة م1 ص 270.
(*32) المرميدون: أفراد شعب تساليا الذين رافقوا ملكهم أخيل في حرب طروادة والكلمة تطلق على الأتباع الأوفياء (المترجمة).
(*33) السيرة مجلد 1 ص 282.
(*34) السيرة: مجلد1 ص 284.
(*35) السيرة مجلد 1 ص284.
(*36) السيرة: مجلد 1 ص 290 ـ 291.
(*37) السيرة: مجلد 1 ص 290 ـ 291.
(*38) السيرة: مجلد 1 ص 294.
(*39) السيرة: مجلد 1 ص 300.
(*40) السيرة: مجلد 1 ص 303.
(*41) السيرة: مجلد 1 ص328.
(*42) السيرة: مجلد 2 ص 229.
(*43) السيرة: مجلد 1 ص 333 ـ 336.
(*44) السيرة: مجلد 1 ص 337.
(*45) السيرة: م1 ص 338.
(*46) السيرة: م1 ص 348.
(*47) السيرة: م1 ص352.
(*48) السيرة: م1 ص360.
(*49) السيرة: م1 ص376.
(*50) السيرة:جـ 1 ص 382.
(*51) السيرة:م 1 ص 393 ـ 394.
(*52) السيرة م1 ص 399.
(*53) السيرة م2، ص 48 ـ 51.
(*54) السيرة م 2 ص 220.
(*55) نفسه.
(*56) السيرة م2 ص 221.
(*57) السيرة م2 ص 222.
(*58) السيرة م2 ص 221.
(*59) السيرة م2 ص 231.
(*60) السيرة م2 ص 270 إلى 272.
(*61) السيرة م2 ص 338.
(*62) السيرة م2 ص 339, 340.
(*63) السيرة م2 ص 344.
(*64) السيرة م3 ص79.
(*65) السيرة م3 ص95.
(*66) السيرة م3 ص 104.

(*67) السيـرة م3 ص 104.
(*68) السيـرة م3 ص 108.
(*69) السيـرة م3 ص 112.
(*70) السيـرة م3 ص 115، 116.
(*71) السيـرة م3 ص231.
(*72) السيـرة م3 ص 337.
(*73) السيـرة: م3، ص 249 ـ 251.
(*74) السيـرة م8 ص 172.
(*75) نفسه.
(*76) السيـرة م8 ص 176.
(*77) السيـرة م8 ص181.
(*78) السيرة مجلد (1) ص 106.
(*79) السيـرة م1 ص 271.
(*08) الكأس المقدسة التي شرب منها المسيح في العشاء الأخير grail والتي راح المسيحيون فيما بعد يجدون في البحث عنها (المترجمة).
(*81) هي خرجات الموشح التي تختلط فيها اللغة العربية باللاتينية الدارجة (المترجمة).

حواشي الفصل الخامس

(*) كان لسقوط طليطلة عام 1085 في أيدي ألفونصو السادس ملك قشتالة، ثم قيام ألفونصو الأول الملقب بالمحارب ملك أراجون باحتلال سرقسطة عام 1118، أثر في نشأة ظاهرة جديدة تتمثل في بقاء أعداد كبيرة من المسلمين في هذه الأراضي، وكان لهم إسهام كبير في نشأة حركة ثقافية واسعة. من جانب آخر كانت جميع المدن الأندلسية خاضعة لحكم المرابطين وبها عدد كبير من المسيحيين واليهود. واضطر هؤلاء النصارى واليهود إلى الهروب إلى طليطلة ومعهم ثقافة عربية واسعة. وهذا المزيج أدى إلى انتشار الترجمة في طليطلة وظهور شخصية بيتروس ألفونصص صاحب هذا الكتاب. (انظر، أثر الإسلام والعرب في النهضة الأوروبية. مجموعة مؤلفين، الهيئة العامة للكتاب 1987) (المترجمة).
وقد استعرنا التسمية العربية للكتاب من بحث للأستاذ الدكتور محمود مكي عن الكتاب وصاحبه نشره في كتاب «أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية» (مركز تبادل القيم الثقافية ومنظمة الأمم المتحدة للثقافة والتربية والعلوم) الطبعة الثانية 1987 (المترجمة).
(*2) الكوزموجرافيا هي العلم الذي يبحث في مظهر الكون وتركيبه العام، ويشتمل على علوم الفلك والجغرافيا والجيولوجيا (المترجمة).
(*3) يعني فن الزهد (المترجمة).

حواشي الفصل السادس

(*) كان خريج مدرسة الألسن التي أنشأها الوزير كولبير، وعمل سكرتيرا للسفير الفرنسي في

الآستانة، وأنيط به جمع المخطوطات والمسكوكات لمكتبة الملك ومكتبات النبلاء (المراجعة).

(*2) ألف ليلة وليلة، ط. بولاق جـ1 ص116 (المترجمة).

(*3) اسم مدينة في وسط إنجلترا كانت تقدم فيها مسرحيات عن حياة المسيح وقصص من التوراة في الشوارع على شكل حلقات، يقوم بالتمثيل فيها أصحاب الحرف من تمويل كبار أعضاء نقابات التجار ورجال الصناعات (المراجعة).

(*4) ألف ليلة وليلة، ط. بولاق جـ3 ص176 وما بعدها (المترجمة).

(*5) ألف ليلة وليلة، طـ. بولاق، جـ2 ص 285 وما بعدها.

(*6) استخدم بيرتون كذلك مخطوطة ورتلي مونتاجو من المكتبة البودلية في أكسفورد (كتبت المخطوطة في مصر في القرن 18) ، لم يقتصر الملحق إذن على طبعة برسلاو، مما أوصل الليالي الإضافية إلى ستة أجزاء (المراجعة).

(*7) ألف ليلة وليلة، طـ. بولاق جـ3 ص 162.

(*8) ألف ليلة وليلة، طـ. بولاق جـ 3 ص140 وما بعدها.

(*9) يرد هذا في ألف ليلة وليلة جـ 3.

(*10) ألف ليلة وليلة، طـ. بولاق جـ 3 ص134.

(*11) ألف ليلة وليلة، طـ. بولاق جـ 3 ص143 وما بعدها.

(*12) ألف ليلة وليلة. طـ بولاق جـ 3 ص158 ـ 162.

المؤلف في سطور:

أ . ل . رانيلا

* أستاذ الفولكلور بجامعة جوجنهايم .
* حاصل على شهادات علمية عديدة في اللغتين اليونانية و الانجليزية.
* عمل لفترة محاضرا بجامعة روما .
* يعمل حاليا أستاذ للغة الإنجليزية وللفولوكلور بجامعة ماريلاند - القسم الأوروبي .

المترجم في سطور

أ. د. نبيلة إبراهيم

* أستاذة الأدب و النقد الحديث و الأدب الشعبي بكلية الآداب - جامعة القاهرة .
* حصلت على الدكتوراه في الأدب الشعبي المقارن من ألمانيا عام 1962.
* لها عدة مؤلفات في الأدب الشعبي - مدارسه ومناهجه وأجناسه ، وفي النقد الحديث منها :

أشكال التعبير في الأدب الشعبي ، يسرة الأميرة ذات الهمة (دراسة مقارنة) ، الدراسات الشعبية بن النظرية والتطبيق ، ثم كتاب فن القص ، ونقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة .

و لها كتب مترجمة أهمها



قصف العقول

الدعاية للحرب منذ العالم القديم حتى العصر النووي

تأليف: فيليب تايلور

ترجمة: سامي خشبة

المراجعة في سطور

د. فاطمة موسى

* أستاذة متفرغة بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

* حصلت على جائزة الدولة التقديرية عام 1997.

* مقررة لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

* عضو الإتحاد الدولي للأدب المقارن ، و الاتحاد الدولي لاساتذة اللغة الانجليزية.

* رئيسة قسم اللغة الانجليزية بجامعة القاهرة سابقا .

* ألفت وترجمت العديد من الكتب ، منها :

في الترجمة : اماك لير ـ هنري الرابع (شكسبير) - «ميرامار» لنجيب محفوظ (إلى الانجليزية) - في الرواية العربية المعاصرة ، سيرة الأدب الانجليزي للقاريء العربي (تأليف) .

- كتبت العديد من الدراسات في الأدب العربي و الأدب الانجليزي باللغتين العربية و الانجليزية .

- تصدر لها الآن الاعمال الكاملة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب (جزآن) .

هذا الكتاب

ربما لا يعد هذا الكتاب أول بحث يشير إلى موضوع انتقال آداب عربية بعينها إلى العالم الغربي ، ولكنه يعد ، بما يحتويه من موضوعات متنوعة ، فريدا في نوعه في هذا المجال . ويرجع هذا التفرد إلى اقتناع المؤلف بأن ترثا أدبيا عربيا ضخما دخل العالم الغربي في العصور الوسطى و ما زال أثره باقيا حتى اليوم .كما أشار المؤلف في فصل كامل إلى كتاب «ديسيبلينا كلير يكالي» الذي كان له بالغ الأثر في نقل التراث العربي ،وربما فاق كتاب «ألف ليلة وليلة» في شهرته في العالم الغربي . ويحتوي هذا الكتاب على أروع القصص العربي الذي إفرزه الحس الشعبي العربي.

مترجع طرافة المادة الضخمة التي أتى بها الكتاب ، وأهميتها في الوقت نفسه ،إلى تنوعها الهائل الذي يغطي مجالات متعددة ، منها الديني و البطولي و التاريخي ،و الاجتماعي. ولما كانت الحضارة العربية قدانصهرت فيها الحضارات السابقة عليها بعد أن دخلت شعوبها في الإسلام ، فإن المادة التي قدمها الكتاب تمثل جماع التراث الغني ببعديه التاريخي و الحضاري . ولم يرتكز المؤلف في مادته على مؤلفات فردية ، أو أدب فردي ، بل ارتكز على التراث الشعبي العربي القومي الذي يأخذ في رحلة معرفية بعيدة المدى نكتشف من خلالها إلى أي حد ترك هذا التراث أثره في الأدب الغربي بصفة خاصة و الفنون الغربية بصفة عامة .